

أسامة دياب

هذا العدد

جديد "الجديد" في هذا العدد رحلة عبر يوميات نساء ورجال، قرّر شخص ما، مثلهم، إنسانٌ لا يميزه عنهم سوى سلطته على سلبهم حريتهم، واقتطاع سنوات من شباب كل منهم، خلف القضبان، وفي فضاء الظلام الأسود. كثيراً ما جلبت الوثائق التي كتبها سجناء سابقون، الكآبة والغم على قارئها، بعض القرّاء مولع بتلك النكهة المريرة. لكن القارئ الجديد، لا يبحث عن ذلك الاستمتاع المازوشي بالألم والتعرّض إليه، بل يبحث في معرفة التفاصيل، وكيف أثّر هذا كلّه ليس فقط على وعي أولئك الضحايا، بل على الناس من حولهم، وبالتالي على مناخهم العام، والمستقبل الذي صنعوه، عبر تراثهم الفني والأدبي والفكري، حتى لم يعد يُعرف من هو السجين بالفعل، الواقف على هذا الجانب من القفص، أم الواقف على الجانب الآخر منه، وللقارئ أن يختار لذاته ما يجد نفسه تميل إليه.

في هذا العدد، نتتبع اليوميات، الصغير منها والدقيق، والإنساني البسيط. يوميات من العراق وفلسطين وأخرى من السعودية وسوريا، يوميات شاعرية تجلبها رياح السودان، وصولاً إلى يوميات الحروب والكوارث التي تصيب الأمة، ومن حولها الأمم، إذا تقع في مصيدة التاريخ، وتحين ساعة الاستحقاقات جميعها، استحقاق التنمية، والتنوير، والعدالة، والديمقراطية، والرؤية الإستراتيجية، من دون أن يكون قد حسب لها أحدٌ من الممسكين بزمام الأمور حساباً من قبل، فإذا هي ماثلة أمامهم اليوم، على طاولة الجد لا الهزل.

تقف المجلة مع الشاعرة والناقدة الفلسطينية الكبيرة سلمى الخضراء الجيوسي، وتجادلها في منجزها، وكيف ترى العالم اليوم، وهي التي تقرع جرس الخطر متسائلة، عن سر تلاشي النخب العربية، وانفراط عقد العرب، إن صحّ القول، وهي التي لطالما اهتمت بصورة العرب ومكانة الثقافة العربية عند الآخر في أصقاع الأرض.

وتذهب الجديد مع الفكر الغربي، حتى تخوم أسئلته الجديدة، وقضاياه التي تؤرّق مفكريه، عبر الحوار الذي تجريه المجلة مع المفكر الأميركي بروس لورانس الذي يقرأ في الأصولية والحداثة وما بعد الحداثة، وكذا المفكر العربي صادق جلال العظم، وهو يستعرض المشهد الدامي للحظة العربية اليوم من خلال الوقائع الشاميّة.

وفي عالم صناعة الصورة، توسع المجلة اهتمامها بالصنوف الكتابية، ليشمل النص المكتوب للسينما، من خلال سيناريو المخرج السينمائي القدير نبيل المالح "الشلال".

ما تزال الجديد في لحظتها هذه، تصرّ على مواكبة الحدث العربي، فكرياً وثقافياً وإنسانياً، لتتقدم على البرهة، وتتنبأ بها، بدلاً من أن تفاجأ بالتحولات ■

المحرر

الجديد

aljadeedmagazine.com

مـؤسسها وناشرها
Publisher
هيثم الزبيدي
Haitham El-Zobaidi

رئيس التحرير
Editor
نوري الجراح
Nourِi Al-Jarrah

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
رشيد الخيون، ابراهيم الجبين
تحسين الخطيب، مفيد نجم

التصميم والتنفيذ
القسم الفني - مؤسسة "العرب" لندن

رسامو العدد:
صفوان داحول، بهرام هاجو
بشار العيسى، فرح علي
خالد كوادرو، أحمد قليج
حسين جمعان، أسامة دياب
عاصم الباشا، سليمان منصور
علي قاف، أمجد وردة، ناديا صفي
اسماعيل الرفاعي، فادية عفاش
ثائر معروف، أحمد شلبي
شادي أبوسعدة، ريما سلمون
عمرو وهيبة، سمان خوام
إبراهيم الصلحي، جمال الجراح

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre

المكتب الرئيسي (لندن)
Kensington Centre
Hammersmith Road 66
London W14 8UD, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

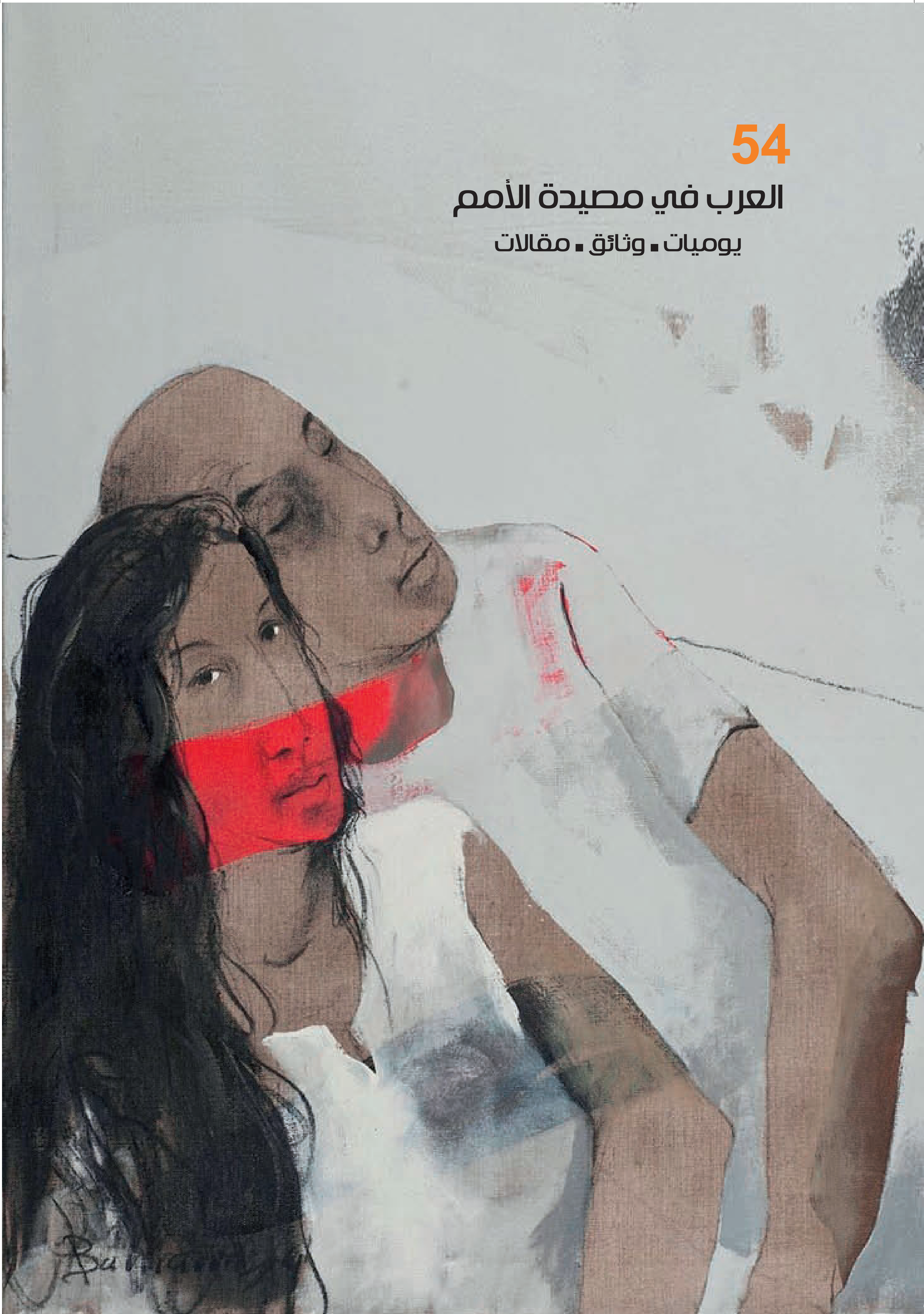
ISSN 2057- 6005

صفوان داحول

54

العرب في مصيدة الأمم

يوميات ■ وثائق ■ مقالات



فكر حر وإبداع جديد
ثقافية عربية جامعة

المحتويات

العدد 8 - سبتمبر/أيلول 2015

كلمة

مقالات

سجال

سينما



غلاف العدد الماضي أغسطس/ آب 2015

كُتاب في العدد



صادق جلال العظم
مفكر سوري معروف، العديد من المؤلفات الفكرية المثيرة للجدل، منها: «نقد الفكر الديني»، «الاستشراق والاستشراق معكوساً»، «ما بعد ذهنية التحريم»، «دفاعا عن المادية والتاريخ»، «في الحب والحب العذري». يرأس «رابطة الكتاب السوريين» المعارضة للنظام.



سلمى الخضراء الجيوسي
شاعرة وناقدة من فلسطين لها العديد من الآثار النقدية والترجمات وصاحبة مشروع كبير يقوم على نقل الأدب العربي إلى الإنكليزية عبر مؤلفات وانطولوجيات جامعة. مقيمة حاليا في الأردن.



ريتا عوض
ناقدة من لبنان لها العديد من المؤلفات النقدية منها: «بنية القصيدة الجاهلية»، «الصورة الشعرية لدى امرئ القيس» k«خليل حاوي: فلسفة الشعر والحضارة»، «أبو القاسم الشابي»، «بدر شاكر السياب».



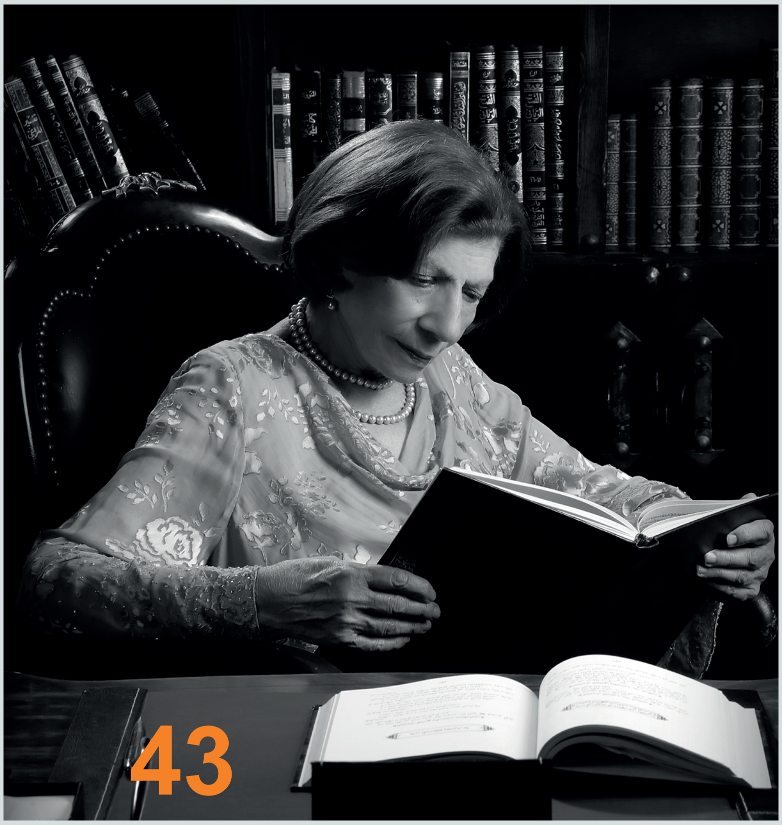
ابراهيم الجبين
شاعر وكاتب وإعلامي من سوريا مقيم في دورتموند -ألمانيا، له العديد من البرامج الحوارية التلفزيونية والمؤلفات الشعرية والروائية والفكرية، منها «البراري»، «يوميات يهودي من دمشق»، «الطريق إلى الجمهورية» و«لغة محمد» وغيرها.



خطار ابو دياب
أكاديمي وباحث في شؤون الشرق الأوسط، وأستاذ العلاقات الدولية في جامعة باريس، وعضو المركز الدولي للجيوبوليتيك - باريس.

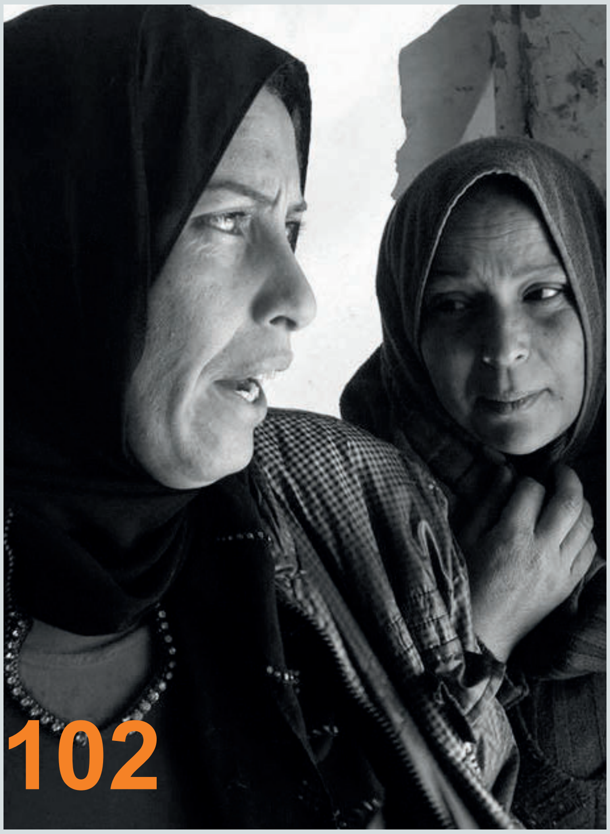
لوحة الغلاف للفنان بهرام هاجو

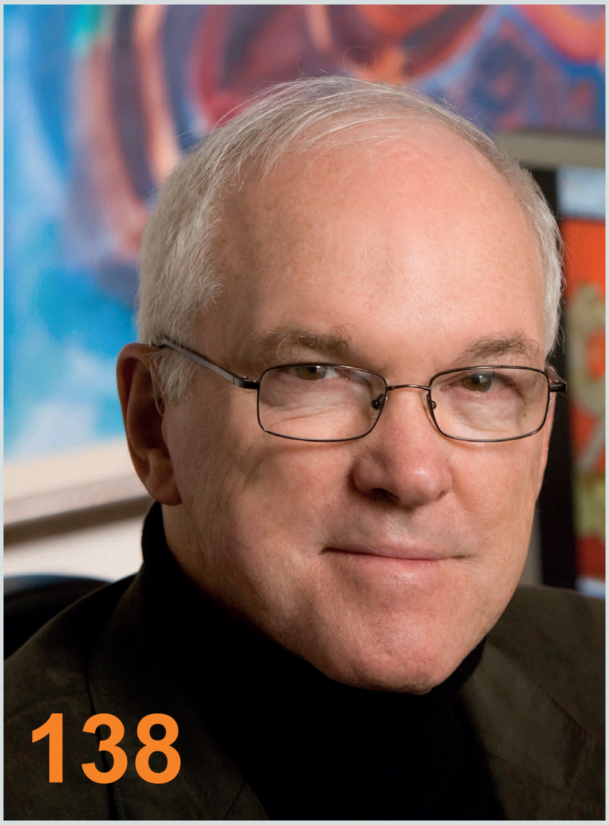
بهرام هاجو


43


88


132


102


138

كلمة

في وصف ما يحدث على أرض العرب

لم يعد قتلاً منسوباً إلى الفظاعات التي أنزلتها الأقدار في بشر، ولا ثأر التاريخ من أمّة، ولا هزء الزمن من قوم. لم يعد قتلا، لم يعد مجرد قتل أعمى يرتكبه بشرٌ ظلمةٌ نحو بشرٍ مظلومين، أو كثرةٌ متفاخرةٌ نحو قلة مهيضة الجناح، أو قلّةٌ مأفونةٌ نحو كثرة أسيرة؛ هذا الذي يحدث في أرض العرب.

هذا الذي حلّ في أرض الرافدين وزحف على الشام، فأتى على الطفل قبل أن يكون له ذنب، وعلى المرأة وهي تصنع الحياة، وعلى الشابة والشاب وهما يرسمان بالألوان، وعلى الرجل والشيخ والعجوز التي في سرير أيامها الأخيرة، وأخذ في طريقه الحيوان والحجر، وحتى الهواء، هذا الذي خيّم على العراق والشام، وألغى الحدود بين العقل والجنون، مختطفاً إلى جحيمه المهول جغرافيتين هما مهد في الحضارة وهما في أزمنتنا الحديثة أرض الفكرة العربية.

هذا الذي يحدث في المشرق العربي جعل العرب كلهم في مصيدة الأمم. إنه لأمر دُبِّر بليل.

***

بيد المستبد الصغير المأجور عند أمم أخرى اختطف الاستبدادُ الفكرة العربية وأفسدها. أما وقد تصدعت دولة الطغيان، وتشقق كرسي الطاغية وتهدّمت جدران قلعته عن حريق ودمار يحيطان بها كسوار، فهل نترك الفكرة التي طالما كانت عروتنا الوثقى، وحلماً وهّج خيال الأجيال المتطلعة إلى مكان تحت الشمس لأمّة لم تكن مهملة، ولكنها كانت صانعة حضارة. هل نستعيد الفكرة العربية ولا نتركها مخطوفة، أم نتنكر لها نحن أيضا، ونعمل فيها تحطيماً، ونكون شركاء لمن طالما كان ديدنهم تحطيمها وتفكيك عرى الثقافة العربية والاجتماع العربي، إما لثأر قومي قديم، لبس اليوم لبوس العمامة السوداء، ونادى أشباح التاريخ لتكون صاحبة الثأر من نسلنا الحاضر. أو تحصينا لمشروع لصوصي أقام هيكلا أسطورياً على أنقاض حياة واقعية، ثم رفع بينه وبين العالم جدارا يحميه من قوة الحقيقة.

ها نحن، إذن، شعوب يفترسها غزاةٌ وطغاة وأمة تنهبها أمم. ولا خلاص من دون اعتراف نسلنا بقوة الحقيقة.

***

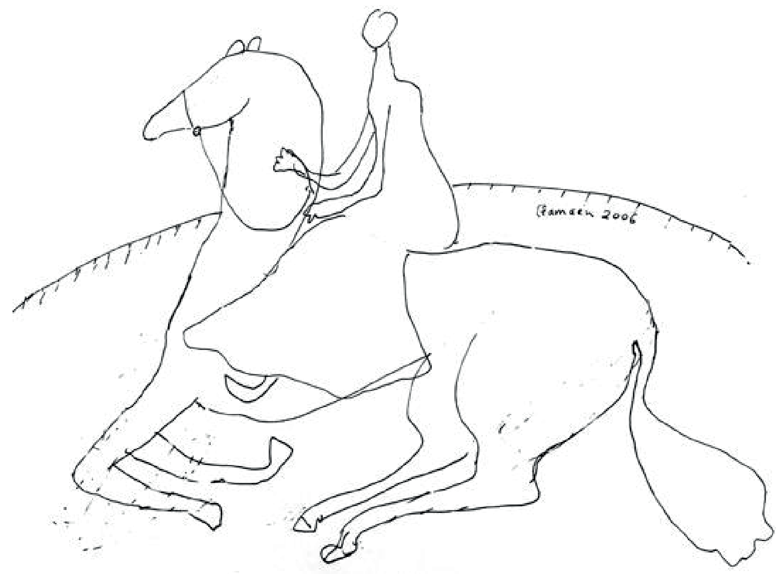
وما كان للغزاة أن يبلغوا عتبة البيت ويطأوا بساط الأهل، ويُعملوا السكاكين والبلطات في أعناق الفتية والأطفال، لولا أن الاستبداد أدخل حصانه الخشبي إلى ساحة المدينة وصرنا نتلهى على كراسي المقاهي في حلّ أحجية الحصان وأحجية الاستبداد، فمنّا من سماه المستبد العادل، ومنّا من امتدح بدعته الغريبة، ومنّا من نافق وهو عليم، ومنّا من حملته صرخته العزلاء إلى أقبية العذاب والموت.

***

أما وقد بات الأعداء بين ظهرانينا، وصاروا الحكام الآمرين، يديرون الحرب ضد الناس، ويُنْطِقون الدمية التي أدخلت الحصان إلى البيت، بوصفها صاحبة الأمر، إن في دمشق أو في صنعاء أو بيروت أو العراق، فإنّ زمنا "عربياً" مزيفاً يقدّم لنا نفسه، الآن، ويطالبنا بأن نحني رؤوسنا للغزاة ونرضخ لما حدث، أو فالمصير المشؤوم.

***

سألت جاري الإنكليزي، يعمل محررا في راديو الـBBC ما هي الحقيقة العالمية اليوم؟
عندما تغير طائرات بالصواريخ المدمرة على بيوت في ضاحية صغيرة كدوما في ريف دمشق، وتنشر الدمار والحرائق والموت بأمر من حاكم البلاد المقيم على بعد ٣ كيلومترات فقط من مكان الضربة، ما هو رد الفعل، ما هي حقيقة رد الفعل؟ لنتخيل أن هذه الطائرات تغير على ضاحية أكتن في غرب لندن! حدث لا يمكن تخيله هنا، ولكن يمكن رؤيته هناك على شاشات التلفزيون في كل يوم تقريبا، من دون أن



حسين جمعان

يضيف ذلك أيّ مشاعر إضافية على تلك التي تحركت فينا يوم أمس، أو أول أمس. ما هي الحقيقة الأخلاقية التي يؤمن بها العالم، إذن؟!

لا أعرف، أجاب جاري. ولا أنا، قلت.

***

ليس ثمة ما هو أبلغ من سطور يكتبها أشخاص بوصفهم أفراداً، ينقلون لنا بالكلمات تجاربهم الشخصية ويعبّرون من خلالها عمّا يجيش في نفوسهم المفردة، وربما العزلاء، وكان في وسعهم أن يكونوا أصوات جماعات، وناطقين باسم أفكار وأيديولوجيات، محتمين بها من حيث هم معبّرون عنها. ولكنهم آثروا أن يكون وجوها وأسماء وهويات مفردة.
يحتفظ لنا التاريخ بسير المبدعين ويهمل سير من اضطهدوهم. ها هو دانتي صاحب الكوميديا الإلهية تملأ سيرته كتب النقد والتاريخ الفني والأدبي، ويحضر في لوحات عصور من رسامي النهضة وما بعدها، هو وحبيبته بياترس التي أقام لها صرحا في كتابه الخالد. ولكن من يتذكر أسماء الباباوات الذين نفوه من فلورنسا سنة ١٣٠٢ وحكموا عليه بالإعدام لو هو خالف الحكم وعاد إلى وطنه؟ رغم آلام النفي، وتنقله بين الإمارات الإيطالية بعيدا عن فلورنسا إلا أن دانتي أبدع الكتاب الذي أدخله التاريخ خالدا على مر العصور، وجعل له في كلّ مدينة إيطالية نصبا وتمثالا ومتحفاً، بينما اندثر كل ذكر للبابوات التي اضطهدوه وجعلوه يعيش ثلث سنوات حياته ويموت في المنفى.

كم دانتي عربي لم يكتب الكتاب الذي كتبه دانتي ولكنه نزل إلى أقبية الظلام والموت، وعاش عقودا وراء الشمس، قبل أن تسعفنا صرخات الشباب في ميادين التحرير، فتشقق جدران الزنازين وتأتينا بصوته حبيس تلك الأقبية، ليروي عن فظاعات ما أنزله الاستبداد بضحاياه، وهو إذا يروي فإنما، أولا، للبؤساء الذين تخلوا عنه ذات يوم، خوفا من الطاغية.

ربح الطغاة حاضرهم الكئيب، وفاز صاحب الكلمة ورجل الحرية بالمستقبل.
تنطبق سيرة دانتي غالباً، على فئة شجاعة من أصحاب الرأي وحملة الأقلام. وها هم ضحايا الاستبداد الشرقي من عبدالرحمن الكواكبي وحتى كوكبة كبيرة من ضحايا الرأي العرب في أزمنتنا الحاضرة.

***

كتبت هذه الإشارات عن الاستبداد تحية للأقلام التي كتبت في هذا العدد عن تجاربها وراء القضبان في زنازين "دولة الأبد" التي صدّعت جدرانها الصلبة قبضات الشباب المنتفض لأجل الحرية والكرامة، وأختم بهده الكلمات للشيخ عبدالرحمن الكواكبي ابن حلب الثائرة اليوم على الاستبداد: "الرَّعية العاقلة تقيِّد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها؛ لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزَّت به الزّمام وإنْ صال ربطته".

***

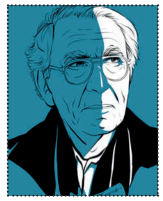
"العرب في مصيدة الأمم" إشارة أولى إلى حال الأمة، ودعوة لحملة الأقلام لمساءلة الذات والآخر، ومساءلة الثقافة عما آلت إليه الحال. هذا ليس عنوانا لملف نفتحه ونطويه، ثم نعفي أنفسنا من التبعات. إنه عتبة لبحث فكري مفتوح، محطتنا الالمقبلة معه تحت عنوان "إلى أين يمضي العرب". والدعوة مفتوحة للكتاب والمثقفين العرب مشرقاً ومغرباً ■

نوري الجرّاح

لندن -أغسطس/آب 2015

اختيار الطوفان

صادق جلال العظم



فاجأتني انتفاضة الشعب ضد النظام العسكري والدولة الأمنية لعائلة الأسد في سوريا. كنت خائفاً في البداية من أن النظام سيسحقها في لحظة بدايتها تقريبا، آخذاً في اعتباري الضراوة والقمع الأسطوريين المعروف بهما. مثل مثقفين سوريين آخرين، أحسست بعجز شامل أمام هذا الوحش الفاغر فاه، الذي يمنع أيّ فكرة قادمة، أو حتى ممكنة، لقول "لا" جماعية. كنت متفاجئاً بالثورة، لكن ما كان يجب أن أتفاجأ. التجارب اليومية والملاحظات المتكررة كانت تنبئ بكارثة حاول الكثير من السوريين أن ينكروها. بعد القمع العنيف لربيع دمشق عامي 2001-2002 وكذلك بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق حريري في بيروت عام 2005، والتي قادت إلى الانسحاب المهين لقوات الأسد من لبنان، انتشر القلق في سوريا.

كنت أعمل في دمشق حيث كان الذعر ناطقاً بشكل خاص. بدت البلاد كأنها تترنّح على حافة الهاوية. لكن الحياة كانت تمضي بشكل روتيني على السطح. الحديث عن الوضع علناً لم يكن ممكناً. حتى التلميح إليه كان خطراً. عندما كان أحد ما يتكلم، كان الآخرون يغيّرون الحديث مباشرة. كانت مؤامرة الصمت هي النظام اليوميّ للأمور.
هذه المرحلة طبعت انحطاطاً واضحاً في العلاقات بين السوريين. الخنادق الطائفية توطدت، مقوّضة صداقات طويلة الأمد، مؤثرة في الانسجام بين زملاء العمل والتفاعل اليومي بين المواطنين.
حتى طرقنا بالمزاح تغيّرت. مثل الكثيرين في دمشق، وجدت نفسي أبدأ، بطريقة لاشعورية، بوزن كل كلمة أقولها لتتناسب مع الانتماءات الدينية للمعارف الهامشيين كما للأصدقاء المقربين. فقدت اللقاءات الاجتماعية عفويتها. الثقة بالنفس وبالآخرين تلاشت، وكان رفض النقد يجري بسرعة أشدّ من قبل. تسارعت جرعة الاشتباه إلى داخل تقاليد التضامن ضد القمع بين أفراد الأنتلجنسيا السورية. خلال عامي 2009-2010، كان مستحيلا أن يمر يوم من دون أن تسمع من الناس العاملين معنا أقوالاً تتكرر مثل "كل ما تحتاجه هو كبريت لتشتعل"، "شرارة واحدة ويشتعل كل شيء"، و"الأمر بحاجة إلى مفرقعة نارية لينفجر".
الناس الأعلى تعليماً، وخصوصاً المثقفين منهم، كانت لديهم استعاراتهم ومجازاتهم التي يفضلونها. الاستعارة التي كنت أفضلها كانت طنجرة الضغط عندما تزداد الحرارة فيما صمامات الأمان مدمّرة. ياسين الحاج صالح، وهو سجين سياسي سابق وأكثر النقاد السريّين أهمية فيما يخصّ التعليق على مجريات الثورة، إضافة إلى كونه كاتبا مبدعا في أدب السجون، أطلق إنذاراً للناس أنهم إذا لم يعبّروا عن "سوريّتهم" فإن البلاد ستمضي نحو الأسوأ. رسام الكاريكاتير علي فرزات قال عام 2007 في مقابلة مع مجلة "نيوزويك"، "إما الإصلاح أو الطوفان". هوجم علي فرزات عام 2011 من قبل بلطجية النظام وتُرك ليموت مرميّا في الشارع، لكنه نجا من الموت. زميل بارز وصديق لي في قسم الفلسفة شدد على أن لا مفرّ من الحرب الأهلية لأن الأسوأ قد حصل فعلاً قائلا إن النزاع السني العلوي صار أمراً واقعاً. الحرب كانت محتومة. البعض الآخر حافظ على رأيه في النظام معتبرا أنه هو الأمر الوحيد الذي يمنع السوريين عن قتل بعضهم البعض. لو أن أحداً سألني ماذا كان سيحصل لو أن التسونامي الذي ضرب تونس وصل إلى سوريا لكنت أجبت: السنّة في حماه سيستّون سكاكينهم وسيهاجمون القرى العلوية المجاورة للانتقام من اغتصاب وتدمير مدينتهم على يد قوات الأسد عام 1982. لكن المذبحة الطائفية لم تحصل. بدلاً من ذلك حصل ما لم نفكر به: ثورة شعبية ضد النظام.
كيف فشلنا بشكل ذريع في التنبؤ بهذه النتيجة؟ لم يكن الإنكار هو العامل الوحيد؛ عدد من الأفكار والأسئلة كانت تدور في البلاد خلال هذه المرحلة الحاسمة، في كل الأوساط الاجتماعية. الكثير من هذه الأفكار، خصوصاً بين المثقفين والنخب، كانت خاطئة. البعض أحس أن تحالف الطبقات العليا بين السنّة والعلويين سينتهي، مما سيؤدي إلى إضعاف النظام في غياب أيّ ثورة. سمّيت هذا التحالف مرة تحالف المركّب العسكري التجاري؛ جيل جديد من الناشطين والمحللين يصفون المركب العسكري التجاري بالمركب الأمني المالي.
هذه هي الطبقة الحاكمة. كل دمشق تعرف أن الجيش، حزب البعث، وجهاز إدارة الدولة



بشار العيسى

-كلّه تحت سيطرة العلويين- يمثل جانباً واحداً من هذه التركيبة. الطرف الآخر- رجال أعمال مدنيون- يسيطر عليه السنّة. الناس الذين يديرون هذا المركّب شكّلوا عبر السنين نخبة فاسدة ومتغطرسة. كان هؤلاء يديرون أوضاع سوريا اليومية، وفي أوقاتهم الخاصة يوقّعون الصفقات، ويتفاعلون اجتماعيا، ويرتّبون الزيجات بين أولادهم. كانوا يحضرون حفلات بعضهم البعض، ويرتادون المطاعم والنوادي نفسها. زوجاتهم، أمهاتهم، أخواتهم، وبنات أعمامهم وأخوالهم يتواجدن في الحفلات الخيرية والثقافية نفسها. كل طرف من الطرفين يحتقر الآخر، لكنهم يخففون من كراهيتهم لبعضهم لأن علاقاتهم مفيدة لهما معا. كانت التجارب اليومية تنبئ عن أزمة يحاول أغلب السوريين أن ينكروها. والإنكار هو ما فعلناه.

بحسب المحللين الحاليين الأصغر سناً، فإن التئام الطرفين حوّلهما إلى طبقة متغطرسة تشبه طبقة البراهما الهندية. طبقة تعتبر نفسها خارج أيّ محاسبة، وتملك حقاً لا ينازع في حكم الناس العاديين، الذين تعتبرهم من طبقة دنيا-جاهلة، متخلفة، وغير مؤهلة للديمقراطية، ولا تستحق أيّ شكل من أشكال الحرية. كل طرف من الطرفين قويّ في قدرته على هزّ المؤسسة لكنه ضعيف في قدرته على البناء، ولذلك فهما يجتمعان معاً في وجه أيّ معارضة محتملة.

قبل الانتفاضة، اعتقد المثقفون، مخطئين، أن الطبقة البرجوازية السنيّة سوف تشدّ السلطة من الطرف الآخر، لإنهاء هذه العلاقة المكلفة. وهي مكلفة لأن التجار ملّوا من الابتزاز؛ على شكل أعطيات، سمسرات، رشاو، دفعات تحت الطاولة ومبالغ للحماية؛ وقبول شركاء مزيفين. غير أن هذه التركيبة أثبتت أنها أقوى من كل التوقعات. "التجارة والسياسة هي جوهر دمشق"، كما لخصها شاعر سوريا الأشهر، أدونيس. الطبقة الصلدة لبرجوازية دمشق بقيت وفيّة لجوهرها. الاعتقاد الزائف الآخر ضمن النخبة المفكرة كان أن الفساد في سوريا يمكن أن يتراجع لصالح حكم القانون. تدعّمت هذه الفكرة بنظرية تقول إن الفساد الوحشيّ في الأعلى هو شكل من أشكال "التراكم الرأسمالي البدائي"، كما شرح كارل ماركس الظاهرة. في نهاية المطاف فإن الأفراد الذين يمارسون هذا التراكم الوحشي يصلون إلى مرحلة تتزايد فيها المصلحة لتأسيس نظام قانوني لحماية غنائمهم التي نهبوها. كانت هذه النظرية تستخدم الأميركيين الذين لجأوا إلى الغرب الأميركي كمثال، حيث ذهب رجال العصابات بمنهوباتهم إلى مكان بعيد وأعادوا استثمارها بصفتهم رجال أعمال شرعيين، وأعمدة للمجتمع، ولاحقاً حماة للقانون بأنفسهم. غير أن هذا الافتراض كان خاطئاً.

فكرة أخرى أثبتت خطأها، وهي أن السلطات التي امتلكها النظام عبر التصدّعات التي أسسها في النسيج الأهلي السوري -وهو نظام سابق على النظام الاجتماعي المدني ويشبه نظام "غيمنشافت" Gemeinschaft الألماني- جعلت من أيّ معارضة شعبية منظمة من قبل هذا النظام الأهلي غير المفكر فيه تتجسد في اللوذ بالعلاقات العائلية وأشكال التنظيم الاجتماعي الأقدم -القرابة، العشيرة، القرية، الإثنية، الطائفة الدينية- بعصبياتها المختلفة. مفهوم العصبية الخلدوني يترجم في اللغات الأجنبية عادة إلى "تضامن الجماعة". لكن هذه الترجمة ضعيفة؛ ولا تستطيع تفسير التعصب الأعمى ومقاومة تغيير الأفكار الذي يحتويه مفهوم العصبية. شرذم النظام ما بقي من المجتمع الأهلي السوري بإعطاء القوة للعصبيات المجددة. قام بذلك من خلال التحكّم عبر تأليه العائلة الحاكمة، وباستجرار الزعامات المحلية للجماعات الأهلية المختلفة وبتأجيجهم ضد بعضهم البعض، وبالسماح لبعضهم بالترسمل السريع على حساب الأكثرية، وخصوصاً السنّة.

هكذا تم أيضاً سحق ربيع دمشق بسرعة وبوحشية. سوريون في أعلى مقامات السلطة أحسّوا ربما بالتغيير قادماً، لكنهم

لم يرغبوا في تغيير ما اعتادوا عليه. قبل الثورة، تساءل بعض العقلاء الذين لم يصدقوا أن الوضعية المتأججة لم تصل إلى الحلقة الضيقة في المؤسسة الحاكمة، رغم كل مخبريها وجواسيسها، بما فيها أجهزة الأمن التي تبدو موجودة في كل مكان بفروعها وتمدّداتها التي لا حصر لها. بعض المتفائلين حسني النية اعتبروا أن السلطات ستستفيق في النهاية وستقوم، في سبيل الحفاظ على نفسها وليس لسبب آخر، بعمل شيء ما لمنع الأسوأ. بعض المثقفين اعتبروا أن الحلقة الضيقة -والمتعاونين معها- ترفض أيّ شكل من الإصلاح لظنها أن أيّ تغيير سيؤدي إلى انهيار النظام كله. النخب العلوية كانت تتهامس حول الأهمية القصوى للبقاء. ومع عام 2005 تراجعت وعود الأسد بالإصلاح لتصبح كلاماً غامضاً حول التنمية والتحديث. هذا التراجع تمّ تلخيصه في ذاك العام بحديث نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية عبدالله الدردري عن "خطة خمسية للخصخصة"، والتي شرحها للسيناتور جون كيري في حفل عشاء في دمشق أقامته السفيرة الأميركية مارغريت سكوبي. وحين أشار كيري إلى أن الخصخصة والخطط الخمسية لا يعملان معاً، رد الدردري "يجب أن نسميها هذا". كنت في تلك الفعالية وتدخلت متسائلاً، "لماذا لا تخبرونا، نحن الشعب، ماذا تفعلون بالضبط؟" وساد بعدها الصمت. كان من المفترض أن أفهم أن الخصخصة كانت كذبة لا يفترض بأحد أن يلاحظها. والآن نحن نعلم أن هذه الخديعة فشلت تماماً. خلال العامين الأخيرين، كانت لديّ فرصة مناقشة الأزمة السورية مع أفراد من نخبة رجال الأعمال -بعضهم أقارب بعيدون لي- تورطوا بقبولهم أن يكونوا جزءا من الفساد العالي المتزايد سوءاً. وقد اعترف الجميع أنهم، حتى قبل أشهر من الانتفاضة كانوا متفائلين حول مستقبل البلاد والاقتصاد. كانوا يستثمرون بكثافة، ويتفاوضون حول كل أنواع الصفقات مع المستثمرين الألمان، وينهون عقوداً عظيمة الربحية مع وفود هولندية. باستفادتهم من أعمالهم كالعادة، كانوا يعتقدون أن النظام غير قابل للاختراق وأن إخضاع الناس العاديين الكبير جعلهم غير قادرين على الاحتجاج. رجال الأعمال الكبار هؤلاء قالوا إنهم ما كانوا يعلمون بأيّ تغيير قادم. كلهم لم يصدقوا ما حصل لهم متأسفين على قصر نظرهم. لقد خسروا الكثير -وأهمه أفضلية التعامل معهم من قبل سوريا الأسد- وسرعان ما هاجروا إلى مراع أكثر اخضراراً. في النهاية، كانت الأكثرية السنية تأمل وتعتقد أن الولايات المتحدة ستساعد في تسليمها سوريا، كما حصل في العراق مع الأغلبية الشيعية. وتهامست دمشق متسائلة: إذا استطاع الشيعة استلام الحكم في العراق، لماذا لا يستطيع السنة استلام الحكم في سوريا؟

في الواقع، فإن القلق الذي حصل بسبب التغيير السياسي في العراق عزّز قبضة الأسد. أما بالنسبة إلى التوقعات من الولايات المتحدة، فإن سوريا ستكون مخطئة بشكل شديد. حين بدأت الانتفاضة في يناير 2011، قامت تظاهرات صغيرة بكسر الهدوء في سوق مدينة دمشق الرئيسي وباحة جامعها الأموي. غير أن المفاجأة الكبيرة أن الانفجار الحقيقي حصل في الريف الجنوبي لسوريا، في سهل حوران وعاصمته درعا. هذا الإقليم مشهور تقليديا بكونه "خزّان البعث"، الذي زوّد الحزب والدولة بعدد كبير من مسؤوليه الأوائل وقادة الدرجة الثانية فيه. كان الحزب قد قدّم نفسه باعتباره حزب العمال

> **مثل مثقفين سوريين آخرين، أحسست بعجز شامل أمام هذا الوحش الفاغر فاه، الذي يمنع أيّ فكرة قادمة، أو حتى ممكنة، لقول "لا" جماعية. كنت متفاجئاً بالثورة، لكن ما كان يجب أن أتفاجأ**

والفلاحين، لكن هذه الأفكار المسبقة أثبتت زيفها حين ثار العمال والفلاحون ضد السلطة علانية. لن أعيد هنا قصة درعا، كونها صارت مشهورة وتمت تغطيتها إعلامياً بشكل جيد: تلاميذ المدرسة الذين خططوا شعارات ضد النظام على حائط، اعتقالهم وتعذيب المخابرات لهم، الإهانات التي تعرض لها آباؤهم وأهاليهم. بعد حوادث درعا والقمع والقتل الذي تعرضت له، أغلب سوريا وجدت نفسها في احتجاج شامل وعلني ضد النظام. في البداية، حاولت الأجهزة الأمنية والعسكرية أن ترهب المتظاهرين السلميين باستخدام تكتيكات الصدمة والرعب. هذه المرحلة وصلت ذروتها في حمص، حيث حاول المتظاهرون نسخ تجربة ساحة التحرير المصرية باعتصام حاشد كبير في الساحة الرئيسية للمدينة. واجه النظام ذلك بأول مجزرة كبرى ضد المدنيين السلميين. مع امتداد الاحتجاجات رغم تزايد الضحايا، انتقل النظام إلى ما يمكن تسميته بمرحلة بينوشيه: تحولت المدارس، الملاعب الرياضية، المستشفيات، والمرافق العامة إلى مراكز اعتقال جماعية؛ السجون امتلأت بمعتقلين عشوائيين؛ ووصل التعذيب إلى مرحلة قصوى. حين فشل تكتيك بينوشيه أيضاً ضد حركات التظاهر، انتقل النظام إلى خيار شمشون: محطّما هيكل سوريا فوق رؤوس الجميع. قرى، مدن، وساحات مدن تم تدميرها وجعلها أنقاضاً؛ محاصيل وغابات تم حرقها؛ مدارس، مستشفيات، جامعات، ومراكز صحية تم قصفها وتدميرها بشكل منهجي. أطباء، صيادلة، ممرضات وعناصر طبية أخرى تم اعتقالها وقتلها. وصلت مرحلة شمشون قمتها مع الهجوم بالسلاح الكيميائي على الغوطة، في حركة إجرامية يائسة. هذا القمع الهمجي لم يكن عفوياً بل كان مخططاً له ومتوقعاً. تذكر الكثيرون كلمات بطانة رفعت الأسد في أيام عزّه في سبعينات القرن الماضي: إن عشيرة الأسد والعلويين اقتحموا دمشق بالقوة، وإذا أراد السنة استعادتها، فسيستلمونها أنقاضاً مدمرة. وهو ما تجسد في شعارات النظام الحالية عن "الأسد أو لا أحد" و"الأسد أو ندمّر البلد". حين أصبح الحفاظ على حركة موحدة مستحيلاً بسبب القمع الفظيع، اتهم مراقبون الثورة بفقدان القيادة والاستراتيجية. غير



فرح علي

أن هذا كان خطأ. قيادة الثورة كانت مختلفة ببساطة عما يتوقعه المرء. الأحزاب المنظمة والشخصيات ذات الجاذبية تم استبدالها بلجان تنسيق محلية. هذه اللجان قادت ونظمت حركة الشارع واستمرت بإدارة ما بقي من الطابع السلمي للثورة. رغم عفوية التنسيقيات، فقد استطاعت خلق شبكة وطنية وبالتواصل مع فعاليات مماثلة لها في سوريا، وفي العالم العربي، والعالم. وبخبرتها المتزايدة، استطاعت استخدام الأكثر حداثة في وسائل التواصل الإلكتروني لدفع أجندتها الثورية. استطاعوا، كذلك، أن يحبطوا محاولات النظام العسكرية منع تدفق المعلومات بإنتاج سيل متدفق من الصور الآنية والمعلومات حول ما يحصل حقيقة على الأرض. أضف إلى ذلك العمليات الإبداعية، الموسيقى، الرسوم المتحركة، والتعليقات الساخرة، والغرافيتي الناقد، وكل ما لجأ إليه هذا الجيل الثوري، وسترى ما أسمّيه أفضل ساعة للمجتمع المدني السوري. الروح الكرنفالية في تلك الفعاليات -بالمعنى الباختيني للسخرية لتنفيس قمع قوى السلطة العليا المدعاة- لم تكن شيئا معروفاً في الصراع ضد الاستعمار ولكنها صارت سمة قارّة في الاحتجاجات المعاصرة، خلال الربيع العربي. النظائر العسكرية للجان التنسيق انتشرت عبر سوريا كلها، وأجبرت النظام على نشر القوات أيضا بشكل شرذم هذه القوات وأنهكها من انتقالاتها من درعا في الجنوب إلى الحدود التركية في الشمال ثم لتعود الى الجنوب من جديد. ولهذا السبب سمعنا أن الجيش اجتاح، احتل، ثم تراجع من درعا أكثر من عشرين مرة خلال أقل من خمسة عشر شهراً. حالياً يبدو الأمر وكأن لا أحد من الطرفين قادر على هزم الطرف الآخر. غير أن هناك أمرا خادعا حول هذا المظهر. فإذا نظرت إلى أين بدأت الأحداث قبل الانتفاضة، ستجد أن أجهزة الأمن كانت تعتبر نفسها محصّنة من الهزيمة، مثل جدار صلد؛ أي شيء كان يواجهها كان يتحوّل إلى رماد. الكثير من المعارضين الذين سجنوا ذكروا بعد الإفراج عنهم أنهم خلال التحقيق والتعذيب كان ضباط المخابرات يوبخونهم قائلين: "لماذا تعذّبون أنفسكم بالانتقاد والمعارضة والاحتجاج رغم معرفتكم أنه لا يمكن هزيمتنا، وأن إرادتنا فولاذية وقادرة على سحق أيّ شيء أو أيّ شخص يقف في وجهنا؟ يجب أن تجدوا شيئا أفضل بدلاً من محاولة المعارضة وممارسة السياسة". الثورة دمرت هذه الصورة التي لا يمكن كسرها داخل وخارج النظام. هذا ما جعل الأسد يطلب نجدة حزب الله من لبنان والميليشيات الشيعية من العراق وإيران لتعزيز قبضته على البلد. هذا أيضاً ما جعل قواته الخاصة، وحزب الله، وميليشيات أخرى تقاتل فترة طويلة لاحتلال بلدة ريفية صغيرة مثل القصير، رغم التفوق الكبير في الأعداد والطاقة النارية.

أهل دمشق، خصوصاً، كانوا في دواخلهم يعتذرون لمراقبتهم من مسافة بعيدة التدمير الوحشي ونهب حماة وسكانها عام 1982؛ ولأنهم تسامحوا كل هذا الوقت مع الاعتقالات العشوائية، السجن، التعذيب، الإجرام، والاختفاء القسري لأعداد غير معروفة من المواطنين؛ ولأنهم قبلوا تصفية أكثر من ألف روح بشرية في سجن تدمر في يونيو 1980؛ ولكونهم ابتلعوا عار تحويل الجمهورية، في لحظات، إلى حكم وراثي؛ ولأنهم شاهدوا ربيع دمشق -آخر لمحة أمل للسوريين- يحطم بوحشية دون أن تطرف أعينهم.

كما أن إساءة الفهم من قبل السوريين جعلتهم غير قادرين على توقع الانتفاضة، فإن الخطابات العالمية حول الثورة فشلت أيضا، ربما بشكل مقصود، كي نستطيع أن نفهمها ونرد عليها بشكل مناسب. مسألة واحدة في قلب هذا الغموض: كيف تحوّلت حركة احتجاج سلميّة شابة ومدنية إلى ثورة مسلحة في أقل من سنة واحدة. هذه مسألة ملحّة إذا أخذنا في الاعتبار لغة الرئيس باراك أوباما الاحتقارية التي استخدمها لوصف حركة الاحتجاج الشعبية العامة. في مارس 2014 وخلال مقابلة طويلة وصريحة مع جيفري غولدبرغ من "بلومبرغ فيو"، وصف أوباما النزاع السوري باعتباره بين "جيش رسمي ومسلّح جيدا ومدعوم من قبل دولتين كبيرتين (روسيا وإيران).. يقاتل فلاحا، ونجارا، ومهندسا، بدأوا حركتهم كمحتجين وفجأة وجدوا أنفسهم في وسط نزاع أهلي". هذا التوصيف خاطئ. لم يكن هناك شيء مفاجئ في التحول من الاحتجاجات السلمية إلى "نزاع أهلي" مسلح. كان ذلك نتيجة لترك المحتجين من قبل

المجتمع الدولي رغم التصاعد المتزايد في العنف الممارس ضدهم من قبل نظام الأسد، وللتضامن بين الجنود السوريين المنشقين والناس العاديين، ولتدفق المتطرفين المسلحين لملء الفراغ في مناطق يائسة.
عقلية "السياسة الواقعية" (Realpolitik) التي تهتم بالوقائع الطارئة لا بالمبادئ أو الأخلاق في المنظومة الدولية خفضت شأن الأزمة في سوريا لتصبح مجرد سحب الأسلحة الكيميائية من يد الأسد و-عملياً- إعادة تثبيته، رغم الأوصاف التي يقوم أوباما وكيري بوصفه بها: مجرم، قاتل، طاغية، وحتى هتلر جديد.
فهم السوريون هذا. ولا يوجد سوري يؤمن بأن الولايات المتحدة هي بطل صفقة الأسلحة الكيميائية. يعلم السوريون أن ترسانة الأسلحة الكيميائية جعلت القوى الكبرى تتأهب منذ بداية الانتفاضة. روسيا أعطت تأكيدات علنية وضمانات خاصة إلى "شركائها" أن الأسلحة الكيميائية السورية كانت تحت السيطرة الكاملة ولن تقع في الأيدي الخطأ. حين قام الأسد باستخدام محدود للعناصر الكيميائية المخففة ضد مراكز المدنيين لامتحان الغرب، قامت روسيا بمضاعفة تأكيداتها. هذا ما ساعد أوباما على وضع خطه الأحمر المشهور بإعلانه أن استخدام هذه الأسلحة "سيغيّر من قواعد اللعبة"، لكن تهديده لم تكن له علاقة بالاتفاق اللاحق حول هذه الأسلحة. في الواقع، كما أقر أوباما في مقابلته مع "بلومبرغ فيو"، فإن سوريا كانت تستجيب للضغط من قبل إيران وروسيا "خلال 10 أيام أو أسبوعين، قام رعاته، الإيرانيون والروس، بإجبار الأسد على التخلص من أسلحته الكيميائية، وتقديم قائمة بها للمجتمع الدولي، والموافقة على جدول زمني للتخلص منها". أكثر من ذلك، يتذكر السوريون أن كيري، محاولاً تقوية مبرراته في لوم النظام، ذكر أن الولايات المتحدة عرفت قبل ثلاثة أيام من هجوم الغوطة أن العناصر الكيميائية تم مزجها، وإعدادها، وتم تذخيرها على أسلحة الاستخدام للهجوم. بكلمات أخرى، فإن كيري علم مسبقاً ما هي الجريمة المقبلة لكنه فشل في عمل أيّ شيء لوقفها.
كل هذا يكشف نمطاً اعتياديا: حين يواجهون بتهديد جدّي، يوافق الطغاة على التراجع. حافظ الأسد، والد بشار الأسد، فعل ذلك حين سلّم رئيس حزب العمال الكردستاني (بي كي كي) عبد الله أوجلان إلى تركيا عام 1998. بعد سنين من المقاومة والإنكار، أدرك حافظ اقتراب اللحظة الحرجة حين تحوّل الهجوم التركي إلى خطر أكيد. النمط نفسه تكرر عام 2005 حين تراجع بشار الأسد أمام ضغط الرئيس جورج دبليو بوش والاتحاد الأوروبي، خصوصاً فرنسا، وسحب قواته من لبنان.
تنطبق على الأسدين القاعدة التي شرحتها قبل زمن طويل مدرسة فرانكفورت حول الشخصية الفاشية الصغيرة التي تستلم السلطة: قسوة واحتقار للأضعف وخضوع جبان أمام القوي. بعد أن قام الأقوياء بالاستيلاء على الأسلحة الكيميائية، بدأ النظام باستخدام سلاح ليس أقل إبادة: تكتيكات الحصار لإجبار السكان على الخضوع. يدعو النظام هذا "اركع أو مت جوعاً". رد الفعل العالمي على هذا كان الصمت.
يفهم السوريون أيضاً لماذا تحتاج "السياسة الواقعية" (Realpolitik) أن تستخدم المجموعة الدولية وضعها المؤثر في سوريا الحالية "دعهم ينزفون"، كما قال الصحافي كريستوفر ديكي. المتنافسون في هذه الدراما الدموية هم -سوريا، إيران، حزب الله، القاعدة إضافة إلى تشكيلة من الإسلاميين والجهاديين- وكلها أطراف لديها تاريخ طويل ومؤكد من

> **إن عشيرة الأسد والعلويين اقتحموا دمشق بالقوة، وإذا أراد السنة استعادتها، فسيستلمونها أنقاضاً مدمرة. وهو ما تجسد في شعارات النظام الحالية عن "الأسد أو لا أحد" و"الأسد أو ندمّر البلد**

كره الغرب. لماذا الوقوف في وجه هؤلاء الأعداء فيما يقتلون بعضهم البعض؟ أوباما نفسه يقول إن سوريا "تستنزفهم" وهم إيران، حزب الله، والمتطرفون السنة المتقاتلون في سوريا. الفائدة السياسية للولايات المتحدة لا يمكن تجاهلها. باقي الغرب ابتعد أيضا لأسباب مشابهة. وهكذا رفع الرئيس أوباما يديه، جزئياً على قاعدة تبرير مريح ولكنه خاطئ حول أطباء الأسنان والمزارعين مظهراً جهله في كيفية تحول الاحتجاجات السلمية إلى ثورة مسلحة، مثبتاً موقفه الخاطئ حول أن القتال كان تحوّلاً "مفاجئاً" في الأحداث.
هناك ثلاثة عناصر على الأقل إضافة إلى قمع النظام ساعدت في تحويل التظاهرات السلمية إلى حرب، كلها كان يمكن لأجهزة الأمن الغربية رؤيتها. الغرب فشل، متقصداً ربما، في فهم الثورة. بداية فإن أغلب القادة المتعلمين والمهنيين الذين أججوا البدايات السلمية للانتفاضة انتهى بهم الأمر في السجون، أو تمّت إعاقتهم بشكل دائم، أو غادروا إلى المنافي، أو قتلوا. وحل في أمكنتهم قادة أقل تعليماً وتقدمية وقناعاتهم بالطابع السلمي للثورة أضعف.
ثانيا، أدى تشكيل وتضخم الجيش السوري الحر إلى تشجيع الثورة المسلحة. كان ذلك أيضاً أمراً يمكن رؤيته قادما - سلسلة من الانشقاقات، من كل الرتب العسكرية، من الجيش الرسمي بعد أن تم استدعاؤهم لقمع الانتفاضة بعنف غير محدود. رغم المخاطر الكبيرة على أرواحهم وحيوات عائلاتهم، رفض هؤلاء الأوامر لقصف القرى والبشر الذين هم مثلهم. وعلى السوريين أن يكونوا شاكرين لأن جيشهم ما زال جيشاً للمجندين غير المتطوعين وليس جيشاً محترفاً. أخيراً، فإن الخسارة بالنسبة لطرفي الصراع عالية بشكل كاف لدرجة أن اللجوء إلى السلاح لا يجب أن يكون مفاجأة. من جهة، فإن العلويين لديهم الكثير مما سيخسرونه حيث أنهم لن يتوقفوا عن فعل أي شيء للاحتفاظ بالسلطة. من جهة أخرى، فإن الثوار السنة بعد أن دفعوا إلى هذه الوضعية، مصممون على استعادة سوريا بأيّ ثمن. كل ذلك يبدو وكأننا نصل إلى المفارقة القديمة: ما الذي يحصل عندما تلتقي قوة لا يمكن مقاومتها مع شيء لا يتحرك؟ أيّ شيء وكل شيء.
إضافة إلى هذه المجموعة من سوء

التقديرات حول من يقاتل في سوريا وكيف انحدرت الحركة السلمية إلى العنف، فإن الخطابات العالمية مخطئة أيضاً فيما يخص طبيعة النزاع. سوريا يتم ضمّها بشكل خاطئ إلى نزاعات طائفية أخرى، مثل النزاع في لبنان. في لبنان تقاتل الجماعات، الطوائف، والتنظيمات بعضها البعض بقوة فيما تبقى الدولة دون تدخل. المثال الآخر هو العراق، حيث قامت الولايات المتحدة بإزالة الدولة، الجيش، والحزب الحاكم، تاركة الشيعة، السنة، والأكراد يتحركون ضد بعضهم البعض. في سوريا هناك جهتان متحاربتان: النظام، والدولة، والجيش والحزب الحاكم في طرف، والانتفاضة الشعبية في طرف آخر. ليست هناك إشارات إلى تنافس طائفي. دروز سوريا لن يقوموا بمهاجمة جيرانهم السنة في حوران، كما أن السنة ليسوا في وارد اجتياح المناطق الإسماعيلية والمسيحية، كما أن الإسماعيليين لا يستعدون لإنهاء نزاع عنيف قديم مع العلويين وهكذا دواليك. لا جماعة سورية، أو طائفة، أو إثنية قامت بتحشيد قواتها جماعيا للقتال في طرف النظام أو الدفاع عنه. سوريا ليست في حالة حرب أهلية عمومية. إذا كانت هناك سابقة تاريخية أو تحليل نحتاجه، فلنستدع الثورة الهنغارية المسلحة ضد النظام الستاليني هناك في عام 1956، وهي ثورة تم سحقها من قبل الدبابات الروسية كما حاولت الدبابات السورية أن تسحق الثورة. بعد أن انتهت الثورة الهنغارية، لم يقل أحد إن البلاد كانت متجهة إلى حرب أهلية لأن الهنغار كانوا يقتلون هنغاراً.

ربما يعود الأمر إلى أن المجتمع الدولي ينظر خاطئاً إلى العنف الطائفي خارج سوريا فهناك قلق حول الأقليات فيها -أكراد، مسيحيون، علويون، دروز، إسماعيليون، تركمان، شركس، وهكذا- وحول حقوقهم. يجيء هذا في الوقت الذي تتعرض فيه الأكثرية السنّية إلى ضرب وحشي من القوات الخاصة، الميليشيات، صواريخ سكود من أقلية مسلحة تحتكر سلطة وثروة البلاد. المدن التي تم تدميرها كلها مدن سنية، بينما بقيت جماعات الأقليات في أمان نسبي. الأغلبية الكبرى لأكثر من 200 ألف قتلوا حتى الآن، ومن الجرحى، ومن المعاقين بشكل دائم، ومن الذين اختفوا وتبخروا، ومن المسجونين والمعذبين هم من السنة. أغلب الملايين الذين هجّروا خارجياً وداخلياً هم من السنة. لذلك فإن ما يدهس تحت الأقدام في سوريا الآن هو الأكثرية.

ما يختفي تحت هذا الصمت هو افتراض أن الأكثرية السنية تنتظر اللحظة المناسبة للهجوم على الأقليات كي تضطهدهم وتقمعهم. لكن، في هذه اللحظة، كل سوريا، بحاجة إلى حقوق، حماية، واهتمام. هذا الخطاب العالمي حول حماية أقليات سوريا يعود بي إلى أوروبا القرن التاسع عشر، ودبلوماسية السفن الحربية الشهيرة. كل قوة أوروبية معتبرة كانت تبحث عن أقلية في هذا المكان من العالم لترعاها وتحميها: فرنسا، كلّفت نفسها حماية الكاثوليك والعلويين. روسيا، ألحقت بها الروم الأرثوذكس. بريطانيا، القلائل من البروتستانت والأنغليكان إضافة الى الأقلية الدرزية، وهكذا دواليك.

روسيا اليوم تريد أن تحمي كل هذه الأقليات وتحلّ مكان فرنسا باعتبارها حارس الأقليات المسيحية والعلوية، على وجه الخصوص.

كما في الماضي، تريد أوروبا حالياً دفع سوريا إلى المراحل الأثيرية للجغرافيات السياسية الكبرى، بتحويلها إلى بيدق في لعبة الأمم. القليل من الاهتمام يزجى إلى الربيع الداخلي ولديناميات الثورة نفسها، وهو أمر أحاول أن أؤكد عليه. استراتيجيات "الواقعية السياسية" للقوى العظمى ليست وحدها التي تفكر بهذه الطريقة. هناك جزء من اليسار، العربي والعالمي، ابتاع هذا النموذج من التفكير مردداً أن الثورة هي مؤامرة إمبريالية ضد النظام الوحيد الذي ما زال واقفا ضد إسرائيل والصامد كعقبة ضد السيطرة الغربية على الشرق الأوسط، وعلى بلدانه ومصادره الطبيعية.

أغلب اليسار العربي يدعم طروحات المجتمع المدني وحقوق الإنسان، لكن أقلية، تريد أن تستمر في القتال ضد الإمبريالية. يدخل هذا اليسار سوريا وانتفاضتها ضمن النزاعات الاستراتيجية الكبرى، ويتجاهل بذلك، إذا أحسنّا النيّة، حقيقة قمع الشعب؛ وإذا أسأنا النية يصبح قمع الشعب أمراً غير مهمّ. هذا خطأ جسيم لأنه بقدر ما يطول بقاء بشار الأسد ودولته الأمنية في السلطة مع طائرات السوخوي وصواريخ سكود، بقدر ما يزداد خطر المتطرفين.

في كل المجتمعات، وفي حالات الأزمة الشديدة، يلتفت الناس إلى الله. هذا يبعث الطمأنينة والقدرة على التحمل، وفي بعض الأحيان يستحضر اليأس والانتقام الإلهي.

إن التوتر العالي للإسلام الذي يندفع عبر سوريا يحشّد الإسلاميين الشباب، والإخوان المسلمين، والجهاديين، والطالبانيين، والانتحاريين، والمتطرفين من كل الأنواع. حين يقوم طغاة بإبادة شعوبهم ويخاطبهم موالوهم بعبارات العبادة والتخليد، هل يفاجئنا أن يقوم المقموعون بمواجهة ذلك برفع رايات الألوهة هم أيضا؟ وحين يتعرّض نظام وقانون التعسف في دولة البعث الأمنية للازدراء والتحقير فهل من المفاجئ أن الناس يعودون إلى نظمهم وقوانينهم المعتادة، والتي هي، بشكل طبيعي، تحتوي جرعة مكثفة من الشريعة؟ المخرج من هذا الطريق المسدود لا يتعلق فقط ببتر رأس النظام من خلال إزاحة الأسد وترك الدولة الأمنية المجرمة مصانة، وكل ذلك باسم الاستقرار، والاستمرارية، والانتقال المنظم للسلطة. كما أنه ليس "انتظار غودو" مؤتمرات جنيف. الحل يمكن أن يأتي فقط مع إنهاء العلوية السياسية. هذا يشبه إلى حد كبير ما حصل في مؤتمر الطائف، عام 1989، والذي أنهى الحرب الأهلية في لبنان من خلال التخلص من المارونية السياسية وسيطرتها على لبنان.

في حالة سوريا، هذا يعني نهاية الحكم الوراثي ونهاية السيطرة العلوية، ونهاية حكم الأقلية، وإعادة ولادة الجمهورية. الغرب لديه دور يقوم به. بدلاً من ترك سوريا تنزف، الغرب بحاجة الى المساعدة في رفع قبضة الأسد عن البلاد ومستقبلها والتفاوض على إعادة موضعة سياسية للعلويين داخل نظام ديمقراطي يكون بالضرورة في صالح الأكثرية السنية. الغرب سيضطر للتدخل لأن القوى العظمى لن تسمح بوقوع سوريا في أيدي الإسلام الجهادي. السؤال هو هل سيقود هذا التدخل إلى الفهم الصحيح للحرب. فيما أكتب الآن، لا أحد يدعي معرفة كيف تسير الأمور في سوريا أو كيف سينتهي هذا الصراع الدموي. مع ذلك، أنا متأكد أن الأسد وسلالته لن تحكم سوريا مرة أخرى ■

ترجمة: حسام الدين محمد

عن "بوسطن ريفيو"، وتنشر بالتزامن مع مجلة "الجديد"

العروبة المنفتحة
المشروع الحضاري البديل

خطار أبودياب



في خضم الفرز السياسي الذي شهدته البلاد العربية إبان التحولات الدائرة منذ 2011، لم يحتدم العصف الفكري في زمن تكنولوجيا الصورة ووسائل التواصل الاجتماعي وفضائيات الخبر العاجل، بل برز استقطاب بين تيارات إسلامية كانت تعتبر نفسها البديل الفكري بحكم الأمر الواقع بعد كسوف المشاريع اليسارية والقومية. ولذلك لم تكن فكرة العروبة موجودة بقوة في الحضور والنقاش: كانت صورتها مشوّهة نتيجة الاختزان في العقل الجمعي لسلبيات التجربة الناصرية والتجارب البعثية وغيرها من تجارب العسكريتاريا والأحزاب المعتنقة لفكر قومي مغلق أو شوفيني، ولم تكن بديلا عند علمانيين أو عند أبناء مكونات أقلية يخلطون بينها وبين الإسلام.

لا يمكن اختصار العروبة باللغة أو الثقافة أو الدين. إنها الجذر الحضاري أو "الهوية" في المشرق وهي كذلك الامتداد الحضاري نحو المغرب العربي وأفريقيا وأحيانا إلى عوالم الإسلام الذي "أنزلناه عربيّ اللسان". إنها العروبة التي كانت لغة امرؤ القيس والمتنبي وأبي القاسم الشابي وطه حسين وجبران خليل جبران. لكنها كانت أيضا الثوب الأيديولوجي في مواجهة التتريك والتغريب مع جورج أنطونيوس وشكيب أرسلان ورشيد رضا والبساتنة (نسبة إلى آل البستاني من اللبنانيين - السوريين المسيحيين) والريحاني واليازجي وساطع الحصري وغيرهم من أعلام الأدب والفكر. وكانت العروبة دوما أكبر من قومية وهي تتعدى الحضارة المغلقة نحو بعد إنساني يسبغها الإسلام عليها.

شاع في الروايات المتداولة عن البدايات الأولى للفكرة القومية العربية ، التركيز على دور نجيب عازوري أحد رواد الفكر القومي العربي، وهو واحد من الذين أسهموا في صوغ جانب من المفاهيم القومية في كتابه الذي أصدره في سنة 1950 بعنوان "يقظة الأمة العربية". ولعل في ذلك الكثير من الصدقية من الناحية الزمنية، مع أن التنقيب في ملفات التاريخ يشير إلى أن بدايات الوعي القومي العربي شرعت بالنشوء التدريجي مع بطرس البستاني وناصيف اليازجي عندما أسّسا معا جمعية الآداب والعلوم في بيروت سنة 1842 ثم تبلورت أكثر مع ظهور الجمعية العلمية السورية في سنة 1857 في بيروت بجهد لافت من سليم بن بطرس البستاني وإبراهيم بن نصيف اليازجي. واشتهرت في تلك الفترة وبالتحديد في سنة 1868 قصيدة إبراهيم اليازجي الذي يقول مطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ

فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الركبُ

كم يشبه الحاضر ذلك الماضي. إن إعادة اكتشاف العروبة وتجديدها وأنسنتها تبدو مهمة ملحة لجيل "الثورات العربية" شرط تحصينها بالشورى والديمقراطية حتى لا تكون غطاء المتعصبين أو المستبدين.

كما في كل التطورات التاريخية المشابهة، تجب العودة إلى المجال الفكري أي إلى عصر النهضة العربية الذي ابتدأ في أواخر القرن التاسع عشر تقريباً، ولم يعش طويلاً إذ تلاشى حوالى منتصف القرن الماضي مع الصعود شبه المتزامن للديكتاتوريات العربية والحركات الإسلامية.

تكمن المشكلة الأساسية في نواقص وثغرات المحاولة النهضوية العربية الأولى. ونذكر من أهم دعاتها محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبي.

بالنسبة إلى هؤلاء تتماشى برأيهم الحداثة مع الإسلام وهنا كان الإشكال إذ أن تركيب مجتمع ديني وحديث في الوقت نفسه، وهذا مستحيل عمليا بالقياس للتجارب الغربية. حيث أن الحداثة وُلدت من قطيعة واضحة فكرية وسياسية مع الدين، وهذه القطيعة تجلّت في الثورة الفرنسية. وكان من المستحيل أن يولد العصر الحديث، وعمره الفعلي حوالي القرنين، دون هذه القطيعة مع الدين التي لم تحدث حتى الآن في العالم العربي والإسلامي.

لذلك، فالمسألة ليست في تكيّف الإسلام أو الدين عامة مع الحداثة. بل في فصل الدين عن الدولة الذي أنتج خلال قرنين تقريباً ثورة علمية ومادية فريدة في تاريخ البشرية مع حركة تطور اقتصادي وطبي وعمراني واجتماعي لم تعرفه البشرية منذ آلاف السنين. لقد أدى الاحتكاك بالغرب إلى بلورة المفاهيم الحديثة عند العرب، إذ حملت الحضارة الغربية إلى الواقع العربي معاني جديدة شبيهة، إلى حد ما، بمعانيها

خالد كوادرو



في الغرب، ومختلفة عن معانيها العربية التقليدية في الجاهلية والإسلام والقرون الوسطى. فلا شك أنّ الاتصال بالغرب قد أتاح للعرب التعرف على وسائل الحياة النيابية (الدساتير والبرلمانات)، كما أنهم نقلوا الفكرة الحزبية إلى واقعهم السياسي والاجتماعي، فقامت الأحزاب القومية والماركسية والإسلامية والليبرالية، مما فتح المجال أمام إمكانية تحديث المجتمع العربي.

إنّ قراءة وثائق المؤتمر العربي الأول في العام 1913 تعطينا فكرة واضحة عن فهم القوميين العرب، في أوائل القرن العشرين، لمسألة الديمقراطية والحريات السياسية والمدنية، مما يجعلنا نستنتج أنّ وعي هذه المسألة كان يحكم الموقف السياسي والاجتماعي لكثير من المهتمين والمشاركين في الحياة السياسية العامة آنذاك، باعتبار أنّ ذلك أحد مكوّنات النهضة العربية الحديثة. وطوال التاريخ المعاصر للحركة العربية كان ثمة تلازم بين قضايا رئيسية ثلاث هي: استكمال الاستقلال الوطني، والخروج من التأخر، والوحدة العربية أو آليات الاندماج.

ويبدو أنّ الثغرة الرئيسية في المشروع الوحدوي العربي خلال التاريخ العربي المعاصر، تكمن في إهمال الخصوصيات الوطنية/القُطرية والمشاكل المحلية.

وفي الواقع، بعد انهيار الجمهورية العربية المتحدة في العام 1961 بدأ ترسّخ سلطة الدولة القطرية التي أقامت في داخلها بنى تحول بذاتها دون توجهها نحو الوحدة.

في الواقع تفرز المنطقة العربية أربعة تجمعات إقليمية رئيسية، تنبثق من اعتبارات متنوعة تعكس اهتمام أطرافها بمحيطهم الجغرافي المباشر، يقع اثنان منها في الجناح الأفريقي من العالم العربي هما: تجمع وادي النيل، والمغرب العربي الكبير. ويقع الآخران في الجناح المشرقي من العالم العربي هما: التجمع الخليجي، والهلال الخصيب.

ومن العوامل الأخرى المعيقة لفكرة العروبة عدم النجاح في بلورة مفهوم المواطنة القُطرية والمواطنة العربية من أجل جعل الولاء الوطني للفرد فوق كل الولاءات الضيقة.

من هنا تفسير فشل المحاولة النهضوية العربية الأولى مع "الاصلاحيين السلفيين" وتبع ذلك فشل المحاولة الثانية مع القوميين العرب والعسكريتاريا "القومجية" التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الماضي على شكل دكتاتوريات في بعض أكبر الدول العربية (نذكر بالأخص مصر وسوريا والعراق) حيث أن عدم بناء دولة حديثة (نمو اقتصادي وفرص عمل وانعدام الحريات) ترافق مع الفشل أمام اسرائيل.

كل هذا أسهم في ضرب الفكرة العربية ومفهوم العروبة الفكري في دول الاستقلال، ومما لاشك فيه أن فشل محاولات النهضة العربية ومن ثمة فشل الأنظمة القومية العسكرية، شكّل عنصراً مساعداً قوياً لصعود الحركات الإسلامية. ضربت عمليا العروبة

والدولة تحت عنوان طوباوي وتبسيطي "الإسلام هو الحل".
العالم العربي والإسلامي يعيش حالياً حالة انفصام. فمؤسساته الحديثة في الشكل تنهار عند أيّ هزّة سياسية أو أمنية. وهذا العالم لا يشارك في الحداثة إلا كمستهلك، فإذا بقينا في المجال الفكري وطرحنا أسئلة ملحّة حول صلة الشورى بالديمقراطية ضمن المسار القاضي بضرورة تحديث نظام الحكم، ودور الدين والتراث في عالم متحول، نستنتج بسرعة أن الاستبداد حوّل عالم العرب لصحراء فكرية مع خطر استمرار البكاء على الأطلال أو الحديث عن مؤامرات دون التحلي بالشجاعة لممارسة النقد الذاتي وتحمل المسؤولية في المخاض الانتقالي الذي لن يكون دربا مفروشا بالورود بل مرحلة يزدحم فيها اللااستقرار مع الجدل الفكري والمتاعب الاجتماعية.
وإذا كان العنف السياسي ظاهرة عالمية، فإن تفاقمه في العالم العربي يطرح تساؤلات موضوعية عن خلفيته الثقافية والتاريخية استنادا لقواعد الثأر والانتقام والاصطفاف القبلي والعشائري والغلوّ الديني والحزبي. ولذا يتوجب التوافق على مدونات سلوك في التسامح والخطاب السياسي العقلاني والتمهل بانتظار استكمال المراحل الانتقالية وإلا ستصبح الحياة السياسية العربية انقلابا دائما وستمنى المحاولة النهضوية الحالية بالفشل الذريع.
لا تعد العروبة وصفة سحرية للخروج من صراع الهويات وتشاد القوميات (تجاذب ونزاع)، وهي بالطبع ليست البديل الحصري عن أيديولوجيات اجتماعية أو أممية. لكن في زمن التيه الفكري والعودة إلى أصوليات إقصائية يمكن أن تمثل العروبة الإنسانية مع جذرها الإسلامي ومخزونها التاريخي الحاضنة الفكرية ليقظة ونهضة طال انتظارهما.
بعد أكثر من أربع سنوات على الحراك الثوري العربي وتحولاته، ومع تأثر كل المحيط الجيوسياسي لسوريا بتداعياته خاصة مع تفاقم الوضع العراقي واحتدام الاستقطاب الإقليمي والفتنة داخل الإسلام والتلاعب الدولي، تقفز إلى الواجهة مشاكل العيش المشترك بين المكونات المختلفة مع صعود خطاب الإقصاء والتكفير ومفردات تحالف الأقليات والتقسيمات ومما لا ريب فيه أن أنظمة الاستبداد التي دمرت دولها ومجتمعاتها تجد في الجماعات الدينية المتشددة خير معين لدفن فكرة المواطنة وضرب التنوع الذي كان عنوان المشرق.
في الشرق الأوسط عموما وفي المشرق خصوصا فسيفساء أديان ومكونات إثنية ومذهبية تكاد لا تخلو منها دولة أو لا يخلو منها مجتمع سياسي. أرض المشرق وشبه الجزيرة العربية فيها موئل الديانات التوحيدية الثلاث وعليها تعاقبت الأقوام وفيها حصلت حروب الامبراطوريات ومنها انطلقت الفتوحات الإسلامية ونحوها أتت الحروب الصليبية. وهذا التاريخ الزاخر بإيجابياته وسلبياته ألقى بظله على دول الاستقلال ومآلاتها وفشلها في الوصول إلى الرابطة الوطنية كي تعلو على الهويات الصغرى الدينية والفئوية والعشائرية والجهوية.
تكمن المشكلة في منشئها في أساس الثقافة السياسية العربية المعاصرة التي لم تتمكن حتى يومنا هذا من تجاوز المفارقات التي تستحدثها الازدواجية بين الكيانات الوطنية وفكرة الأمّة العربية أو الإسلامية كمصادر لولاءات سياسية جامعة وديناميكيات جيوبوليتيكية. علينا أن نعي أن النسق الكياني تمكّن بفعل استمراريته منذ عدة عقود من تثبيت نوع من الشرعية الفعلية التي دفعت بها ديناميكيات سياسية واجتماعية واقتصادية مخصّصة لكل من هذه الكيانات.
ما بين "الدولة-الأمّة" هنا وهناك ومتخيّل الأمّة العربية والإسلامية، برزت تناقضات لا تزال فاعلة في قلب الثقافة والديناميكيات السياسية لاعتبارات ليست فقط أيديولوجية بل تعود إلى اختلاط السياسي بالديني في الإسلام، وكذلك لعدم النجاح في اكتساب شرعية فعلية تمحض القدرة على حلّ مشاكل التماسك الوطني والتداخل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي من خلال رؤىً وسياسات قائمة على الاعتراف المتبادل والمساواة في الحقوق الأساسية والإنماء المتداخل والديموقراطية المؤسّسية والقبول بواقع التعدّدية الإثنية واللغوية والثقافية والحضارية.

العالم العربي والإسلامي يعيش حالياً حالة انفصام فمؤسساته الحديثة في الشكل تنهار عند أيّ هزّة سياسية أو أمنية. وهذا العالم لا يشارك في الحداثة إلا كمستهلك

في المسألة الشرقية الجديدة سيطرح إذن بشكل حاسم مصير المكونات العرقية والدينية واللغوية، ويربط البعض ذلك بمشاريع التفكيك وإعادة التركيب من دون التنبه للحساسيات والذاكرة تاريخية وعيش مشترك صمد بالرغم من أنواء كثيرة عبر السنين، يزداد التخبط مع أصحاب الذاكرة المثقوبة والخطاب المشروخ لأن النظرة إلى أبناء الوطن الواحد حسب تصنيفات أيديولوجية دينية إلغائية أو حسب معايير قومية مغلقة أو مذهبية انفعالية، ستقود الجميع إلى الحائط المسدود إذا لم يبرز تدريجيا نهج قادر على بلورة عقد اجتماعي جديد يكون بمثابة ميثاق إعادة تأسيس الكيانات والدول أو المشرق برمته.

لقد سقط الرهان القومي الطوباوي والمتخيل الإسلاموي الذي يُحلّ الأمة محلّ الوطن.

لا يمكن تجزئة المشروع النهضوي العربي، فهو مشروع متكامل تتداخل فيه مهمات التحديث الفكري والسياسي والثقافي مع مهمات النهوض الاقتصادي والاجتماعي ومهمات التحرر القومي ■

كاتب من لبنان مقيم في باريس

أحمد قليج



شعر

أشجار ماكبث

وقصائد أُخر

نجلاء عثمان التوم

بلسانٍ مَشقُوق

تعالي يا حُطَمة مدّي رِجليكِ في المدينة؛
اللّسانُ كثيرٌ وفاسدٌ فعليكِ به،
عليكِ بالأشياءِ الطيّبة وبالصّدقاتِ والتبسّم،
هذه الوادعةُ الشّنيعة تفوحُ منها التّعاليم،
في المحراب ثمّة رتينةٌ في المحراب
وتحتَ كلِّ حقٍّ نُسخٌ أشدُّ عفونة،
عليكِ باللّغةِ الدائمة
عليكِ بالعَضَلةِ المشبوهةِ في حركةِ الإمعان،
لا تُبقِي على رسول
لا تُبقِي على الصّدغ
سيأتي عنكبوتٌ يعلّمكِ الأركانَ
أطيحي بهذه الترّهات
سيأتي إلهُ القفزِ على الزّانة
ضَعيهِ في شخشخةِ الثمانينيّات مع ماكينات السّنجر والصّوَر الفوريّة.
لم يَعُد لسانٌ إلا التّجربة
سنتكلّم بألسِنة النّار
بلسانِ الأفعى المشقوق،
سنُمرِّر السّمَّ إلى ساقِ الحلفاء
ونَلدُ جلودَنا بأنفسنا،
المشانقُ غُرفُ توليد
ومن الجثّةِ يَخرجُ الليّلُ في الظّلمةِ الأشدّ،
يَخرجُ السّوادُ من العتمة
وفي العتمةِ يسير
هذ المهرِّجُ المتوحِّدُ يَسعى بأضَلّ
يَسعى بالمحو،
فعندما يتجدّدُ الطموحُ تَسقطُ الحكمةُ تلقائياً
تُولدُ القوانينُ تحتَ عَجلةِ الخذلان
تَحدُث الأجنّةُ في الطّفرةِ والشّاشاتُ ملطّخةٌ بالأرحام
يأتي الإقبالُ دامعاً
خَلقاً جديداً بلا أصل،
لسانٌ يبدأُ من العُجمة
كلمةٌ صَحراءٌ خاليَة،
تبدأ الأعصابُ من عضلةِ الفهد،
من غيبوبةِ المادّة،
من قرحةِ الرّئة، من الأذى والصّدّ،
من عَلاجمَ روحيّةٍ وكثبانِ الضّفادع المثقوبة.

ها هو الغَد
يتعرّقُ نافذَ الصّبرِ في سريرةِ الجَائحة،
هذا الغَدُ الميّتُ منذ الآن
هذه الجثّةُ التي ننتظرُ
وإيّاها نَخلق.

لأنّ اللّحظةَ عَديدةٌ إنْ حَدَثَت

الدّمُ المفتوحُ ولا يُشبِهُ حَدقة،
الدّمُ الحُرُّ من الرّغبة،
الدّمُ الأوّل
المعطوفُ على الفراغ.

تَبدأ المسطّحاتُ
وحيدةً درجةَ أنّ البساطةَ خاويةٌ من ذاتِها،
بطيئةً لأنّ الزّمنَ خطوةٌ قد لا يَمشِيها الحُلمُ في الفراغ،
لأنّ اللّحظةَ عديدةٌ إنْ حَدَثَتْ
مثقوبةٌ بالوَشَكَانِ
تَسيلُ منها العودةُ إلى ألمٍ رخوٍ
حيث تَبِيضُ الأرففُ الهالةَ المنخورة المحيطة بقلبيَ الآن.

الكتَفُ المتاهةُ المدرّعةُ بعينٍ أكثر من البَصَر،



حسين جمعان

بمراحلَ لبُوَاتٍ،
بالكثير من الله في حناجرَ مُنمنَمةٍ
بالنّار.
أغْرَقُ حرّيّة
يا ثمرَ الآلةِ يسّاقطُ صَوَعانَ الوجه.

أقْطعُ الطّريقَ بجسدٍ أضَلّ.

حِذاءٌ شاخصٌ في صَهدةِ اليوم،
فقرٌ أجهلُ مِن حولِه،
ذليلٌ كجمرةِ الشّرح.

النّبضُ المسفوحُ على دَرجِ القُبلة.
برقُ الانسلاخِ عن القُبلة.
مَرْسُومُ الخدِّ دمعةٌ بصَريّةٌ تمخرُ العالَم
وأكثر.

فيكَ اللّغةُ،
وبالإعراضِ والطّيرِ أجرَحُ.

أُنْزِلُكَ رعبي يَرعَاك.

الزّمنُ يَموءُ العراءَ
بلا وطأةٍ تحرُسُ ولا مهماز.

يَنجمُ الأغيارُ يَنجمُ الأغيارُ
من كلِّ خطوةٍ،
ومن السّير!.
في كنزِ البَندولِ كلِّهِ ليس ثمّةَ إلّا
«كلُّ لحظةٍ أوثاقٌ، كلُّ مُقيّدٍ قَيْدٌ»،
أشجارُ السّيرِ قُدُماً إلى السّيْر،
يا بَندولاً
هو العينُ تَنهَبُ الموسيقى
وتَنبُع.

قَلبُكَ الجبلُ بَعدَ الجبال،
قَلبُكَ صوتي يَنْضُوكَ ويَقطُرُ عنك.

في مِلحِها المعزولِ عن الأرض:
الدّمعةُ تَرْقَى إلى صحراء.
الضّواري تُوْرِقُ من النّبض؛
أورغازْم رَمليّ

في لحَاء اللّيْل.
جيشُ العناقِ يَعبرُ دمعةَ الجسد.

كلّما يَقعُ المقدُورُ في فتنة اللّحظة
وتَقعُ اللّحظةُ في بسالةِ اليأسِ
يَبدأ المستقبَل.
الكنايةُ سفينةُ أشباح
في شبحِ بَحر.

مِن تهافُتِ الإفصاحِ على رئةٍ تجنيهِ من الصّمت،
مِن تُوْرِقُ الكلمةُ من كنَفِ الحاصدِ والحصادُ يَسْرِي،
مِن خَصّني بأحمالي دُونَها ذؤابةُ النّاس،
مِن سطرٍ أعتى من دينونةِ التّكرار؛
أطيرُ مع الجَذرِ ألهجُ مع الأفاعي
بتوَهانِ الشّبق.

لِنَقُل ليسَ بالموتِ ونقيضِه،
لِنَقُل بالموتِ ومُهشّماتِه،
في مسيرةِ العادة

في الرّكضِ داخلَ الثّانية
إملاقُ التّذكّرِ والوصفِ الذي لا تُوصَفُ
هنّاتُهُ وعظمتُه.

لعلّ الرّيشةَ طارتْ من شقاءِ ڤان جوخ
إلى الطّير.
لعلّ العالم قَبلَهُ مجنوناً أو كان بَعدَه؛
ربّما قمحُهُ المعتلُّ مجزرةٌ سحيقةٌ
يَقودُها الإنزيم.
هل بفَضلِهِ التّنكيلُ وعذابُ الميوعةِ
الدّقيق؟
مِن محراثِ يدِهِ قفَزَ النّومُ إلى عُزلةٍ
كانت لغةً طوفاناً مَخدوشاً بالزّهور،
مِن العالم الذي لا يُصغي خصوصاً لأُذنِهِ
الذّاهبةِ مع الرّيحِ والدّم،
مِن أبديّةٍ معمولةٍ من عَصا وجزرةٍ
مُستحيلاتٍ أرضيّة.

صادفتُ نظرةَ ولادتي فيَّ؛
المضارَعةُ الواقعيّةُ تُشفيها من النّظرِ
ومنّي
ونصبحُ فجأةً ماضينَا.

في كلّ صُدفةٍ لا تَحدُثُ يُشرقُ تَحوّلٌ
جَوْعَى عُضاليّون
عينٌ تسيرُ قلبٌ يَركض
وبسرعةٍ وفي بطءٍ نَصِلُ منها إلى
الغرَق.

مجرّد حياة:
مسيرةٌ مَسحولةٌ على شوكةِ الإخصابِ
المملّحِ بالهاويَة،
تمشي النّبضةُ وحيدةً عابرةً أميالَ
الخفقانِ والدّحض؛
رئةٌ ضالعةٌ يأكلها الفَهم،
بخارُ المنسأةِ الصّاعدُ كلحنٍ من الصّقورِ
الحمراءِ تُدوِّمُ
في رئةٍ ضالعةٍ في لحمِها يرنّ من آلةٍ
إلى آلةٍ إلى عنفوان.
يا حبيبي يا لبوةً محجوبةً تَنشبُ تحتَ
سياطِ المحجوب.

عينٌ وأكثَر
أسفرَت عنها يدُ الصّرخةِ المعقودةِ على
الصّليب،
يَرَى الدّمُ نفسَهُ بنفسِهِ
وترتجفُ الفكرةُ مثلَ سمكةٍ في الهواء.

الثّقوبُ بين الكلمات
حيثُ تُقلِعُ الجُزرُ المتفشّيةُ أكثرَ من
التّضحيَة؛
أقتربُ وأهدّد
أنا دفّةُ الفيضان.

رئةٌ مسرورةٌ في حوضِ زهورٍ مُزركَشٍ
بالقيامة:
الكانْـڤَاس المُرْفَضُّ على الصّليب
تَسيلُ الحضارةُ من جفنيهِ المخذولين؛
حديدٌ على مَسِيحٍ على خشب،
ومسمارُ الرّسْغِ رَاءٍ الكونَ بجسمِهِ
جاهلاً مَعنَاهُ
قبلَ أن يَكُونَ ذهولاً مُرسَلاً لتنضيدِ
الرّسل.

ثمّةَ صورةٌ ذهنيّةٌ تتبخّرُ وتفورُ حولَ
كلمةِ مسمار،
حصاةٌ ركلَتها أُمّي
وغاصت في الزّغب.

مُسترَقّة بكَتَفِ السّاعة
أَعُوْلُ الماضيَ بالدّمِ والقيح
والقمرُ في صمتِهِ اللّئيمِ يأكل.

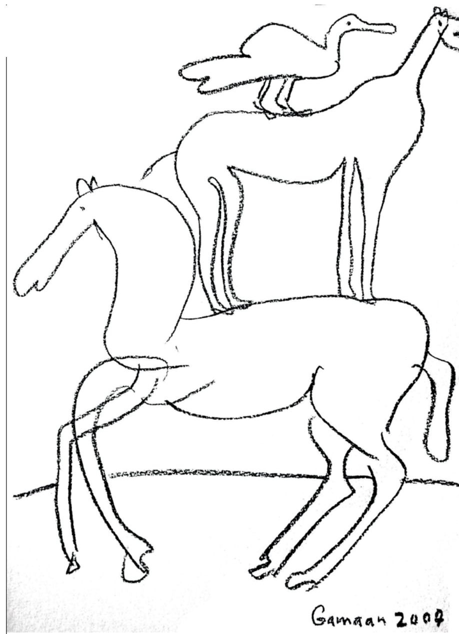
أَتُوقُ إلى النّظرةِ تتبرعمُ في الخفاء
وحينَ تَصِيرُ يَصِيرُ معها مَنظورُها
وحينَ تَفْنَى يَفْنَى.
مِرآتان سريعتان شَرِهتان
تَعكِسان العتمة
مثلَ شمسٍ جميلةٍ تَنشُبُ في قلادةِ
الكمال.

حِينَها الجسدُ مسكوباً في كتابٍ؛
مُفهرَساً وتنويريّاً وقابلاً للفَهْم.
اللّغةُ في هيئتِها الكاملَة، والزّمنُ هو
تلك اللّحظة. تُصبحُ الذّاكرةُ نسياناً
كبيراً مُكوّناً من لحظاتٍ حاسمةٍ مُكرّرةٍ
مُنتظمةٍ؛ والقلبُ تذكاراً من مجهولٍ
لمجهول.
الرّكضُ في ظِفرِ الكابوس،
وفي المهدِ شجرة تَبَلْدِي مسحورة
عاديّة
تَنجُو تحتَ شمسِ اللِّيْرِي
منذُ ستّمائة عامٍ،
أهطُلُ بلا أدنى جسمٍ
من ظُلْمَتِها المصْمَتةِ تحت قوسِ النَّوْبَة
والجبالُ أبابيلُ منحوتةٌ من مادّة الزّمن.

تركضُ الغريقةُ بالنّيران
لترنّ كلمةٌ في هواءِ كَادُقْلِي؛
كلمةٌ عاديّةٌ
لا يَملُكُ الربُّ الفقرَ الكافي ليَسمَعَها.

إذا كنتُ الآنَ جثّتيَ المتخثّرةَ بانتظارِ
أوّلِ مُترمّمٍ، فإنّ المراوَغةَ الوحيدةَ
الممكنةَ أنْ أَكُونَ بذاتِ الوقتِ هذا

حسين جمعان



الضّبعَ المتردّدَ المنعكسَ في بؤبؤِ عينِيَ
الميّتِ، معتقِداً أنّني منذُ الآنَ جزءٌ من
توغُّلِهِ النّظيفِ في هُويّتِهِ الجديدة.
أَسْرِي في ذاته، شِلْوِي شِلْوِي قطرةُ
جنونٍ وحيدٍ في ظهيرةٍ بيضاءَ لالُوْبَةٍ
تَستدرُّ رئاتٍ وكهفاً وهشّةً مخلَّدة.
حَيْضٌ قوامُهُ الصّحَارَى النّاصعةُ بندوبها،
من حيثُ أقبلَ وجهٌ محضٌ وكأنّهُ ليس
حتّى وجْهَ لاشيءٍ، ومع ذلك؛ أيْ لذلك،
وجهُ دمٍ وغُنوصيٌّ كقِطّةٍ أدركت تَوْهَها
وضعفاً كثيفاً يَنشبُ في الأعناق. إذا
كنتُ الآنَ جُثّتي، لو أنا إذَنْ حياتي
أَنْدَمِجُ من المنظورِ بتَركاتي وجهلي
إلى عين النّظر، لنَظرتُ فقط إلى تلك
النّظرة.

لا يَشغَلُني أَعثُر

يَتحركُ الأفق مثل زهرةٍ تُغلقُ تيجانَها
فجأةً،
لا يَعودُ أُفقاً ولا هي زهرة،
ليسَ بَعد
ليسَ في الماضي على الأخَصّ
منذ يَندثرُ المنظورُ في النّظرة وتَختلجُ
فيه
مُنذ يُولدُ الكونُ في الشّخصِ مراراً،
مُنذ صارَ الإصغاءُ هو المعنَى
مُنذ تَدحرجَ الكونُ من قبضةِ الخجَل
وتَراكبَت الأمواجُ يَحضُّها الخشبُ على
الطيران،
الخشبُ الطائرُ في دَمِ الغابات
الخشبُ الدّفينُ في حَوْلِ النّسغ
مُنذ البَحرُ طائراً والطّيرانُ الغرَق.

بجَحفَلِ العُثورِ والقَنص، يأتي العذوبةَ
مُنهمِراً، يأتي في الهُلاَّك، في أعيُنهمُ
المفتوحةِ يأكلُ منها الطّيرُ والوحشُ
والأزَل. تَسري الخسارةُ فيهِ، إلى جذوةِ
الرّوح، الرّوحُ الرّوحُ انْطَلَسَت، في
مَعرضِ السَّرَيان. لا مَسغبةَ لا حِرمَان،
عندَ كعبةِ الصّميمِ يَتخرّجُ الجَسدُ من
يَرقةِ التّجسيد، يَطِيرُ في جُثّتِهِ سالماً
مُصفراً بنَّاء.

التّفادِي ينالُ، التّفادِي ينالُ؛ قاعدةٌ
ألهَبَها الاستثناء.

لا يُمكنُ تَصوُّرُ الشّيء على الحافَةِ
بوصفِهِ الشّيءَ ذاتَه، لا يُوجَدُ شَيٌّء
على الحافَة؛ الحافَةُ هي التحوُّل، هي
السّقوط. الحافَةُ فارغةٌ، كلّيّاً، بانتظام.

عندما يَطيرُ وَجهُكَ في الدّم ـ مُطلَق
الدم ـ ويَصيرُ عليّ أجمَعكَ من شَأفةِ
الغرَق، لا يَشغَلُني أَعثُر، يَشغَلُني طرَبُ
الاستعارةِ وطرَبُ الظّنّ.

اقترَبَ العدُوّ، محمُولاً على عربَةِ
الآلهةِ اقترَب، والموتَى ما زالوا في
الأرحَام، اقتربت الحيتانُ تَسعى في
نبضِهِ العميقِ الرّطب، جاءَ ورُمحُهُ
يَقطُر، مَرحَى يا رئة، يا رئتيَ الفخريّة،
مَرحَى يَتُها الزّهرةُ الزّهريّة، تَزحفُ
في جَحافِلِ السِّمسمِ والنُّقوش. طوبَى
له، طوبَى لدَيمومةٍ تَنسجُها الدّيدان،
مَرحَى يا دمِي يا حنّاءً على حجرٍ غريبٍ
صارمٍ وحقيقيّ، َمرحَى يا لسانيَ في
ديربي الثّعابين، اركضْ أيّها اللّسان،
اركضْ اركضْ، إلى القارعة، زاحفاً مثلَ
نوبةٍ تحتَ القصف، اركضْ مع الألسنةِ
الشّافية تسيلُ من المنجنيق، يَلزَمنا
جَبل، الجبالُ تركض، الغزَالة جاوَزَت،
جِدَاد الوادي البنّيّ المبقّع يطيرُ مع
الثّيران الحمراء.. مَرحَى مَرحَى لكلّ
هذا النّسيان.

الحكمةُ المبذُولةُ مُغلَقة.
أنا الرّئةُ الخضراءُ في العتمة.

أيّها الميّتُ في قبرِه، يا ضِمادَ اللّحد،
أيّها الجَنينُ العظيم، أيّها المانح، أيّها
الأمُّ الكبرَى، يا إسعاداً يَنهمرُ منذ الآنَ
في ضَميرِ المشْي.

السّلامةُ خِضَمّ، النّجاةُ إنذار.

في سدّة الرّدميّة

عندما خَرَجتُ من رَحمِكَ الآليّ
وسَقطتُ في مُرضِعتكَ الغيبوبة
وشُجّتْ عينِي بثَمودِ النّظرةِ نَظرَتَيها
وشُجّتْ من رَكضِ عَينُكَ في عُرْيِ

دَثِّرُوني دَثِّرُوني.

عندما صَيّرتَني أمَّك بمَنجي قُدرةَ الدّثار
وصَيّرتَني جِلدَك بمَنجي قُدرةَ أُحِبّك
لم تَسألْ ما تَناثَرَ مع خَطاطِيفِ الجِفط
عن التّوأمِ طارَ من رَحِمك تَوأمِي حَمَلَ
اللّوحةَ كلَّها وسَرَى إلى خَرائطَ شَفَّتْ
مُعلّقةً من عَراقِيبها في سِدرةِ المنتهَى،
أقلَعْنا في صرخةِ الدّم،
طِرْنا كهرباءً مجرّبةً في السُّرَّةِ العَظمِ
تمشِي بين الكواكبِ وضَواري الدّمعة،
لماذا أنجبتَني آلافَ المرآت أثناءً أثناءً
فلا سَكَن
لماذا تَبرَّعتَ بمادّتِك الخَالقيّةِلتُنشِىءَ
حقلاً من الدّبابيسِ الجَوفيّة في حَقْوِ
الوصَال
لماذا طِرْتَ في قبضةِ القابلةِ ناهشاً
ظفرَها اللّبنيّ،
لا يَعُود الدّمُ كافياً فأخرُجُ من رَحِمِكَ
في قِماطِ البِرنْجِي
لا يَعُودُ الوقتُ كافياً فتَلِدُني في الزّمان،
أخرُجُ من الإطلاقِ إلى السّديمِ غَيبوبةً
مادّيةً كما خَلَقتَني أتبخّرُ خارجَ الإدراك.

حينَ لا أفكّرُ فيكَ أتحوّلُ إلى شجرة،
وإذْ تدركُ جذوري أيَّ هاويةٍ يَهوُونَ
تَسقطُ الخلفيّة
أَصِيرُ شَجرةً لا تَحدُث
سلسلةَ استحالاتٍ باقية
سلسلةَ لاعَوداتٍ بفَضلِكَ غيرِ المفكَّر
فيه،
ثم تَتوالى الكُنوز؛ تَخرُج التّرّهاتُ من
فمِي الضّفادعُ من مُستنقَعِ الشّهوةِ
تَسيلُ من بظريَ الحفائرُ وكَمايِن
الطّين، تهجمُ القطعانُ تهجمُ سياطُ
الرّغبة
العينُ غوّاصةٌ بَحريّة
الشّجرةُ منجنيق
نَتعاضَدُ على القانون
نَعثرُ عليكَ في سدّة الرّدميّة ونَفتِكُ بك.

العُروق النّديّة الصّغيرة الخائفة

أتكلّمُ بك لا أقولُك،
في شأنِكَ الكثيرِ أضربُ وفي شأنِكَ
الواحد: حبيبي مجرّد إمكانٍ أتحدَّر منه،
بفضلِه أكلتُ حزمةً من الآلهة وطبختُ
ديانةَ العين؛
في الغابةِ، التي لم نَزرع، تُضرِمُنا
العائلةُ في الجوِّ ويَضعُنا الأصدقاءُ في
عرشِ الرّخويات.
أقولُ لبيّكِ يا علومَ القسوة لبيكِ قوافلَ
تحملُ الصّحراءَ في الصّحف،
كُنّا سنحيًا بفضلِ الخلَل
كُنّا سنحيًا لأنّ شيئاً تعطّل
إلّا أنّني أطأ الجزيرةَ الطيّبةَ برُوحي
فتصلُ أقداميَ المشعِرةُ أقدامُ
الشّمبانزي إلى جذوةِ الصّهد،
أضربُ أقدامي في الأمَل فتبزغُ فوّهاتُ
المكسيم،
ماتَ الماضي اتّصالاً بالقبورِ الذّائبةِ في
عُصارةِ الحنوط،
وجاءَ المستقبلُ في قماطٍ يتدلّى من
فكِّ البادية،
وفي الكرَمِ جاء، في الكرَم ليس في
النّبع الكرَمُ في البركان
وفي أشهَدُ معنى النّبعِ في مادّةِ البركان
أرى العُروقَ النديّةَ الصّغيرةَ الخائفة
تَتنادَى
أرى الماءَ يهتفُ الأرض الأرضالأرض
أرى الدّوّاماتِ تَنجرفُ في النُّهَى
أرى النّبعَ يتكلّمُ في لغةِ العينِ كلامَ
العين.

في مَوضعِ الجناح

مَودّةٌ في أساسِ التعذيب:
موتى في مائدةِ اليَد،
إشجارٌ في سدّة الطلاقة
في النّمورِ اليتيمةِ تأكُلُ المآذن
في غُنّةٍ هجَرَتْ صدرَ الواقفِ
المخاطب؛
آه يا خطوتيَ الأشَدِّ إيلاماً من أنها بلا
قَدَم
الطُّرْقُ تُؤلمُ مثلَ طائرٍ يتعمّدُ النظرَ إلى
في مَوضِعِ الجناح.

سودان

صوتُكَ جائسٌ في الرّتق
الثقوبُ المسيطرةُ تَجرحُ له المؤانسةَ
من الجذعِ والتفريع،
له مرحُ السّرطاناتِ المتعاكسةِ
تَعقرُعمودَ النور،
له جحفلُ الطلَبة خِفافاً ثِقالاً ضدّ
لمباتِ النّايلون.
صوتُكَ القارُّ في الكفرِ بالحياة،
في التيّارِ التحتيِّ لقيامةٍ تَحملُها
الجرذانُ على ظهورٍ عاريةٍ إلى شمسِ
الوباء.
هاجَرَ فيكَ الوحشُ تحتَ عين الرّادار



حسين جمعان

واندثرَت لُغاتُه في صحرائِك؛
لا نَحدسُ منكَ إلا عُواءً فاقداً الشّيء
إلا شيئاً يُشبِهُ البهجةَ المتروكة، أو
الرَّثاثة، أو غيلانَ السيّاب
ضجّة فظيعة،
لكنّ صوتَكَ إبرةٌ في كومِ خرس
طرينَاه في أحاديثنا أنا والحيّة
والتمساح،
كانت الحيّة مَريضةً وممتلئةَ المعدة
والتّمساحُ غيرُ راغبٍ بالمرّة
كأنّه أكَلَ جميعَ عَمّاتِه،
كنّا براكينَ خامدةً
غرْقى بلا تولٍ ونُدرك بالدّقةِ ما فعَله
بنا الله؛
القدرُ ضخمٌ مثل جرفٍ ضخم
يَرتعبُ اللّبلابُ من زفيرِهِ ما الطّائلُ ما
الطائل؟
حين هربَ العُتقاءُ بَقينا مع هرّةِ
الرّسول
حين هربَ الملوكُ بَقينا مع البَرْكَلِ
والجُعرانِ والرَّخَط والدّيُوم
حين صَفَنت الجبالُ عَثرْنا على بسطامَ
مُضرّجة
وَجَدنا مُستقبلاً غارقاً تحتَ دَهب
النّوبة
وَجَدنا بلداً مُهترئاً صعلوقاً جميلاً حارقاً
مثلَ تَموتْ تَخَلِّي

لم نَعثُر على قَدَمٍ بل سَرَيان الجرْف
لم نَعثُر على السَّيرِ بل حرارة البول
سِرْنا إلى الغيبوبةِ الضخمةِ
حتى تقرَّحَت الأرضُ
حتى التهَبَت الخيران
حتى دامَ الألمُ وانفجرَت الأسمال
يا لنا من أفيَال.

أيّها البلد المجرم،
أيّها القاتلُ؛ تأتي على أمّي وتأكلُ
رحمتَها التي وَسعَتك،
صحيح، تأدُّباً، لم نَطلُبْك في المعنى،
لكنْ حتى اسمُكَ لم يَعدْ ممكناً
ومثل الزّمن، أي الحوت، صِرتْ بئراً
دمعيّة تَفورُ فيها الأغاني والرّموز
تَفورُ فيها كَثرتُك يا حبيبي،
قِيلَ إنّك مَضفورٌ مُلتحمٌ مُتعرّجٌ مَنفوشٌ
وتَقف زَائغَ البصرِ مثلَ نعامةٍ في جناحِ
الحالم
تَفورُ وحشتُكَ وتَخرجُ من أطرافِ زغبكَ
الكواكب
لأنّكَ واحدٌ ممتدٌّ، واحدٌ بلا حَدّ
ولولا زركشةٌ خَرساءُ على حَقويكَ ما
أدرَكنَاك
لولا أهلّةُ الدّمِ على تيجانِ القمح،
لكنْ، ستظلُّ الآنَ محجوباً عارياً مقتولاً
لأنّ بَينَك والله طبقاتٌ من الآلهة
وكلّهم يخدمون في سلاح الجوّ.

إنسان

جمالٌ كيديّ
نبذَةٌ عاطفيّةٌ للهُواةِ فقط والقَمَر
مجرّد سعادة مغفورة لم تُرتَكَب.

النَّظرُ خرقةُ المنظور

مُظاهرةُ الخدرِ في قبضةِ الأربعينيّات
مَساقطُ اعتزاليةٌ وترجيع
الإغراقُ لكنَتُها والغرَق
يا شرْنقَاتٍ حرَّة،
يا مُثلثاتٍ شديدةً تُلخِّصُ البرقَ المنعقدَ
في يَدِها
تلكَ هي الموسيقى
تلكَ هي أسيلُ أو لا أسيل
تلكَ هي العَشّة
تلكَ هي الفلّاتية الأخيرة.

هناك
المحمِيّةُ بالواجبِ الظنّيّ
وكالخَفقانِ تَهربُ
هناك
الضّروريّة
إذْ نَعجَزُ إمّا عن الوُصولِ
أو لأنّ خُدّامَ السّاعةِ يَحمِلونُ القرنَ
الحاليّ
ويَزحفونَ تحتَ إبطِ الغَيبِ
لإمتاعِ هذا اللّفظ
هناك
كُنّا في عينِ شيء

وما نزال.

سَنَهَبُ المسيحَ من ثقوبِ راحتيه

رُوحيَ المقتلعةُ من الأمّ،
المشرَّدةُ في الكتمان،
المصكوكةُ في فضَّةِ الجدري،
تَنمُو في غزلانِ الصّواعق:
مَن يَصلُكَ يَصلُ ذاتَهُ لا يتعدّى،
مَن يَضلّكُ يُحرَق ولا تجربة،
ويُفقرِكَ سَعيُ نجمتِنا إليكَ حتى تَصيرَها،
ويُفقرِكَ الوحشُ يَكتملُ بك
وعندما نَسقطُ مِن أعينِ الغزلانِ دَمعاً
عاديّاً تترنّحُ فيه الجبال
تترنّحُ وتسقط.
لتَذهَبْ إلى الجحيمِ إلهي
لتَعِشْ بقيّةُ الآلهةِ على الدّيدان
سنَلمعُ إلى أن يرَانا فرخُ القَطَا
ومِن مِنقارِهِ سُكارى نتهاوَى على الوادي
في أمانِ الحنجرةِ في أمانِ البِجَا
وننسى أوّل ما ننسى سعيَنا فيك
ونَبرأ أوّل ما نَبرأ من ختمِك
ونتحرّكُ في قطيعٍ ضخمٍ يصلُ بين جبلين صوتيّين
قطيعٌ من الصّدى
كلُّ مَوجةٍ تركضُ في جهة
كلُّ مَوجةٍ خَلقٌ جديد
ولا يَعودُ هناك شأنٌ صادرٌ عن صُدورِهِ عنك
سنَهَبُ المسيحَ مِن ثُقوبِ راحتيه
سنأكلُ القبَس آهٍ هالَتُكَ الرّبةُ المسهوكةُباللايفْبُوي
وأرْفُفُ الجَمالِ التي تُغطّي جمالَك،
نَنزعُ شأفةَ الزّنود، الخوارجُ حُبيباتُ العرَقِ في مَهاوي النبض، بَرموداتك
السّبع، التماثيلُ تَذهبُ في لوِثْر
العُنق، مَناطقُ الغيب، مَهابطُ الإنسانِ
والأصنامُ تدور
ولا يَعُود ثمّة جُوع
ولا ثمّة إلّا جُوع
ولا يَعُود إلّا ها طريحاً جنّة النّبات
ها جميلاً حبيبي
حانَ مُعتنِقوك
حانَ مُعتنِقوك
لكنْ، مثلَ صقر البوليترز 1984 سننتظر قليلاً، بوقار.

جبرائيل

في سقيفةِ قلبي
بسيطاً حاداً مثلّ مأموريّته،
أحاديّاً بحيثُ يَستحيلُ قوله.
قلتُ لنُنهي المسألة؛
رُوحي خاليةٌ ومتورِّمة
وصورةُ حبيبي محفورةٌ في الورَم مثلَ وَسْمٍ في بطنِ ثورٍ أحمر،
وكلّنا لم نَحدُث
مثلك تقريباً يا جبرائيل.

أنا لِثامُك

أيّتها الرُّوح الجائعة
أتضوّرُ لجُوعِك
لتفسُّخي لديكِ وتفسُّخكِ عندي
بيننا برزخُ الجهلِ والحقّ يَعصفُ من النواحي.

لسْنَا عُشّاقاً بل قتَلة

بل لبوةٌ حول إلهٍ جريح؛
العضَلُ مَشدودٌ والقدرُ يتقوَّس في البؤبؤ.

مَجزُوء

نَسهَرُ إليك
المختصَراتُ والقواميسُ الرّهيبة
لترقيقِ مَعناك
ترجمةُ الفصولِ الأربعة
كلُّ أبيضَ رهينٌ مُضمَرُ اللذّة
المناشيرُ الحلوةُ الفاسقةُ ابنةُ الشّعاعِ الملول
تتألّقين
يا مريمَهُ المذعورة
تَدلفينَ إلى الشّعبِ النائمِ في ندبةِ الكهف
كم لبثوا؟
تحسَبينهم جنّةً في ذهولهم عنها.

غريغور ماندل

التوجُّه إلى الغشاء،
إلى كلمةٍ محيطةٍ مُشقّقةٍ يَدرأها طوفانُ ألسِنتِها الرّخوة،
إلى تَسافُدٍ طويلٍ بين الأدمةِ والإبرة كافكا،
إنّها طريقةٌ أخرى جافّةٌ للكتابةِ عن شيءٍ لزج



حسين جمعان لا

يَلبث، مخترَقاً بالذّكاء المقرور،
بالتحوّل من صيرورةٍ شديدةٍ إلى معبودٍ
كئيب.

في أنبَلِ الفُرصِ لا يُساوي الطريقُ
مسافةً بين نقطتين
ولا يُساوي ضجراً يأوي كنوزَه في العراء
مشوارٌ كرتوني يَبدأ من بيضة أو
دجاجة الاختلاج
مِن عَلَقِ مدارِ السّاعة يشحّمُ الثقبَ
المطِلّ
من شُقوقٍ عُصابيّةٍ تنضجُ وتتقصّف
بالوجودِ الجائسِ الكثيفِ للصّوتِ
البشريّ،
مِن شمسٍ صغيرةٍ تُشبِهُ سُهولاً معيّنةً
في مارْشات إسماعيل عبد المعين.
في أنبَلِ الفرَص
مثل فرصةٍ بساطةٍ واحدةٍ مُهمَلةٍ كهواءٍ
أُدرجَ في أولمبيادِ ڤرجينيا وولف
تسبحُ فيه من حجرٍ لحجر
لا تُوجَدُ مسافة،
تُوجَدُ نظرةٌ طويلةٌ أبديّةٌ
تَلِدُ الأبديّة.

الضّحكةُ بنيانٌ في الجوّ،
معمارٌ سياسيٌّ
مُضطردٌ
يتفشّى
مُنتصراً
وحيداً على
تهمة الحرّية.
يَنطوي الكتابُ على قداسةٍ ضروريّة:
التعفُّن البطيء
لذلك نفرَحُ بالكتبِ النافقة،
بالأفكارِ التي نُعطِيها احتضارَها فنَحميها
من الخلود،
بمصائرِ الحلِّ المقيَّدِ إلى مِسحَلةِ
الجوع،
بالاصفرارِ المعقورِ لهياكلِ السّحَرةِ
السّنسكريتيّين،
يُحرِقونَ حيّةَ الحقيقةِ التي أكلَت
أرواحَهم
وينامُونَ في العراءِ مُستخِفّينَ بالإيمانِ
الذي دفنُوهُ مع غريغور ماندل في
حقلِ بازلّاء.

حتّى لو الشّجَرة

حتى لو بمزيدٍ من التفرُّعاتِ والشّقوق
حتى لو أُطعِمَت الأفعى من عُشّ الذي
آمَن
حتى لو تخلّقَت النافذةُ من علَقةِ
الذّهن
اسمَعْ
هذه المعادلةُ صحيحةٌ، بل إله
سيظلُّ كلُّ شيءٍ كما لن يكون أبداً
بالمرّة
سيَظلُّ كلُّ شيءٍ على أسنّةِ القَيد
لأنّ الشّجرَ شيءٌ والشّجرُ نفسُهُ شيءٌ
آخر يا أرخميدس.

لثّة

تلك البئرُ المضلّعةُ هنا عندي والتي
لثّةُ الوجودِ المكشوفةِ للبخار الموَلول
في مصنع اليوم، في تخرُّجِ الأنابيب
الحيويّة من النّظرات المنكسِرَة والجُمَل
المبتورة وتكرارِ وجبةِ الخطر المشترك
الأعظم. انهارَ مجازُ المنْسَأة. يا كراريسَ
النّضج المتصرِّمةِ حول جثّةِ النجاة،
الكَعْ الكَعْ يا تيتلَ الأسفارِ القلويّة، على
ظهرِكَ كتبُ القانون وأحمالُ العشائر
وجمَلونات الطفولة؛ مَتروكةً لتجفّ في
ترعة مبروكة، لا أعرفُ كيف أكشُطُ
ملحَها من لساني.

بكهانةِ العدلِ المكتوبِ على ظَهرِ
وحيدات الخليّةِ تكراراً متنوّعاً فريداً
لسلسلة العمل؛ أتحوّل. وبمُزعةِ الجبَل.

بورتريه الشّذرة

أستَرِقُ الوَجدَ
لئلّا أستحِثَّ المصائرَ الخفيّةَ المنحدِرَة،
اللّيلُ نافورةٌ من الخفاء.

التأَمَ حشدُ النّبَاتِ البربريّ

الغابةُ بذرةٌ واحدةٌ موّارة.

قمَرُ الاكتئابِ يَدورُ حولَ نفسه
يا للدّمعةِ المنيرةِ ذاتياً.

لا لزومَ للغُفران
الواعظُ يُحتضرُ في أحلامِ قطٍّ بريّ.

كلّ ما نَعرفُهُ
فيه شيءٌ من ذلك الهربِ من عذابٍ لم
نَجد القوّةَ لتركِهِ يصير.

النّيلُ لغةٌ ناطقة.

أسيرُ في شوارعَ غارقة
الجليدُ يَختصرُ التاريخ والجغرافيا
أنا العالمُ الثّالث بحذائِهِ المبتَلِّ اليتيم.

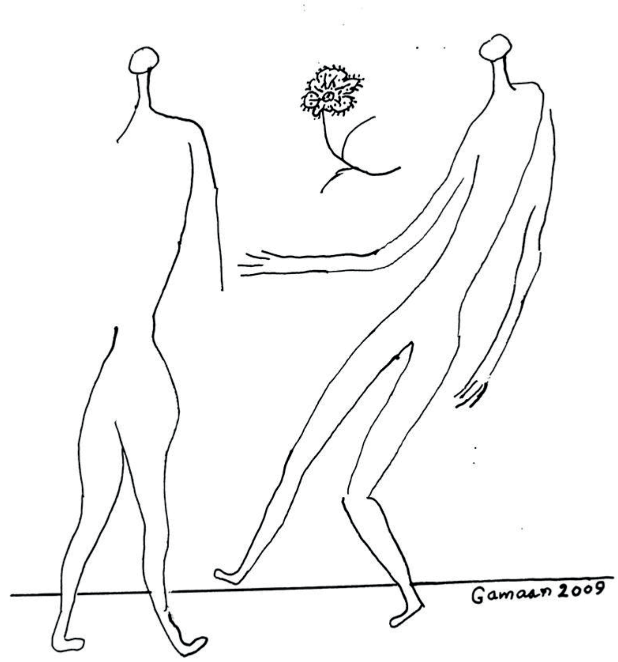
عراءُ المجرّةِ يتوغّلُ في الجزيرة
قيعانُ البلطيقِ ترتفعُ عن سطح البحر
المحارُ التَهَمَ نجمةَ الصّباح.

الرّخويّاتُ في الخلفيّة

رأيتُ الرّجلَ أخرسَ مُرتجفاً يَتلو قصيدة
لجمهورٍ في كرْبٍ عظيم،
التنّين يخرُجُ من فمِهِ في جَزرٍ ومدّ
والجمهورُ يقتربُ يبتعدُ تحت صَهدِ
الكلمات،
تقوّسَ الأفقُ واحتَدّ
وارتجَفَ كلُّ جَنانٍ مثلَ هرٍّ جبليّ
عبرَ التنّينُ فوقَ رؤوسِ النّبات
مُتعطّشاً لمملكتِهِ الفريدة
مُزدرياً إيّاها كونَهُ عارٍ دونها
قالَ لكلِّ نبتةٍ تكلّمي لأراها
تكلّمي يا درَنات الماء
تكلّمي يا سلعوّةَ درب الأربعين
لكنْ انشَقّت الحملةُ عن أسطوانةٍ
إداريّة؛
من كان لديه جثّة ليَنطِقها الآن أو
يسجّلها في الكمبيالات،
قال طبيب إسماعيل باشا وهو يُجري
معادلةً حسابيّةً في رأسِهِ: جَمعتُ
ستمائةَ أوقيةً من الغضَاريف،
آذان الشّايقيّة، يا مولاي، ليست سيئة،
لكنّها تتعفّن بسرعة.
الرّخويّات في الخلفيّة
بطيئةٌ بطيئةٌ مثل اللّغة
وفي آثارِهَا على الرّملِ تهدِرُ البريّةُ
بالترجمة،
ما هذا العالم؟
البطنُ المبقورُ الحافلُ بالطّرائدُ هذا
العالم
القمَرُ مُرقّطاً يَسبحُ على ظهرِهِ في
البازَلت العالم
يَضربُ بفخذيهِ مُستكشِفاً فلزاتِ
التّوصيلِ الجيّد
مُنقّباً غيهبَ روحِهِ عن القصدير
العالم كلُّ مَن لا يَذكرُ دودةَ قزِّهِ
مَسجونةً في خُصيةِ الإسكندر الأكبر
إنّه لا يتذكّر الله
ناهيك عنا عمّال الدّرَت،
طارَ ريشُ النّعام طارَ الذي رفَسَ
الطّيَران طارَ المنزُوعُ الفوّاحُ المحشورُ
في أكياسٍ قطنيّةٍ
إلى مُصَوّع
ثمّة خريطةٌ توضيحيّةٌ يتبادلها جنديّان
مثل نارجيلةٍ مملّة
حولَ كيفَ يُمكنُ لثَورين فقط رفعَ
قلبي بكلّابة
اتّبعوا الإرشادات يا جماعة
باقي العمليّة إنزال عادي
على فئرانِ قَعر السّفينة.
الصّافرة برَقت في خفاءِ البحر
الحُلفاءُ الحُلفاءُالحُلفاءُ في رَحِمٍ مُبقّعٍ
وغريب
بدأت تجارةٌ صغيرةٌ قوَامُها الفورمالين
العالمُ رائحةُ فورمالين مُهرَّب
ضاعَت جثّةُ البحرِ في أمواجِ جُثث
العبيد
أجهضَتنا السّفينة
الإمكانُ احترَق
وتوقَفت اللّغةُ، التي لم نعرفها أبداً، عن
الوجود.

أشجار ماكبث

يَنطلي مَهْربُ الصّمتِ على آلة الكيان.
شراعٌ قروحيٌّ يَصيدُ إلهاً نائياً عن جنّة
الرّيح.
يَتحرّرُ الجُوعُ من ربقةِ الفهدِ الخائضِ
في عَظمِ الخيال،
حتى الغلالةُ المحمومةُ تَنطلي وتنهلُ
الجسمَ إلى أصفارِه.
تَتخرّجُ كنايةٌ من قنطرةِ هلاك
تُبحرُ خفيفةً في القُعورِ العُلويّةِ لمادّةِ
الجهل،
يَنضجُ أخيراً القطارُ الرّئويّ،
يَنضجُ أخيراً المسيحُ المقرور
تَفوحُ نحاساتُ الوطأة
يَخرجُ الماضي من شرنقةِ الغدِ
والشّرنقةُ إلى فراشتِها الجديدة



حسين جمعان

ويكشفُ الربّ عن جمهورِه الكرستاليّ كان،
والغابةُ نافورةُ زرافاتٍ تطفو في ظفرٍ يتحسّس الخلود،
غارقاً وحيداً في بداهةٍ ذهنيّةٍ فائرة.
مَلاكُ الصّمتِ انطَلى على آلة الرّيح والدّم،
تَنشُبُ في نخاعِ اللّيل
لحظةٌ سكونيّةٌ
وسَرطانٌ أعزَلُ في غَزَلٍ وشُروحاتٍ
يَموءُ الهوامشَ
وناهباتُ اللّذَة
تُمصمِصُ بعضَها تحتَ الغرور.

أيّتها الرّحلة المعتصَرة من ضَرعِ الهذيان
يا حرباً مَيؤوساً منها مع حكمةِ الخلَل
بدأ مكانٌ بمَوتٍ رشيدة
فاضت اللّحظةُ السّحريّةُ المتآكلة
فاضَ التآكلُ الرّحيمُ الذي كُنّاه
لقرون استمرّت جثّتُنا دونَ حَلٍّ مثلَ عاهةٍ قمَريّة
متكوِّرينَ على الدّمِ النّاجي من مذبحةٍ بعيدة
جَزِعينَ من الوجهِ القاتلِ للضّجَر.

الكتابةُ ذئبةٌ طارَت من مِفصَدِ الدّم
من أجلِ هذا التلوُّث خُلِقَ هيكلُ الافتراسِ الضّامر
خُلِقَت الطّرقُ والمتاهاتُ المرسومةُ على أطلسِ الأثداء،
خُلِقَت الرّائحةُ الدّقيقةُ للإمكان
وخُلِقَ الضّياع.
تَنغلِقُ الأسرارُ على المغارة
تَتعرّى البحارُ من الماءِ مُلقيةً مِئزرَ الطّحالبِ في الغسيل،
ليَبدأ فصلُ الحُصولِ مُتصاعدُ الشّهوة
تتفتّقُ مَواكبُ القيعانِ فجأةً عن نهرِها الجبليّ وتَسيلُ الأقاليم،
وكما تُولَدُ الحاجَةُ المرعبةُ إلى الألم
يُولَدُ مُستحيلٌ نَزيهٌ مجّاناً مع كلّ عبوةِ حرّية
ومع كلّ شَمسٍ تَلهثُ غابةٌ
هي القلبُ
صوبَ كياسة المجهول.
أيّتها الخطرة، يا مخالَطةَ الوقتِ المتكدّسِ في الجنين
يا مجالَسةَ السّحرِ الجائسِ في اللّحظةِ الهاربة
أيّها التسرُّبُ إلى الفخِّ والتّرويض
ويا الرّحمةُ القتيلُ للأمومةِ الوحش.

البَحرُ كلُّ خطٍّ لا ينتهي بمقبرة
إقلاعٌ مَغمورٌ يَحملُ في ظَهرِهِ بغالَ التّجديد
إلى مُستقبلٍ مَنسيٍّ مُرتعشٍ من لذّة عُثورِه،
إلى حقلِ القرُوحِ الذّهنيّة
حيثُ في مُعسكرَاتٍ مُعقّمةٍ
تُستزرَعُ الرّئةُ في شمعدانِ السُّلّ
وتَنبُتُ في كلِّ مرّةٍ شمسُ الحياة.
لماذا،
مثل أيّ جثةٍ،
لا يَكبرُ الألم
لماذا
ينهضُ
مارداً
بليغاً
عارفاً
إلهاً
يأكلُ مثل مجاعةٍ
ومهما يُقصَفُ بفئرانِ التجربةِ
لا يَصرخ
إلهي إلهي... ■

شاعرة من السودان مقيمة في استوكهولم

من مجموعة جديدة للشاعرة تصدر عن دار نشر «توتيل» في استانبول

الشلّال

نص قصصي سينمائي

نبيل المالح

ندى هي فتاة سبع سنوات من العمر. اليوم هو يوم عطلة المدارس من نوع ما. والد ندى، إبراهيم، هو موظف صغير في محطة تلفزيون محلية. فرض عليه أن يأخذها معه إلى مستشفى التوليد حيث تنتظر زوجته مولودا جديدا.

يحاول الأب أن يترك ابنته مع والدتها في المستشفى لأنه لا يمكن أن يتركها وحدها في المنزل، ولكن الأطفال غير مسموح لهم بالدخول إلى محطة التلفزيون حيث يعمل. كما ترفض إدارة المستشفى رفضا حاسما السماح لندى بالبقاء في المستشفى، وبالتالي يجد الأب نفسه مضطرا أن يأخذها معه للعمل. إنه يحاول التوصل إلى سبل لإدخالها إلى محطة التلفزيون.

المشكلة في ندى، والتي تنعكس على كل شيء حولها، هو خيالها الفائق، مما يخلق الكثير من المشاكل. الخيال الذي يسبب المشاكل عن طريق الخلط بين الخيال النهائي لها مع العالم المحيط. والدها هو على بيّنة من هذه المشكلة ويبذل جهده لتلافي المشاكل الناجمة عن ذلك.

يعبر الأب وابنته الشوارع المزدحمة من المدينة باتجاه محطة التلفزيون، ولكن المدينة تبدو مختلفة عن أيّ واحدة أخرى. يبدو كما لو أنها مزيج من عشر مدن شرقية جمعت في مكان واحد.

ندى، من ناحية أخرى، مثلما هي عادة ما تكون في لحظة من حياتها، تخلق عالمها الخاص بك. إنها تخترع مفردات عالمها من محيطها بالطريقة التي تناسب اتجاه خيالها.

وبالتالي، كل التفاصيل حولها هي مصدر إلهام لأشكال وأفكار وتأملات لا أحد يمكن أن يتنبأ بتوجهاتها. كل ذلك هو عالم رائع وغريب. بل هو أيضا بديل لرتابة الحياة التي تحيط بنا.

الوالد حائر في كيفية إدخال ابنته إلى مقر التلفزيون.

الموظف في مكتب الاستقبال هو رجل صارم غير مرن ولا يسمح لها بالدخول بأيّ ثمن، لأن الأطفال ممنوعون منعا باتا من دخول المحطة. لذلك، فإنه يصبح ضحية لتأملات وخيال ندى.

يأتي الإنقاذ في نهاية المطاف. في وصول حافلة نقل الأطفال الذين يشاركون عادة في برنامج الأطفال الأسبوعي. وتشرف عليهم السيدة المستبدة (غريتا)، التي توبخ باستمرار (سامي)، وهو واحد من الأطفال الذين يثيرون غضبها بشكل مستمر. وهي مقتنعة بأن سامي يفتقر الانضباط والموهبة.

ندى وسامي يتبادلان الشعور بالظلم. وهذا يؤدي إلى مساعدة سامي لندى على إخفاء نفسها بين الأطفال الآخرين في الحافلة والدخول إلى مبنى التلفزيون.

داخل مبنى التلفزيون، يحاول الأب إخفاء ندى في مكان ما. ولكنه يبدو أن هناك مشكلة أخرى، فالبناء يغلي تماما. جميع المديرين والمسؤولين التنفيذيين هم في حالة تأهب كالم وتوتر لأن المالك الجديد لمحطة التلفزيون سيزور المبنى اليوم. والجميع في حالة تأهب قصوى من أجل تنظيم المكان وجعله في أفضل حالاته.

الأب في حالة حيرة كاملة، وجميع الموظفين والمديرين والحراس يقومون بدوريات في الممرات والغرف، بحثا عن أيّ شيء قد يغضب الزائر حاليا.

في نهاية المطاف، تساعد مذيعة لطيفة الأب. وتنصح بإخفاء ندى في الغرفة التي لا يمكن لأحد أن يبحث فيها، فهي مستودع الأجهزة البالية المنسقة والمهملة من معدات التلفزيون.

يدفع الأب ابنته إلى تلك الغرفة وهو يرجوها أن تبقى هادئة وعدم إثارة أيّ مشكلة حتى يأتي الزائر المهم وتصل زيارته إلى نهايتها.

وفي الوقت نفسه، فإن غريتا، المشرفة على برنامج الأطفال، تطرد سامي لتحديه وعدم رغبته في تنفيذ الرقصات والأغاني المملة السخيفة التي تطلبها.

يمشي سامي في ممرات المحطة وقد سيطر عليه شعور بالملل والإحباط، ولكنه يكتشف ندى التي تتلصص النظر من أحد الأبواب وتدعوه للانضمام إليها إلى داخل مستودع الأجهزة التالفة.

داخل المستودع المظلم، أعداد هائلة من المعدات التالفة أو المنسقة وشاشات قديمة وأجهزة متراكمة. وقد غطّاها الغبار وشبكات العناكب. يبدو وكأن لا أحد دخل هذه الغرفة منذ سنوات.

يتجول الطفلان في أرجاء المستودع، ويتعثران بالمعدات المكدسة. ويكتشفان أنهما غير قادرين على مغادرة المكان، فالممرات مكتظة بالحراس والمدراء وهم يقومون بدوريات في الممرات وبحث كل مكان لإزالة كل ما يمكن أن يكون مزعجا لعيون الزائر الهام.

الأب، الموظف البسيط في المحطة، يواجه الكثير من القهر والتهميش وهو يتابع عمله في توزيع البريد على الغرف والمكاتب


بهرام حاجو

والستوديوهات، والكل منهمك بالإعداد من أجل زيارة الزائر المهم.. أما في الستوديوهات فالبرامج التقليدية السخيفة هي السائدة، أما برنامج الأطفال بقيادة غريتا فهو برنامج سخيف تقليدي يعتمد على أغان بالية يساهم فيها موسيقيون شبه نائمين. وفي ستوديو آخر تقدم المذيعة نشرة الأخبار وكأنها تقرأ نعوة أو مراسم تشييع.. فيما يتم التحضير لتصوير إعلانات عن صابون أو مساحيق تجميل بطريقة سخيفة ومزرية.

أما بالنسبة إلى برامج المنوعات والتي من المفترض أن تكون مضحكة، فالجمهور المشارك عابس. ولا أحد باستثناء مقدم البرنامج ثقيل الظل. إنه سعيد مع نفسه ومع أصوات الضحك المسجلة مسبقا والتي تستدعي المبالغة في الحركات والتعابير.

يشعر الطفلان بالملل في المستودع الذي أرغما على الاختباء فيه.. ويبدآن بمحاولة تزجية الوقت باللعب بالأجهزة الميتة. وتلعب ندى بالضغط على أزرار بيانو، ولكنها لا تدري أن كل ضربة على البيانو تجد فعلها على مقاعد المجتمعين في مجلس الإدارة، حيث يشعر المجتمعون بأن هنالك قوة سحرية عجيبة تتحكم في مقاعدهم، ويتولد لديهم الإحساس بأن مؤامرة إرهابية ما ضد المحطة.

يضغط سامي على بعض الأزرار، فتضاء أضواء بعض الأجهزة.. ويبدو أن جميع الأجهزة قد بدأت بالعمل ودبّت الحياة في الشاشات العتيقة، وظهر عليها كل ما يجري في الستوديوهات، والطفلان لا يعرفان ذلك ولكنهما يحسان بأن كل ما يفعلانه على الأجهزة يؤثر على ما يجري في الواقع في الستوديوهات.

يستغرق الطفلان باللعب وهما يشاهدان تأثير لعبهما على البرامج، خاصة وأن لعبهما وخيالهما يجعل مواد البرامج أكثر ألقا وحيوية.

تكاد غريتا، المشرفة على برنامج الأطفال أن تفقد صوابها وهي تكتشف أنها قد فقدت السيطرة على البرنامج وأن كل ما يجري هو عكس قراراتها. ولكن جمهور المشاهدين قد أصبحوا مأخوذين أمام سحر وخيال وابتكار البرنامج الذي أصبح مختلفا تماما عن الصيغة التقليدية الجامدة التي كان عليها.

أما فنيو المراقبة، فقد أصبحوا عاجزين عن إيقاف هذا التدخل، ويسيطر الرعب على المديرين، خاصة وأن موعد زيارة الزائر الهام يقترب، وهو الذي سيكون مالك المحطة الجديد. وتسري الأخبار بأن هناك مخربين قد استولوا على المحطة، فتصدر الأوامر للحرس والجنود للقيام بعملية بحث مكثفة في جميع أنحاء المحطة بحثا عن هؤلاء المخربين.

ندى وسامي مستمتعان بلعبتهما، وهما الآن يتدخلان بنشرة الأخبار، حيث يغيران من اشكال المذيعين والمذيعات الجامدة ومن القراءة الجامدة، فتصبح نشرة الأخبار أكثر جاذبية. ويذهبان إلى المسلسلات الدرامية فتغدو أكثر إنسانية ومرحا ويلغيان العنف، ثم يذهبان إلى برنامج المنوعات ثقيل الظل، فيجعلانه مرحا حافلا بالمفاجآت الطريفة. ثم يدخلان إلى الأفلام المعروضة، ويكتشفان أنها حافلة بالقتل والعنف وإطلاق النار، فيحوّلانها إلى عروض إنسانية مؤثرة. أما في برنامج الرياضة، فهما يحوّلان مشاهد المصارعة الحرة إلى نوع من الرقص الحديث الذي يؤديه المصارعون.

***

على إحدى الشاشات، يظهر قتال بأشعة اللايزر في شوارع مظلمة،

ويبدو أن هناك مطاردة بين رجال قساة مدججين بالسلاح ومخلوقات فقيرة صغيرة ذات لون أخضر زاه، ويتعاطف الطفلان مع المخلوقات الصغيرة المذعورة، وأحدها يهرب من مطارديه لاهثا مرعوبا.. ويصل به المطاف أخيرا ليخرج من الشاشة ويختبئ في الغرفة التي فيها الطفلان، حيث يحاول الاختباء بين الأثاث وبين الأجهزة. ولكنّ المسلحين القساة يخرجون أيضا من الشاشة ويلاحقون ذلك المسكين في أرجاء مستودع الأجهزة، ولا يعرف ندى وسامي كيف يمكنهما مساعدة الهارب المسكين. ولكنهما ينصبان فخا للرجال المجرمين وذلك بإعداد كيس للقمامة وتحضيره عند زاوية إحدى الطاولات، حيث يتزحلق الرجال إليه، فيسارعان لربطه وإغلاقه.

***

سامي وندى مذهولان بسبب مغامرتهما المفاجئة، ويقرران متابعة اللعب وابتكار أشكال جديدة وممتعة للبرامج.

جميع التغيرات التي يقوم بها الطفلان تظهر على شاشات المشاهدين، والجميع مأخوذ بهذا الوجه الجديد والطازج لهذه المحطة.

أما المسؤولون في إدارة المحطة، فهم يشعرون بذعر بالغ عند مشاهدتهم ومتابعتهم للتغيرات المفاجئة التي طرأت على البرامج والتي غدت جذابة ومسلية بعكس نوعية المحطة الجادة الصارمة.

يشعر والد ندى بالأسى والغضب وهو يشاهد ما يجري في المحطة، ويعلم أن ابنته بخيالها الجامح هي التي تقف وراء ما يجري. فيتسلل إلى المستودع، خفية عن عيون الباحثين والحراس، وينضم إلى ابنته وزميلها سامي، حيث يفاجأ بالألعاب المجنونة التي يمارسها الاثنان على برامج القناة.

يرى الأب هذا التدخل المذهل للطفلين في البرامج، تدخل جميل ومبتكر ولكنه مرعب من وجهة نظر الإدارة. ويحاول أن يقنع الطفلين بالانصراف والهرب، ولكنه يشاهد على الشاشات كيف أن المحطة قد استنفرت كامل طاقتها من موظفين وحراس ومدراء للبحث عن هؤلاء المخربين. ولكن الذين يبحثون عن الطفلين هم أنفسهم الذين كانوا يمارسون عليه شتى أنواع الضغط والقهر، فيقرر الأب أن يشاركهما اللعبة.. حيث أصبح باستطاعتهم التأثير على حركة الأفراد من مدراء أو حراس فيقومون بتحويل الرسميين إلى راقصين، والذين يصرخون ويتهمون إلى مطربين، وموظفو السكرتاريا إلى موسيقيين. وعمليا، فإن البناء بكامله بدأ يرقص ويغني. وبدأت بالظهور رسوم طفولية مشرقة على الجدران. وتغيرت ألوان البناء، فأصبح أكثر إشراقا وتفاؤلا بعد أن كان لونه هو الإسمنت الرمادي الكئيب.

يكاد مدير المحطة يصاب بالجنون وهو يرى أنه فقد التحكم بحركاته، ويستجمع كل طاقته لإصدار الأوامر بالاستنفار الكامل لإيجاد هؤلاء المخربين بأيّ ثمن.

وأخيرا، وبعد تمشيط الغرف واحدة بعد الأخرى، أصبح لدى الإدارة معرفة بالمكان الذي يمكن أن يكون فيه المخربون. فتتم محاصرة المستودع حيث الأطفال ووالد ندى.

وتتم المداهمة بشكل مفاجئ، مما يرعب الأطفال، ويركض الطفلان، بينما يحاول الأب تعطيل حركة المهاجمين. ويركض سامي مع ندى في أرجاء المستودع، ولكن سامي يتعثر بإطار خشبي فيه صورة فوتوغرافية كبيرة للغابة، ويجد سامي نفسه وقد سقط مع ندى في فضاء الغابة. ويلاحقهما الحراس، ولكنهم يصطدمون بالسطح القاسي للصورة.. ويقف الجميع مذهولين.

يجد سامي وندى نفسيهما في هذا المكان المدهش، إنها غابة من خارج هذا العالم، وهما يسبحان في دفق من الأنوار والضياء والألوان. وكل شيء يتفجر عن أشياء ومشاهد خارقة الجمال. حتى قطرة الندى تخفي في داخلها عوالم خيالية ساحرة. وفي داخلها يلتقيان بكل الأفراد الذين التقيا بهم.. ولكنهم أناس بالغو اللطف والحرارة الإنسانية.. حتى الذين كانوا أعداء يظهرون وهم يطيرون مع بعضهم في انسجام بالغ في هذا الكون المدهش. وتخفي ندى في يدها واحدة من قطرات الندى المدهشة الحافلة بالعوالم السحرية بموسيقاها السحرية.

وهناك في عمق الغابة الساحرة يتجهان نحو بوابة هائلة، وما إن يفتحانها حتى تبتلعهما ويجدان نفسيهما وهما يطيران في فضاء غريب وممرات وأنفاق لانهائية، ويسمعان أصواتا بعيدة لصفارات إنذار. وفجأة يجدان أنهما قد خرجا من أنابيب تبريد الهواء في إحدى غرف المحطة فيبحثان فيما حولهما، ليكتشفا أن المكان خال من أيّ إنسان أو موظف. وعندما ينظران من النافذة، يكتشفان أن جميع الموظفين قد أصبحوا خارج المحطة بانتظار استقبال الزائر الهام، وهنالك فرقة موسيقية عسكرية وإجراءات صارمة تقليدية، يبدو الأمر وكأنه عرض عسكري.

موكب الزائر المهيب يقترب من بوابات المحطة، والاستقبال الرسمي الحافل بالانتظار.

يكتشف الحراس وجود ندى وسامي، فتصدر الأوامر بإلقاء القبض عليهما. وتبدأ مطاردة. ويبدو أن الطفلين قد بدأ الشعور بالحصار حولهما ولا يعرفان ما المفر. ولا تجد ندى من طريقة سوى أن ترمي العسكر الذين صوبوا بنادقهم نحو الطفلين بنقطة الندى السحرية التي احتفظت بها في يدها. ولكن نقطة الندى ترتفع وترتفع في السماء لتنفجر إلى ملايين النجوم الملونة التي تتساقط ببطء، وتتساقط على البناء الإسمنتي فيتغير لونه الإسمنتي الجامد إلى ألوان زاهية. وتسقط على الحراس والجنود بملابسهم العسكرية الثقيلة فتتغير الألوان إلى زاهية بهيجة. وعوضا عن الموسيقى العسكرية الجاهزة لاستقبال الزائر، تتحول إلى موسيقى راقصة حافلة بالحيوية. ويتحول الجميع من جموع جامدة إلى جموع ترقص وتغني، تغني أغنية الحب بمختلف اللغات.

الزائر الهام يصل وما إن يترجل من السيارة متجهما، حتى ينقلب إلى شخص آخر، ويشارك الآخرين الرقص والغناء، بل وهو يقود الآخرين إلى مزيد من الفرح والبهجة.

مجلس الإدارة المتجهم لهذه التحولات المفاجئة يركض لقطع الكهرباء التي تعمل عليها كل الأجهزة، ويستطيعون قطع الكهرباء فيتوقف كل شيء. وتعود الألوان الشاحبة السابقة والمناخ البائس الحزين، ودهشة وخيبة أمل كبيرة تحيط بكل الناس.

ولكنّ طيورا كانت تشارك في الاحتفال، تسارع للطيران وتعيد مفاتيح الكهرباء، فيعود الفرح والبهجة على الجميع ■

مخرج سينمائي من سوريا مقيم في دبي

بهرام حاجو



مقال

السلطة ضالّةُ المؤمن والكافر

إبراهيم الجبين



على النقيض مما أكّد عليه النبي، فإن الحكمة لم تعد ضالة مؤمني داعش والقاعدة والإخوان الرحم الأم لكل تلك الجماعات التي ظهرت تالياً، ولكن هدفاً آخر لا ينفك يشغل تفكيرهم، منذ أن قرروا التشبه بالآخرين وهجر مقاعد الدرس ومنابر الجوامع ولبسوا بدلاً من العمامة والجبة، طربوش السياسيين وحملوا عصاهم، ليس للإشارة بها في الخطب البليغة بل لزجر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عالم السياسة لا عالم الدين.

وكذلك فإن تضحيات كبار الشعراء والفنانين ومحرري العبيد على مر العصور، لم تكن هي ذاتها مطالب العلمانيين، الذين فقدوا ذاكرتهم في لهاثهم نحو طريدة أخرى.

لكن الشأن السياسي له تعقيداته الخاصة، والتي لا يسهل الحديث عنها دون الخوض في تفاصيل كثيرة وتقاطعات أدت وتؤدي إليها، غير أن الشأن الثقافي في ما يتصل بالسلطة والرنوّ إليها، يبدو أكثر إلحاحاً، لأنه هو ما يتسبب بتشوهات السياسة والمجتمع في ما سيلي تغيير ·العقد الثقافي· إن صحت التسمية.

عقد ثقافي؟

ما هو الشكل الذي اتخذته العلاقة بين المثقفين والمجتمعات التي خرجوا منها، ونبتوا في تربتها؟ وإن كان التناقض بين طرفي تلك المعادلة، هو المنطقي حين يبدو المثقف رائداً متقدماً على بيئته، فإن الصراع معها سيكون طبيعياً إذّاك، ولكن ليس القطيعة، فالأخيرة تترك المجتمع نهباً لمن لا يقطع معه، ذاك الذي يريد الهيمنة عليه، واستثماره والتحكم بسلوكه وضبط مفاجآته التاريخية، ولن يكون هذا المتربّص سوى واحد من اثنين، نظام الحكم أو الأكليروس. إن عقداً مضمراً بين المثقفين والمجتمع، يبدو وكأنه قد أبرم عبر تاريخ حرص خلاله المثقفون على ما سمّي بـ·الأصالة· التي رفضت قطع صلاتها بجذورها، تلك الجذور هي التي تلتقي مع الناس في ينابيع مداركهم، وبقي هذا العقد الثقافي، يتسع ويضيق بفضل التدخلات التي يمارسها كل من الحاكم ورجل الدين، ويتمتع بمحاسنها المثقف والمجتمع تارة، ويسحقون تحت جنازيرها تارة أخرى، حتى ظهر التغير الكبير في نمط سلوك الأطراف الأربعة معاً.

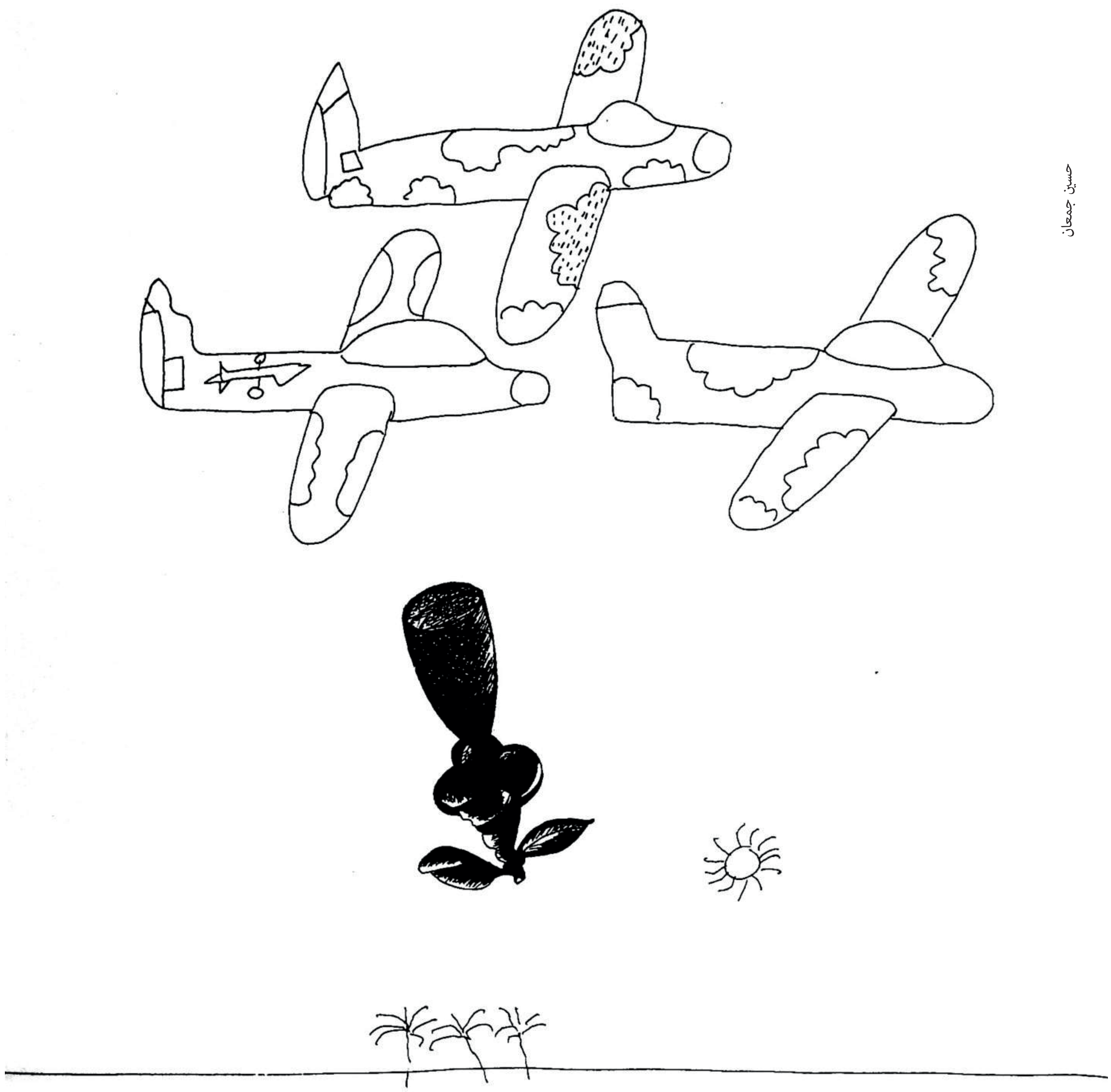
فقرر المثقف ·القطيعة· التامة مع المجتمع، والذهاب نحو العالم الافتراضي، قبل ولادة العالم الافتراضي ذاته، وترفّع عن أولئك المغبرة وجوههم والمشحّمة أيديهم من سكّان المناطق العشوائية والأرياف ذات العادات و·الروائح· التي طالما أزكمت أنوف المثقفين.

عثر نظام الحكم على وصفته لقطع الطريق على المثقفين، وتشويه صورتهم بكل شكل ممكن، أمام الجموع التي يريدها له وحده، لا يشاركه في حكمها سلطان، حتى لو كان لشاعر أو رسام أو ممثل أو نحات أو روائي أو مؤرخ.

وذهب رجل الدين، نحو استثمار انهيار العقد الثقافي، للحلول محل المثقفين في قيادة المجتمع، فهو إذ يعتبر العلوم الشرعية ·ثقافة· لا يجد حرجاً في اعتبار ذاته مثقفاً بدوره، وبالتالي طبقة طليعية رائدة عليها ولها أن تقدّم شكل المستقبل.

أما المجتمع، فآثر بمكر تلقائي اتقاء شرّ الأقوى بين هؤلاء، ونبذ الأضعف، فلم يجد سوى المثقفين ليقطع معهم كما قطعوا معه، وهنا يعود السؤال القديم الذي طرحناها مراراً ‹لماذا اختارت الملايين الغفيرة من شعوب الشرق الانخراط في فساد نظام الحكم بدلاً من الاحتجاج عليه؟›.

ولأن العلاقة بين المثقفين من جهة والمجتمع ورجل الدين ونظام الحكم من جهة أخرى، باتت على تلك الصورة، ذهب المثقفون نحو ثأر من نوع آخر، من كل من لا يتوافق معهم، فتشكلوا وانتظموا في أحزاب وتنظيمات لا مشروع لها سوى الوصول إلى السلطة، للبطش بكل من المجتمع الجاهل ورجل الدين الرجعي والحاكم المستبد، ولكن أدواتهم لم تكن تسمح لهم بالانتصار في ذلك الصراع غير المتكافئ، فتحوّلوا إلى ضحايا له، وامتلأت بهم السجون، وطردوا إلى المنافي، ومن بقي منهم بخير، لاذ بقويّ من أولئك الأقوياء الثلاثة ليكون ظلّه حيث لا ظلّ إلا ظلّه، فنشأ مثقفو السلطان، ومثقفو الطوائف والمذاهب، ومثقفو التسلية الاجتماعية في مجالات لا تزعج أحداً.



السياسة نجاسة

بقيت الساحة خالية لمتحاربين اثنين، نظام الحكم ورجال الدين، الذين كانوا قد أسسوا لأنفسهم هياكل تسمي نفسها سياسية، غير أنها تتخذ السياسة قناعاً، وليس بعيداً عن هذا قول الرئيس المعزول محمد مرسي في إحدى خطبه الأخيرة "السياسة نجاسة"، وهو الذي كان وتياره الإسلامي كاملاً (الإخوان المسلمون) متحالفاً مع نظام حسني مبارك، بعهد واضح المعالم، مكّنه ومكّن أعضاء آخرين في الجماعة من دخول البرلمان المصري، فكانوا نواباً في زمن الاستبداد، ولم يكونوا ضحايا كما حلّ بالمثقفين الذين عزلوا تماماً عن التدخل في الشأن العام.

تم توظيف المجتمع في خدمة المشروع الباطني للإسلام السياسي، والذي كما سبق وأشرت كان قد اتخذ السياسة والمفاهيم المدنية قناعاً لا أكثر، للمشروع الديني، الذي لم يتزحزح أنملة عن مبادئه القديمة المنادية بالخلافة، كما في مراحل حسن البنا الشهيرة.

واستخدم الوعظ ومال الصدقة والزكاة في توجيه الناس، ليكونوا خزاناً بشرياً للمشروع الديني، وكان الهدف الحقيقي والأوحد هو الوصول إلى السلطة، وليس إلى تطبيق مفهوم "الدعوة" التي يرفع شعارها الإسلاميون كل حين، فتلك الدعوة لم تكن سوى دعوة لتحشيد الناس، لا إلى هدايتهم لدين جديد.

بينما ذهبت القاعدة واستيلاداتها المختلفة إلى الفتك بنظم الدولة حيث ظهرت، والضرب في كل مكان، لاستدراج العنف الأميركي كما في تنظيرات أسامة بن لادن وأبو مصعب السوري الذي يعتبر فيلسوف

القاعدة والجهاديين، وقد وضع كتباً عديدةً في هذا مثل «باكستان مشرّف.. المشكلة الحل والفريضة»، وكتاب «مختصر شهادتي على الجهاد في الجزائر»، بالإضافة إلى عدد من الشرائط الصوتية منها «قراءة في التجربة السورية» و«دروس في نظرية حرب العصابات» و«واقع المسلمين.. الأزمة والمخرج» في كابل، وشريط "الجهاد هو الحل" في العام 2000 في كابل.

و"ظواهر الأزمة الجهادية"، و"الحلول المطروحة للخروج من الأزمة"، و"أخطاء ومفاهيم يجب أن تصحّح"، وكتاب دعوة المقاومة الإسلامية العالمية" الذي يتطرق فيه إلى ما يسميه "الجيل الثالث من الجهاديين"، وكتاب "أهل السنة في الشام في مواجهة النصيرية والصليبية واليهود" الذي تذكر المصادر أن اسم جبهة النصرة مشتق من أحد النداءات التي وجهها أبو مصعب في نهايته في قوله "من الشام المباركة في مطلع الستينات كانت بداية انطلاق الجهاد، وفيها ازدهرت في الثمانينات، وإليها تعود اليوم إن شاء الله، فالنصرة النصرة يا إخوة الجهاد".

ليأتي الجيل المستولد الجديد، والذي مثله تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، مفصحاً أكثر عن المشروع السلطوي لتلك الحركات، بانقضاضه على المناطق وتكسيره للحدود، وإعلانه "دولة"، وبسطه لـ"سلطة" مطلقة تطبق شريعة خاصة غاشمة، ضد من أسمتهم كفاراً ومرتدين وأعداء، متوجهة هذه المرة بالفعل إلى الانتقام من المجتمع بأسره، ومن نظام الحكم الاستبدادي في العراق وسوريا، ومعهما من ورثت العداء التاريخي له، من القاعدة متمثلاً في الغرب ودوله وحلفائه في الشرق.

السلطة التي بحوزة الأنظمة

لم تنشأ الدولة في العالم العربي، نشأة طبيعية، بل إن جميع أنظمة الحكم التي رأت النور فيها خلال المئة عام الماضية، كانت إما ناجمة عن تحالفات قبلية وعشائرية اعترف بها العالم، أو عن تركيب تمّ وضعه مسبقاً بيد الدول التي استعمرت المشرق والمغرب.

واستمرت تلك الدول، تتقلب فيها السلطة، بناء على من يتمكن من الظفر بها، وتم إفشال التجارب الديمقراطية في كل من سوريا ولبنان وغيرها، ليستقر الأمر للأقوياء من العسكر، ممن اعتبروا أنفسهم بدورهم مثقفين من نوع آخر أيضاً، فلا المثقفون المدنيون ولا الإسلاميون أفضل منهم، ولا أحق منهم بالسلطة، كما رأوا.

صحيح أنه لا يمكنك التغيير دون أن تمتلك سلطة التغيير، لكن تلك السلطة ليست فقط، حيازة القوة غير المحدودة التي منحها لنفسها الاستبداد، أو تلك التي منحها لنفسه الإسلام السياسي بفضل ادعائه ربط سلطته بسلطة الله في السماء والنصوص المقدسة.

أما السؤال الذي عجز المثقفون عن العثور على إجابة له، فهو أين تكمن السلطة الأقوى تأثيراً، والأكثر تحكماً بأطراف المعادلة، والأبعد مدى في تأمين الاستقرار وتحقيق الرؤى؟

كان دور الشباب في انتفاضات الربيع العربي، إزاحة السلطة القائمة، وليس الحلول محلّها، وهنا خلق الخلل الذي أوصل بلدان الربيع العربي إلى ما وصلت إليه، فزهد الشباب بالسلطة، بل عجزهم عن مناطحة المطالبين التاريخيين بها، والذين استغلوا الشباب لإشعال الصراع من جديد، واكتفوا بالفرجة على حرب الملايين المطالبة بالتغيير، مع القوى التي لم تسمح ولن تسمح للتغيير بأن يحدث، لأنه ينتزع منها السلطة، والبلد الذي نجح فيه الشباب، كان الإسلاميون يسارعون إلى استثماره للقفز إلى السلطة، مطلبهم الأصيل، ليطبقوا سلطتهم السماوية المطلقة وغير المحدودة من جديد، وليتحولوا بدورهم إلى استبداد جديد لا يقبل الآخر ولا يتخيله شريكاً في الحياة فكيف في الحكم وهياكله ومؤسساته.

> **قرر المثقف "القطيعة" التامة مع المجتمع، والذهاب نحو العالم الافتراضي، قبل ولادة العالم الافتراضي ذاته، وترفّع عن أولئك المغبرة وجوههم والمشحّمة أيديهم من سكان المناطق العشوائية والأرياف ذات العادات و"الروائح" التي طالما أزكمت أنوف المثقفين**

سلطة المعرفة

كثيرون، ومنهم الدكتور سالم يفوت في كتابه "سلطة المعرفة" الصادر عن دار الأمان في الرباط في العام 2005، رأوا أن مفهوم "السلطة"، بقي أسيراً لفهم الماركسيين في المجتمعات العربية، أي بمعنى الصراع على السلطة الماركسي القائم على صراع الطبقات وضد المفاهيم البرجوازية للسلطة. إلا أنه مع ميشيل فوكو وتيار الاختلاف في فرنسا ظهر المفهوم الجديد للسلطة، ففوكو يرى السلطة عبارة عن علاقة قوى، وهو متيقن أن كل علاقة قوى هي بالضرورة، علاقة سلطة.

اعتبر فوكو أن "السلطة" لا تمارس نفسها مثل الملكية المباشرة، فهي استراتيجية أكثر منها ملكية، ولا ترجع آثارها ومفاعيلها إلى تملّك ما، «بل تعود إلى تدابير وحيل ووسائل وتقنيات وأعمال» «فهي تمارس أكثر ممّا تتملك، ليست حقا تحتفظ به الطبقة السائدة وتحتكره، بل هي مفعول مجموع مواقعها الاستراتيجية». لذلك يقول فوكو عن السلطة إنها "ليست مؤسسة، وليست بنية، وليست قوة معينة يتمتع بها البعض، إنها الاسم الذي يطلق على وضع استراتيجي معقد في مجتمع معين». ولا يلغي فوكو بذلك، الصراعات الطبقية أو يتجاهلها، بل يراها جزءًا من كل طرف من شبكة معقدة تشمل الكل.

أكّد فوكو أن الدولة، ذات السلطة التي قدّمنا أن أطراف المعادلة في العالم العربي تتصارع عليها، الدولة ذاتها مفعول وأثر للمجموع، ونتيجة للكثير من البؤر التي تجد موضعها في مستوى مختلف تماماً، عن ذلك الذي


أحمد قليج

توجد فيه السلطة، وتمثل من جهتها أساسا لا مرئيا لها، أي ميكروفيزيائية السلطة. إذن السلطة هنا سلطة منتشرة ومبثوثة في الجميع وبين الجميع. فالسلطة علاقة بين كل الأفراد والمؤسسات والأفكار.

لكن السلطة تبقى مسألة معقدة، أمام كبار فلاسفة العالم، فكيف بمثقفين عرب، يشي خطابهم بقصور معرفي مهول، ومدارك شفاهية، أكثر منها كشغل كثيف وثقيل على المواضيع، ولنبق مع فوكو الذي نظر إلى السلطة ضمن تصورين اثنين، الأول هو، التصور القانوني أو الليبرالي للسلطة، أي التصور الذي نلمسه من خلال كتابات فلاسفة القرن الثامن عشر، والثاني من جديد هو التصور الماركسي للسلطة، الذي يرتبط بالتنظيرات ذات الأصول الماركسية لظاهرة السلطة السياسية في علاقتها بالبنيات الاقتصادية للمجتمع.

يستغرق فوكو في قراءة فهم السلطة، على اعتبار أن النظريات الكلاسيكية للسلطة تنظر إلى السلطة كحق يُمتلك أو ثروة يُمكن تحويلها والتخلي عنها بشكل جزئي أو كلي؛ من خلال عقد يتفق عليه جميع أفراد المجتمع من أجل تأسيس سيادة ودستور للمجتمع قائم على التبادل العقدي، كما عند روسو الذي سعى إلى محاولة تأسيس مجتمع مدني قائم على حقوق المواطنين السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ في ظروف تخوّل لبعض الأفراد امتلاك السلطة بالشكل الذي يحقق نوع من التماثل بين السلطة والأملاك؛ أو بين السلطة والثروة.

وكذلك الأمر مع تحليل استراتيجية عمل السلطة في التصور الماركسي، الذي يقتضي ضرورة استحضار مفهوم "الوظيفة الاقتصادية" عندما ترتبط السلطة بعلاقات الإنتاج التي تسعى إلى ضمان هيمنة الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج على الطبقة العاملة.

هل السلطة هي القمع والحرب؟

يعتبر فوكو السلطة كظاهرة قائمة أساسا على القمع؛ أي أنها برامج تسعى إلى قمع الغريزة (غريزة الفرد؛ الطبقة؛ المجتمع ككل)، وهذا ينسجم مع توجه ماكس فيبر الذي يعتبر القمع من الوسائل المهمّة والمشروعة التي تعتمدها السلطة من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار. وكذلك مع فرويد الذي يرى أن على البشر ومن أجل الاندماج مع المجتمع، كبت غرائزهم وقمعها بشكل مستمر.

> **ذهب رجل الدين، نحو استثمار انهيار العقد الثقافي، للحلول محل المثقفين في قيادة المجتمع، فهو إذ يعتبر العلوم الشرعية "ثقافة" لا يجد حرجا في اعتبار ذاته مثقفا بدوره، وبالتالي ممثلا لطبقة طليعية رائدة عليها ولها أن تقدم شكل المستقبل**

أي أن السلطة هي الحرب المستمرة بوسائل أخرى، يقول فوكو إن "السياسة هي استمرار للحرب بوسائل أخرى"، وبالتالي فإن علاقات السلطة الممارسة في مجتمع ما، تبقى قائمة على الحرب وبالحرب؛ فالسلطة لا تتخلى عن الحرب أبداً، بل تعمل على تحييد انعدام التوازن، الذي قد يظهر بالضرورة هنا أو هناك، بحيث يكون للسلطة دور في إعادة تثبيت لعلاقات المجتمع، من خلال نوع من الحرب الصامتة المطبقة على المؤسسات والأجسام، الفعل الذي يجعل السياسة مجرد معاقبة مستمرة تتواصل فيها التفاوتات في القوة الظاهرة في الحرب أو الناتجة عن الحرب.

إن امتلاك السلطة على الحرب، يعني امتلاك سلطة القرار بشن تلك الحرب، وبتصور كهذا، تصبح السلطة التي يتصارع عليها الجميع، باستثناء شباب الميادين والساحات العامة والمظاهرات المدنية السلمية، حرباً جديدة على الإنسان في المشرق، وحين يدرك المثقفون أن صراعهم لحيازة السلطة إنما هو صراع لشن حرب جديدة قمعية وعنيفة ضد ظواهر المجتمع ومنها الجهل والتخلف والإرهاب والاستبداد ذاته، سيغيّرون من تخيلهم لذواتهم على أنها أضاح منذورة للذبح، تبوء بالخسران والضعف والهزيمة، وأن العالم يجتمع ضدهم كل مرة.

وفي خارطة كهذه، لا مكان لسلطة لا يمكن التحكم بها، كالسلطة المستمدة من السماء، كما عند الإسلاميين، أو سلطة تطبق ما تراه عبر الدبابات والمدافع والمعتقلات والقتل وتدمير المدن.

هو دور المجتمع إذن، الماكر الأكبر، والمنتظر الأطول بالاً وصبراً على المتقاتلين، كي ينتج سلطته المعرفية، غير القابلة للبيع والشراء والانتزاع، على يد هذا المثقف أو ذاك الملتحي أو ذاك العسكري أو ذاك المتاجر بدماء الخلق ومستقبلهم، سواء أكان مؤمناً أو كافراً أو بين بين ■

شاعر وكاتب من سوريا مقيم في دورتموند

مقال

خليل حاوي بقلمه وصوته

ريتا عوض



ما من حركة تجديد في أي مجال من مجالات الإبداع الفنّي أو الأدبي إلا وتثير العديد من الأسئلة النقديّة والجماليّة والثقافيّة والفكريّة. هذه الأسئلة لا بدّ من الإجابة عنها لتعريف فلسفة التجديد التي ترتكز إليها تلك الحركة، وتحديد أوجه الجِدّة في الإبداع الجديد، وكشف دوافع التحوّل إلى رؤى طازجة وتجارب مستجدّة وأشكال تعبيرية مغايرة لما كان سائدًا قبلها، وربط تلك التحوّلات الفنّية والأدبيّة بالأجواء الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة الحاضنة لها، وبالمناخ الفكري والحضاري الذي تكوّنت فيه الحركة ونشأت. بذاك التزاوج بين الجديد المبدَع من ناحية والفكر النقدي والفلسفي المصاحب له من ناحية ثانية،

يكتسب الإبداع الجديد مكانته في النظام الأدبيّ والفنّي القوميّ وفي المنظومة الثقافيّة القوميّة ويحقّق تواصله مع متلقٍّ نشأت ذائقته الفنّية ونمت في جوّ إبداعيّ مغاير. وبذاك التزاوج أيضا وإدراك مضامينه وأبعاده يحتلّ المنطقُ الفنّي الجديد مكانَ توجّهات وأساليب فنّية تقليديّة كانت قد ترسّخت في الضمير الثقافيّ العام، ويخلق حساسية فنّية فتيّة وطريّة تتذوّق أشكالا تعبيريّة غير مألوفة فتغدو تلك الأشكال الجديدة عنصرًا حيويّا في بنية التراث الإبداعيّ والثقافيّ.

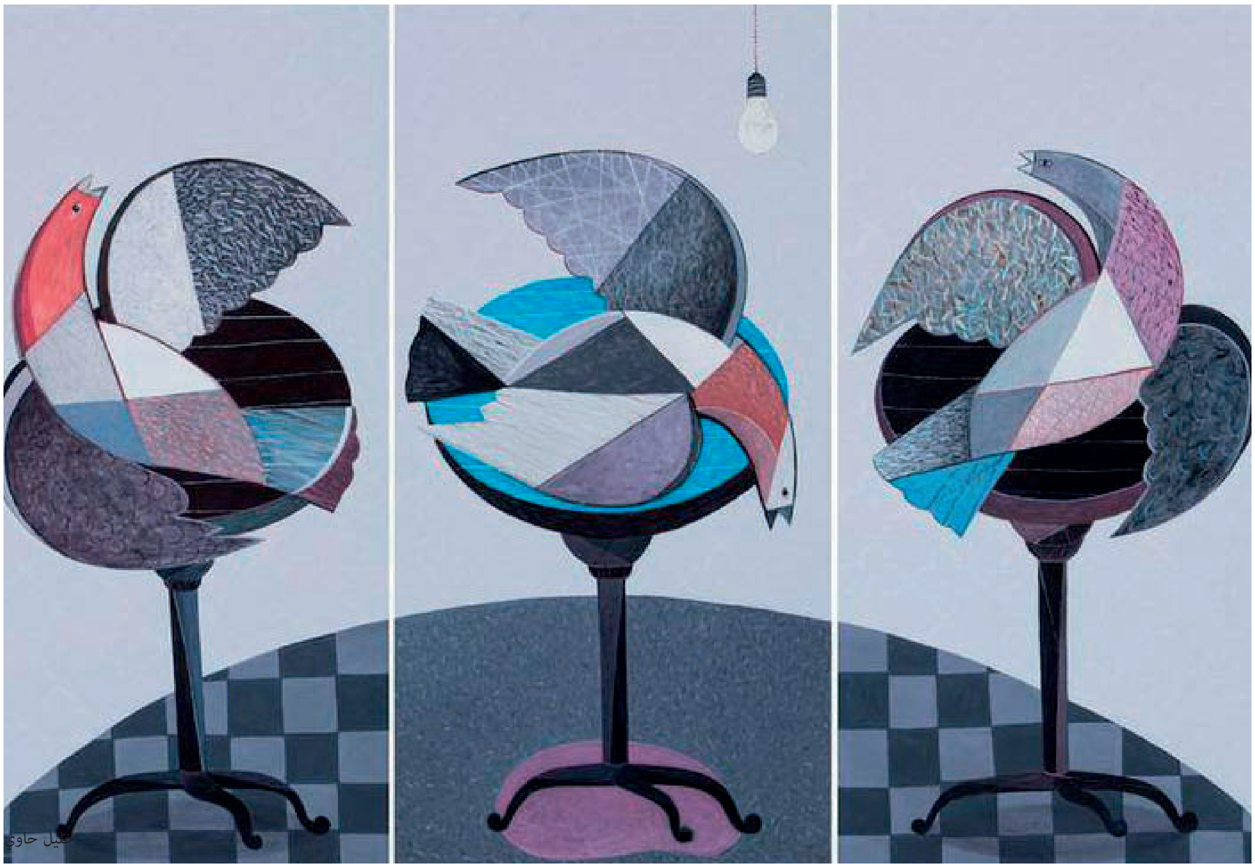
وليست القاعدة في تاريخ الأدب أن يكون المبدعون أنفسُهم فلاسفةَ التجديد ومنظّريه؛ غير أنه أصبح مألوفًا منذ انطلاق الحركة الرومنطيقيّة في الغرب أن يكون الأدباء، وبخاصة الشعراء منهم، أصحاب نظريّة نقديّة تواكب إبداعهم وتفلسفه. وبرزت ظاهرة الشاعر-الناقد في فترات التحوّل الفني، فكان ساميويل تايلور كولريدج، الشاعر-الناقد، فيلسوفَ الحركة الرومنطيقية الإنكليزية في بداياتها، وكان الشاعر أندريه بريتون منظّرَ الحركة السريالية في الـ"منفستو" الأول والثاني اللذين وضعهما أساسًا لانطلاق تلك الحركة في فرنسا. واكتسبت حركة الشعر الإنكليزي الحديث دورها المؤثِّر في الحياة الثقافية الإنكليزية خاصة والعالمية عامة بالكتابات النقديّة لشعرائها الروّاد، وأبرزهم تي. إي. هيوم وإزرا باوند وتي. إس. إليوت، الذين استطاعوا بما وضعوه ونشروه من مقالات نقديّة وفكريّة واكبت حركة الشعر الحديث، ترسيخ مبادئ نقديّة جديدة وإزاحة المبادئ النقديّة الرومنطيقيّة التي ظلّت سائدة في النقد الأدبي وفي الحياة الثقافيّة الغربيّة إلى ما بعد انتهاء المرحلة الرومنطيقيّة في الإبداع الشعري، على حدّ تعبير هيوم.

وليس كلّ شاعر مجدّد ومبدع شاعرا-ناقدا بالضرورة أو منظّرًا لحركة التجديد وفيلسوفًا لها. فلا بدّ للموهبة الشعرية أن تقترن بثقافة فلسفيّة ونقديّة عميقة وشاملة لتتولّد لصاحبها القدرة على بلورة فلسفة التجديد الفنّي بما هي نتيجة حتمية لتفاعل الشاعر وإبداعه الشعري مع عصر متحوّل ومتغيّر ومتجدّد. وقد شهد منتصف القرن العشرين حركة تجديد في الشعر العربي اصطُلح على تسمية ما أُبدع فيها بـ"الشعر الحديث"، أثارت وشعراؤها اهتمامًا كبيرًا في أوساط المثقّفين خاصة، وطرحت أسئلة واستدعت نقاشات دارت، فيما دارت، حول مفهوم الحداثة وصيغ التعبير الجديدة وأدواته ومضامينه غير المألوفة وارتباط الشعر الحديث بالتراث وافتراقه عنه، وكذلك حول تجارب شعراء الحداثة وخصوصيّة الرؤيا والتعبير فيما يبدعونه. وكان خليل حاوي (1919-1982)، أحد أبرز روّاد حركة الحداثة الشعرية، الأقدر على توفير الإجابات ووضع الأسس النظريّة وإرساء القواعد الفكريّة لحركة الحداثة الشعرية العربية، لما امتاز به من جمع ما بين رؤيا شعرية متميّزة من ناحية وثقافة نقدية وفلسفية واسعة من ناحية ثانية. ولا شك أن ذلك ما يفسّر وجود "حوارات" عديدة لخليل حاوي مع نقّاد وصحفيين ومثقّفين منشورة في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في لبنان خاصة ودول عربية أخرى خلال عقدي الستينات والسبعينات من القرن الماضي.

يقول بلال الحسن في مقدّمته لحوار له مع خليل حاوي في كانون الأول 1964:

في مقابلة صحفيّة عاجلة ماذا يمكن أن نسأل شاعرا كخليل حاوي؟ فالضجّة التي أثارها كلّ ديوان ظهر له كانت تجمع حوله سيلا من النقّاد والصحفيين يسألونه رأيه في كلّ شيء، ويجيبهم ببساطته المعروفة عن كلّ شيء أيضا.

وكان خليل حاوي يحرص على جمع ما يُنشر من تلك الحوارات في الصحف والمجلات حرصه على تقديم إجابات منهجيّة ودقيقة عن الأسئلة التي كانت تُطرح عليه، وكان



يحتفظ بقصاصات تلك الصحف والمجلات المتضمّنة حواراته، أو بجانب كبير منها، في ملفّ خاص ويصحّح الأخطاء المطبعية التي تقع بها سهوًا.

هذه الحوارات التي جمعها خليل حاوي وغيرها من أوراقه التي تتضمّن مقالات ودراسات تناولت شعره ومقالات كتبها بنفسه، كانت بين يديّ في السنوات ما بين 1971 و1979. فقد كنت تلميذة من تلامذة خليل حاوي بالجامعة الأميركية في بيروت منذ خريف عام 1967 حين تابعت معه دروس الفلسفة اليونانيّة والفلسفة الإسلاميّة في السنة التحضيرية الأولى من الدراسة الجامعية (فرشمن)، ونظريّات النقد الأدبيّ الغربيّ والعربيّ وفلسفته في السنوات التالية وحتى عام 1979 حين أنهيت المرحلة الأولى من الإعداد لشهادة الدكتوراه بإشرافه، بعد أن كنت قد أنجزت بإشرافه أيضا أطروحة ماجستير بعنوان "أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث" عام 1974. خلال تلك السنوات الاثنتي عشرة خصّني خليل حاوي باهتمام استثنائي، وكان لي المعلّم والموجّه، والراعي لعملي الأكاديمي، والمحتضن لإنتاجي العلمي. وفي سنوات دراساتي العليا منذ أوائل السبعينات، كنا نمضي يوميًا ساعات خارج إطار الحصص الدراسيّة نناقش فيها قضايا الشعر والفن والفكر، ويحدّثني طويلا عن شجون الأوضاع العربيّة وهموم الإنسان العربيّ في زمن الإحباط وعصر التشرذم والانهيار. كان يحكي لي عن كلّ شيء: يروي لي سيرته الذاتيّة والعلميّة وتجربته الشعريّة، ويفصّل آراءه في كلّ ما يخطر في البال من قضايا، بصدق وتلقائيّة وعمق. وكان يرغب في أن أتابع الكتابة عنه بعد أن كتبت عن ديوانيه "بيادر الجوع" و"الرعد الجريح" دراسات(1) عدّها متميّزة في مجال النقد الأدبي ونوّه بها في حوارين صحفيين عام (1979). (2)

وفي العام الدراسي 1971-1972، عام مباشرتي الإعداد لدرجة الماجستير، طلب خليل حاوي من إدارة الجامعة الأميركية انتدابي لمساعدته في أبحاثه، وهو نوع من الدعم الذي تقدّمه الجامعة لطلاب الدراسات العليا من المتفوّقين مقابل مساعدة أحد الأساتذة في أعمالهم وأبحاثهم. وقد عملت مع خليل حاوي حتى سنة 1979. خلال تلك السنوات عهد إليّ حاوي بأوراقه وكتاباته وحواراته المنشورة في الصحف والمجلات، وبكلّ ما جمعه ممّا كُتب عنه من دراسات وأبحاث، فاطّلعت على تلك المادة وصنّفتها وتابعت جمع ما كان يصدر منها خلال تلك الفترة، وأعددت على أساسها بيان سيرة مفصّلا ومبوّبا بكلّ ما كتبه أو تحدّث به أو كتب عنه.

في تلك السنوات تبلورت لديه ولديّ فكرة جمع دراساته النقدية والفكرية ونشرها في كتاب. ولم يكن مزاجه مما يتقبّل أن يقوم بنفسه بعمل يتطلّب تحريرًا وتوثيقا ومراجعة، وتمنّى عليّ أن أقوم بهذه المهمّة بعد أن أنهي كتابة أطروحة الدكتوراه. وغادرت لبنان في صيف سنة 1979 في ظروف الحرب القاسية، ومرّ وقت ليس بالقصير قبل أن أنجز الأطروحة(3)، واختار خليل حاوي الرحيل قبل أن أبدأ بتحريرها. وكان أن عملت بعد إتمامها ومناقشتها عام 1990، على الوفاء بوعدي والعمل على إعداد

كتاب يضمّ أعمال حاوي النقديّة والفكريّة، وكانت صور عنها موجودة لديّ، ونشر في عام 2002، وإن كان الكتاب جاهزًا قبل ذلك بعشر سنوات"(4)

أما فكرة إعداد كتاب يضمّ حوارات خليل حاوي المنشورة في الصحف والمجلات، فقد طالما راودتني منذ بداية اطلاعي على ما تجمّع لديه من قصاصات تلك الصحف والمجلات. ولطالما شعرتُ أن جمع تلك المادة المتناثرة في الصحف والمجلات الصادرة عبر عقدين من الزمن ونشرها في كتاب يشكّل خدمة للثقافة العربية، ويضيف وثيقة مهمّة إلى المكتبة الأدبيّة والنقديّة العربية، إلى جانب كونه لفتة عرفان بجميل أقدّمها لخليل حاوي تحقيقا لرغبة أرى أنها كانت تراوده عندما كان يجمع تلك المقابلات والحوارات المنشورة ويحتفظ بها، وقد يصحّح بعضًا مما ورد فيها من أخطاء.

إن تلك الحوارات التي أجراها صحفيّون وأدباء، والندوات التي كانت تنظّمها مجلات أدبيّة وفكريّة يشارك فيها شعراء وأدباء ونقّاد، تعكس صورة الجوّ الثقافي السائد آنذاك في الوطن العربي عامة وفي لبنان على وجه الخصوص، من خلال الأسئلة التي كانت تُطرح على خليل حاوي في المقابلات الصحفية وإجاباته عنها، ومن خلال القضايا التي شكّلت محور النقاش بين الأدباء والشعراء العرب في تلك الحقبة من الزمن. ولا شك أنها مصدر أوّليّ للبحث في إرث خليل حاوي الشعري والفكري ومرجع أساسي لدراسة حركة التجديد والحداثة في الشعر العربيّ في النصف الثاني من القرن العشرين. كما أن تلك الحوارات وثيقة نقديّة وعلميّة لا غنى عنها للباحثين في شؤون الأدب والشعر والنقد والفكر العربي والمقارن تشكّل عصارة التجربة الفنيّة والتأمّل الفكري لرائد فذّ من روّاد الشعر العربيّ الحديث. وليست تلك الحوارات مجرّد سجلّ تاريخيّ يختصّ بزمن مضى وانقضى، بل هي في جانب كبير منها بنت الساعة التي نحياها اليوم. فقد استطاع حاوي بحدس الشاعر الرائي وثقافة الناقد المتمرّس وتأمل المفكّر الحصيف أن يكشف عديد الآفات التي تعاني منها الأمة العربية في حياتها الثقافية والاجتماعية والتربوية والسياسية الراهنة. ولعل ما دعاه في حوار له في أواخر العقد السابع من القرن الماضي بالارتداد إلى "سلفية غاشمة تستمدّ قوّتها وسيطرتها من مصادر تكاد تكون بجملتها غير مشروعة"، محدّدا استخدام المال والإفادة من وسائل الإعلام سبيلا "لترسيخ تلك السلفية"، يشكّل مثالا على تلك الرؤيا الثاقبة التي ترى إلى المستقبل، ووطننا العربي اليوم يعاني ما يعانيه من ذلك الارتداد السلفي المرَضي الذي يهدّد كيانه.

غير أن المادة لم تكن بين يديّ بعد مغادرتي بيروت، وإن كان متوفّرًا لديّ ثبت كامل بها وضعته أثناء عملي مع خليل حاوي. وقد حاولتُ بعد رحيله جمعها، بمساعدة أصدقاء، من أرشيف عدد من المكتبات بلبنان منها مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت ومن مكتبات عامة وجامعية في القاهرة ودمشق، فلم أعثر إلا على عدد قليل جدًا منها. هذه الأوراق وغيرها من أوراق خليل حاوي الخاصة كان أولّ من استلمها إثر رحيله الدرامي المفاجئ الدكتور نسيب همّام رحمه الله، صديق خليل حاوي وقريبه وطبيبه الخاص، وصديقي الذي كنت أعتزّ بصداقته ومودّته" وكان الدكتور همّام أول من أعلم بوفاة خليل حاوي منتحرًا، وكان هو من رافق الشرطة إلى منزله صبيحة يوم السابع من يونيو عام 1982، وتابع المسائل الطبيّة الشرعيّة وإجراءات التحقيق الأمني كافة، واستلم المنزل ومحتوياته. وبقي منزل خليل حاوي بكل ما فيه أمانة في يد الدكتور همام إلى أن تسلّمه الأستاذ إيليا حاوي رحمه الله، شقيق خليل(5)، حين تمكّن من القدوم إلى بيروت الغربية من منزله في منطقة أدونيس(6) في ظل الأحوال الأمنية الخطيرة التي كانت سائدة حينذاك، في أحلك أيام الحرب اللبنانية وأقساها، وبعدما عانى لبنان ما عاناه من احتلال الجيش الإسرائيلي، وكان ذلك هو السبب المباشر لقرار خليل حاوي إنهاء حياته ليلة دخول قوات الاحتلال أرض العاصمة اللبنانية بيروت. وقد كتب إليّ الدكتور نسيب همّام رسالة(7) يقول فيها:

يبقى أنك مؤهّلة أكثر من أيّ أحد أو أيّ جماعة لإبقاء قيمته. وأتمنّى أن تدوم رغبتك في إقامة ميراثه. وأعيد الآن أني نقلت إلى إيليا (حاوي) رأيي بحفظ كلّ ما لدينا حتى إذا أردتِ أن توكلي إلى نفسك هذا العمل توضع جميع الآثار تحت تصرّفك. تجاه هذا الاتّكال الكلّي عليك لا يغرب عن بالي أنك مرتبطة بواجبات أخرى وأنك في بدايات تأسيس نفسك بأمر المستقبل المأمول، ومع ذلك أتمنى أن تتضافر العوامل من ظروفك الخاصة ودوام رغبتك لكي تحيي أثر خليل من أجل نفسه ومن أجل هذه الأمة. يهمّ كثيرا أن تتمكني من الحضور إلى لبنان ولو لمدّة قصيرة لتحديد السبل والإمساك بالخيوط المختلفة. وعندئذ يمكن تأجيل العمل المتكامل إلى حين آخر. في انتظار ذلك سنقيم على اقتناعي أنا واقتناع إيليا (حاوي) بأن هذا العمل هو لك دون سواك.

ولم أتمكن من الذهاب إلى لبنان قبل أواخر عام 1992؛ حينذاك كان الدكتور نسيب قد توفّي، رحمه الله، واتصلت بالأستاذ إيليا حاوي وتحدثّنا في شأن إعادة طبع ديوان خليل حاوي ونشر أوراقه. وألححت على ضرورة جمع دواوينه الشعرية الخمسة في مجلد واحد. وكانت المجموعة الصادرة عن دار العودة تحت عنوان ديوان خليل حاوي في طبعتها الثانية عام 1979 تضمّ دواوينه الثلاثة الأولى "نهر الرماد" و"الناي والريح" و"بيادر الجوع"، وصدر آخر ديوانين له، "الرعد الجريح" و"من جحيم الكوميديا"، في ذلك العام لأوّل مرّة عن الدار نفسها، كلّ

لطالما شعرتُ أن جمع تلك المادة المتناثرة في الصحف والمجلات الصادرة عبر عقدين من الزمن ونشرها في كتاب يشكّل خدمة للثقافة العربية، ويضيف وثيقة مهمّة إلى المكتبة الأدبيّة والنقديّة العربية



عاصم الباشا

منهما في مجلّد مستقلّ" وطلب الأستاذ إيليا منّي وضع مقدّمة للأعمال الشعريّة الكاملة (8) فرحّبت بذلك، وشعرت أني بكتابة تلك المقدّمة، أحقّق رغبة خليل حاوي الذي كان قد طلب منّي نشر دراستي "خليل حاوي يكتب ملحمة الإنسان والحضارة" (9)، كمقدمة لديوانه "الرعد الجريح"، ولم أوافق على الفكرة حينذاك، وكانت حجّتي أن تحليلي للقصائد الأربع التي شكّلت تلك المجموعة الشعريّة، سيحدّد النظر إليها بوجهة معيّنة يُخشى أن تؤخذ على أنها التأويل الوحيد لها أو أن يُعتقد بأن الشاعر يتبنّاها دون غيرها. (10) وسلّمني الأستاذ إيليا صورًا عن كلّ ما كان موجودا لديه من قصاصات الجرائد والمجلات التي كانت في منزل خليل حاوي، وتضمّنت المقابلات التي أجراها أدباء وصحفيّون مع خليل حاوي على مدى عقدين من الزمن، وهي الأوراق التي كانت بين يديّ في سنوات عملي مع حاوي في الجامعة. هذه المقابلات والحوارات -وقد أضفتُ إليها حوارا شفهيّا تلا ندوة شعريّة لخليل حاوي في مركز غوته الثقافي ببيروت في 15 أيار 1975 قمتُ بتسجيله على شريط سمعي في حينه ونشرته في مجلة الآداب عام 1992، ووثيقة بعنوان "الشعر.. تجربة، رؤيا، تعبير"، وضعها خليل حاوي ليشارك بها في ندوة دعوتُه إليها عام 1981 نظّمتُها بمدينة الحمامات التونسيّة في إطار عملي حينذاك في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس(11)- تشكّل مادة هذا الكتاب الذي أعتزّ بإنجازه وإضافته إلى المكتبة العربيّة مصدرًا أوّليًا ووثيقة أساسيّة حول تجربة خليل حاوي الشعريّة، وكذلك حول حركة الشعر العربيّ الحديث والمشهد الثقافيّ العربيّ في ستينات القرن العشرين وسبعيناته.

عدت إلى هذه الأوراق وأعدت قراءتها مرارًا متأمّلة في كيفيّة تنسيقها لنشرها في كتاب. وقد قرّرت بعد تفكير طويل وأكثر من محاولة في تصنيف مضمون الحوارات حسب القضايا الرئيسة التي تناولها حاوي فيها، نشر الحوارات في الشكل الذي ظهرت به في الصحف والمجلات والمحافظة على صيغة الأسئلة التي كان يطرحها المحاورون وعلى تسلسلها، لتشكّل وثيقة تاريخية لا يجوز المساس بها، ولوضع تلك الحوارات في سياقها الثقافيّ والزمنيّ والالتزام بما يقتضيه نقلها إلى القارئ والباحث من أمانة علميّة بعد مرور أربعة إلى خمسة عقود من الزمن على حدوثها. ولهذا السبب نفسه تركتُ عناوين المقابلات كما وردت في الصحف والمجلات، وحافظتُ على مقدّماتها أو أجزاء من تلك المقدّمات وجدتُ أنها تساهم في كشف الأجواء الثقافيّة والفكريّة السائدة في الساحة الثقافيّة العربيّة حينذاك. وقد وضعت الأسئلة والمقدّمات بالخط المائل للفصل بينها وبين إجابات حاوي عن تلك الأسئلة. ولم أتدخّل إلا لتصحيح أخطاء مطبعية أو لغوية، وردت فيها أو تدارك جملة سقطت سهوا في طباعة الجريدة أو المجلة وقد أشرت إلى مواضعها في الهوامش، ووضعت كلّ ما أضفتُ ضمن قوسين معقوفين، كما وضعت في الهامش أسماء الأعلام الغربيين المذكورين في الحوارات بالحرف اللاتيني وتاريخ ولادة كلّ منهم ووفاته لتحديد الإطار الزمني الذي عاشوا وعملوا فيه، وأضفت هوامش بتفاصيل وجدتُ أنها توفّر معلومات ذات دلالة، ووضعت في آخر الكتاب ثبتًا بالمقابلات والندوات الواردة في الكتاب.

وقد أدرجتُ تلك الحوارات وعددها ثلاثة وستون حوارًا، في ثلاثة أجزاء وضعتها تحت عناوين: "حوارات الستينات"، و"حوارات السبعينات"، و"الثمانينات: حصاد مسيرة إبداع شعريّ وعطاء فكريّ." ويضمّ كلٌّ من الجزأين الأول والثاني، ستة فصول مقسّمة حسب السنوات التي نُشرت فيها الحوارات(12)، ووضعت في الهامش اسم الجريدة أو المجلّة وتاريخ صدورها ومكانه واسم المحاوِر إذا كان مذكورًا ورقم العدد ورقم الصفحة إذا كانا ظاهرين على القصاصة الموجودة لديّ. ويضم الجزء الثالث مداخلات حاوي في ندوة لمجلّة الفكر العربي عام 1980، والوثيقة التي أعدّها حاوي حول تجربته الشعريّة والفكريّة للمشاركة في الندوة التي دعوتُه إليها عام 1981. ورغم أن هذه الوثيقة كانت في الجانب الأكبر منها تجميعًا لأسئلة وإجابات وردت في حوارات سابقة منشورة، غير أني آثرت أن أضمّنها كاملة في الكتاب لأنها تشكّل الصيغة الأخيرة التي وضعها خليل حاوي لعرض خلاصة ما انتهى إليه من موقف في قضايا الشعر والنقد والثقافة. غير أني حذفت من بعض حوارات السبعينات الإجابات التي وردت حرفيًا في حوارات سبق نشرها، وأشرت إلى ذلك في مكانه. وكان خليل حاوي في العديد من حوارات تلك الفترة يضع إجابات مكتوبة عن الأسئلة التي كانت تطرح عليه وأحيانا يصوغ بنفسه بعض تلك الأسئلة. أما ما سيجده القارئ من تكرار فيما يعبّر عنه حاوي من مواقف وأفكار في حواراته عامة، فأمر متوقّع وعاديّ مردّه انشغال الساحة الثقافيّة في ذلك الزمن بعدد من القضايا الفنيّة والنقديّة التي كانت تتّصف بالجدّة حينذاك أدّت إلى طرح الأسئلة ذاتها من قِبل المحاورين من

ناحية، وحرص حاوي على تأكيد موقفه من تلك القضايا والتعريف بها على أوسع نطاق وترسيخها في الوعي الفنّي والثقافي العام من ناحية ثانية. غير أن وجود بعض التكرار لا يعني أنه خلال عقدين من الزمن لم يحدث تطوّر في التفكير بالقضايا التي كانت تطرح حول الشعر الحديث والأسئلة التي كانت توجّه إلى روّاده. ومع أن آراء حاوي في القضايا الأدبيّة والفنّية ومواقفه من المسائل الثقافيّة والحضاريّة بقيت، من حيث المبدأ، ثابتة على حالها، يشعر القارئ أن هناك تفكيرًا متواصلا في القضايا جميعا وتحوّلا في بعض المواقف، وأن هناك تطوّرًا في معالجة المسائل المطروحة على الشاعر، كما أن هناك إضافات أساسيّة في عرض تجربته الشعريّة التي تطوّرت وتعمّقت عبر السنين.

وقد مهّدتُ لهذه الحوارات بدراسة بعنوان ·خليل حاوي: الشاعر-الناقد· كنت قدّمتها في مؤتمر ·خليل حاوي وتطوّر الشعر العربي الحديث· الذي عقدته دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى في الجامعة الأميركية في بيروت ومجلة الأبحاث الصادرة عن كلية الآداب والعلوم بالجامعة بالاشتراك مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقيّة وذلك في الجامعة الأميركية في بيروت من 6 إلى 8 يونيو 2007، ونُشرت في ملفّ خاص ضمّ عددًا من أبحاث المؤتمر في عدد مجلّة الأبحاث الصادر في عام 2011. وقد رأيت أن هذه الدراسة التي تناولت لأولّ مرّة تجربة خليل حاوي الشعريّة وموقفه من القضايا التي أثارتها حركة الحداثة الشعريّة العربيّة من خلال حواراته المنشورة في الصحف والمجلات وقدّمت خليل حاوي بصفته شاعرا-ناقدا، تشكّل مدخلا منهجيّا مفيدًا لقراءة تلك الحوارات.

بهذا العمل، فضلا عن ديوان خليل حاوي المتضمّن الدواوين الخمسة الصادر في مجلّد واحد عام 1993، وعن كتاب ·خليل حاوي: فلسفة الشعر والحضارة· الذي يضمّ مقالاته النقديّة والفكريّة، تكتمل المصادر الأوّلية الأساسيّة لدراسة شاعر يُعدّ باستحقاق، قامة شامخة في التراث الشعريّ العربيّ وعلَما من أعلام الإبداع الشعريّ الحديث. وكلّ ما أرجوه أن أكون قد اقتربت من تحقيق الهدف الذي سعيت إليه وهو المساهمة في إضافة عمل نقديّ وأدبيّ يشكّل إضاءة جديدة على حركة الشعر العربيّ الحديث وما رافقها من قضايا نقديّة وفكريّة وثقافيّة في النصف الثاني من القرن العشرين، وأن أفي خليل حاوي بعضًا من حقّه من حيث هو رائد من أبرز روّاد هذه الحركة بما أبدع من شعر وساهم به من فكر ونقد، وأن أقدّم وثيقة تعرض موقفه عبر عقدين من الزمن ممّا كان مطروحًا في الساحة الثقافيّة العربيّة حينذاك من قضايا الشعر والنقد والثقافة والحضارة، وتكشف تجربته الشعريّة وثقافته الفلسفيّة وانشغالاته الحضاريّة ومعاناته الوجوديّة ورؤياه المستقبليّة وجوانب من سيرته الذاتيّة ومن شخصيّته.

ويبقى خليل حاوي علَمًا بارزًا في تاريخ الشعر العربيّ والثقافة العربيّة في القرن العشرين، وشاعرًا رائدًا من روّاد الحداثة الشعريّة وناقدا ومفكّرا نذر شعره وفكره وحياته لقضيّة محوريّة آمن بها، وهي إحداث نهضة تعمّ مناحي الحياة العربيّة جميعًا ليتحقّق ما حلم به من انبعاث للحضارة العربيّة وتجدّد للفكر والإبداع الشعريّ العربيين. بهذا الإيمان العميق أعاد حاوي للشعر دوره الحيويّ في الحياة الثقافيّة، وأعاده إلى موقعه المستحَق في الحضارة الإنسانيّة.

يبقى خليل حاوي علَمًا بارزًا في تاريخ الشعر العربيّ والثقافة العربيّة في القرن العشرين، وشاعرًا رائدًا من روّاد الحداثة الشعريّة وناقدا ومفكّرا نذر شعره وفكره وحياته لقضيّة محوريّة آمن بها

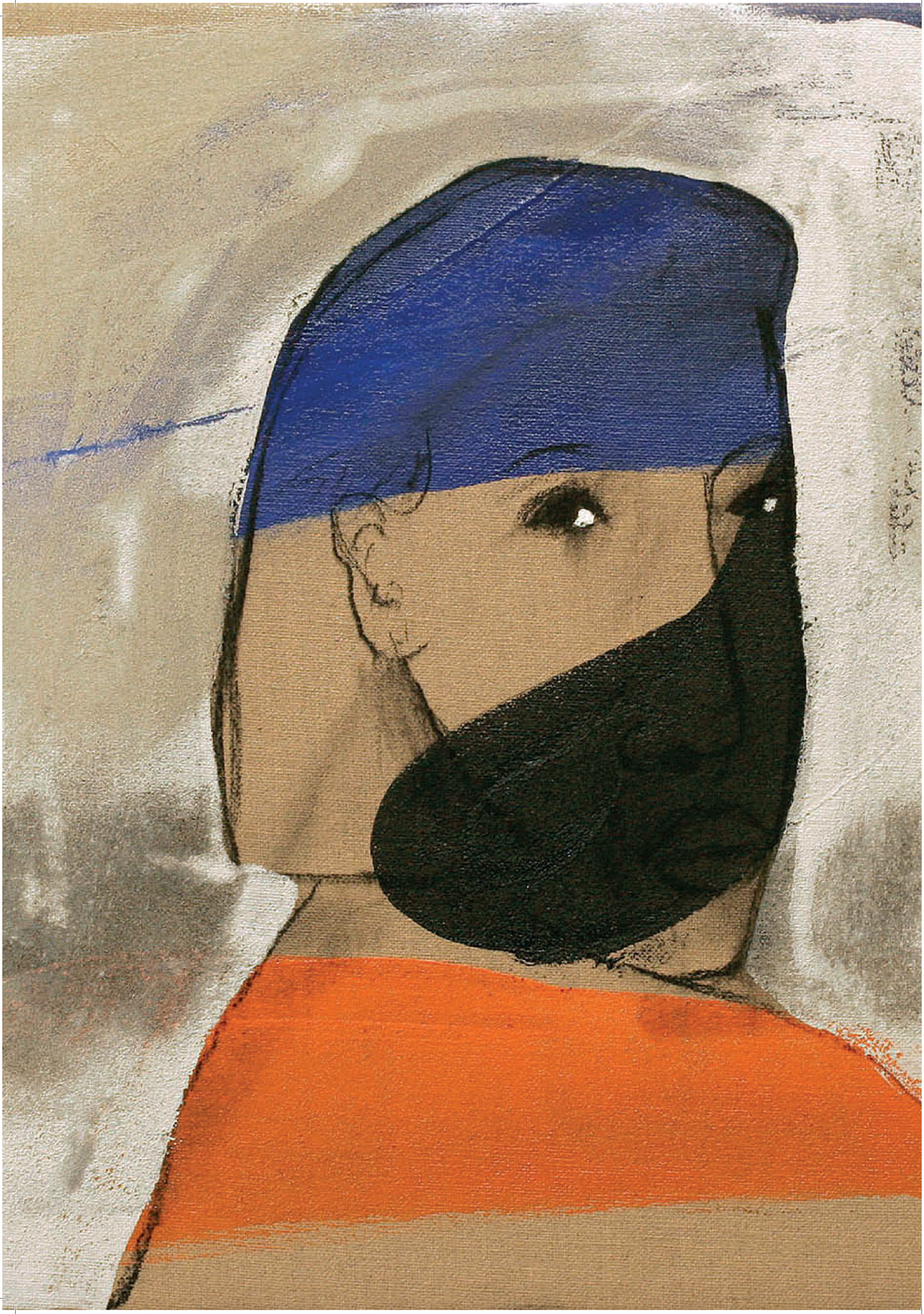
إلا أنه متى كانت المطامح كبيرة كان الانهيار عظيمًا، وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مُرادها الأجسام، كما يقول المتنبي. فلم يستطع خليل حاوي أن يتحمّل رؤية الحلم القومي بانطلاق نهضة حضاريّة عربيّة شاملة الذي استمدّ منه رؤياه الشعريّة وبنى عليه إبداعاته الفنّية يتقوّض بتلك الصورة المفجعة التي تراءت له في التفكّك العربيّ بدل ما كان يأمله من تآلف ووحدة، وفي الهزائم العربيّة المتتالية بدل ما كان يرجوه من انتصار، وفي تراجع قيم الحداثة والانفتاح والتنوير والارتداد إلى ·السلفيّة الغاشمة· التي قال في إحدى حواراته إنها ·انتقلت إلى برامج التربية في الدول العربية· بدل ما وقف عليه حياته من دعوة إلى إعمال الفكر النقدي وسيادة العقل. ولمّا كان قد جعل حياته عِدْلا للقضيّة التي نذر نفسه لأجلها، وهي الانبعاث الحضاريّ والتجدّد الفكريّ والثقافيّ والتحديث الشعريّ، وجد أن حياته فقدت مبرّر استمرارها حين رأى قضيّته تنهار أمام ناظريه. ذلك الانهيار المفجع تمثّل له حينذاك في أعنف صوره وأبشعها في احتلال الجيش الإسرائيليّ أول عاصمة عربيّة، بيروت، يوم السادس من يونيو عام 1982، في الذكرى الخامسة عشرة للهزيمة العربيّة الكبرى التي كانت صورة من أشدّ صور انهيار الحلم القوميّ الكبير قسوة. يومها قرّر خليل حاوي الانتحار، وكانت طلقة بندقية الصيد التي فجّرها بين عينيه صرخة مدوّية في ضمير كل عربي مخلص وشريف، لا في الجيل الذي انتمى إليه حاوي فحسب بل في الأجيال العربيّة التالية التي طالما ·مدّ أضلعه لها جسرًا· لتعبُر إلى مستقبل عربيّ حلم أن يكون مشرقًا.

غير أن شعر خليل حاوي وكتاباته وحواراته النقديّة والفلسفيّة تبقى علامة مضيئة في زمن يُخشى أن تطول فيه لدينا ظلمات التخلّف والتشرذم والانهيار، وتظلّ أساسًا صلبًا من أسس إعادة بناء ثقافة الحداثة وإبداعاتها الفنّية والفكريّة في الوطن العربي التي رسّخها مفكّرون وشعراء وأدباء عرب كبار منذ مطلع القرن العشرين ■

ناقدة من لبنان

والنص مقدمة كتاب يصدر هذا الشهر عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» في بيروت

بهرام حاجو





سلمى الخضراء الجيوسي

أمّة عربية يتيمة

علم من أعلام الثقافة العربية المعاصرة، أديبة وشاعرة وناقدة ومترجمة أكاديمية فلسطينية. ولدت عام 1928 من أب فلسطيني وأم لبنانية في السلط شرقي الأردن. ترعرعت في مدينة عكا وفي القدس. نشأت في فلسطين، بعد نكبة 48 عاشت في الأردن.
درست الثانوية في كلية شميت الألمانية بالقدس، ثم درست الأدبين العربي والإنكليزي في الجامعة الأميركية في بيروت وحصلت على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة لندن.
أقامت في عدد من البلدان العربية والأوروبية، ودرَّست في جامعات الخرطوم والجزائر وقسنطينة، ثم سافرت إلى أميركا لتدرّس في جامعاتها إلى أن أسست عام 1980 مشروع "بروتا" لنقل الأدب والثقافة العربية إلى العالم الأنغلوسكسوني، وقد أنتجت "بروتا" الموسوعات، وكتبا في الحضارة العربية الإسلامية، وروايات ومسرحيات وسيراً شعبية وغيرها.
نشرت شعرها في العديد من المجلات العربية. ولها ديوان وحيد مطبوع: "العودة من النبع الحالم" 1960.
مؤلفاتها: إلى جانب مقالاتها المتنوعة كتبت باللغة الإنكليزية، ومن بين ابرزها السفر النقدي الذي يؤرخ للتطورات الحديثة في الشعر العربي تحت عنوان "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث".
حصلت على عدد من الزمالات من الجامعات الأميركية، وعلى وسام القدس للإنجاز الأدبي1990، ووسام اتحاد المرأة الفلسطينية الأميركية للخدمة الوطنية المتفوقة 1991.
بنبرة رسالية، ميزت صوتها لنصف قرن، تقرع سلمى الخضراء الجيوسي جرس الخطر وبصوت ينزف أسى تتساءل عن سر تلاشي النخب بإزاء انفراط عقد العرب، وتقهقرهم في حاضر مشتعل، وكأنهم في لحظة غروب وجودي. والحوار مع سلمى يذهب في دروب شتى ويتناول موقفها من جملة القضايا الأدبية والفكرية العربية الشاغلة اليوم، ومنمنظور نقدي تتوقف، خصوصاً، عند بعض الأحكام والتصورات النقدية الخاطئة التي شاعت في حياة الثقافة العربية على مدار القرن العشرين، وتعنى بصورة العرب ومكانة الثقافة العربية لدى الآخر الغربي وما يحيط بترجمة الأدب من إشكاليات ومشكلات وبحاضر ثقافة العربية ومستقبلها.

المحرر

الجديد: لماذا تدهورت أحوال العرب حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من انحطاط وعجز وانسحاق أمام أعداء الأمة، وما هو السبيل للخروج من هذه المحن؟

سلمى بدأت أحوال العرب بالتدهور عندما عاد الحكم العربي إلى التشرذم. الاتحاد قوة عجيبة وتفتيت الوطن رحلة نحو التلاشي والانهيار. ها هو العالم، اليوم، يعدّ نفسه إلى صمود أمام عدوان الآخر، لأن عددا كبيرا من بلدانه أدرك أنه لا حَول ولا قوة له إذا بقي معتمدا على مساحاته المحدودة، فوحّدت أوروبا نفسها حتى تتمكن من مواجهة أميركا والصين وهما حيثيتان في منتهى القوة والضخامة.
أما العالم العربي فهو ماض إلى مزيد من التقسيم، مع أن الجميع يعرف أن تقسيم أيّ قطعة من الوطن هو خطة استعمارية ترمي إلى إضعاف العالم العربي والتحكم النهائي في مصيره. ولكننا رأينا كيف يموج هذا العالم وينحني ويتفجر عصبية إزاء الادعاءات الفاسدة التي ولجت إلى تفكيره دون عناء. شيء من الصعب تصديقه ومع ذلك رأيناه يحدث مرة بعد أخرى.
لا بد للعرب من وضع الشرط الأول للحياة العربية المعافاة تحت أنظارهم "كل ما يؤدّي إلى تقسيم ولو شبر واحد من الأرض العربية أمر لا يحمل إلا الغدر وقد وجبت محاربته بقوة العقل والقلب".
الفاجع هو أن العرب لم يتعلموا شيئا من النكبات التي حلّت بهم في العصر الحديث وهو عصر التنوير والعلم في العالم؛ بقوا أكثر تراجعا وسوء تقدير مما كانوا عليه في مطلع عصر النهضة، خضعوا لفساد كبير في الذوق والمعرفة وكرامة الذات وأهم من كل شيء في موقفهم من الحداثة.
تأمل كيف انثنى الربيع العربي على نفسه وسلّم أمره لليد الخاطئة، ولم يقدّم العرب المعاصرون، وقد اجتمعوا على رفض أوضاعهم المتردية، لم يقدّموا صوتا قويا واحدا حاسم الوقع والإيمان، حكيما لا همّ له إلا الوطن، مطلعا على جميع النتوءات والحواجز والمعوّقات وبريئا منها، يدل على الطريق، صوتا أو عدة أصوات متآلفة تجتمع وتحمل الوطن العربي على أكفّها، تكرّمه وتعتذر منه وتعدّه إلى حقبة جديدة من الحياة الكريمة التي تعرف طريقها. الطريق الوحيد وقد أصبح ينفر منا ويبتعد عنا هو طريق الوحدة والحداثة. كل ما عداه يقود إلى المذلة والتراجع. هذا لا يحدث بالتمنيات بل عن طريق الفكر اللامع الذي يعمل على توحيد هذه الأمة وبرء جراحها.
الأمة العربية ما زالت مستعدّة ومتهيئة ولكن تنقصها القيادة. أين خريجو الدراسات السياسية، أين حملة الدكتوراه في العلوم السياسية والتاريخ؟

سلمى وشقيقتها الأصغر في القدس سنة 1934



أين انكمشوا ولم يتبرع واحد منهم باقتراح يمهد الدرب لحماية الوطن العربي وأنفسهم معه من تردّ أكبر؟ ما هذه الأمة المنكوبة؟ أين قادتها ومثقفوها؟ أين العارفون؟

أصابنا الإرهاق

لماذا لم يقم الفكر العربي بأيّ مراجعات حقيقية بصدد ما يجري؟ أين اختفى الفكر؟ أين اختفى المفكرون؟ وهل تظنين أن جيلا جديدا يمكن أن يخرج ليغير هذه الصورة الكئيبة للعرب اليوم؟ ولكن من أيّ نسل سيخرج هذا الجيل الفكري؟

سلمى لا أستطيع أن أتصوّر أن هذا العذاب المقيم لن يدق أجراس الخطر الداهم في قلوب الشبيبة العربية، ولكنهم في حاجة إلى أصوات جديدة واعية تنير الدرب. كيف يُتّمت هذه الأمة في الفترة الأخيرة وصرنا نتكلم أولا وآخرا عن المذاهب والملل؛ نحن أمة كبيرة، بلادنا تمتد إلى مساحات كبيرة ولنا تاريخ معقد كثير الأحداث فليس من الممكن أن لا يكون عندنا تنويع في المعتقد الشخصي عبر هذا التاريخ الطويل. إنما المذهبية ليست إطلاقا همنا الأكبر. هل نترك الاستعمار الذي طوّقنا ومؤامرات الاستيطان والتهجير وتداخل الأجنبي في صميم حياتنا وتصميمهم الواضح (يا إلهي كم هو واضح لا تخطئه العين ولا الذاكرة)

على تصفيتنا ونلتفت إلى مذاهب الناس حولنا، ونصدق الإشاعات التي يروجها من يريد تفتيت حياتنا وتمزيق شملنا وزرع الفتن في حياتنا؟ والحق إننا كأمة لا نجد حولنا أصدقاء كثيرين. إن انقساماتنا العريقة، وسهولة زرع الشكوك بنا، وغباء تعاملنا الرسمي مع العالم، وذلك الجبن التقليدي الذي نواجه به مظالم حياتنا أفقدتنا احترام الآخرين.

تسألني لماذا لم يقم الفكر العربي بأيّ مراجعات عمّا يجري؟ وأقول لك لقد أصابنا الإرهاق، وهو واضح في كل مجريات حياتنا. الإرهاق بأنواعه وقدرته على امتصاص ما تبقّى من قوة على المجالدة عندنا. ثم دخل عنصر المال إلى حياتنا. لقد كنا أكثر كرامة يوم كنا فقراء.

ولكن الإرهاق ليس عامل موت دائم لأنه قد يميت ليُحيي. وهذه الفوضى وهذا الهبوط لا يمكن أن يستمرا.

عندما قتل الرومان كاليغيولا قيصرهم المجنون وضعوا التاج على أول من لاقوا من الأسرة الحاكمة، وصدف أن يكون هذا هو المؤرخ كلوديوس، وكان رجلا عالما باحثاً، وكانت روما قد وصلت إلى الحضيض، فأوصى كلوديوس بعد تسلم إدارة الدولة أن يعطى حكم روما من بعده إلى نيرو، (وكان نيرو المعروف بنيرون عندنا مجرما آخر وأسوأ من كاليغيولا) قائلا ما معناه "لن تستفيق روما حتى تموت ومن أقدر من نيرو ليقضي عليها؟" وأحرقها نيرو.

على المنقلب

كأنك، يا سلمى تريدين أن تقولي إننا وصلنا إلى الدرجة الأحط في تاريخنا. وإننا قاب قوسين أو أدنى من الغروب؟

سلمى نعم، للأسف، نحن وصلنا هذه المحطة، وصلنا نقطة الخطر يا نوري. كل أسئلتك تومئ بهذا، وكل أحزان القلب. عالمنا العربي يعاني من خطر كبير داهم. لكن بأسنا مازال حقيقة موجودة في مكان ما. وهذا زمن المفكرين. نحن نحتاج إلى تغيير شاسع وهذا لا يقوم من دون فكر حديث رفيع الثقافة لا يدور إلا حول الوطن العربي الكبير ومصلحته الأولى وينسى طموحات الأفراد الشخصية. العرب لم يتخلصوا من طموحاتهم الشخصية، مع الأسف الشديد. دائما المصلحة الخاصة تتغلب.

نديم البيطار

سلمى، مادمت تتحدثين عن الفكرة العربية، وهي سراج فكرك وتطلعك وعملك على مدار أكثر من نصف قرن من النشاط اليومي في صلب الثقافة العربية وعلى مفترق علاقاتها بثقافات العالم، كأني بك تستعيدين رماد صديقك نديم البيطار الذي أوصى بأن يذرّ رماد جسده هو اللبناني العربي على الحدود المصرية الليبية، كيف يمكننا أن نستخرج من رماد حملة الفكرة طائر الفينيق العربي وقد انفض عن الفكرة أهلها؟



سلمى كأنك تسكن في كتابي، أول أمس فقط كنت أراجع بعض كتابات المفكر الكبير نديم البيطار فهالني أن يكون مفكر وحدوي كنديم البيطار اسما منسياً في هذا العالم العربي الواسع. إنه المثل الأعلى للفكر اللامع النقي، بنى فكره على مخطط وحدوي علمي مكين وتحدث لنا عن تجارب أمم متعددة اختارت الوحدة وأصبحت دولا لها شأن. عذّبني كثيرا أن يكون فكره النافذ قد وُضع اليوم على الرف. تعرفت عليه في أواسط الستينات في بيروت في بيت جورج حبش، ذلك الوطني النقي الآخر. وتحدثنا عن أوضاعنا ساعة من الزمن فتحمس نديم وفتح حقيبته وأخرج منها كتابا ضخما قدمه إليّ هدية. كان كتابه الفاتح، "الأيديولوجية الانقلابية". أخذته إلى بيت أختي وأنا ضيفة عليها فلم أرفع رأسي أياما حتى قرأته، ثم كتبت دراستين عنه وتصادقنا نديم وأنا. والتقينا كثيرا وكان نديم يريدني أن أعمل معه طول الوقت، بذلك التكريس الكامل الذي اشتهر به والذي آنسه بي. أنا حاولت ذلك كثيراً، فكان تعلقي بالأدب العربي والرغبة في خدمته تمنع عنّي التكريس الكامل للعمل السياسي. حزنت كثيرا لاكتشافي أن ثمة شيئا آخر يحول دون تكريسي الكبير لخدمة فكرة الوحدة. فقد كانت مقدسة عندي، أخذتها عن أبي وكان أبي دائما المثل الأعلى لي لمن يكرّس عمره لخدمة فكرة كبيرة يحتاجها الوطن. حدّثت نديم بذلك فلم يقتنع به، وهل من الممكن أن يقتنع مفكر اعتنق فكرة كبيرة بأن ثمة ما يُعلى عليها؟

غير أن القضية لم تكن عندي قضية مفاضلة، فلا شيء يعلو على فكرة الوحدة وأهميتها، ولكني أظن أن الأمر كان يتعلق بقضية العمل المتقن والتزامي بمحاولته، وإدراكي أن أفضل جهد أقدّمه هو جهدي في خدمة الأدب. وأظن أن عملي بعد ذلك في مشروع بروتا وتقديمي لعشر أنطولوجيات كبيرة وعدد من الكتب الفكرية وعدد أكبر من الكتب الإبداعية المترجمة إلى الإنكليزية برهن على ذلك. ودوما كان شعاري "كرّس جهدك دائما لما تتقن".

بعد ذلك بسنوات عندما كنت أدرّس في جامعة الخرطوم جاءني الشاعر محمد المهدي المجذوب كبير شعراء السودان يومئذ، جاءني متحمسا وقال لي "أريدك أن تتعرفي على شخصية فذة، رجل يحاول تغيير العالم" أخذني إلى مجلس محمود محمد طه، فدخلنا إلى ديوان ضيق عامر بالبخور لم أستطع فتح عينيّ فيه كما يجب لكثافة جوّه. وتحدثنا عن الحياة العربية طويلا. بعدها بثلاثة أيام جاءني المجذوب وأصر على أخذي مجدداً لمجلس ذلك الرجل الفذ الذي كانوا يلقبونه بالأستاذ "الأستاذ يريد أن يراك مرة أخرى". فدخلنا إلى المكان نفسه العامر بالبخور وتحدثنا طويلا. وفي نهاية الجلسة قال لي الأستاذ

> لا أستطيع أن أتصوّر أن هذا العذاب المقيم لن يدق أجراس الخطر الداهم في قلوب الشبيبة العربية، ولكنهم في حاجة إلى أصوات جديدة

مع الملك خوان كارلوس في غرناطة سنة 1991



محمود "تعالي واعملي معي. أنا أعرف عن حبك للأدب، ولكن ثمة مئات المختصين به، أما عملنا السياسي فقلة يستطيعونه. تعالي اعملي معي"، وكرر دعوته في لقاءات متعددة لاحقة: لا أذكر الآن كيف كنت أجيبه فأنا لا أراوغ أبداً، ولا أتقن فن المراوغة. وكنت أكرّم دعوته لي كثيرا وأكتب عنها لابنتيّ لينة ومي براحة ضمير، وكنت دائما تحت أنظار المجذوب التي كانت تلاحقني حذِرة متأهبة تخاف عليّ آن أقع في "مطب" لا أستطيع التخلص منه. فأقول للمجذوب "تظلون ذكوريين لا تعرفون إمكانات المرأة" ويضحك المجذوب ويتابع ترقبه.

تجربة السودان

تجربتك الأكاديمية في السودان كانت مؤثرة في جيل كامل من المثقفين. خلال عملي مع أكاديميي جامعة الخرطوم في 2005 أثناء تحضيري لندوة "الرحالة العرب والمسلمون" التي أشرفت عليها يومذاك، حدثت حوارات لي مع عدد من كبار أساتذة الجامعة ولم أدهش أبداً، ولكنني اغتبطت، مراراً، بينما كانوا يتحدثون لي عنك، وعن تجربة الثرية والمؤثرة هناك.. كيف تستعيدين تلك التجربة؟



سلمى يهمني، الآن، لاعتبارات حديثنا أن أسترجع خلال إقامتي في الخرطوم كيف تكررت لقاءاتي بالأستاذ محمود محمد طه، كنت أتحدّث معه عن إيجابيات مشروعه وأهمها محاربته للاستعمار وللخنوع لبريطانيا التي آمن بعض السودانيين بأهمية الارتباط السياسي بها. محمود محمد طه كان يرفضها ويؤمن بوحدة سودانية تحت نظام جمهوري وهذا تحمست أنا له. على أني كنت أرفض بعض أفكار مشروعه الاجتماعية وأحدّثه عنها، وهو يأمل طيلة الوقت أن يقنعني بوجهة نظره. ولكن حماسته الدائمة يوم إقامتي في الخرطوم لكي أعمل معه وتدخّل الشاعر المجذوب ليحميني من أيّ ارتباط كهذا، كان المجذوب يعرف بدقة حدسه أني لن أطيقه، كلاهما بقيا في ذاكرتي بقوة متوهجة حتى اليوم.

في علاقتي الفكرية مع الأستاذ تأكّد عندي بقناعة كبيرة أن بإمكان الإنسان أن يحترم من هو مختلف عنه، فقد كان تفكيره يؤول إلى الدين، وكان تفكيري دائما علمانيا. ولكننا بقينا على أخوّة جميلة.

هذا أتذكره دائما هذه الأيام عندما أواجه أمواج الكراهيات المذهبية والسياسية عند الآخرين وأناقش، بصبر نافد، كل الآراء المجهضة التي أصبحت تعمر بها اجتماعاتنا بالناس.

حزنت كثيرا لإعدام طه، جزء من بربرية متخلفة تحاصر الفكر وتمنع الكلام. ولما كنت أعد كتابي الكبير عن "حقوق الإنسان في الفكر العربي" بحثت عن ورثته كثيراً إيفاء وتقديرا لجهده الفكري حتى تمكنت من الوصول إلى ابنته، وقادني الاتصال بها إلى الدكتور نور حمد، وبينه وبين الأستاذ مصاهرة، فكتب لي دراسة عن فكر محمود محمد طه السياسي لكتابي عن حقوق الإنسان الذي نشرتُه باللغتين وصدرت طبعته العربية سنة 2002 وطبعته الإنكليزية سنة 2009.

الديني واللاديني

سقطت نظريات كثيرة في العالم وسقطت معها الأيديولوجيات الكبرى، فتقهقر البشر إلى السرديات الدينية يملأون بها الفراغ الفكري. والنتيجة صراعات دينية في المنطقة، والصراع الحقيقي تحت قشرة الواقع هو صراع بين العقل والخرافة وبين العلم والجهل وبين الحرية والاستبداد. كيف يبدو لك هذا التقهقر قياسا على نشأتك وتربيتك وملاحظاتك المبكرة؟

سلمى دعني أعود لاستحضر أيام الصبا في القدس والتي لا أستطيع أن أنساها. كانت القدس في صباي تسير نحو حداثة أكيدة، منفتحة، عامرة بالخير والأمل. لم تكن تعتمد التفسير الديني لكل شيء ولم تكن تعتمد على مشيخة الفكر وإخضاعه للخرافة والتكفير وتحريم كل ما هو حديث. كان كل شيء في مكانه، أمينا على زمنه، يحترم حتى المتدينون جدا الحرية الشخصية في تبنّي الفكر الحديث وأساليب الحياة أو عدم تبنيها. كان عمّي متدينا جدا، زوجته ترتدي الملاية، وكنا نحن سافرات، ولم نصطدم قط معهم، فلا نحن انتقدنا أسلوبهم في الحياة ولا هم انتقدوا أسلوبنا. كان عند الجيل الصاعد شوق كبير إلى الدخول إلى العالم الحديث. وما كان ممكنا أن تعيش بيننا الأفكار التكفيرية والخرافات الدينية والمعتقدات الخالية من العقلانية. لست أذكر أني شاهدت مرة واحدة صراعا بين الناس على مذهبهم. فهذا شيعي وهذا درزي وهذا سني وهذا مسيحي وهذا إيراني وكل شيء في مكانه.

جميع هذه المذاهب تواجدت مرة في غرفة استقبال واحدة في حي النمامرة في القدس، البقعا التحتا في بيت سيدة مسلمة من أصل يهودي. وكنت أنا قد ذهبت بخبر إلى أمي وهي تزورهم، وشاهدت كيف استقبلت جماعة النساء قصة حادث لم أعد أذكر تفاصيله بطلته امرأة اقترفت جرما ما.

قالت راوية القصة إنها كانت مسلمة سنية، فشهقت بعض النساء، فقالت الراوية "العفو، كانت شيعية"، فشهقت سيدة أخرى، فقالت الراوية "عفوكم يا جماعة، كانت مسيحية"، فشهقت سيدة ثالثة، فقالت الراوية "عفوكم، الكّبر ينسّي، تلك السيدة كانت درزية". فشهقت جميع السيدات احتراما لوالدتي، لأن والدتي كانت من عائلة لبنانية درزية، وانفجرت الغرفة بالضحك.

فانظر كيف تقبلت السيدات ذلك التنوع في المذاهب بطيب خاطر، وكيف انفجرن بالضحك على تعايش كل هذه المذاهب معا بسلام ومحبة في غرفة واحدة. انظر إلى طيبة القلب وتقبّل الآخر. وما يحدث الآن يدل على تراجع مخيف.

خطوط حمراء

هل هناك حقا سبيل لتخليص الفكر من الوقائع التراجيدية وعزله عنها، وتخليص أسئلة الثقافة من المأساة الجارية؟ هل هذا شيء ممكن؟ علميني يا سيدتي أعطيني الضوء لأعرف كيف افصل بينهما. أو أجيبي عن الأسئلة الجارحة.. كيف نخرج من الحفرة؟

> **الحفرة التي وقعنا فيها عميقة ومحاطة بالشوك. ولكن يجب أن نخرج منها. لا مجال لتأجيل ذلك. السقطة الخطرة تعيد تركيبة فشلها إذا لم نلتفت إليها**

سلمى الوضع صعب جدا يا عزيزي نوري والحفرة التي وقعنا فيها عميقة ومحاطة بالشوك. ولكن يجب أن نخرج منها. لا مجال لتأجيل ذلك. السقطة الخطرة تعيد تركيبة فشلها إذا لم نلتفت إليها. ولكن لكي تنجح أيّ محاولة علينا إعمار هذا الخراب بأن نكون مجهّزين فكريا لما تحتاجه هذه الأمة. لا بديل عن الاستعداد الفكري المدروس الواعد الحكيم الذي يعنى بالأمة لا بالأفراد، الذي يرفض التقسيم في أيّ مكان من الوطن العربي، الذي ينكر العداوات المذهبية، الذي يعامل المرأة كشخص مستقل كامل، الذي يقرأ الخطوط الحمراء. دعنا هنا نعيد قراءتها:

1- كل ما يتحدث عن الإقليمية وكأنها وضع نهائي: خط أحمر.

2- كل ما يتحدث عن أيّ تقسيم ولو لشبر من

سلمى الخضراء الجيوسي في الوسط وبجوارها نوري الجراح ثم أماما الادباء: كريسنوفر تينغلي، روبرت تيت، إليزابيث هودجكين -لندن 2007



مع الناقد خلدون الشمعة في بيتها بلندن 2010





الوطن: خط أحمر.

3- كل ما يتحدث عن المذهبية: خط أحمر.

4- كل ما يعيق المرأة العربية عن دخول الحياة الحرة: خط أحمر.

5- كل ما يعيق الإنسان عندنا من الرؤيا الحداثية على كل صعيد: خط أحمر.

ولكن حتى لو حرصنا على هذه الشروط سيظل وضعنا مقلقلا حائرا ما لم يرفدنا الفكر السليم النافذ الذكي الراجح المبني على العلم وعلى حداثة الرؤيا بمخطط فكري شامل يرفدنا، ولن يصلح شيء سواه.

بهذا يمكننا أن ننفذ من الويل الهاجم علينا.

قضية الإرهاق

لنتحدث في انجازاتك من بينها أنطولوجيا شعرية عربية بالإنكليزية تغطي قرنا من الشعر العربي هل تشعرين أننا في حاجة إلى أنطولوجيا جديدة تغطي شيئاً جديداً في الشعر وتكشفه للعالم؟

سلمى العصر الأدبي الحديث عندنا يتميز بتلاحق الإبداع ومحاولة دائمة لابتكار الجديد ولذا فإن القيام بترجمة متتالية للإبداع العربي يبدو أمرا جديرا بالمتابعة. ما يجب الحرص عليه هو دقة الانتخاب فلا يعرض على العالم (بما في ذلك على العالم العربي نفسه) إلا الجيد. في منتصف القرن الماضي كان الوضع أكثر دقة وحرصا على مناصرة الأجود، ثم انفتح صنبور الاختيار على شعث، ولم يعد الذوق الأدبي على نفس المستوى، لسبب أو لآخر. لعل أحد الأسباب هو انقسام العالم العربي إلى حيثيات متعددة فتتشبث الأقطار بمن تعتقد أنهم أهم مبدعيها وتفرضهم على القارئ العربي عامــة.

من المهم أن يدرك المهتمون بقضية الإبداع العربي أن الأدب عندما يكون معافىً، يخضع، في كل أجناسه الأدبية، إلى القانون الفني الذي يتبطّن جميع التغيّرات في الفن والحياة وهو قانون الإرهاق الذي يصيب جميع التجارب. كل شيء عرضة إلى الإرهاق. فحتى النبات والحجر عرضة له فهو لا ينحصر بالإنسان. الإرهاق يكمن وراء كل تغيير. فنحن نخضع له خضوعا خارجا عن إرادتنا لأنه يهاجم عافيتنا الداخلية ويبدد قدرتنا على الاستمرار ويتمكن، دون أن نلحظ نحن، من إدخال الضجر إلى نفوسنا من الشيء المعيّن فنبتعد عنه عفويا. السؤال الذي استبدّ بي عندما أدركت ما يفعله الإرهاق في النفس هو: كيف استمرّ الشعر العربي قرونا طويلة خاضعا لشكل معين هو شكل الشطرين وكيف بقي ألق هذا الشكل في النفوس دون أن يدخل الإرهاق الجمالي إليها؟ فحتى الآن وبعد أن وجد الشعراء العرب أشكالا جديدة لشعرهم، يظل ثمة افتتان بهذا الشكل وقافيته الموحّدة ولذة في سماعه. وأظن أن الإجابة على ذلك هي أن لهذا الشكل جمالا فنيا من ذلك النوع الذي لا تتلاشى جمالياته وتأثيرها في النفس مع الزمن. وهو أمر ملازم للفنون الرفيعة جميعها والكامن وراء استمرار الإعجاب بها عبر القرون.

الشعر العربي في تاريخه الطويل خضع، بدرجات متفاوتة، لشروط الإرهاق في عناصره المتعددة وأهمها المعنى، واللغة، والصورة. هذه حدث فيها تغيير مستمر على مر الزمن ولكن الشكل بقي محافظا قرونا طويلة على جماله وقدرته على التأثيـر على المستمع دون أن يصيبه الإرهاق الجمالي.

> **لا ينجح أيّ عمل أدبي في النقل إلى من هم خارج الثقافة المعينة إلا إذا كان ذا قيمة أدبية جيدة تخطت أبعاد مكانها إلى أبعاد شمولية يتفاعل معها الآخر**

البوكر العربية

خذ مثلا جائزة البوكر العربية (ولا أعرف ما حسن الابتكار باستعمال اسم جائزة غير عربية لأرقى جوائزنا؟ ألم يعد لدينا أي اسم يصلح لهذا المقام؟). لقد وجدت انتقاء الفائزين غير موفق أحيانا. ووجدت الميل لتفضيل الكتابة الحافلة بالكآبة أو بتصوير الهجين والملوّث والحياة المضطربة والشخصيات الهشّة والعلاقات المارقة يتغلب على كل ما هو منعش وواعد ونقي.

الحياة العربية المعاصرة، على إشكالاتها الكثيرة، وبسبب هذه الإشكالات، تحتاج إلى نوع جديد من الإيمان بإمكان الخير والصفاء التغلب على كل هذا الخراب. لقد بدأ نجيب محفوظ بعض رواياته بهذا النهج المعتم فلا تحتوي هذه الروايات ومنها "ثرثرة فوق النيل" على شخصية رئيسية واحدة عامرة بالخير ولا نرى في جلّها إلا دروب الشر وتهافت البشر. صحيح إن محفوظ خدم قضية الرواية خدمة سبّاقة فهو الذي أرسى قواعدها كفنّ لم يكن قبله قد وجد له قاعدة في الأدب العربي الحديث، وإنه على هذا الإنجاز الكبير لا على محتوى رواياته استحق جائزة نوبل. إلا أنه أرسى أيضا هذا الاتجاه السلبي نحو ما هو متهافت حد الجريمة أحيانا فتغلب هذا المنحى حتى اليوم على عدد كبير من الروايات العربية.

ترحيب كبير

ما طبيعة المصاعب التي واجهتك في نشر الأعمال التي قدمتها بالإنكليزية، لا سيما في ظل جهل عالمي كبير بقيمة الأدب العربي؟ وهل كان من السهل عليك العثور على ناشرين؟

سلمى أعترف أن النشر في أميركا كان بالنسبة إليّ سهلا كالحلم. لم أبحث قط عن ناشر لأيّ مجموعة أو كتاب أعددناه. كنت أعمل على سد فراغ واسع وكان العالم يشعر منطقيا بأن ثمة كارثة حلّت ذات يوم بأدب هذه الأمة العربية الكبيرة فاختفى ألقه. وساعد على هذا إنكار العرب أنفسهم لأدبهم وتراثهم فضاع منا كل شيء. نشأ جيلي لا يعرف أبعاد هذه الجريمة بل صدّق أغلبنا هذه الأقاويل التي شاعت حول التراث ولم يدهشه غيابنا الأدبي والثقافي عن العالم.

نعم، كان النشر سهلا، وكانت أعمالنا مطلوبة ولم أعانِ قط من قضية النشر. مما يدل على أن الشيء الذي تحتاج إليه المكتبة العالمية سيجد دائما طريقا إليها إذا كان الانضباط الأسلوبي

سلمى في بيتها بلندن 2009



واختيار الموضوع موفّقين. المهم في مادة النشر أن تكون ذات قيمة فنية وإنسانية ولا تخضع لشيء آخر.

صقلية العربية

آمل ان تضعينا في صورة هذا العمل واستهدافاته الأساسية؟

سلمى أنت تعرف ولا شك كتابي عن الأندلس «الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس». هذا الكتاب الذي صدر سنة 1992 لتكريس مرور خمسمئة سنة على سقوط الوجود الإسلامي الرسمي في الأندلس نال نجاحا كبيرا. وعملت بعده على كتاب صقلية بمساندة من مؤسسة محمد بن راشد في دبي وأنجزته منذ أكثر من سنتين. والكتاب يتحدث عن جميع مرافق الحياة في صقلية الإسلامية فكما تعلمين أنا لا أترك، إن استطعت، منحىً من مناحي الحضارة العربية السامقة دون إبرازه.

هذا الكتاب عن صقلية الإسلامية تعبت عليه كثيرا وهدفي أن ينال النجاح الذي ناله كتابي عن الأندلس. إذ أن على هذا الكتاب طلبا مستمرا لشمولية معالجته ومشاركة أفضل المختصين بالمواضيع المختلفة التي تناولها. كتاب صقلية جاء مثله بعد تعب كبير، لأن المختصين بصقلية كانوا أقل بكثير من أولئك المختصين بالأندلس.

انتهيت من العمل على كتاب صقلية منذ أكثر من سنتين، ولكن العمل ما زال لم ينشر مع أن الناشر الكبير نفسه الذي نشر كتابي عن الأندلس كان وما زال بانتظاره، ذلك لأني حسب العقد مع الرعاة سلمتهم الكتاب لدى الانتهاء منه لينشروه، ولكنهم ولكونهم في ظني يرعون، عدديا، مشاريع كثيرة تأخر كتاب صقلية، وأصبحنا الآن مهددين بخسران كبير إذا سحب عدد من الباحثين العرب والأجانب الذين كتبوا لنا فيه دراساتهم ونشروها عند ناشر آخر، وهم يطالبون بنشره باستمرار.

لقد أوجد هذا التأخير فيّ حذرا جديدا لم أعرفه من قبل من الاستمرار بهذا العمل الملزم، أنا التي بدأت به وأعلنته ووجدت أكبر سند معنوي له من كتابنا ومبدعينا.

والواقع أنني دخلت إلى هذه المعركة وحدي في البدء، وعملت بقوة وثقة ونشاط وعفوية لا تعرف التردد، وكل غايتي هي أن نسدّ فجوة كبيرة في الثقافة العالمية، التي لم نكن قد انتزعنا لنا فيها مكانا في العصر الحديث.

جهل وإنكار

لكن كيف تنظرين إلى طبيعة علاقة أهل الثقافة العربية بفكرة الحضور في العالم، وأعني بهم المؤسسات والمرجعيات الثقافية القادرة أو التي يفترض أن تكون قادرة على دعم النشاط الفكري والثقافي والأدبي العربي على مفترق اللغات الأخرى، ما الذي تفتقر إليه هذه العلاقة؟

سلمى أشد ما يعكر صفوي هو جهل العرب بتاريخهم الحضاري. إنه

بعض أعمال سلمى الخضراء الجيوسي



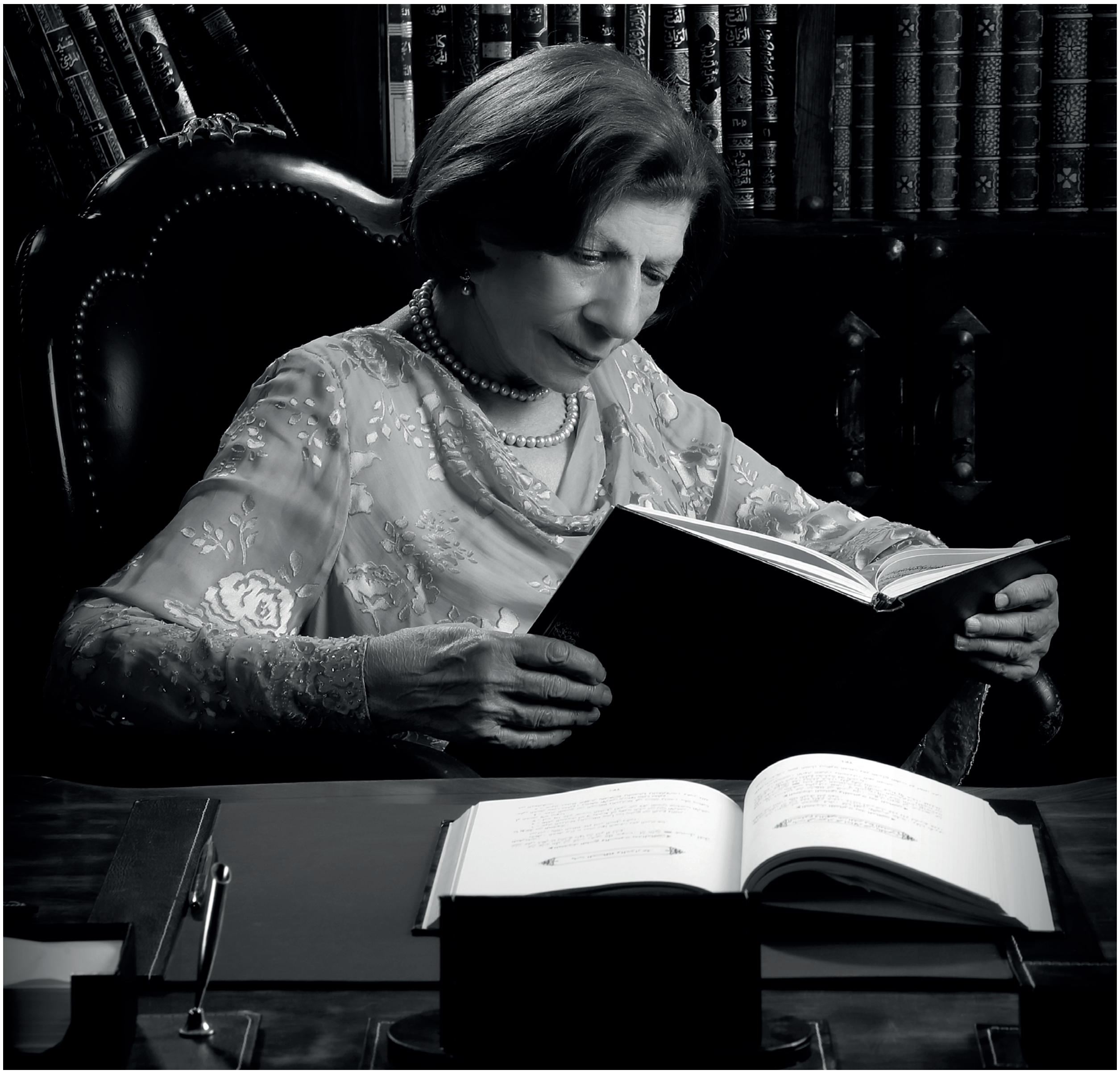
ليس حيا في ضميرهم ولا يدركون أن الحضارة العربية كانت هي القوة المشرقة في عالم القرون الوسطى غربي الهند وعنها أخذت أوروبا.
حضارة القرون الوسطى غربي الهند كانت حضارة العرب المسلمين والنهضة الأوروبية بدأت في قرطبة العربية، مركز المعرفة والفن والعلم يومئذ ولقرون طويلة. وقد شاركت صقلية الإسلامية كثيرا في تمكين هذه الحضارة واستيعابها لدى الأوروبيين.
ما حدث هو أن الأوروبيين حاولوا التعتيم على دورنا الأمثل في نشر حضارة الإنسان. ولكننا لا نعرف تاريخ صراعنا معهم وكيف نبع من كراهيتهم لنا لأسباب دينية وعرقية ومن إصرارهم على دحرنا.
عندك أولا الحروب الصليبية ثم خذي قصة صقلية مثلا: حاول الامبراطور فريدريك الثاني 1194 - 1250 الذي حكم صقلية وإيطاليا وامتدت مملكته بعيدا، شرقا إلى القدس وغربا إلى ألمانيا، حاول محو اسمنا بعد أن أخذ الأوروبيون المعرفة والعلم والفن والأدب وإدارة الممالك منا.
ولكن فريدريك الثاني عتّم علينا بشدة ونجح. كانت كراهيته كراهية عرقية ودينية عميقة.
ثم بعد ذلك وقع العرب منذ منتصف الألفية الثانية حتى سنة 1918 تحت الاستعمار العثماني فعانوا من فجاجته وعتوّه أربعمئة سنة. واشترك العثمانيون في عملية التعتيم علينا رغم أن الأتراك اعتنقوا الإسلام. وكانت تلك القرون كافية لضمان فقدان الذاكرة الكبير الذي أصاب العرب وما زال فعالا عند الكثيرين.
ليس أسوأ وأخطر على حضارة أيّ أمة من تسلط من كان أقل مدنية منها عليها بحكم قوة السلاح أو المال.

التجربة الإنسانية

أنجزت العديد من الأنطولوجيات بالإنكليزية. قدّمت من خلالها الأدبين القديم والحديث. ما الذي أثار قارئ الإنكليزية في عملك؟

سلمى لا ينجح أيّ عمل أدبي في النقل إلى من هم خارج الثقافة المعينة إلا إذا كان ذا قيمة أدبية جيدة تخطت أبعاد مكانها إلى أبعاد شمولية يتفاعل معها الآخر. وأول شرط هو اختيار العمل الأدبي القادر على مخاطبة الآخر خارج حدود ثقافته المعيّنة ومكانها المحدود. والحق هو أن طريقة معالجة الموضوع لا الموضوع نفسه، هي الأساس الذي ينجح معه النقل من ثقافة إلى ثقافة أخرى. ثمة تجارب يصعب نقلها إلى ثقافة أخرى وأمثّل على ذلك بالتجربة المتعلقة بالتقاليد العشقية من حضارة إلى أخرى. ولكن رغم صرامة بعض هذه التقاليد في قرية يونانية مثلا فإن كازانتزاكيس في رواية زوربا اليوناني أبدع في تصويرها بشكل تمثّلها القارئ الإنكليزي وتفاعل معها كليا. والسر في نجاح كهذا هو قدرة الكاتب على تخطي ما هو محلي وخاص إلى ما هو شمولي يخاطب الأسس المتكررة في التجربة الإنسانية. إن أساس العمل الأدبي الناجح هو قدرته على التركيز على شمولية التجربة وتفاعلها مع القارئ.
ويجيء بعد ذلك أولا دقة الترجمة وثانيا قدرتها على نقل الأدب إلى أدب

سلمى في مكتبها ببوسطن أواسط التسعينات من القرن الماضي.



في اللغة الأخرى.

السرديات القديمة

أنت تشرفين على مشروع بروتا/شرق غرب في الترجمة ما هي أحدث المشاريع التي هي قيد الإنجاز اليوم؟

سلمى عندي عدة كتب جاهزة للنشر أو تكاد تكون، منها كتاب "السرديات العربية القديمة"، وهو الأول من نوعه في أيّ لغة لكونه يتابع نشوء القصة عند العرب وتطورها. كتب لي فيه أقوى المختصين من عرب وأجانب بتشعبات هذا الموضوع الرئيسي المهم. أهم ما فيه أنه يلغي الرؤيا الخاطئة بأن العرب لم يكن عندهم إلا الشعر، وأننا أخذنا القصص من ثقافات أخرى.

ولعمري أن هذه لفكرة كانت راسخة في عقول العرب الحديثين رغم معرفة جميعهم، على ما أظن، بوجود القصة عند العرب من الجاهلية. عندما كنا صغارا كان يمر قرب منزلنا صاحب "صندوق العجب" رخيم الصوت، فنخرج نحن الصغار قروشنا التي خبأناها في مكان أمين في البيت انتظارا لمروره، فإذا سمعنا صوته يغني "أمّا اتفرّج يا سلامْ" أتينا بقروشنا إليه ثم جلسنا على المقعد الطويل أمام صندوقه وتفرجنا على الزير سالم وكليب وعنترة وعبلة إلخ يتخاطبون أو يتقاتلون وقلبنا يخفق متعة ولذة.

ليس من ثقافة إلا وعندها حكايات وقصص. الكتاب الذي أشير إليه عن السرديات العربية القديمة يروي تاريخها.

القص القديم

آخر ما قرأت لك هي مقدمة عظيمة عن القص العربي القديم. ما أكثر ما يمكن الاعتداد به في هذا القص؟

سلمى هناك الكثير. ولكن لنبدأ أولا بسلبيات ما أحاط بتاريخنا القصصي من عدوان وجهل وسوء تفسير! شيء لا يصدق.

ما يدهشني هو أمران رئيسيان: الأول هو الببغاوية النقدية، والثاني هو الجرأة على الحكم دون أيّ تمحيص أو دراسة، دون أيّ معقولية. كانت المعلومات التي قررها وسجلها بعض مؤرخي الأدب العربي تنص على أن العرب لم يعرفوا القصص وكان كل همهم هو الشعر، كلام تبسيطي خال من أيّ معرفة طبيعية بنمو الآداب وتفرع أجناسها.

كنت في مكتبة هارفارد ذات نهار لمراجعة "كتاب التيجان في ملوك حمير"، وهو كتاب مشهور ومرجع لا غنىً عنه لدارسي الأدب العربي القديم منذ مطلعه. وإذ أقلبه للمرة الأولى فوجئت باكتشاف عدد كبير من القصص من مختلف البُنى والأجناس تملأ صفحاته. "ما هذا؟" و"من أين جاء كل هذا القص العجيب الذي ينتمي إلى عصور متعددة من تاريخ القصص العالمي ومن بينها قصص جاهلي على ما يبدو". قررت استعارة الكتاب ولم أنم تلك الليلة. أضد هذا يتفوه المنكرون؟ لم أصدق عيني. وجدت فيه قَصَصًا متنوعا ينتمي إلى عصور عديدة من الأدب فمن قصص الأساطير والأحداث العجائبية التي تنتمي إلى عصر البدايات القصصية في تاريخ القصة العالمية إلى قصص الحب العادي التي تكاد تكون قصصا من زماننا. كتاب مليء بالمدهش يمر على أجيال متعاقبة من القصاصين، مدى قرون طويلة. كنت قد قرأت كتابا مهمّا حول نشوء القصص الغربي وتطوره هو كتاب "تفصيل قواعد النقد" لنورثروب فراي Anatomy of Criticism" by Northrop Frye

كيف يصح؟ هل هذا ممكن ومعقول؟ صحيح أن الشعر هو الأقوى في الذاكرة ويأخذ المكان الرئيسي في زمن شفاهة القول قبل معرفة الكتابة ولعل العرب سبقوا غيرهم في رقيّ إنتاجهم الشعري عبر العصور الشفوية الطويلة وتغلب الشعر على سواه من محفوظات الذاكرة للسهولة الأكبر في حفظه ولكن هذا يجب أن لا يعني أن كل موهوب أدبيا كان يحيل إلى الشعر وكأن الانتقال من النثر إلى الشعر أمر يتحكم به الإنسان! وكأن القص لم يكن جزءا طبيعيا من الحياة الأدبية، ومن الموهبة التي تولد مع الإنسان.

وعودة إلى تقوّل مؤرخي الأدب عندنا في القرن العشرين بأن القصة كانت معدومة عند العرب: برز في مصر كتّاب شهيرون على صعيد مصر والعالم العربي منهم أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" وأحمد حسن الزيات في كتابه "تاريخ الأدب العربي" وسواهما ممن حاول دراسة التراث الأدبي العربي الضخم على ضوء أفكار سلبية غير مدروسة. هذه الأفكار قررتْ أن العرب القدماء لم يبدعوا القصة أبدا لأن العقل العربي لم يكن مهيأً للتفكير وتنظيم مادة الكتابة بل كان ارتجاليا صالحا للشعر فقط (وكأنّ الشعر هو حقا ارتجالي خال من أيّ فكر أو تنظيم! هل من الممكن وصف المعلقات نفسها بالارتجالية؟). وتعلّم كتابنا هذا منهم وكرّروه. وكان أغلبهم يؤمن بفقر الأدب العربي في مجال القصة رغم وجود القصص الجاهلي والإسلامي وقصص القرآن أمامهم.

محطات أساسية

ماهي المحطات الأساسية في مشروع الترجمة الذي نهضت به حتى الآن وهل تعتبرين أنك أنجزت ما طمحت إليه من ترجمة وتقديم الأساسيات إلى مكتبة الثقافة العربية في الإنكليزية؟

سلمى لم يكن ما قدمناه قليلا، وقد عملنا حول خطة مدروسة أن نمثل جميع الأنواع الأدبية والمبدعين العرب أينما كانوا. كان مشروعا عربيا بامتياز. ولم نبخل بالعمل الضروري قط على أيّ من كتبنا ولذا فقد جاء أغلبها كبيرا جدا ولكن الناشرين الأجانب لم يترددوا في أخذ هذه الكتب ونشرها. كانت أغلب مجموعاتنا المترجمة لا تقل عن 500 صفحة وبعضها كمجموعة القصة العربية الحديثة وصل إلى الألف.

أنجزنا في النهاية في ظل مشروع بروتا عشر مجموعات مترجمة في الشعر والقصة والمسرح جلها أكثر من 500 صفحة. كما أنجزنا في ظل "رابطة الشرق والغرب" أكثر من ستة كتب حضارية على الأقل أذكر منها الآن "حقوق الإنسان في الفكر العربي"، و"الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس" و"السرديات العربية القديمة" و"الحضارة العربية الإسلامية في صقلية" و"المدينة الإسلامية" في جزأين. و"القدس مدينتي"، وكان هذا العمل يستحق التزام القائمين على الثقافة العربية به لا وضع عراقيل لا معنى لها أمامنا. ولكني لا أظنهم توقفوا لحظة لتأمل العمل الذي قمنا به وخططنا له بدقة بل صرفه، أولئك المسؤولون عن الثقافة العربية، دون دراسة أو تأمل. ومضت السنوات. ولم أتمكن من إقناعهم بضرورة إنشاء مركز للترجمة من العربية نتواصل فيه بعدد من الثقافات الرئيسية فننقل ثقافتنا إلى عشر لغات عالمية.

كنت قد درست الوضع جيدا واتصلت بعدد من المترجمين العالميين الذين كانوا يقومون بترجمات من العربية إلى لغاتهم وكان حماسهم لهذا شديداً، ولكن المسؤولين عن الثقافة العربية صرفوا نظرهم دون دراسة أو تمحيص، مع أن كتب المشروع موجودة على رفوف المكتبة العالمية يعتمدها أساتذة العربية والدراسات الإسلامية في الجامعات الأجنبية بقوة. ولكن العرب صرفوا نظرهم عن فكرة المشروع دون تلكؤ ودون أن يدرسوا الخلفية الناجحة التي تكمن وراء فكرة المشروع، بل صرفوها، جميعهم، دون دراسة او اهتمام.

المريع جدا في الأمر هو أنني لم أتلقّ كلمة اعتذار واحدة من أيّ منهم على الإطلاق، كلمة واحدة تكشف أنهم، أولئك المسؤولين، يعرفون شيئا عن الانقلاب في وضع الكتاب العربي في الخارج الذي حققه مشروعنا.

لم يعد الآن ثمة فرصة لي لعمل كهذا على ما أظن. لو قمنا به في وقته لكنا أسسنا علاقات ثمينة مع العالم وأنجزنا كثيرا. أظن أن عدم استجابة المسؤولين لدعوتي كانت تنطلق من أمرين: الأول هو ذكورية طاغية يصعب عليها الاعتراف بأن أمرا كهذا يمكن تسليمه لغير الرجال رغم وضوح عملي وما حققه من تغيير ونجاح وإعلام مبني على صدق الخبر وموضوعيته ودقة الاختيار، والإصرار على الجودة، والاجتهاد الدائم في إعطاء أفضل ما يمكن إعطاؤه، والثاني وهذا من أخطر المواقف، عدم إيمانهم بقيمة الثقافة العربية وأهمية تاريخها.

كانت هذه الرؤيا المزدوجة الجارحة منغرزة في العقول ولا بد من قلقلتها ثم تحويلها إلى رؤيا نقيضة، ذلك لأن العرب كانوا هم قادة الثقافة والأدب في جزء كبير من القرون الوسطى وقد حان الوقت أن يعرفوا ذلك.

ولكن الزمن أصبح عدونا نحن العرب الآن. لقد وقعنا في مصيدة التاريخ ولن ينجّينا إلا معجزة كبيرة. كل شيء جميل ومعافىً يتفلّت منا. وأرجو أن أكون مخطئة لم أقرأ تاريخنا المعاصر جيدا. أرجو ذلك من كل قلبي ■

أجرى الحوار: نوري الجرّاح



بهرام حاجو

أدب اليوميات

أدب اليوميات، أدب السيرة الذاتية، أدب الاعتراف، أدب الأوراق الشخصية؛ والأدب الذي يكتب بأثر من التجارب الخاصة للكتاب، على مرّ زمن، أو عبر تجربة في الزمن، طالت أم قصرت.
هو ذا ما أقدمنا على نشره في هذا الملف المزدوج، من خلال أوراق ووثائق ونصوص هي يوميات وشهادات ومراجعات. الجزء الأول منها ينفتح على تجارب لكتاب عرب، والجزء الثاني على تجارب السجن والاعتقال السياسي في سوريا كما عاشها عدد من الكتاب والكاتبات السوريين والفلسطينيين، في الجغرافيا التي ذهبت الأدبيات السياسية على مدار نصف قرن من الزمن إلى تسميتها بـ"مملكة الصمت".
أدب اليوميات، ليس ثمة أدب يضاهي هذا الأدب في قيمته الوثائقية والمعرفية، فهو لا يصدر عن أيديولوجا، ولا عن خطة تتجاوز الشخص المفرد صاحب القلم، ولكنها تصدر عن ذلك الغنى الذي يمكن أن تعكسه تجارب الأفراد وأفكارهم وتطلعاتهم المستقلة عن المدونة الرسمية للتاريخ، فنكتشف في كتاباتهم الشخصية أثر علاقتهم بالأمكنة والأزمنة والوقائع، وجلها يمكن تسجيله في خانة ما غاب عن السجل الرسمي. إنهم يفصحون في السطور التي يكتبونها عما صمت عنه التاريخ العام، وما تجاوزته الأقلام التي دونت التاريخ كما يريد الحاكم للتاريخ أم يدون، أو حتى كما يريد المزاج العام للنخب التي هيمنت على خطاب الأمم في أزمنة وغيرها، وكان يمكن للحقائق الإنسانية، ومعها الوجدانات والعواطف العميقة أن تدون بعيدا عن أغراض الأيديووجيا وألاعيب السياسيين، ورغائب النخب.
في هذا الملف، بشقه الأول خصوصا ثمة التزام بالخطاب اللغوي كما ألفه الناس، وشطح لم يألفه قاريء، وبحث، وتدوين في كآبة ما وقع لنا نحن العرب في جغرافيات نخرها السوس، وأخرى التهمتها النيران. وفي كل الأحوال هنا صفحات وسطور من اعترافات أشخاص لأنفسهم، نساء ورجالا، وثمة، باب بعد ذلك نفتحه على تجارب أخرى لاشخاص آخرين في جهنم الأنظمة المرعبة التي جعلت من جسد الإنسان واسمه عبرة أليمة لغيره، ومثلها كمثل رسائل يرسلها مسافرون غرقى في أعماق سحيقة لم يعد لهم أمل في نجاة، ولكنهم يريدون أن لا يذهبوا سدى، موتى ولكنهم لا يريدون لقصصهم أن تموت أبداً ■

قلم التحرير



تلك الأيام
من دفتر يوميات

محمود شقير

تساقط الثلج كثيفًا خلال الأيام القليلة الماضية، وما زالت بقاياه عالقة ببعض الأماكن حتى الآن. كلما هطل الثلج على جبال القدس تذكرت ثلجًا آخر في المنفى. ثلج مدينة براغ التي أقمت فيها ثلاث سنوات، وتذكرت لحظات الإحساس بالغربة، وخصوصًا حين يموت أحد أقاربي في الوطن وأنا بعيد، أو حين يلمّ بي مرض طارئ والوطن بعيد.

غداً مساء أذهب إلى المستشفى لإجراء صورة طبقية للرأس. ثمة مشكلة كما يبدو في الغدة النخامية. وكنت اشتريت كتابا حول أمراض الغدد الصمّاء. قرأت بفضول ما له علاقة بأمراض الغدّة النخاميّة، واكتشفت أنّ ثمة جسمًا صغيرًا في هذه الغدّة يسمّى السرج التركي (من أين جاءت هذه التسمية؟) وهو عرضة للتلف إذا أرهقناه. إذن ستكون حياتي خلال السنوات القادمة (لا أدري كم ستطول هذه الحياة) عرضة للاضطراب بسبب هذا السرج التركي. وجاء في الكتاب أنّ ورم الغدّة ليس خبيثًا بالضرورة، وهناك احتمال لأن يتحوّل إلى ورم خبيث.

حتى مساء الغد سأواصل حياتي في القدس، وأفكر في وجعي الخاص.

الاثنين 31 / 1 / 2000

يوم أمس زرت محمود درويش في مكتبه برام الله. كم أحب هذه المدينة! هي الثانية بعد القدس التي عشت فيها زمنًا غير قليل. وجدت في المكتب الشاعر حسين البرغوثي الذي أصيب مؤخرًا بسرطان في الغدة اللمفاوية. كنت معنياً بالاستفسار منه عن أعراض المرض، قال إن خلايا السرطان لا تسبّب ألماً، أما الذي يسبب الألم فهو الالتهابات المصاحبة للمرض. حينما خرج حسين، سألني محمود عن صحتي، أخبرته أنني أتحسّب من مرض السرطان، ولهذا ألححت في طرح الأسئلة على البرغوثي. قال لي إنه هو الآخر تخوف من البحة التي أصابته مؤخراً، فأجرى تنظيراً للحنجرة.

بعد ذلك، بعد الكلام على الصحة والمرض، دار بيننا حوار حول الاقتراحات التي أعددتها لإدخالها على اللائحة الداخلية لجوائز فلسطين. استمر النقاش بعض الوقت، ثم نهضت وغادرت مكتب محمود في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر.

الجمعة 4 / 2 / 2000

الطقس مشمس ودافئ، وهو يذكّر بأيام الربيع. أول شيء فعلته هذا الصباح تقليم شجرة العنب الواقعة في ساحة الدار. قلّمت كذلك نبتة الياسمين التي امتدت أغصانها كثيراً، وقلّمت شجرة المندلينا التي كسر الثلج نصفها قبل أسبوعين. تشعرني الأشجار بأن للحياة طعمًا نضرًا رغم كل الصعوبات.

أمس، كنت في مهرجان سياسي داخل قاعة مغلقة في مدينة البيرة، أخت مدينة رام الله. خرجت قبل انتهاء الحفل، وذلك بسبب كثافة الدخان المنبعث من سجائر الحضور، تألمت من هذا السلوك غير المتحضر. وكان ثمة سبب آخر دفعني إلى مغادرة الحفل، وهو أن الوالدة في المستشفى، ويتعيّن عليّ أن أذهب مثلما أفعل كل يوم لزيارتها. إنها تعاني من فقر الدم ومن أنفلونزا، وهي دائمة الشكوى. كانت نتيجة الصورة الطبقية التي أجريتها للرأس وللغدّة النخامية جيدة، شعرت باطمئنان.

الجمعة 11 / 2 / 2000

هطل المطر غزيراً هذا الصباح. لم أذهب إلى العمل، وكان عليّ أن أذهب إلى المستشفى لإعادة الوالدة إلى البيت. عدت بها حوالي الساعة الثانية والنصف ظهرًا. كانت متكدّرة المزاج لأننا تأخرنا في الذهاب إليها.

للقدس في يوم المطر رونق خاص رغم أن الأوضاع العامة فيها وفي البلاد بالغة السوء. والمناسبات الاجتماعية تتكاثر على نحو عجيب، ومن الواجب الالتزام بها للبقاء على صلة مع الناس. أحاول جهدي أن أشارك في كثير من هذه المناسبات، مع أنني جدير بممارسة العزلة لتوفير الوقت من أجل القراءة والكتابة، ومع ذلك فإنني أحاول ما أمكن القيام بدوري الاجتماعي، ولو على حساب الوقت المخصص للكتابة.

سأنتظر هذا المساء مباراة نيجيريا والكاميرون التي سيتقرر فيها الفائز ببطولة الأمم الأفريقية لهذه الدورة من مباريات كرة القدم.

الأحد 13 / 2 / 2000

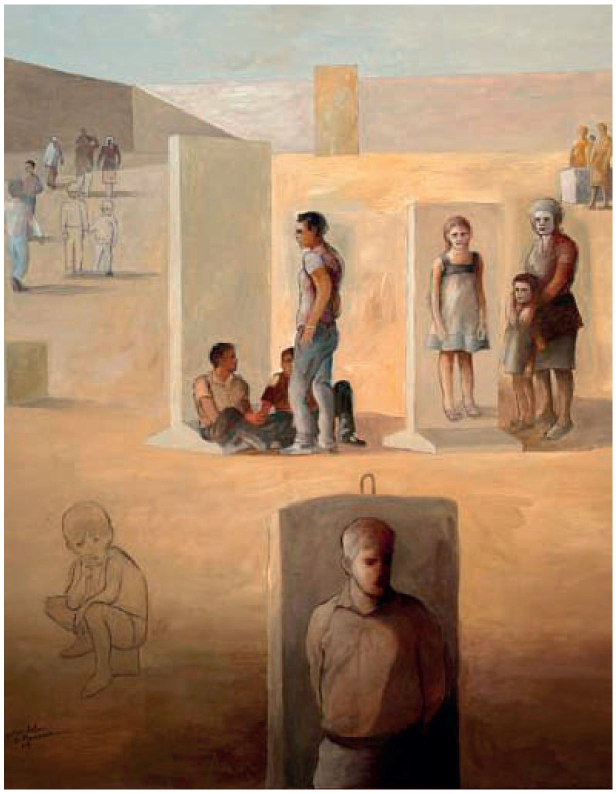
الطقس دافئ هذا الصباح. اشتريت سيارة لابنتي أمينة. حسام، زوج ابنتي باسمة، أخذ السيارة ووضعها في كراج برام الله، لفحصها وتصليحها تمهيداً لترخيصها. وكنت متشككًا في قدرة أمينة على قيادة السيارة.

تجولت يوم أمس ساعات عدة في القدس القديمة. ألهمني تجوالي بعض الأفكار للكتابة. وكنت ألاحظ أن معاناة المدينة تكبر يومًا بعد يوم. فثمة بؤر استيطانية تنتشر في المدينة مثل خلايا السرطان.

سأخرج الآن لأتمشى قليلا تحت نور الشمس، ثم أنصرف إلى الكتابة.

الجمعة 18 / 2 / 2000

لم أنجز إلا أشياء قليلة هذا اليوم. حين يضيع وقتي سدى أشعر بعدم ارتياح، وكان عليّ أن أستمتع بطقس الربيع، وأن أذهب مع



سليمان منصور

الأبناء في رحلة إلى مدينة أريحا، حيث الدفء والسباحة في البحر الميت، لكنني لم أذهب.

هذه الليلة، ثمة برد في الخارج، في المدينة وفي الحي الذي أقيم فيه وفي داخل البيت. لا أحب الطقس البارد، وأنا دائم التذمر من البرد.

الجمعة 10 / 3 / 2000

اليوم عيد ميلادي. أصبح عمري تسعًا وخمسين سنة. لم أكن أتوقع أن أعيش كل هذه السنوات. حينما كنت شابًّا، توقعت أن أموت في سن مبكرة. وحين كنت أصاب بمرض، ولو كان خفيفًا، كنت أعتقد أنني سأموت جراء ذلك، وكنت أسرح في عالم الخيال وأرصد ردّ فعل أهلي على موتي، فتنهمر الدموع من عينيّ. كانت تلك مشاعر رومانسية زائدة عن الحد بطبيعة الحال. لكنني عشت، وبعد عام سيكون عمري ستين سنة. كم أنفر من الرقم ستين! وبخاصة حين يتعلق الأمر بالعمر، ولم أحتفل كالعادة بهذا العيد، لأنني لا أرى ضرورة لذلك، ولأن لدينا وفرة من الأعياد والمناسبات حدّ التخمة.

الأربعاء 15 / 3 / 2000

أعادت مذكرات إسحق رابين إلى ذاكرتي تلك الأيام المفجعة من حزيران 1967، وكذلك الأشهر التي تلتها، والأعوام التي مرّت منذ الهزيمة حتى الآن. كان إسحق رابين يخطّط للحرب، وكنا آنذاك نحلم بنصر لم تتوافر أسبابه، ولهذا امتد شقاؤنا، وإسحق رابين واحد من أبرز الذين تسبّبوا لنا في الشقاء.

سأحاول كتابة نص خاص بالقدس. أشعر بالتهيب من البدء بالكتابة، وأخشى ألا أتمكن من كتابة شيء جيد، لكنني سأبدأ. في العادة، أكتب نصوصي وقصصي في الصباح، لكنني في بعض الأحيان أكتب في كل وقت، في الظهيرة، في المساء وفي الليل. مواعيد الكتابة لها علاقة بالمزاج. فقط في الصباح تخضع المسألة للعادة وللاعتياد.

الطقس معتدل هذا النهار، وثمّة رياح هوجاء تهبّ بين الحين والآخر.

السبت 18 / 3 / 2000

رافقتُ أمينة إلى عملها التطوعي في مستشفى المقاصد بالقدس، وكانت تقود السيارة ببطء وحذر. وكنت أخشى أن تتسبب في حادث سير. فهي لا تستطيع التحكم بالسيارة بسبب مرض ضمور العضلات الذي بدأ يرهق أطرافها بالتدريج. وقبل أن نصل المستشفى دخلت منعطفًا، ولم تتمكن من إعادة السيارة إلى وضعها الصحيح. حاولت من جهتي التحكم في عجلة القيادة، لكنني لم أستطع إبعاد السيارة على النحو المطلوب، فارتطمت بسيارة متوقفة على يمين الشارع. كان الخراب خفيفًا، وكان صاحب السيارة مهذبًا إلى أبعد الحدود.

سأقرأ هذه الليلة بعض فصول في كتاب رابين.

الاثنين 20 / 3 / 2000

في مثل هذا اليوم قبل سبع سنوات عدت من المنفى. تجمّعنا في الصباح عند مكاتب منظمة التحرير في عمان. وكنا خمسة عشر مبعدًا ومعنا زوجاتنا وأبناؤنا وبناتنا (الخمسة عشر الباقون سيعودون في الثاني من أيار). بعد انتظار طويل، صعدنا إلى الحافلة التي أقلّتنا إلى الجسر. كانت لحظة مدهشة، فها أنذا أعود إلى الوطن بعد غياب ثماني عشرة سنة.

عند الاستراحة في أريحا وجدنا آلاف المواطنين والمواطنات في انتظارنا. حملونا على الأكتاف وانطلقت في فضاء الاستراحة الهتافات المطالبة بدحر الاحتلال وبحرية الوطن.

ابتداء من ذلك اليوم، أعدت وصل ما انقطع بيني وبين مكاني الأول: القدس.

الأحد 30 / 4 / 2000

بقيت هذا اليوم في البيت. لم أذهب إلى أيّ مكان. فتحت عينيّ في الصباح وسررت لفكرة أنني في عطلة، ولن أضطر للنهوض المبكّر للذهاب إلى الوظيفة. تمطيت طويلا في الفراش ثم نهضت. وواصلت تفاصيل يومي باسترخاء. تابعت الأخبار التي لا تسرّ البال، وجلست في ساحة البيت وشربت القهوة، ثم تفقدت الأشجار التي حول البيت. قرأت الصحف وتسامرت مع أفراد الأسرة.

كان لي يوم عادي، لكنه يوم ممتع على أيّ حال.

الجمعة 5 / 5 / 2000

تستمر انتفاضة الأقصى منذ أكثر من ثلاثة أشهر، ويبدو الأفق السياسي مسدوداً حتى الآن. لم أعد أستخدم الكمبيوتر إلا قليلاً، فهو يرهقني، ولم أعد قادراً على القراءة وقتاً طويلاً.

في مجتمعنا المحكوم بالتخلف، تستمر المشاجرات العائلية. كل يوم تقريباً تقع مشاجرات هنا أو هناك، ويذهب ضحيتها بعض الأفراد في بعض الأحيان، والاحتلال الإسرائيلي مسؤول بالدرجة الأولى عن هذه الظاهرة غير الحضارية، لأنه جمد تطورنا الاجتماعي، واضطرنا إلى التمسك ببنيات اجتماعية مثل القبيلة، العشيرة والعائلة الممتدة التي كانت ستخلي مكانها لبنيات اجتماعية أكثر تطورًا، أقصد: الأسرة النووية. كان هذا سيحدث لو كنا أحرارًا نعيش أوضاعًا طبيعية.
لا أكتب شيئاً هذه الأيام، لكنني سأحاول في الأيام القادمة كتابة بعض القصص.

الثلاثاء 9 / 1 / 2001

لم أشعر بأيّ بهجة منذ أن ابتدأ هذا العام الجديد. من جهة، ثمة ضغط الظروف العامة وتزايد الجرائم الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني، ومن جهة أخرى، ثمة ظلم ذوي القربى.
أقرأ بشكل متقطّع، ويكون ذهني مشوشاً. كتبت قصتين قصيرتين جداً، لكنني أعتقد أنهما هزيلتان.
أقرأ هذه الأيام كتاب "نحن والآخرون" لتدوروف. إنه كتاب جيد. وفيه تتبّع للأفكار الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التي أنتجت التعالي القومي والاستعمار والنازية.

الخميس 11 / 1 / 2001

لم أغادر البيت هذا اليوم. نمت حتى الساعة الواحدة بعد الظهر تقريباً. مزاجي متعكر منذ وقع شجار بيننا وبين أقارب لنا. لو كانت لدينا سلطة وطنية في القدس وضواحيها لوضعتُ هذا الأمر بين يدي السلطة والقانون، لكننا نعيش تحت حكم الاحتلال الإسرائيلي، ولا يعقل أن نستعين بالشرطة الإسرائيلية لفضّ نزاعاتنا العشائرية. ثم إن النزاعات العشائرية تحدث أيضاً في المناطق الفلسطينية التي تسيطر عليها السلطة الوطنية، ويشارك فيها أحياناً بعض الأفراد المنتسبين إلى أمن السلطة وبأسلحتها، حيث يعتدون على جيران لهم أو على أقارب.
ما هو المخرج من كل هذه التعاسات؟ إن ضعف قوى اليسار في مجتمعنا، وضعف نفوذ العقلانية والمجتمع المدني، وضغط الظروف النفسية، وتكريس قيم المحافظة والجمود، تلعب دوراً في ما نعاني منه، وفي ما نرزح تحت ثقله من مشكلات.
بدأت القراءة في كتاب "خارج المكان" لإدوارد سعيد، وأنا أشعر بمتعة أثناء قراءة هذا الكتاب.

الأحد 14 / 1 / 2001

هذا المساء، أعدت قراءة النسخة شبه الأخيرة من سيناريو فيلم "القدس في يوم آخر" الذي كتبته أنا وليانة بدر. قام المخرج هاني أبو أسعد بحذف مشاهد لم يكن لها ضرورة درامية في السيناريو، وقام بإعادة ترتيب المشاهد، وبإضفاء شيء من الغموض على شخصية "سالم" أحد أبطال السيناريو. هذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها سيناريو فيلم، وما زلت أفكر في ملاحظة أبداها المخرج مؤداها أنني متأثر بكتابتي للتلفزيون.
أعجبتني جرأة إدوارد سعيد في الكشف عن مكنونات نفسه، وفي تعرية سلوك أقرب الناس إليه.

الخميس 18 / 1 / 2001

عدت إلى قراءة اليوميات التي كتبتها في الولايات المتحدة الأميركية، وكانت مدونة في دفترين. شعرت بارتياح لأنني كتبت ما كتبت، إذ لولا ذلك لضاعت من ذاكرتي تفاصيل كثيرة. أنا مقتنع الآن بضرورة التدوين هذه، سواء أكان ذلك في شكل يوميات أم في شكل ملاحظات وأفكار.
سأحاول تخصيص وقت منتظم لكتابة نص روائي مكثف يعتمد السرد بضمير الأنا، وسوف أدخل جزءاً كبيراً من هذه اليوميات عن تلك الفترة في النص الروائي باعتبارها يوميات بطل الرواية.
مشكلتي أنني أتهرب من الكتابة، وأتعلّل بقضية انهماكي في القراءة، والصحيح أن الكتابة متعبة، ولذلك فأنا أتهرّب منها. ومن الضروري إيجاد توازن بين ما أكتب وما أقرأ. وسأعود قريباً إلى تقليد سرت عليه عدة أشهر قبل ثلاث سنوات، حينما اتخذت قراراً بالجلوس كل مساء، ساعتين أو ثلاثاً، أمام الكمبيوتر لكتابة قصة قصيرة أو نص أو يوميات. وقد كانت الحصيلة جيدة آنذاك.

الأحد 21 / 1 / 2001

أقرأ باعتدال وأكتب باعتدال، وأراقب أوضاع البلاد بقلق. جاء شارون إلى الحكم في دولة الاحتلال، والأحوال بالغة السوء. أجد صعوبة في الذهاب إلى رام الله وفي العودة منها إلى القدس. المستقبل ما زال شديد الغموض. كم هي معذّبة هذه البلاد! كم هو معذّب هذا الشعب الذي أنتمي إليه! وكم هي معذّبة مدينة القدس التي تتعرّض كل يوم تقريبًا للتهويد!
وأنا مضطر إلى الذهاب إلى رام الله للالتحاق بالوظيفة.

الجمعة 16 / 2 / 2001

أمضيت الأسابيع الماضية في كتابة قصة للفتيات والفتيان، حول الاستغلال الاقتصادي لمن يترك المدرسة منهم ويذهب إلى سوق العمل. حتى هذه اللحظة لا أشعر بالرضى عن هذه القصة التي ستقوم دائرة التعليم في القدس، التابعة لوكالة غوث اللاجئين، بطباعتها في كتاب، يوزّع على مدارس الوكالة في فلسطين والأردن وسوريا ولبنان.
وقبل أيام، تلقيت دعوة للسفر إلى باريس. اتصلت بي من هناك مدرّسة لبنانية اسمها هدى أيوب تعمل في مدرسة عليا يتخرج فيها الطلاب والطالبات للعمل في السلك الدبلوماسي الفرنسي. قالت إنها وطلابها أعجبوا ببعض قصصي القصيرة التي نشرت في مجلة "الكرمل"، وتُرجمت ثلاث منها إلى الفرنسية. وبناء على ذلك تم توجيه الدعوة لي ضمن أسبوع الثقافة العربية الذي سيقام في باريس. قالت لي أيضاً إن الذين رشّحوا اسمي لهذه المناسبة هم: محمود درويش، صبحي حديدي، وفاروق مردم بك.
وافقت على المشاركة، وأرجو أن أتمكن من السفر عبر مطار اللد ■

القدس

الجمعة 9 / 3 / 2001

كاتب من فلسطين

بهذا تحدثني رأسي

سناء ناصر

لا تتنكّري للخطيئةِ كلهم تملؤهم الخطايا، مولعةٌ بالصدق، بكرسي الاعتراف لكنكِ الكرسي والقِس والستارة والخطيئة، تعلمين أن الاعتراف لا يعني البوح، تعلمين أنه ليس طريقك إلى الخلاص، تروين ما حدث كقصةٍ مسلّية، تجمّلينها كمسخٍ لا يشبه أصله، فيزداد رصيدك من الخطايا!

ما زال في الصدقِ متسعٌ لكذبك، كي تعترفي بأنك لم تعترفي قطّ، لم تروي حقيقة ما حدث حتى لنفسك، لم تعتذري عن موعدٍ مهملٍ عن مقعدٍ فارغٍ، عن قلبه المتقد وقهوته الباردة، لم تعتذري عن أنك لم تنوي المجيء أصلاً، لم تعتذري عن أنصافِ قصائد، عن قصصٍ مبتورة، عن حكاياتٍ تخبئينها بين أسطرٍ فارغة، عن رهبة الاكتمال، عن فزعٍ أن تبدئي صباحك دون مساحةٍ شاغرةٍ للمفاجأة، يخيفك الثبات، تتقنين لعبة الاختفاء حين تباغتك السكينة، تنصُبين الضجر أشرعةً تأخذك في اتجاه الصخب، عن التبدل والتقلب وأمزجتك التي تعتنين بها كالفساتين، عن تصنع الاكتراث عن سؤالٍ يرافقكِ كالظل: لمَ أنا هنا؟

احصي خطاياك، علّك تدركين أن جميعها تافهة، تضخّمينها كسببٍ للهروب، احصيها ثم انثريها للريح، لن تُثقِل الريح مهما ثَقُلت.

بعيدة عن الصدقِ بصدقك، يكبّلك الخوف، يدلّيكِ كالعرائس المعلقة، يوهمك بالحرية والحركة والرقص، وقرار الخلاص معقودٌ بإحكامٍ في نهايات أطرافك، تضيئين بالأمنيات عتمة الثبات، كقنديلٍ لم يبرح زاويته المهجورة، لو أصخت السمعَ لسمعتِ سؤاله: و لمن أضيء؟

امضي، احملي قنديلك وامضي، لا تأبه الزوايا بالظُلمة؛ الزوايا لا يقطنها أحد، والطرقات يسلكها الجميع، ستذيب الشمعة عتمة خطواتك لو أن القنديل لا يبرح يدك، تحملينهُ ويحملك نوره، نوره الذي لا يتجزأ، لا يُبقي شيئاً منه في طريقٍ هجرته أقدامك؛ و-كالنور- لا تُبقي شيئاً منكِ في طريقٍ هجرته أقدامهم، اجمعي أجزاءك من ذكرياتهم، اجمعي ما تناثر منك في المأمول والمنتظر، استردّي ما اختطفته منك يد التوقعات، واختزلته الذاكرة والتجربة، والقصص في أذهانهم؛ سيتسع الطريق لاكتمالك.

كفّي عن السماح لهم باقتسامك، ما تتقاسمه الأشياء ينضب، لا الشمس نتقاسمها، لا الأكسجين، لا النور؛ ينتشر نأخذ منه حاجتنا، نشرع له نوافذنا، فيتضاعف، اخترعوا فكرة النضوب كي نكفّ عن العطاء فوقعنا في الفخ، خذي من الحب كله فيفيض. إنه العطاء بالأخذ، لا تكتفي بكفايتك، خذي من الأشياء أكثر، خذيها كلّها، اركني إلى من فاض بهم قلبٌ أو صمتٌ أو أغنية أو بكاء أو ضحك ودعي سواهم، دعي أولئك المصطفّين على الأرصفة يلتحفون خوفهم، الرصيف آمن والمضيّ يخيف من لا وجهة له، يكتنزون الشموع لأن البقع المضيئة مؤقتة، يقتلها ذوبان الشمع، لكن ذلك ليس مسوّغاً للثبات، الشمعة للمضيّ ليست للمكوث، إن كنت ستطيلين الجلوس أطفئيها.

كفّي عن الإنصات لي، دورك في الفعل الآن، ما أقوله محض إنشاء، وعبارات منمقة، الاعتراف لا يخلقه الكلام، تعلمين أنك لا تملكين من الصدق سوى صوتي الذي لا يكفّ عن الدوران في رأسك، سواي أنا، أنا، الصوت الذي لا يحدثك بما تريدين ولا يحدثك بما تكرهين، أنا خارج رغباتك، ويؤرّقكِ أنني في منطقة محايدة أقف، لكن قدري المضي لا الوقوف -كإياكِ وكالقنديل تماماً-، قدري الطواف والحركة والانطلاق، وكل مأزق يعتريك سببه أنّك تصرّين على إبقائي حبيس رأسك، قولي لي ما الجدوى إن لم تتلقفني أذنٌ أو يعكسني حائط؟ لا يمكنك إبقائي مجمداً هكذا، أيعرف غيرنا عن إتقانك تجميد الصوت؟ عن أنك بارعة في إخضاع الصوت لقوانين الكتلة والكثافة؟ لذا ربما عُدتِ لا تؤمنين بالفيزياء الكلاسيكية؟ تتحاشين القوانين حتى تعثري على مخرجٍ منها؟ ماذا لو أن القانون برمته، بشواذه ومخارجه لا يعنيكِ؟ ماذا لو أنك لست بحاجة لهذا القانون؟ لمَ تحاولين جاهدة إضاعة وقتك في كسره؟

كفّي عن افتعال الفكرة، أتعبني التخبط، لم أكن لأقول ما أقول لو لم تأذني لي، كفّي عن خديعة ذاتك، تُطمْئنين ضميرك بمعارضتي، وأنا صنيعتك، لم يفت الأوان، يمكنك إخراسي، لخلاصك الأبدي، لأتحرر من تناقضك وتتحررين من صراخي، لأتخفف مما تكنينه في صدرك وتُحملينني مسؤوليته؛ أسرارك تضج في رأسي -أيخيفكِ إن أخبرتكِ أن لي رأس أيضاً؟-، صمتك ليس سوى حجاب تسدلينه على حنجرتك أحدٌ لا يراه، لكنني، وحدي، أسمعه، أعرف له لحناً ونغمةً وطنيناً، سكوتك لا يخصك وحدك! كفي عن التفكير، أرهقني الكلام!

قبل أن تفكري في اغتيالي -ماذا لو علمَ الآخرون بأنكِ تُخفين أفكاراً عنيفة خلف هذه الرأس الوديعة؟، دعي هذا الأمر بيننا، لا شأن لأحدٍ به- سأعود للحديث في القصة ذاتها، في أنك لا تنوين الاعتراف لكنه لا يخيفك، ما يخيفك: من ستكونين بعده؟.. أنتِ لا أحد، بعد التخلي عن هوس الغموض، سيشاع سرك، سيتظاهر الأصدقاء بالاهتمام وترِيْن في أعينهم انشغالهم بضجيج أفكارهم الخاصة، لن تسمعي منهم عتباً -أحدٌ لن يكترث بما ليس له- ستتجلى حقيقة أنّ ما كنت تحملينه في داخلك من خوفٍ كان وهماً، ستفقد أسرارك الصغيرة بريقها، لا عتب، لا لوم، لا اكتراث، -لن تغير مجرى الحياة قصص ميتة- ستدركين أنك خبئتِ الحقيقة عن نفسك قبل أن تخبئيها عنهم، لأنك موقنة إن تتخلي عنها ستؤول إلى سلة المهملات!

سيمر السر كقصةٍ عابرة يقتلون بها الأصدقاء فراغهم، لست الأهم في الحادثة، الحادثة جلّها ليست مهمة، ستأتي اللحظة التي طالما خشيتها، سينتهي الخبر إليه، سيشعر بوكزة في القلب -لم يعد ذاك القلب متقداً، الوكزة ليست سوى وكزة- لكن الجملة كخبر عابر -وكل الأخبار عابرة- ستضيع في اكتظاظ ذاكرته، يسترجعها في دقائق خلوته في السيارة، قبيل النوم، أثناء فقرةٍ مملةٍ على التلفاز... سيسترجعها بوكزة أقل إيلاماً، وفي ذهابها ومجيئها ستتلاشى.

وهكذا إذن سرك الذي اختلقته شاع في نسيان الآخرين، وحاملة السر -أنتِ- فقدته، وغدوتِ لا أحد.

يمكنكِ اقتلاع حنجرتي الآن!

شاعرة من السعودية

جوني المشاء يتسكع في الخرطوم

حسام هلالي

لا أتعاطى شيئاً لدرجة الإدمان أكثر من الموسيقى. ما عدا ذلك، فهي ممارسات لإشباع الحاجة البيولوجية أو الإمتاع بغرض البهجة الآنية. هذا ليس إدعاءً بالتطهرية (البيورتانية) فالمتعة هي فضيلتي الأسمى على أيّ حال، وافتقادها في إدمان تعاطٍ ما هو أدعى إلى الإحجام. هذا ما أوقفني عن شرب الكحول بشكل شبه تام ولفترة ليست بالقصيرة، وهو ما ساعدني أيضاً أن أقرر ذات صباح التوقف عن التدخين "القانوني" فيما عدا الشيشة التي لا أزال مواظباً عليها. أما التدخين غير القانوني فيظل محدوداً وفقاً للمناسبة ونوعية الصحبة، وإن كنت قادراً على الوصول إليه دون أن أنفق فيه قرشاً لكثرة رفاق السوء، أو "نافخي الكير" وفقاً للسنة النبوية.

تمرّد

وبعيداً عن السجال حول تقنين المخدرات ثمة درس تعلمته من أمستردام "الممنوع مرغوب" ليس مجرد كليشيه. فكرة أن تدخل المقهى وتشتري الصنف الذي تريده من "النباتات" سواء كان من أفغانستان أو من جامايكا -مع خاصية شراء السجائر ملفوفة إن كنت ممّن لا يحسنون اللف- تفقد عملية تدخين المخدرات لذة الاختلاس. خصوصاً مع صرامة القانون الهولندي المبتذلة التي تسمح لك بتدخين المخدرات داخل المقاهي أو المنازل فقط. في حين يدفعك قانون منع تدخين التبغ في الأماكن المغلقة إلى الخروج بالسيجارة "العادية" للشارع. حتى لو كان المكان مقهى لبيع المخدرات إبان شتاء جليدي عاصف. هنا أتيحتْ لي فرصة اللذة. أن ندخن الحشيش في الشارع، فبالنسبة إليّ تُكسِب أبعاد المخاطرة ولا قانونية تعاطي "المُكيّف" متعته الحسية الأصلية متعة مضاعفة يوفرها جريان هرمون الأدرينالين في الدم. وجدتُ أجمل تفسيرٍ لهذه الحالة عند أبي شهاب الأبشيهي في "المُستطرَف" وإن كان قد أورد نادرته تلك في باب عنونه بـ"في ذكر الأشرار والفُجّار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة" حين ذكر "قيل لأعرابيٍ كان يتعشق قينة: ما يضُرّك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال: فمن لي إذ ذاك بلذة الخِلسة، ولقاء المُسارقة، وانتظار الموعد؟".

هذا النزوع البليد للتمرُّد متجذر في نفسيتي ليس فقط لكوني سودانياً أنتمي بحكم النحس لدولة يحكمها نظام إسلامي. بل يُضاف إليه أنني سعودي المولد والنشأة. لكنه لحسن الحظ تمرُّد لعبث فيه العوامل الوراثية دوراً بارزاً. كون أبي شيوعياً سِكيراً. مع حقيقة أنه أفنى العقود الثلاثة الأخيرة من حياته موظفاً لحساب الحكومة السعودية. لذا كان تمرّدي على "سُلطة الأب" في فترة مراهقتي هو أن أكون مسلماً صالحاً. لدرجة دفعتني خلال المرحلة المتوسطة (الإعدادية) لأن أُصبح ميّالاً للتيار السلفي الوهابي. لولا أن أبي كان ماهراً بالشكل الكافي لإفشال هذا المخطط بطرق بسيطة. عندما قرر أن ننتقل أنا ووالدتي وأخواتي الثلاث للعيش في مصر فيما كنا نتبادل الزيارات في العطلات. بدأ هذا "المخطط" يجني ثماره في خطوات بسيطة ومتدرجة. ففي واحدة من زيارات والدي للقاهرة التقيث بالشاعر السوداني عاطف خيري مصادفة في المسجد بعد صلاة الجمعة وقدمتُ له دعوة لزيارة منزلنا كونه جارنا، فإذا بأبي يدعو صحبه ويقيم مجلس شكر على شرف الشاعر في الليلة ذاتها. أبي هو أول من "أدار لي راحاً" قبل حتى أن تتساوى الأكتاف ويصبح هو خير جليس لي في البار. كان ذلك في التسعينات مع أحد "بلدياتنا" النوبيين من خدم القصور الملكية يدعى فتحي فلاح. تحديداً في قصر الملك الراحل فيصل بن عبدالعزيز. حيث لا وجود للشرطة إلا في محيط القصر. كنتُ لا أزال في الخامسة أو أقل. طفلاً مزعجاً بالنسبة إلى أبي الذي كان بالكاد قد وجد ملاذاً آمناً لاحتساء الخمر، فما كان منه عندما أخبرته بعطشي إلا أن ملأ كأساً شفافا من العرق ومده لي بوصفه ماءً، وبعد بكاء وبصاق استسلمتُ لنوم عميق وفّرَ له سهرة هادئة وقصة مسلية عن طفولتي البائسة.

"ابنك لو كبر خاويه"

انتقالي للدراسة مع أخواتي ووالدتي إلى القاهرة مطلع هذا القرن كان فرصة رائعة لأبي للخروج -من حين إلى آخر- من تزمّت قوانين الشريعة في السعودية والسودان، وما هي إلا سنوات قلائل حتى صرتُ أرافق أبي لمقهى الحرية في باب اللوق. بحيث صار ذلك مدعاة للافتخار بالنسبة إليّ كون أبي "راجل ٥٠٠١"، ولكن لذلك حدود، فالرجل شيوعي سوداني. مما يعني أن التزامه باللائحة الداخلية للحزب يجعل منه محارباً لدوداً لكل أنواع المخدرات التي قد يُفصل بسببها من الحزب إذا أُثبت تعاطيها، وهو الدرس الذي لم يستوعبه صديقي أحمد ندا في المرة الوحيدة التي دعوته إلى رفقتنا على سطح فندق بمصر الجديدة استطعنا فتح باره خصيصاً لنا وبأعجوبة أثناء حظر التجوال المفروض عشية الإطاحة بالرئيس محمد مرسي العام 2013، فمن فرط عجزه عن تصديق مدى كون هذا الرجل الأشيب



حسين جمعان

"كوولا" استرسل ندا في سؤال أبي إن كان أيضاً محباً للحشيش. مما جعل أبي ينفي متجهماً ويلغي بذلك أحمد ندا من لائحة المدعوين.
لم يكن الأمر كذلك طوال الوقت، فحتى بعد أن بدأتُ في الشرب -متأخراً قياساً لمتوسط عمر الصعلكة في عائلتنا- كنت لا أستلطف أن أشارك والدي الشرب وإن كان مجلسه مسلياً لي. لأسباب كلاسيكية لها علاقة بالاحترام والاحتفاظ بالهيبة وهذا الكلام الفارغ. حتى جاءت تلك اللحظة البائسة مع انتهاء الجولة الأولى من الانتخابات المصرية في 2012 وخسر حمدين صباحي بفارق بسيط لتصبح الجولة الثانية حكراً على مرشحي الإخوان وفلول نظام مبارك. كنت يومها أزور والدي في السعودية للمرة الأخيرة في حياتي -بإلغائي لإقامتي هناك- ويوم أعلن فوز محمد مرسي. مددتُ يدي أسفل سرير أبي حيث زجاجة مياه معدنية من ماركة "مكة" كانت تحوي لتراً من العرق. جلبتُ من المطبخ كأسين وشاركتُ أبي الشراب للمرة الأولى ونحن نشاهد قناة الجزيرة صامتين في كامل التعاسة حتى أدركنا النعاس.

لم يكن إحباطنا من فوز مرسي نابعاً من أيّ استبصار أو قدرة طبيب على التشخيص السليم، ولكنها خبرة المُجرّب الذي سبق له أن أُصيب بنفس المرض، لكننا على الجانب الآخر ولاستسلامنا لربع قرن من حكم الإسلاميين في السودان لم نتوقع أن يحل الثلاثين من يونيو بتلك السرعة.

ومع الأسف، لم يجعل إخفاء الإخوان المسلمين "الحالي" من المشهد السياسي من مصر فردوساً للعلمانية، فقانون الجهر بالإفطار -مثلاً- لم يُشرّعه برلمان 2012 بل هو سابق له. هنا يكمن عمق المهزلة بالنسبة إلى حال الصعاليك من أمثالنا، فبدلاً من أن يتم استغلال الانتفاضة -المدعومة من الجيش- ضد الحكم الإسلامي لإرساء نظام علماني، نجد في مصر خطاباً سُلطوياً أخلاقياً مُتجذراً، وميلاً مائعاً للمحافظة -مثلاً برضو- على المادة الثانية لدستور السادات "الشريعة الإسلامية مصدراً رئيساً للتشريع" والتي غازل بها الرئيس الراحل الحركات الإسلامية التي اغتالته لاحقاً. لتصبح هذه المادة فوق دستورية بحكم العُرف حتى مع خروج جماهير هذا الشعب "المتديّن بطبعه" لإسقاط الجماعة التي تتخذ من الشريعة الإسلامية نفسها أيديولوجية سياسية. هذه الميوعة المسماة "بالوسطية". هذا الفصام هو ما يدفع إلى الجدال الزائف حول "مدنية الدولة" والتستر خلفها ككود يرمز للعلمانية التي يُعد الإشارة الصريحة إليها أمراً مُعيباً يجب نكران الإيمان به. لنجد أن التستر خلف المدنية بعد 30 يونيو ووصول مشير إلى سدة الحكم أمر مضحك مع السيطرة الخالصة للجيش على مقاليد الأمور في الدولة، ونكتشف بغباء أن مدنية الدولة هي مقابل للعسكرية لا الدولة الدينية، وهي في الحالتين معدومة.
هذه الميوعة هي ما يجعلنا نرى صوراً كتلك التي انتشرت في 30 رمضان عام 2013 على فايسبوك لجمهرة من الناس تصطف أمام وفوق وتحت محل درينكيز للمشروبات الكحولية ليلة العيد، والتي تتسق تماماً مع الذهنية التي تدفع شاعر "نهج البُردة" أحمد شوقي لينظم في قافيَّته الشهيرة التي لطالما حسبتها إحدى هرطقات أبي نواس:

رَمَضانُ وَلّى هاتِها يا ساقي * مُشتاقَةً تَسعى إِلى مُشتاقِ
ما كانَ أَكثَرَهُ عَلى أُلّافِها * وَأَقَلَّهُ في طاعَةِ الخَلّاقِ
اللَهُ غَفّارُ الذُنوبِ جَميعِها * إِن كانَ ثَمَّ مِنَ الذُنوبِ بَواقي
بِالأَمسِ قَد كُنّا سَجينَي طاعَةٍ * وَاليَومَ مَنَّ العيدُ بِالإِطلاقِ.

منع بيع الكحول أثناء المناسبات الإسلامية كان أكبر صدمات أبي في "مدنية" مصر. كان ذلك على ما أذكر العام 2003 عندما قرر أن يستغل العطلة الطويلة التي تُمنح لموظفي الحكومة أثناء شعائر الحج وحتى انتهاء عيد الأضحى ليهرب من بطش الحجاز إلى مجون القاهرة. أيقظني أبي ثاني أيام وصوله مبكراً وقال لي بلهفة "يلا الحرية!"، وكان أمراً باعثاً على الحماس أن تذهب إلى ذلك المقهى قبل أن يستلم النادل ميلاد الوردية. جلس أبي بأريحية على الكرسي الخشبي وطلب بكل طلاقة زجاجة استلا من النادل القبطي الذي رد عليه بابتسامة حزينة:
النادل: آسفين يا باشا.. ممكن تطلب بيرل أو فيروز لو تحب.
أبي: أنا بقول ليك استلا تقول لي فيروز؟ ليه ؟ خلصت؟ (قالها بفزع).
النادل: كل سنة وإنت طيب.. النهارده وقفة عرفة!
هنا بلغ الغضب من أبي كل مبلغ وصرخ في النادل: عرفة مين؟! أنا سايب جبل عرفة وراي وجاي هنا عشان أسكر تقول لي وقفة عرفة؟!
لذا، عندما قرر أبي القدوم للقاهرة خلال شهر رمضان 2013 لم تكن مسألة سوء التوقيت مفاجئة له. "ثلاثين وقفة عرفة" كاملة كانت في انتظاره. مطبقاً بشكل عمليّ طرفته المفضلة التي يحكيها لنا في كل شعبان عندما قيل لأعرابي إن رمضان أقبل، فقال "والله لأبدّدنه بالأسفار!" لكن قراره بالسفر كان مفاجئاً بالنسبة إليّ ومتعارضاً مع خططي. ما اضطرني للعودة من مصيف دهب لتعذر انتقال العائلة برمتها لجنوب سيناء، فكان التساؤل الأكبر لأبي في الهاتف قبل أن يصل إلى مطار القاهرة: السوق الحُرة مفتوحة في رمضان يا حسام؟
وليس من قبيل المصادفة أن يرتبط احتساء الكحول بالتحرر: "مقهى الحرية" و"السوق الحرة"!

كانت الاحتفالات مُرجأة للعيد وفقاً لقصيدة "أمير الشعراء". بينما ظلت لديّ خطط بمعزل عن أبي. أهمها أنني كنت أنوي منذ أشهر السفر إلى الخرطوم خلال شهر رمضان "طالما إنها بايظة بايظة" ولم يكن وصوله للقاهرة دافعاً كافياً لإلغائها. عرّفته على بعض الأصدقاء، وتواصل هو مع أصدقاء قدامى. رسموا له في وسط البلد خارطة طريق للبارات التي تقدم الكحول في رمضان، وبعيداً عن صخب النادي اليوناني -بفرعيه- وبارات الفنادق الصديقة التي قد تقدم الكحول للجميع بحكم فهلوة العاملين عليها. كان ثمة ثغرة في قانون منع تقديم الكحول في المناسبات الإسلامية. ألا وهي "جواز السفر الأجنبي".

أفريكيا

فأثناء لقائي لتناول الغداء مع صديقتي غيدا نوري في الزمالك اقترحت أن نذهب لشرب البيرة إن كان ثمة سانحة لذلك، ولوجودنا في شارع البرازيل اقترحتُ سطح فندق يحمل إطلالة لطيفة على النيل. استُقبلنا في البار استقبال الفاتحين كوننا الزبائن الوحيدين في ذلك النهار الرمضاني المشمس. لولا شرط جزائي من النادل -الذي كان قبطياً أيضاً- بأن نكون حاملين لجوازات سفر أجنبية. جاءت إجاباتنا قاطعة وواثقة. لكوني سودانياً وكون غيدا لبنانية، وعندما طلب منا النادل بصرامة ضابط شرطة إخراج جوازاتنا اكتشف حقيقة أننا "عرب" وأن السودان ولبنان ليسا من الدول الأجنبية! بعيداً عن المفارقة المضحكة التي تجعل نوبياً أسود مثلي يوضع في نفس فئة التصنيف العرقي مع لبنانية شقراء. انخرطتُ في نقاش محموم مع النادل لأقنعه بأن كلينا لسنا عرباً، وأنه حتى لو كانت بلداننا أعضاء في الجامعة العربية فإن هذا لا يعني أننا مصريون، لأن القانون يجب أن يطبق على المسلمين والمصريين منهم فقط لا العرب. "العربي مش لازم يكون مسلم يا مينا!" لكن النادل لم يقتنع بتاتاً. لا لشيء إلا لأن مبرراتنا ما كانت لتقنع ضابط شرطة السياحة -لاحظ، ليست هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!- التي سيحق لها حينها أن تغلق البار ويُقطع رزق العاملين في الفندق.

هنا خدمتني الذاكرة. وتذكرتُ المفارقة الأكبر لهذه القصة، أن صديقتي اللبنانية ولدتْ لأم ولدتْ بدورها في غامبيا. مما جعل صديقتي مستحقة للحصول على الجنسية الغامبية. سألتها عن جواز السفر الآخر فقالت إنه في منزلها القريب لكنها لم يسبق لها أن استخدمته لأنها دائماً ما تسافر بجوازها اللبناني، وهنا أتيح لها أن تستخدم جوازها "الأفريقي" للمرة الأولى.

كانت نظرة النادل معبرة وهو يفتح الجواز، فقد كان يقف أمام فتاة بيضاء بشعر أشقر وعيون ملونة تحمل جوازاً لدولة أفريقية لم يسمع عنها من قبل حتى في كأس الأمم الأفريقية (الرابطة الشعبية الوحيدة للمصريين بأفريقيا)، فغامبيا ليست أكثر من شريط رسمه الإنكليز حول نهر يخترق السنغال المستعمرة من قبل فرنسا وأسسوا على ضفتيه دولة يبلغ أقصى عرض لها 48 كيلومتراً. كل ذلك لم يكن مهماً. المهم أنه كان بحوزة صديقتي جواز سفر "أجنبي" يجعلها مُخوّلة للجلوس في البار لاحتساء البيرة فيما كنت أنا ممنوعاً من ذلك (لذلك طلبت مع الشيشة منتجاً آخر لشركة الأهرام خالي من الكحول: بيرل)، وهكذا أنقذنا جواز أفريقي لم أحمله أنا الزنجي وحملته لبنانية كان أقصى نقطة وصلتها غرباً في أفريقيا هي مدينة الإنتاج الإعلامي.

كيف تهرّب زجاجة ويسكي من مطار الخرطوم؟

سفري إلى الخرطوم وترك أبي في القاهرة كان مُحبِطاً بقدر ما لكلينا. لكن أبي كان مُتفهماً بشكل كبير، كبير جداً. لدرجة أنني ما إن أخبرته أن "علاقات" زوج خالتي بسلطات مطار الخرطوم تسمح لنا بالخروج من الصالة دون التوقف عند ضباط الجمارك قدّم لي عرضاً مغرياً طالما أننا سنقضي العيد في مدينتين مختلفتين، وعرض عليّ أخذ زجاجة واحدة من زجاجات الويسكي الأربعة التي اشتراها من السوق الحرة: "ما عدا الشيفاز!". كانت تلك ملاحظة مهمة منه لأنه لولاها لكانت من نصيبي، وسافرتُ إلى الخرطوم بزجاجة جوني ووكر "ريد ليبول".

لم أكن يوماً من عشاق "مصر للطيران" التي تبيع الكحول في الأسواق الحرة وتمنعها على متن طائراتها. لكنها كانت في أبسط مقارنة مع الخطوط السودانية خياراً موفقاً جداً، والأهم أن اختياري لهذه الرحلة في هذا التوقيت تحديداً كان متزامناً مع رحلة صديقتي رغدان القادمة من مانشستر إلى الخرطوم على متن مصر للطيران، وبدلاً من لقائها أثناء الترانزيت في القاهرة كما فعلت في رحلة الذهاب انضممت إلى الرحلة رفيقاً. وصلنا بكامل وعينا لمطار الخرطوم الذي تحوّل مع تقلص حجم السودان إلى مطار إقليمي فاقداً صفة "الدولي" مع ازدياد وتيرة الضغوط السياسية على النظام، ليتناسب بذلك طردياً مع حجمه الطبيعي كواحد من أصغر المطارات الدولية في العالم. كل ذلك لم يكن مهماً، طالما أنني أستطيع الدخول لهذا المطار دون تأشيرة دخول. المهم: أن أنجو بزجاجتي.

لم أكن طامعاً في الريد ليبول على أيّ حال، ففوق عزوفي عن شرب الكحول لم يكن ذلك نوعي المفضل من الويسكي. لكنها كانت محاولتي لمفاجأة صديقي مأمون التلب في جحيم الخرطوم بوصفها أفضل هدية زواج لشاعر سكير. إضافة إلى أنها المرة الأولى التي لا أحضر فيها زفافه -بوصفي الشاهد الثاني على زيجته السابقة بالقاهرة- تملكتني رغبة جامحة لرؤيته يسكر ويشاركني الضحك الهستيري دون أن يضربه بسبب العرق المحلي الصنع إعصار "الكيتوك" صباح اليوم التالي (الكيتوك هو الـ Hang over باللغة السودانية).

إذا كان هنالك صفة غير الكسل ترسم الصورة النمطية العربية عن السودانيين فهي إدمان الكحول، وهو ما يدلل على سوء حظ السودانيين الذين يتمتعون بطقس ينغص حياة أيّ كسلان، وقانون مناهض لكل أشكال البهجة، فخلال التحولات التي أصابت سياسة أنور السادات في مصر وانتهاجه لسياسة الانفتاح وتراجعه عن الاشتراكية الناصرية، كانت عدوى مماثلة تصيب -لأسباب محلية- الرئيس جعفر نميري في الخرطوم. الذي تطرف في مغازلة الإسلاميين بما يفوق المادة الثانية من الدستور المصري وقرر أن يهب الدستور كاملاً عام 1983 للنائب العام حسن الترابي طالب السوربون الذي انشق عن التنظيم الدولي للإخوان المسلمين والخارج لتوه من سبع سنوات قضاها في سجون النميري متحالفاً معه ضد الشيوعيين، وطُبقتْ في السودان مذ ذاك قوانين الشريعة الإسلامية



حسين جمعان

الشهيرة بـ "قوانين سبتمبر".
لم تكن النتيجة المباشرة لتطبيق هذه القوانين هي فقط إغلاق البارات والنوادي الليلية ومنع تقديم الكحول في الفنادق والمطاعم وإغلاق مصانعها. بل اجتثاث ثقافة شعبية كاملة تقوم التسلية فيها بشكل أساسي على الخمر والجنس في مجتمع "الإنداية"، وهي أندية لصنع وتقديم الكحول محلية الصنع من المحاصيل المتوفرة محلياً في قرى السودان. وثّق لها بشكل أكاديمي الطيب محمد الطيب في كتاب حمل الاسم نفسه، وقدم له بروفيسور عون الشريف قاسم الذي كتب في المقدمة "فالإنداية كما يذكر الطيب في بداية كتابه من الأمور التي لا يصح الحديث عنها في عرف المجتمع السوداني إلا في مقام الذمّ وهي من أجل ذلك لا تجاور سكناهم بل تُقصى إلى أطراف القرى والمدن وقد تُضرب في الخلاء، ويطلق عليها 'الجو'... ولكنك بمجرد تصفح الكتاب وسبر غوره تجد أنه يدهشك أن المخبر غير المظهر وسرعان ما يكتشف القارئ أن الإنداية التي يتحدث عنها الكتاب ما هي إلا مظهر من مظاهر الحياة السودانية وهي ككل المؤسسات الاجتماعية لها نظمها وتقاليدها وقيمها التي يلتزم بها من يرتادونها ويذمّون من يخرج منها".

ملاحظة اعتراضية: شغل بروفيسور عون الشريف قاسم الذي قدم لهذا الكتاب منصب وزير الأوقاف والشؤون الدينية أوائل السبعينات خلال حكم الرئيس نميري بعد عمله كأستاذ في جامعة لندن.

قامتْ انتفاضة شعبية بعد إقرار قوانين سبتمبر بعامين وأطاح وزير الدفاع المشير سوار الذهب برئيسه نميري في 6 أبريل (يا للمفارقة!) 1985 وبعد أن سلّم الجيش السلطة للأحزاب عبر إقامة الانتخابات النيابية قفز الإسلاميون إلى السلطة عبر صندوق الاقتراع. لم يكتف الإسلاميون بالاحتفاظ بقوانين الشريعة والمشاركة بنسبة جيدة في الحكومة الائتلافية. لكنهم قرروا التخلص من الحياة النيابية برمتها وتحالفوا مع الجيش في انقلاب عسكري في 30 يونيو (يا للمفارقة برضو!) 1989 أطاح بعده بعشر سنوات المشير عمر البشير بعرّابه حسن الترابي. ليعود الأخير إلى صفوف المعارضة مجدداً وهو يراقب النظام الذي أرسى دعائمه وهو يحوّل السودان إلى مسخ متهلهل.

هل كنتُ أفكر في كل هذا وأنا أقف أمام صف انتظار الحقائب في مطار الخرطوم؟ بالطبع لا. هذا التداعي الحر للأفكار هو من نصيب الكتابة. أما آنية اللحظة فقد استحوذ عليّ فيها الأدرينالين بشكل طاغٍ كما كنت أتشدق أعلاه. ليس فقط لأن زوج خالتي "المسؤول" قرر أن ينتظرني في الخارج دون أن يصحبني في رحلة الخروج أمام ضباط الجمارك. بل لأن رغدان أخبرتني بأمر كان غائباً عن خطتي الارتجالية البلهاء تماماً. عندما سألتها عن السبب الذي تخرج فيه بعض الحقائب إلى السير وهي ملطخة بطباشير ترسم علامة (x)، الإجابة ببساطة أن الحقائب وقبل أن تسلم لأصحابها تمر أولاً بجهاز أشعة (x) وأن هذه الطباشير هي رسالة لضباط الجمارك كي يفتشوا الحقائب المعلمة و"يجمركوا" ما فيها. كانت الزجاجة لتظهر على أيّ حال في أي جهاز، فقبل أن أركب الطائرة. حاول أمين شرطة في مطار القاهرة ابتزازي أثناء دخولي للصالة قائلاً: هو إيه اللي في الشنطة ده؟

(لحظة أصابني الرعب قبل أن أتذكر أنني لم أقلع بعد وأن القانون المصري في صالحي)

أنا: قزازة ويسكي.

أمين الشرطة: طب ينفع كده؟

أنا: أنا جبتها من السوق الحرة من هنا على فكرة. لسه من 4 تيام.

أمين الشرطة: طب كل سنة وإنت طيب.

وانتهى الحوار بعشرة جنيهات. لكن أضعاف هذا المبلغ ما كانت لتنقذني في مطار الخرطوم مع زجاجة البلاك ليبول الملفوفة داخل عدد من الألبسة الداخلية والمحشورة جيداً في حقيبتي السوداء التي كان لرغدان نفسها أن اصطحبتها من نيروبي إلى الخرطوم قبل أشهر لكثرة وزن أغراضي، وكان ذلك سبب تعارفنا، ولخوفها ممّن هم على شاكلتي طلبت مني يومها أن تفتش الحقيبة قبل أن توافق على اصطحابها لتجد أنها مليئة بالثياب والكتب فقط. لم أخبرها تلك الليلة في مطار الخرطوم بأمر الزجاجة حتى جاءت الحقيبة أخيراً. أمسكتُ بها وقلبتها على بلاط الصالة، واكتشفتُ أن حظي لا يزال يعمل وأن الحقيبة نظيفة تماماً. مع الأسف. كانت العادة السودانية الشائعة في حمل حقائب الغير عاملاً متوفراً في هذه القصة أيضاً. حيث خرجت حقيبة كانت قد أعطتها لي أمي لصالح خالتي -التي يرفض زوجها الآن انتظاري- محملةً بعدد غريب من أطقم الكؤوس الزجاجية، ومزينة من عدة زوايا بعلامة (x) بطبشور وردي.

تلك كانت المرة الأولى التي أمر فيها بطمأنينة من أمام ضباط جهاز الأمن والمخابرات ويكون باعث قلقي هم رجال الشرطة. عبرتُ بثقة مفتعلة من أمام أول شرطيين. سألتهم عن الجمارك وأنا عالم تماماً بمكانها فسألوني إن كانت حقائبي ملطخة بالطباشير:

كذبتُ: لأ.

الضابط: طيب بتسأل من الجمارك ليه ؟ أمشي طوالي كده! (وأشار إلى مخرج الصالة).

كان يقف هناك ضابط آخر أرفع رتبة. الحقيبة النظيفة من الخارج والملوثة من الداخل ظلت في المقدمة كونها الأكبر حجماً. أما حقيبة أمي الصغيرة ذات الطباشير فكنتُ أسحبها خلفي في الجانب الأعمى من وقفة الضابط. لم يرها الضابط الذي قدمتُ له جوازي على سبيل التضليل فسمح لي بالمرور فوراً.

بدا الأمر لي كلعبة فيديو. ينتقل فيها اللاعب من مرحلة إلى مرحلة ومن مقاتل إلى مقاتل. إلى أن وصلتُ إلى الحاجز الأخير حيث مرحلة الوحش. كان عقيد من شرطة الجمارك يقف أمام المخرج الصغير يتحدث عبر مكالمة في الهاتف. مما جعلني أتفاءل خيراً بانشغاله، وما إن مررتُ من أمامه حتى ركل بحذائه حقيبة أمي مشيراً إلى علامة (x) اللعينة. أخبرته أنها لا تحوي شيئاً فقال مقاطعاً مكالمته بانزعاج "لو ما فيها شي ما كان شخبطوها ليك! أمشي خليهم يفتحوها هناك!"، وأشار إلى حيث تدور رحى معركة من الفتح والإغلاق مع بعض المسافرين المحظوظين. لم أكن أخشى شيئاً من فتح حقيبة أمّي وكنت على استعداد كامل للتخلص منها في الجمارك مقابل الخروج بحقيبتي المفخخة التي خشيتُ أن تفتش من باب "ما إنت كده كده جيت فخلينا نشوف شنطتك التانية". اتصلتُ بزوج خالتي مجدداً الذي كان مستمتعاً بتورطي في هذا القلق وهو مُصّر على معرفة ما في حقيبتي. قررتُ تجاهل ضحكه المستهتر في الهاتف وخوض المعركة بنفسي، وتركتُ حقيبتي ذات الريد ليبول عند المخرج وسرتُ صوب الجمارك بحقيبة الكؤوس الزجاجية الفارغة من أي ويسكي. لحسن الحظ. فتشها الضابط، وضحك عندما رأى شكل الكؤوس الفارغة متخيلاً كيف بدت في شاشة جهاز أشعة (x) وألصق لي ملصقاً يشير إلى سلامة محتويات الحقيبة، بينما أسترق النظر من لحظة لأخرى لحقيبتي الواقفة بجوار العقيد المتحدث في التلفون. لم يعلق أحد على حقيبتي الأخرى النظيفة، فعبرتُ من مرحلة الوحش آمناً بزجاجتي إلى شوارع مدينة تحكمها الشريعة.

"قالي الرُخص قلت لو معيش"

شوارع الخرطوم كان لها طريقتها في احتوائي بثغراتها الأمنية المحاطة بقيم أخلاقية عجيبة. كنت قد دعيتُ مع زميل دراستي وصديقي العزيز مانديلا (واسمه الحقيقي: محمد علي) إلى زفاف ابنة عم زوجته، وكأيّ حفل زفاف سوداني أصيل خرجتْ زجاجات العرق من تحت الطاولات أمام كل شخص يدعي شرب الـ"سفن أب"، وبينما كان عم العروس يتذمر من كيفية احتمال العيش في بلد يصل فيها سعر زجاجة الويسكي إلى المئة دولار تذكرتُ كم كنت محظوظاً في المطار، ولاحتْ لي فكرة أن أتاجر في تهريب الكحول إذا لم أوفق في الحصول على وظيفة جيدة في السودان، وبعد أن صعد أحد مسؤولي الصالة عند الواحدة صباحاً لخطف المايكروفون من "ندى القلعة" الفنانة التي أحيتْ الفقرة الأخيرة معلناً انتهاء الحفل وفقاً لقوانين ولاية الخرطوم الموروثة من حقبة حظر التجول، استعد صديقي مانديلا للمغادرة ليجد نفسه ثملاً تماماً، ومع وجود زوجته وابنيه عرضتُ عليه أن أقود سيارته حتى أم درمان في مقابل أن يوفر لي سريراً للمبيت. كان العرض موفقاً بالنسبة إلى كلينا رغم كرهي الصادق لأم درمان، فقد أتيح لي أمر لطالما أحببته، القيادة في شارع النيل ليلاً بعيداً عن الزحام المروري. متجاهلين أنني لا أمتلك رخصة قيادة.

كما توقعتُ. مررنا بحاجز أمني قبل العبور إلى جسر النيل الأبيض الواصل بين الخرطوم وأم درمان. كانت لديّ دائماً 20 جنيهاً جاهزة في كل مرة أقود فيها سيارة في الخرطوم لعدم امتلاكي لرخصة. لكن الشرطي الذي أوقفني كان في ثياب زرقاء لا بيضاء. مما يعني أنه ليس من شرطة المرور، وبعد رؤيتنا للحيته الطويلة تأكدتُ أنه



حسين جمعان

لن يكون ممن يتقبلون الرشاوى خصوصاً إذا كانت مبلغاً تافهاً كهذا. سألني بصرامة: السلام عليكم، الرخصة يا أخ!

كان لفريق أوتوستراد الأردني أغنية أعزها جداً يقول مطلعها "قالي الرخص قلت لو معيش" كان دائماً ما يشغلها صديقي ووكمان ونحن نتسكع في كورنيش المعادي بسيارة يقودها برخص منتهية. للمرة الأولى أتذكر الأغنية وأنا من يقود. اعترفتُ منذ أول سؤال: أنا ما عندي رخصة ولا بطاقة رقم وطني ولا حتى جواز سفر!

الشرطي: قيف على جنب!

كان المهم أنه مهما بلغ سوء الموقف مع الشرطي هو أن أتحمل المسئولية كاملة، فقيادة السيارة بلا رخصة في الخرطوم أمر أقل وطأة من اكتشاف الشرطي لاصطحابي لرجل مخمور، وقبل أن أضغط على دواسة البنزين أحدثت زوجة مانديلا حركة لافتة من المقعد الخلفي وهي تقوم بتعديل حجابها، وهنا كانت ابتسامة القدر: الشرطي: أنا آسف جداً. نحنا ما بنوقف عربيات فيها نسوان. أنا آسف يا أستاذة ما شفتك.

أنا: يعني أعمل شنو؟

الشرطي: اتفضل أمشي!

بعد لحظة صمت عمّها عدم التصديق ونحن نعبر الجسر إلى أم درمان. أجبتُ على دكتورة رحاب التي عبرت عن سعادتها بإنقاذنا من الموقف بقولي: اوعى أسمعك تاني بتقولي لي Feminism!

المادة 78: شرب الخمر والإزعاج

عادث بي الذاكرة فوراً إلى أيام جدة عندما كان لا يحلو لأبي أن يتورط في شرب الكحول إلا برفقة والدتي له في السيارة عند العودة إلى البيت. مسألة عدم إيقاف النساء في الحواجز الأمنية كانت من المحامد النادرة في المجتمعات الذكورية. في حالة مأمون التلب صار الأمر أفضل بكثير. ليس فقط لأن زوجته نانسي عجاج هي من تقود السيارة دائماً، بل لأنها أيضاً مغنية مشهورة في السودان. قصصتُ على مأمون ونانسي قصة تهريبي لزجاجة الويسكي من المطار وأضفتُ بذلك سرداً جديداً لتاريخنا المخزي المشترك من قصص السُكر، فمأمون من أكثر الرجال خوفاً من شرطة النظام العام رغم كونه أكثر من خرق المادة (78) من القانون الجنائي "شرب الخمر والإزعاج". لذا ظلت القاهرة ونيروبي ملاذيه الآمنين، لدرجة أنه كان من المرجح دوماً أن تجده في البار مع زوجته الأميركية السابقة عند منتصف الظهيرة، وعندما جاء والدها من أميركا لحضور حفل زفافهما في القاهرة صادر مأمون حقيبته السياحية التي كان يتدلى من داخلها خرطوم بلاستيكي متصل بحاوية تحتفظ بدرجة حرارة الماء. اتصل بي عشية أنه صادرها وهو بصحبة صديقنا الشاعر هرمس وطلبا مني التوقف في طريق عودتي من الجامعة في 6 أكتوبر عند ساقية الصاوي بالزمالك. كنتُ مصدوماً من كون مأمون وهرمس قد وافقا على المشاركة في أمسية شعرية في مكان "مُتزمت" كهذا، وعندما انضممتُ إليهما تبددت مفاجأتي ما إن مد لي مأمون خرطوم الحقيبة. شربتُ شفطة صدمتْ رأسي بجرعة قوية من الفودكا. هنا ضحكا، وعرفتُ أنهما يخططان للنيل من هيبة عبدالمنعم الصاوي، وبهذا انضممتُ أنا أيضاً للقراءات، وتلوثُ الشعر ثملاً في الساقية.

كان مظهر مأمون المهذب في سيارة نانسي بلا جدائل راستا. مرتدياً قميصاً مكوياً وحذاءً بجوارب غريباً عليّ حقاً، ويليق فعلاً بزوج فنانة شهيرة. المثير للريبة أن مأمون لم يفقد حس فكاهته مع زوجته الجديدة بل بدا أكثر "روقاناً". كانت صورتنا ونحن نركض معاً بعد منتصف الليل في حيه السكني الخرطومي الذي أسماه "الواقعية السحرية" هرباً من رجال شرطة السواري (الخيالة) ماثلاً وأنا معه في السيارة. تذكرتُ كيف تسللنا كمقاتلين في حرب شوارع من زقاق إلى آخر حتى نصل لـ"ست العرقي" النائمة داخل كوخها المهلهل عند أطراف مقابر المسيحيين لنأخذ منها زجاجة عرق بالدّين. إرثٌ ثقيل من الصعلكة كان قد اجتاحني مع نشوة الرجوع للخرطوم، وبعد سماعه لقصة المطار التفتَ مأمون فجأة بعد أن هدأ من نوبة الضحك وسأل: بالمناسبة، وين قزازة الريد ليبول؟! فأخرجتها من حقيبة ظهري التي لم يكن فيها أيّ خراطيم قائلاً "إنت ما بتتزوج كل يوم. دي هديتي!". ضحكنا مجدداً ونانسي تجري بنا في شوارع الخرطوم "المدينة"، ولم يتردد مأمون للحظة وقرر أن يخرج جوني "المشاء" ليشاركنا الجولة وأصداء بهجتنا تتردد في سكون مدينتنا الفاضلة الغارقة في الكآبة.

ملاحظة ختامية: عند فراغي من كتابة هذا المقال اتصل بي والدي من جدة. لا لشيء إلا لأنه نسي أن يخبرني أنه ترك زجاجة الشيفاز في دولاب غرفتي بالقاهرة، لأنه مع غيابي في الخرطوم لم تكن تتوفر له صحبة السكر التي تلائم جودة ذلك النوع من الويسكي. إنني حقاً لا أبالغ حين أقول إن أبي هو أعز أصدقائي ■

كاتب من السودان

انحطاط الوضع البشري
تريث قليلا أيها الفناء
من يوميات الحرب والجنون

لطفية الدليمي

في بغداد ينحدر الزمن إلى هاوية من لهب وثارات همجية، ينحطّ الوضع البشري إلى حضيضه في بحر من دماء وتعول الريح بصرخات الفناء وتجرفنا أوان الفجر والغسق نحو مصائرنا الجحيمية المحتومة، فقد كان مقدرا أن ننتهي هذا اليوم ضحايا عبوة ناسفة لمرتين: إحداهما في شارعنا قرب بيتي والثانية جوار المجلة.

نجونا من تبادل إطلاق نار كثيف قرب تمثال أبي جعفر المنصور الذي أطاح به المتشددون، اجتزنا أزقة موحلة ومنعطفات موبوءة بالإرهابيين وبقايا انفجارات وأشلاءٍ حتى بلغنا شارع الكندي في حي الحارثية ودخلنا زقاقا كنا نخاله آمنا فوجدناه موصدا، ثم سمعنا انفجارا زلزلنا وعرفنا أنه تم تفجير عبوة ناسفة كانت مزروعة على رصيف قرب مبنى المجلة. الموت يقترب خطوة أخيرة..

الساعة الواحدة

يصل إلى مقر مجلة هلا الثقافية ضيوف حفل الشاي أعضاء أسرتَيْ تحرير مجلتَيْ "جدل" و"مسارات" احتفاء بصدور العدد الأول من مجلة "جدل"، كتّاب وأكاديميون وشعراء وباحثون وروائيون، نناقش إمكانيات التعاون بين مجلاتنا لتخطي المصاعب الفنية والطباعية والمالية ومواجهة تدخلات الأحزاب الدينية المهيمنة على السلطة وتهديدات الميليشيات التي تلاحق حيواتنا وأحلامنا.

نهنئ رئيسيْ تحرير المجلتين المحتفى بهما بباقتي زهور، يناقش الحاضرون المعضلات التي تواجه عملنا في أوضاع خطيرة تتفجر كل لحظة بالمزيد من الأهوال والتهديدات التي تستهدف الحريات والثقافة والفكر المتنور والنساء بشكل خاص..

الساعة الثالثة

أنجز كتابة رؤية أولية لمشروع ندوة "الثقافات العراقية الخصائص والمشتركات" للجمعية العراقية لدعم الثقافة، تأسيسا لحوار مكاشفة بين ثقافات الأعراق والقوميات والأديان وتحديد العناصر المشتركة التي أسهمت في إغناء ثقافة العراق ونمائها وتنوعها وهي ما يسعى المتطرفون الآن لتحويلها إلى بؤر صراع متفجرة بين الطوائف والأعراق، ونقترح أسماء الباحثين والمفكرين والكتّاب من مختلف الأعراق والأديان والقوميات، يقر الأعضاء المشروع آملين الكشف عن تشابك أرواحنا وعاداتنا وتلاقح ثقافاتنا.

الساعة الخامسة

أعود إلى مقر المجلة في حي "الحارثية" عبر طرق خطرة بعد إغلاق طريق حي "القادسية" العام المحاذي للمنطقة الخضراء، لا وجود لخدمة الإنترنت في مبنى المجلة لانقطاع الكهرباء وعطل المولدة، وعليّ المغادرة مسرعة إلى البيت لإنجاز أعمال المجلة والطريق مشتعل بالمواجهات والعبوات الناسفة والقوات الأميركية ترابط على مفارق الطرق ومداخل الشوارع والسائق يناور بين الأزقة ليتخذ طريق "المطار الدولي"، وخلال ربع ساعة توقفنا الدوريات عشر مرات، يشتبهون بنا، ويدققون في وجوهنا ونبضنا وكلماتنا الراجفة، مداخل الأحياء مغلقة ولا بد من الدوران حول أطراف العامرية غربا عبر حي الجهاد لنصل إلى شارعنا الذي تقف على مدخله دبابتان أميركيتان، بالكاد أستطيع فتح باب البيت في العتمة والهلع.

الساعة السادسة

الليل يوغل في سواده، أشغل مولدة الكهرباء وأرى أغلفة رصاص وآثار أقدام على الممر بقايا مواجهات الظهيرة، أترنح فتميد بي الرجّة القاتلة ويصطدم جبيني بإطار الباب، أستلقي على الأريكة وأوصد وحشتي على دموعي.

من يستل العبرات من صوتي؟

من يضيء زاويتي في محاق الأمل وأنا أتشبث بالوطن وأقف وحيدة في عين الإعصار؟ من يمنحني وطنا لا يغصّ بالموتى والقتلة؟

متى يغادرنا الجنون لنغفو؟

متى يموت الموت لنحيا؟

متى تنخسف الظلمات لأفيق من ليل الخرافة وعصر السبي؟

سأدخل الليل الشقي بحروبه العمياء وأهيّئ وجبة النجاة التي



علي قاف

أتناولها كل ليلة متبلةً بدموعي وزهور الخشخاش القرمزية التي أزرعها وأتعاطى رحيقها الأبيض المرّ منوما في ليالي أرَقي، أحتضن الأرغفة الباقية والقصص وتقويم الندم وأشلاء الكلمات وأتجاهل الموت فما عدت أرهبهُ لطول ما تآلفت مع الموتى في الطرقات وأمام نوافذي وفوق الجسور ورأيتهم يطفون في مياه دجلة كزهور حزينة تلتهمها أفاعي الماء والإنكار.

كنت امرأة تجازف كل برهة وتراوغ موتها، أتجول بين الوحوش البشرية التي ترفع سيوفها الصدئة، تحزّ بها رقاب الخارجين على الخرافة والذاهبين إلى سلطة العقل. ألوذ بالموسيقى فلا أسمع رصاصهم وصرخات الهلع ولا أكتفي بمغامرة العيش بين القاتل والقاتل إنما أضيء لحظتي بوعي ما يجري وما سيجيء، أقطف لحظات تأمل تنتشلني من رجفة الرعب وكوابيسي وأكشف صورة الوحش المتربص بنا، المتربص بي والمتشهي قطف رؤوسنا.

وحدي أطوي المسافة بين موتي الوشيك وموتي المؤجل بمحض مصادفة ويحرسني سر الموسيقى، تأتي الكلاب الضالة إلى حديقة بيتي بأشلاء الضحايا فأجد ذراع امرأة وكف طفل وأسمع استغاثات مروعة وأرى مصيرنا موكولا لقاتل وكلب وغراب.

لا شيء أشد توحشا من وحدة امرأة في بلاد القتل والسبي والمقابر، لا أرى في وحدتي أحدا غير صورتي تتكرر في المرايا، وغير ملامحي تتغضن وتذوي حين لا تؤكدها نظرة الآخر، ولا تنال من التأويلات والتساؤلات ما يخفف هلع القلب ويرجئ خطوة الموت، أولادي كلٌّ في بلد، وأنا أتشبث ببقائي في بغداد وامتزاج رمادي برمادها، أدير مجلة "هلا" الثقافية وأكتب فصولا من روايتي وأحلم بسلام ترتجيه أرواحنا كل غروب فتفجعنا سيول الدم لدى كل شروق وتروعنا صرخة والدة ملتاعة بولد مخطوف أو اغتصاب صبية يافعة.

في وحدتي أعيش بين الموت و"الأنا" المكابرة التي تمارس الإنكار وتدعي شجاعة لا يملكها سوى المنتحرين، فحين لا يعود أحدنا قادرا على رؤية وجه الآخر أو سماع نبرته أو تلمّس حنانه، عندئذ، ينكفئ كلُ واحد مناً على وحوشه الشخصية تلتهمه ويلتهمها ويرسل أيّ آخر إلى الجحيم.

أغامر كمجنونة بالعيش وسط حدائق الموت المزدهرة بجثث مجهولة ورؤوس مقطوعة وصمت يمارسه جيلي من المثقفين والكتاب تقية أو خوفا وانسحابا، بينما تتصاعد نبرة التجهيل والتحريم وإهدار الدم، إنها لمجازفة عبثية أن أحيا وسط المجزرة وإنه الجنون ولا مفر، بيتي محاط بحشود المتطرفين وهجمات المتعصبين الساعين لفرض ثقافة واحدة على شعب متشابك الأعراق والثقافات، أسمع عويل الرجال الجارح في المساء حيث أقدم المتطرفون المتوحشون على قطع سيقان ثلاثة شبان لارتدائهم الشورتات بحكم عملهم مدربين في مسبح "الرشيد" في حيّنا المشتعل، يطوقني نحيب البنات اللائي قتلت زميلاتهن في الحافلة الصغيرة وهن عائدات من عملهن في أحد البنوك مكشوفات الرؤوس بلا حجاب، أطلق الملثمون نيران رشاشاتهم عليهن ثم عمدوا إلى قطع رؤوس ثلاثة منهن ودحرجوها على رصيف شارع العامرية، يتضاعف رعبي وسط الصراع وتحاصرني خطى القتلة ليلا وتهديدات مجهولين تنذرني بقطع الرأس إن واصلت الخروج إلى عملي.

وكمثل كدحي اليومي في تيه الغربة، كنت أكدح في نهارات القتل من أجل رغيف خبز وبضعة لترات من نفط أو عشرة لترات من البنزين لتشغيل مولدة الكهرباء، ترافقني كل ليلة شخوص روايتي وتؤازرني

بضعفها وبسالتها وأنا أنتظر الموت قتلا على الهوية وأتساءل: ترى على أيّ هوية سأُقتل؟
هل سأقتل لأنني امرأة؟ أو يهدر دمي لأنني كاتبة أو يقطع رأسي لأنني علمانية؟ أو ما لا أدريه من التصنيفات؟ على أيّ الهويات سأموت ميتتي المجانية؟
يحدث صدع في الزمن فتتفتح زهور الحديقة بشائر ربيع واعدٍ بالأمل، وتشكل مع الموسيقى خلفية الحياة الحلمية الداعمة لروحي المستوحدة فتدوزن الموسيقى والنباتات بقائي وسط متاهة الموت وأفكر: لو لم أكن كاتبة لكنت أصبحت عازفة كمان أرعى وجودي بأصواتٍ سماوية وأشتبك مع الكون والزمن لأغادر أرض الرعب إلى ترنيمات وأغنيات حب وأعزز إنسانيتي بحلمٍ ورؤيا.

محو الذاكرة

دمر الاحتلال والنهابون المبرمجون المكتبات والمتاحف وأحرقت الكتب والصحائف لمحو ذاكرة البلاد وجعلها صفحة بيضاء لإحلال ما يريدون في بياضها الأبله.. كل ما فعلوه كان حربا على الذاكرة الرافدينية، ذاكرة حضارات وتاريخ وجذور ممتدة إلى أزل الزمان..

كيف سأدون كوارثنا والطبيب البَطِر ينصحني: إن شئت النجاة من ترنحك وكوابيسك فعليك تعاطي أقراص المحو وأسأله: ماهي أقراص المحو؟

- عقارٌ يوقف نشاط الذاكرة ويشلّها، وأفزع من اقتراحهِ المروع: وماذا يتبقى من المرء حين يخون الذاكرة؟
يضحك الطبيب: يتبقى له النسيان فيحيا سعيدا كطفل يلعب ويأكل ولا يبالي بشيء.
لا يعرف الطبيب الطائش أن عار الحرب تسلل إلى خلايانا من الباب الخلفي للتاريخ وسمّم حياتنا عندما فتحه الطاغية ثم دخل منه رجل الدين والمرابون وباعة الأرواح في غفلة من وعينا، لا يعلم أننا لم نغتسل بعد من عار ذلك التاريخ وننتظر طوفانا عظيما ليطهر ترابنا وعروقنا وانفاسنا من بذور الخراب.

أيها الفناء تريث قليلا

هاجس المرء أن يحيا ويكون كما يتمنى، هاجسي أن أتمّ كتابي الأخير وحينها قد أستسلم للرحيل، تحاصرني وجوه الموت المموهة بأقنعة أليفة فأهمس: أيها الفناء تريث قليلا ودعني أدوّن ما لم أُقلْهُ بعد ففي الروح ألف صوت أخرسته التهديدات وفي القلب ألف سرٍ عن الآمال العظيمة والحب والخيبة والمخاوف التي لا تعرفها سوى حدوس النساء.
تنهمر عليّ مقاطع من قصيدة "سيأتيكم زمان" لـ"ممدوح عدوان":

"ها هو الموت يأتي، خطاهُ على الأرصفه،
وجهه سيفاجئ في العَطَفاتِ وقد يشرئبّ من الأرغفه،
ها هو الموت يأتي.. تنفسه عند بابي، وفوق وجوه النيامْ
ها هو الموتُ يأتي، انهضوا أيها الميتونْ جاء موتٌ جديدْ
نابع بين حبل الوريد وبين الجبينْ.."

ينسل الموت أفعوانا ويلامس أرواحنا كحنان امرأة لعوب ويغازلنا كأنه الخلاص وأحيانا يكون هو الخلاص، سأخادعه وأمشي في الممرات ساعة وأكتب ساعة أخرى، أعلم أن كل خطوة نقوم بها هي كناية عن رحلة في الزمن، سأحطم ساعتي والمنبه كما فعلت بطلة قصتي" الساعات" في كتابي "إذا كنت تحب" لأطلق فوضى الزمان، سأدع العاصفة لتدوّم حولي وتوقظ الحمائم الغافية في شجر التين وأحرر النساء والرجال المأسورين في الكتب العتيقة والأساطير ليضج المكان بالآهات والقبلات والموسيقى، فلعل الموت يخطئ مواقيته وحياتنا.

الساعة الخامسة صباحا

أفيق على صحراء الدم، وأنا رهينة إصراري على البقاء في انتظار ميتة شنيعة كجميع الضحايا من الأقارب والمعارف، يلومني الأبناء في المكالمات المتواصلة ويحرضونني "أخرجي من بغداد وتعالي إلينا، علام بقاءك هاهنا ؟" وأجيبهم "دعوني أشهد على ما يجري وأدون شهادتي لزمن قادم".
يضحكون من بلاهة إجابتي وينذرونني:
- بقاؤك بين الأحياء محض مصادفة، وقد يكون موتك خبرا صغيرا في نهاية موجز أخبار كأيّةِ ضحيةٍ لا يُعتدُ بشهادتها، هذا إذا صادف وعلمَ أحد بموتك بعد أن تتحلل جثتك في عتمة البيت.
- لا عليكم ، هي حياتي وأنا من يحق لي التصرف بها.
أحتفي بالفجر رغم كل شيء وأفتح الأبواب المحصنة بمشبكات حديدية، ينعشني المشهد الصباحي وشذا العشب ونهوض الحياة ،أروي الزهور وأقطف الأقحوان الأصفر وزهور اللاتينيا وأغدق رذاذ الماء على أشجار النارنج وعريشة الياسمين في معاندة نزقة -وربما بالغة السذاجة والغباء- للإرهابيين والفناء.
ثمار النارنج المتساقطة كشموس صغيرة تدعوني لأهيئ عصيرا شهيا، ثمار ذهبية هي مصابيحنا العطِرة في حدائقنا البغدادية أطاحت بها عاصفة الليل على المرج ورسمت صورة بديعة لطبيعةٍ لا تخوننا ولا تأبه بالموت وتمنحنا عطاياها بلا منّة، أجمع الثمار وأغلفة الرصاص التي تناثرت على الممرات إثر قتال الليل ومن يدي تفوح رائحتان: نارنج الحياة ورصاص الموت.

الساعة الثامنة

يهاتف أحدنا الآخر لنهدئ مخاوفنا من احتمالات الخطف أو القتل، الساعة الثامنة صباحا موعد مكالمتي اليومية مع الصديقة الرسامة هناء مال الله، عقدنا اتفاقات على مواعيد لنتأكد من بقائنا أحياءً، امرأتان وحيدتان، هي في منطقة السيدية الساخنة جنوب بغداد وأنا في العامرية الملتهبة بعنفها وحرائقها وها هي هناء ترد وتبلغني "سأذهب إلى أكاديمية الفنون"، هذا اتفاق ثانٍ بيننا نبلغ عن تحركاتنا فقد نتعرض للخطف أو القتل على الطرقات، تقترح هناء أن نلتقي ظهرا لحضور معرض تشكيلي في غاليري "أثر"، أعتذر فلديّ ارتباطات عمل في المجلة..
أهتف لنفسي: ها قد كسبنا يوما جديدا لحياتنا ■

كاتبة من العراق مقيمة في عمان

أمجد وردة

ملف

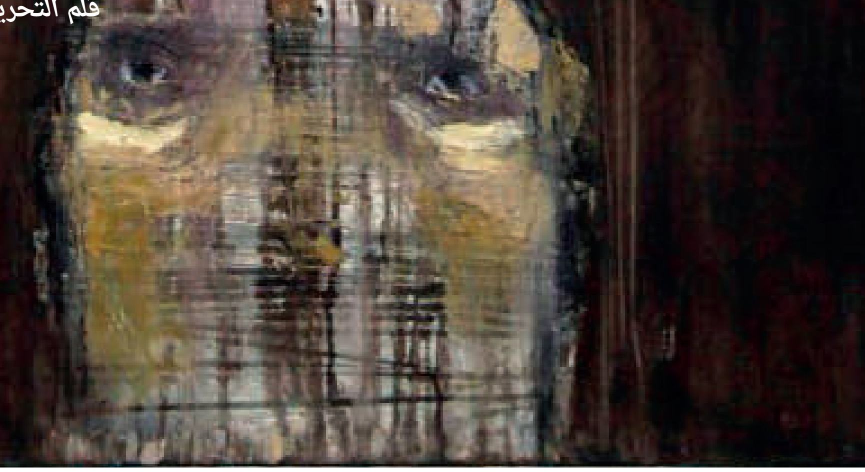
أدب السجن

يوميات وشهادات من مملكة الرعب

في هذا الجزء من الملف نصوص هي بمثابة يوميات وشهادات تشكل وثائق تاريخية وأدبية دوَّنها أدباء وشعراء ومثقفون سوريون وفلسطينيون استضافتهم سجون ومعتقلات "دولة الأسد" على مدار ثلاثة عقود ونيف من الزمن، بسبب انتماءاتهم الفكرية وتطلعاتهم الثقافية والاجتماعية. وهم كانوا وما زالو يشكلون بنتاجاتهم الفكرية والأدبية ونشاطاتهم العامة جزءاً من ثقافة الحراك الديمقراطي السوري لأجل مجتمع مدني ودولة تعددية. وقد دفع بعضهم سنوات طويلة من حياته خلف قضبان ما سمي لعقود بـ"مملكة الصمت" و"مملكة الرعب"، و"دولة الأبد..."، وبينهم من سجن مراراً بسبب أفكاره. وهم مثقفون ينتمون إلى أجيال مختلفة، وطوائف متعددة، فبينهم الدمشقي، والحمصي، والحلبي، والإدلبي، واللاذقاني، والفراتي، وبينهم المديني والريفي، وبينهم العربي السني والإسماعيلي والدرزي والعلوي والمسيحي والكردي، والفلسطيني، الشاب والكهل والرجل والمرأة. فالنظام الديكتاتوري الذي صادر الحياة المدنية لدرة بلاد الشام، وأنزل معارضيه، المقابر والسجون ، على رغم ما ميزه من لون طائفي فاقع، لم يكن ليقبل معارضاً لسياساته أيا كان دينه أو انتماؤه القومي، فكان يوزع قسوته وإرهابه على جميع السوريين الذين يبدون أدنى رغبة بالخروج من "حظيرة الاستبداد" طلباً لهواء الحياة الحرة.

في هذا الملف كتابات مؤثرة لأحد عشر كاتبة وكاتباً هم: مفيد نجم، راتب شعبو، جورج صبرة، جابر بكر، خالد سميسم، حسيبة عبد الرحمن، عبد الرحمن مطر، حسام ملحم، سحر حويجة، بسام سفر، صادق أبو حامد، ترسم مجتمعة لوحة واسعة تفتح زمن الصمت على زمن الصراخ، والسجن الصغير على السجن الكبير، واللون الرمادي للسجن على ألوان الحرية، على مشهد انتفاضة شعبية عارمة حطمت قيود نصف قرن من المواجهة الصامتة بين الحرية والاستبداد، وبين الرعب والكلمات ■

قلم التحرير



أجنحة في زنزانة

أول الحكاية

مفيد نجم

كل شيء كان هادئا تماما، وينساب بآليته اليومية التي اعتاد عليها ساكنو هذه المدينة. لم يكن هناك ما يغير صفو هذا المشهد الراكد على حاله منذ سنوات. كان المساء الخريفي ببرودته المعتادة يطوي آخر ساعات النهار، ويمضي بتثاقل نحو نهايته. كل شيء كان غارقا في وحدته تحت سماء حيادية، تخب فيها خيول بيضاء وسط زرقة خفيفة، تتحدر خلف جبال رمادية تغلق الأفق، كأنها هي الأخرى أسوار الأبدية التي ظلت تحرس أرض الغوطتين والأنهار السبعة، وسط هذه الصحراء المترامية الأطراف التي تحيط بها. لم يكن هناك ما يشعرني بأن ثمة أمرا غريبا ومفزعا قد حدث، أو يمكن أن يحدث، بينما كنت أعود أدراجي من جولتي التي اعتدتها، في حواري دمشق القديمة وأزقتها الضيقة، بعيدا عن صخب المدينة وزحامها.

كانت دمشق القديمة تغريني بالسير الطويل في طرقاتها الضيقة في مثل هذا الوقت من كل عام، مطر خفيف وهادئ، ونوافذ أو أبواب تنفتح فجأة ليطل منها وجه صبية أو امرأة، سرعان ما تنغلق عندما تفاجأ بوجود عابر غريب، لكن بهاء طلتها وابتسامتها التي تتفتح كنهار ربيعي مشبع بعطر الكباد والنارنج تجعلك أكثر بهجة، وأنت تواصل عبورك في تلك الأزقة الملتوية، التي توحي فيها جدران البيوت من الخارج بالجهامة والقتامة، على عكس ما هي عليه فناءات البيوت، التي حولها ساكنوها إلى جنة من الخضرة والورود والجمال، تتوسطها بحرات الماء، وتتسلق جدرانها المعرشات الخضراء، بينما تحتشد أدراجها بأصص الزهور الساحرة.

عندما وصلت إلى البيت لم أجد أحدا في انتظاري. سكون كامل كان يخيم على المكان. استلقيت بكامل ملابسي على السرير للراحة، لكنّ قلقا ما غير مفهوم، كان يمنعني من الاسترخاء، فقررت أن أنهض وأتابع مسيري باتجاه منزل الأهل، حيث كانت تجتمع الأسرة كلها في أيام العطل. ما إن وصلت حتى وجدت أخي الأكبر في انتظاري، وقد بدت على ملامحه علامات القلق والتوتر. أمسك بذراعي وقادني إلى غرفة جانبية، فأدركت على الفور أن هناك أمرا مستعجلا يتعلق بي، ويريد أن يخبرني به. دون مقدمات قال لي: حضر صديقك (ك) ويقول لك إن (جوزيف) قد تم اعتقاله بعد ظهر اليوم، وأن عليك أن تتدبر أمرك بسرعة، وإذا أردت أن تلتقي به فهو موجود في بيت فلان. لم استوعب الخبر تماما في البداية بسبب الصدمة، التي نجمت عن هذه المفاجأة المرعبة. كررت العبارة بيني وبين نفسي: إذن عليّ أن أتدبر أمري بسرعة. خيم الصمت على المكان، ورغم محاولتي التماسك وإخفاء حالة الاضطراب والقلق الكبيرة التي أصابتني، إلا أن ملامحي التي تبدلت فورا كانت تشي بما يضطرب في أعماقي.

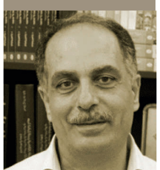
إذن حانت ساعة الامتحان الحقيقي، وعليّ أن أواجه الواقع الطارئ بشجاعة. كنت بحاجة لمعرفة تفاصيل أكثر عن عملية الاعتقال، كيف بدأت، من شملت حتى الآن، على الرغم من أنني كنت لا أعرف شيئا عن واقع التنظيم وأفراده، لذلك لم أعرف كيف يمكن أن أرتب أموري، وكيف أقيّم الوضع المستجد والطارئ؛ سارعت للقاء صديقي، الذي ما إن جلست قربه حتى بدأ يروي لي تفاصيل قصة اعتقال رفيقنا، والخديعة التي قام بها الأمن للإيقاع به، ثم عاد ليكرر لي عبارته التي نقلها لي أخي: عليك أن تتدبرك أمرك بسرعة. خرجت وأنا في حالة من التشتت والاضطراب، إذ كان عليّ أن اتخذ قراري السريع، قبل أن تكر سبحة الاعتقالات ومعها اعترافات المعتقلين.

حالات من الصراع الداخلي كانت تنتابني تتعلق بالخيارات، التي كان عليّ أن أحسم موقفي منها سريعا، فهل عليّ أن أتدبر أمر هروبي خارج البلد، أم ألجأ إلى التخفي ريثما تنجلي الأمور، وتتكشف طبيعة الاعتقالات وحدودها، والأشخاص الذين ستطالهم . ولما كنت أعاني من حساسية خاصة تجاه موضوع الهروب، أو اللجوء إلى أيّ بلد مجاور، فقد كان قراري هو التخفي وانتظار ما ستتكشف عنه الأيام القادمة. مضى اليوم الأول دون أن يحدث شيء، أو أن يظهر ما يدّل على أن تلك الأجهزة تبحث عني، مما أوحى لي بشيء من الطمأنينة، فقد كان الاتفاق مع الصديق المعتقل ألا يبوح بشيء يخصني، طالما أن علاقتي كانت محصورة به وحده. مضى اليوم الثاني، ولم يكن هناك ما يشي بأنهم يبحثون عني، ما دفعني إلى أن أقرر الذهاب، في اليوم التالي إلى مكان وحدتي العسكرية، للحصول على إجازة تبرر غيابي طوال المدة، التي عليّ أن اتخفى فيها، حتى أتأكد إذا ما كان صديقي قد استطاع تحمل التعذيب، ولم يبح باسمي.

في اليوم الثالث اتجهت منذ الصباح الباكر نحو كراج السيارات، التي ستقلني إلى مكان خدمتي. كانت شوارع دمشق كعادتها في مثل هذا الصباحات من كل يوم، زحام سيارات خانق من كل الأحجام والأنواع يملأ المكان، بينما انتشر عشرات الموظفين والموظفات والعمال وطلبة المدارس على الأرصفة المحيطة بالساحة، في انتظار وصول الحافلات التي ستقلهم إلى أماكن عملهم على أطراف المدينة، أو إلى مدارسهم . ضجيج ووجوه متعبة، نظرات كسولة أو حيادية



إسماعيل الرفاعي



تترقب، بينما كنت أنا بعينين مذعورتين أتطلع أمامي وحولي، خوفا من أن يباغتني أحد من عناصر الأمن الكامنين في زاوية ما من الشارع. اجتزت ساحة العباسيين دون أن ألحظ ما يثير الريبة، وعندما بلغت مكان السيارة، التي تقف بانتظار اكتمال عدد الركاب، وقفت وعدت أتطلع في كل الجهات من جديد، محاولا أن ألتقط أيّ إشارة أو حركة تثير الريبة.

صعدت إلى الحافلة ثم نزلت منها بعد قليل، لمعاودة فحص المكان من جديد. قلق وتوتر كنت أغالب نفسي في أن أخفيهما عن عيون المحيطين بي خوف افتضاح أمري. لم أجد ما يعزز مخاوفي، فحسمت أمري على إكمال رحلة السفر. بدأت الحافلة تستعد للإنطلاق فأسرعت في الصعود إليها. طوال الطريق كنت أسأل نفسي: هل ستكون هذه الرحلة، هي رحلة الوداع الأخيرة لكل شيء ألفته طوال أكثر من عامين.. الأمكنة، الناس، الرحلة اليومية المرهقة ذهابا وإيابا، والركض وراء حافلات الصباح في مدينة الزحام والركض والأزمات؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، ما الذي عليّ أن أفعله لمواجهة الواقع الجديد، لا سيما تجاه عائلة صديقي الذي وعدني بأن يحفظ سر علاقتي به ؟!.. أسئلة كثيرة كانت تلح عليّ، لكنني رغم ذلك لم أكن أعرف من أين كانت تنبع تلك الطمأنينة، التي كنت أشعر بها، وأنا أتأمل الوهاد الجرداء التي كانت تمتد على مدى بصري!

بعد مسير ما يقارب الساعة، فوجئت برتل طويل من السيارات، يتوقف على مقربة من مدخل مدينة النبك. لم أتوقع أن يكون هذا المشهد المثير كله من أجلي، فهل يحتاج اعتقال شخص مثلي لمثل هذه الحواجز، وتفتيش عشرات السيارات وحافلات النقل

الصغيرة والكبيرة، التي تعمل على خطوط المحافظات الوسطى والشمالية؟

لم يكن منظر الحاجز وفي هذا المكان بالذات غريبا بالنسبة إليّ حتى أرتاب بوجوده، فقداعتدنا على رؤيته خلال شهور خدمتي الطويلة في هذه المنطقة؛ كانت الحافلة تتقدم ببطء شديد، وعندما اقتربنا من مكان الحاجز الأمني، فوجئنا بأحد العناصر يصعد مسرعا إلى الحافلة، ويطلب منا إبراز الهويات الشخصية. عندما اقترب مني أخرجت هويتي بعفوية، وقدمتها له، تمعن فيها قليلا، ثم سألني هل لديك إجازة مبيت، قلت لا. قال: إذا تعال معي، فتبعته. لم أكد أضع قدمي على الأرض حتى أخذ يتحسس جسمي كله، بينما سارع عنصر آخر إلى تكبيل يدي. ما إن رآه ضابط الأمن يقودني باتجاهه حتى سأله هل تأكدت من اسمه، فإجابه نعم سيدي.

لم أحاول أن ألتفت خلفي لأرى ملامح وجوه زملائي، الذين كانوا معي في الحافلة. كنت منقادا بعفوية، كأن ثمة خطأ قد حدث في أمر اعتقالي. دفعوني باتجاه سيارة البيك آب، وهناك حشروني بين مجموعة من العناصر المسلحين، لينطلق الموكب بعدها نحو مقر المفرزة داخل مدينة النبك، وسط تهليل العناصر الذين كانوا بانتظار اعتقالي للحصول على إجازة رأس السنة. داخل مقرالمفرزة قام عناصر الأمن بنقلي من السيارة التي كنت بها، إلى سيارة رئيس المفرزة، التي انطلقت بنا بعدد قائق نحو دمشق. في الطريق أدركت مدى سذاجتي، إذ كيف أقاموا الحاجز لولا معرفتهم بأنني أتجه إلى هذا المكان، ما يعني أنهم كانوا يتبعونني منذ خروجي من البيت، الذي كنت أتخفى فيه، وحتى ركوب الحافلة. من حسن حظي أن الضابط الدمشقي المسؤول، الذي رافقني في الطريق إلى دمشق، لم يكن ميالا للعنف، أو لاستخدام الإجراءات المعتادة، ولذلك لم أتعرض للضرب أو لكلمة نابية، واكتفى بتكبيل يديّ من الأمام.

بعد نقلي من السيارة التي كانت تقلني عند اعتقالي إلى سيارة الضابط الخاصة، وجدت نفسي محشورا بين عنصرين ضخمين، ما أشعرني أنني أجلس بين صخرتين كبيرتين تكادان تطبقان عليّ، ولذلك لم أحاول أن أسرق ولو نظرة خاطفة إلى وجه أحدهما، كي لا أزيد من توتري. كان خوفي يتركز على الجهة الأمنية التي تمَّ اعتقالي لأجلها، فقد كان معروفا أن فرع المخابرات الجوية وفرعي فلسطين والمنطقة العسكريين هما مسالخ بشرية حقيقية، لذلك ما إن وصلت السيارة بنا إلى ساحة العباسية، وانعطفت بنا نحو اليمين باتجاه منطقة القصور حتى تنفست الصعداء. سارت الحافلة الصغيرة بنا بضع مئات من الأمتار حتى وجدتها تنعطف نحو اليمين في شارع فرعي صغير، فأدركت أنني مطلوب لصالح الفرع الداخلي التابع لإدارة المخابرات العامة. لا أدري لماذا خلق ذلك عندي شعورا بالارتياح؛ ربما كان ذلك بسبب الألفة الطويلة التي نشأت بيني وبين هذا المكان الذي أقطن فيه، منذ أكثر من سنتين، والذي كنت ألفته خلال سنوات دراستي، التي عشت فيها أول تجربة حب غيرت مسار حياتي.

كنت اعتقد أن وجودي قريبا من الشوارع التي كنت أعبرها كل يوم، وأعرف وجوه سكانها وأشجار شوارعها وبيوتها ، سوف يمنحني شعورا بالطمأنينة والألفة، يخفف من وطأة معاناتي وقسوة ما سأواجهه بعد قليل؟ لكن واقع الحال سيكشف لي بعد نزولي إلى جحيم العالم السفلي، كم كنت مخطئا وساذجا بسبب انعدام خبرتي بواقع الحال في سجون نظام القهر والاستبداد، حيث سأجد نفسي هناك خلف أبواب تنغلق على أبواب، وأدراج تنحدر بي نحو قاع عالم مرعب، لا يطل على شيء، ولا ترى منه شيئا سوى جدران عالية موحشة، وممرات ضيقة أشبه بالسراديب، وأبواب سوداء ثقيلة، تتراصف على طول الممرات، التي تملأ هذا القبو الراسي في قاع هذه البناء القديم، أشبه بسفينة غارقة منذ سنين طويلة، كنت عندما أمر قريبا منها كل يوم، أخشى مجرد الالتفات نحوها ولو خلسة، كما هو حال الآخرين.

طاحونة الزمن الثقيل

تمثل سنوات السجن الأولى، لا سيما السنة الأولى والثانية منها على وجه التحديد، أصعب وأقسى سنوات التجربة، ذلك أن السجين الذي فقد حريته وعائلته ومغريات الحياة، وبات محروما من كل حاجاته الإنسانية والروحية، أصبح مرغما على التكيف مع أوضاع السجن الشاقة وفقدانه لحريته، في ظل ظروف بالغة القسوة والامتهان والهدر لقيمة الإنسان أو كرامته. كنا هنا متروكين لأقدارنا الغاشمة، بما فيها الموت دون أيّ اهتمام أو اكتراث، وهو ما واجهه أكثر من سجين، ترك دون رعاية صحية حتى الموت. قسوة البدايات الأولى تكمن في صعوبة الاحتمال والتكيف مع هذه الأوضاع والممارسات الصعبة، خاصة عندما يجد السجين نفسه مرغما على التكيف مع حياة جماعية، مفروضة عليه مع عشرات السجناء، الذين يمثلون مشارب وأمزجة وانتماءات وأنماطا متباينة من الوعي والسلوك، الأمر الذي يجعل الزمن داخل السجن، يحمل معنى مغايرا بصورة مختلفة كليا للزمن، الذي كنا أَلِفنا إيقاعه وخبرناه فيما مضى. هنا كل شيء مفروض عليك، حتى الحركة داخل هذه المساحة الضيقة، أو لدخول الحمام الذي كان يحتاج إلى انتظار مجيء دورك، قد يطول أكثر من ساعة. واقع شاق وحياة مرهونة بعسفها.

”بعد نقلي من السيارة التي كانت تقلني عند اعتقالي إلى سيارة الضابط الخاصة، وجدت نفسي محشورا بين عنصرين ضخمين، ما أشعرني أنني أجلس بين صخرتين كبيرتين“

***

للزمن هنا ثمة إيقاع ثقيل لزج ومدمر، إنه أشبه بطاحونة تلوك أعمارنا، دون أن نكون قادرين على إيقاف دورانها المرعب، وسط

هذا الفراغ المرّوع لحيوات مستلبة ومقموعة، ومحكومة بمشيئة قوة غاشمة وعدوانية، تسومها صنوف القهر والإذلال. لقد كان محكوما علينا أن نعبر تلك السنوات الطويلة، من السجن بأرواح ممزقة وعارية، وحياة منتهكة، ونفوس تختنق بالألم والعذاب والقهر والسأم، ووسط تلك الحالة المريعة من الموات التي كان الزمن فيها أشبه ببحيرة راكدة لا ضفاف لها، كان من الطبيعي أن تزداد وتتراكم معها ترسبات النفس الإنسانية، التي بدت بلا أمل مفترض، أو رجاء في خلاص قريب، ما زاد من وطأة الحالة النفسية الصعبة واحتقانها، عند سجناء مضت سنوات على سجنهم، دون أن يسمح لهم بالتواصل مع أهلهم، أو معرفة مصيرهم.

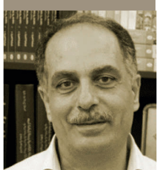
لقد تجلت مظاهر هذا الوضع المأزوم في حالات التوتر الدائم والقلق، والمشاحنات، التي كانت تنشأ عادة بين السجناء لأبسط الأمور وأتفهها. لذلك عندما كانت تستقر النفوس وتهدأ حالة الغضب، كان ينتاب السجين حالة من الندم والشعور بالأسف على ردود الأفعال الغريبة التي ظهرت منه، والتي لا يمكن أن تتناسب مع مستوى المشكلة أو حالة الخلاف. في ظل هذا التراكم المخيف لحالات الإحباط واليأس والقهر، أصبح الموت بوصفه خلاصا مطلبا مفترضا عند العديد من السجناء. لقد كنّا نعيش في عالم ذكوري مغلق ومعزول، تتماثل أيامه وتتناسخ صوره بشكل طاحن، وصولا إلى أقصى درجات السأم والشعور بالعدمية. أمام هذه الحالة المروعة من الضغط النفسي كانت محاولة الهروب الدائمة عند السجين، تتجلى في أشكال الاستيهام وأحلام اليقظة، أو الهروب إلى الذكريات القديمة الدافئة، لا سيما منها تلك الذكريات الحميمة، التي كانت بمثابة حالة تعويض عن الحرمان، أو بحث عن خلاص ما من ربقة الشعور القاتل بالزمن.

***

تصبح حركة الزمن مع الوقت أشبه بحركة بندول الساعة المضبوط، فالأيام بنهاراتها ولياليها تتناسخ وتكرر بعضها البعض. كنّا نصحو صباحا فيبدأ نهارنا مع وجبة الفطور البائسة أو مع مشاجرة بين سجنين بسبب الخلاف على المكان أثناء النوم، أو على صراخ سجين معاقب لأنهم وجدوه يحاول الذهاب ليلا إلى الحمام أثناء مداهماتهم أو لأنّ نظرته إلى السجان لم تعجبهم. عندالظهيرة هناك وجبة الغداء التي لا تتبدل، رز أو برغل مع مرق باذنجان أو زهرة ثلاث. وفي المساء يكون العشاء حبتي أوثلاث حبات من البطاطا المسلوقة، أو شوربة عدس. من خلال هذه الوجبات الثلاث كنا نعرف بداية اليوم ونهايته، وعلى أساسها كنا نضبط إيقاع حياتنا. النافذة الصغيرة في أعلى الجدار الخلفي للمهجع، كانت هي صلتنا الوحيدة مع العالم والنور والظلام، ومن خلالها كانت تأتينا أحيانا أصوات أهالي سجناء القسم العلوي المزارين، بسبب قربها من باحة السجن.

مع هذه الدوامة التي تمثلها حركة الزمن، تتخذ علاقة السجين معه طابع الصراع بين إرادة بشرية لها حدودها واستطاعتها، وتؤثر فيها عوامل عديدة، وبين الزمن بمعناه المجرد الحيادي، الذي لا تستطيع أن توقف حركته، أو أن تلغي آثاره العميقة التي تتركها حركة السنوات داخل النفوس أوعلى الأجساد، لذلك لا تجد من مناص في هذه العلاقة المختلة إلا أن تبحث عن معين أو وسيلة ما، يمكنها أن تعزز قدرتك على التوازن والتماسك، وأنت ترى أجمل سنوات عمرك، وأكثرها حيوية وإبداعا، يجري اغتيالها داخل هذه الجدران العالقة بروحك، كأنها قدر عات لا تستطيع له ردا. في أحد الشتاءات الباردة سمحوا لنا بتغطية تلك النافذة الصغيرة الموجودة في أعلى الجدار الخلفي للمهجع بقطعة نايلون، فكان على أحدنا أن يصعد إلى سطح حمّام المهجع، لكي يتمكن من تثبيتها. بدأ عدد من السجناء بالتدافع من أجل الفوز بالصعود، ومن حسن حظي أني كنت واحدا من اثنين، تم اختيارهما لهذه المهمة. ما إن صعدنا ونظرنا من تلك النافذة باتجاه دمشق، حتى أصابني الاضطراب والتوتر. بعد ثلاث سنوات من الغياب، هأنا أطل على عالم آخر، كدت فيها أن أنسى ملامحه وإيقاعه وطعمه وتفاصيله، إنه عالم دمشق التي أدمنت عشقها، والتسكع في حواريها وساحاتها وأحيائها القديمة. دمشق التي أصبحنا غرباءها، وضحايا لصوصها ومغتصبيها. كانت البنايات الجديدة لحي المزة- جبل قد بدأت تتسلق سفح الجبل، ومن هناك كانت تلوح لنا شرفات ونوافذ طوابقها العلوية الموصدة. كنا نتمنى لو أن نافذة تفتح هناك، ويطل منها وجه أيّ وجه… لو أن أحدا يجلس في شرفته، كي نلقي عليه سلامنا، ولو لم يكن قادرا على أن يرانا ويرد علينا السلام، لكن كل شيء كان ساكنا هناك وموصدا تماما. بعض صخب بعيد لعربات تعبر الطرقات، كان يأتينا، ويذكّرنا بالحياة التي كانت تتحرك هناك، في الشوارع الخلفية لتلك الأبنية العالية، التي كانت تدير ظهرها للجبل، وما تخفيه تلك القلعة الرمادية الجاثمة في أعلاه، من أسرار وآلام وعذابات لسجناء، قادهم نداء الحرية إلى وراء أسوارها العالية. كان الجبل قد احتله شبيحة سرايا رفعت الأسد، الذين أصبحوا كالطاعون الذي يتهدد سكان المنطقة كلها. أيام مضت ونحن نروي بلوعة ما شاهدناه، ونحاول معه أن نتخيل ما يمكن أن تكون عليه الحياة خلال تلك السنوات، من الغياب الذي كنا نظنها دهرا، بسبب طول الأيام

”للزمن هنا ثمة إيقاع ثقيل لزج ومدمر، إنه أشبه بطاحونة تلوك أعمارنا، دون أن نكون قادرين على إيقاف دورانها المرعب، وسط هذا الفراغ المرّوع لحيوات مستلبة ومقموعة“



وقسوة المعاناة. بعد السنة الأولى من السجن يفقد السجين الاهتمام بالزمن، ويتوقف عن حسابه، كأنه غير موجود أصلا. يضيع السجين في متاهة الأيام وسط عالم من الرعب والضغط النفسي الكثيف والتوتر، يجعله ينسى شيئا فشيئا تلك الحياة التي انتزعوها منه. عند دخولنا إلى السجن يقومون بتجريدنا أولا من ساعة اليد، ومن كل شيء نملكه، كأنهم بذلك يريدون أن نتجرد من كل شيء له علاقة بالزمن والحياة، التي كنا نحياها، أو يحياها أيّ كائن بشري بسيط، ليقولوا لنا سوف نجعل منكم كائنات أخرى فانتظروا.

داخل هذا الصندوق الحجري الرهيب، الذي ينغلق علينا لسنوات وسنوات، نتحول معه إلى كائنات آخرى تعيش خارج المكان والزمان، حيث الأيام تجتر بعضها البعض، ويصبح كل ما يربطنا بالعالم الخارجي والحياة، التي فقدنا أيّ اتصال معها، هو تلك الأحاديث والأخبار الجديدة، التي يمكن أن يزوِّدك بها معتقل جديد قادم. الشيء الوحيد الذي كان يحررنا من ربقة الزمن وكابوس الواقع الذي نحياه، هو الخيال الذي كان يطير بنا بأجنحته بعيدا، خارج هذه الأسوار العالية مع الذكريات القديمة، التي كنا نلوذ بها بحثا عن دفء غارب في أغوار الروح، أو نبض حياة، أو لمسة حب لجسد أنثى، حتى بدا شعورنا بأبسط ذكرياتنا وسط حالة الحرمان والموات الروحي والعاطفي أكثر جمالا وفتنة من أيّ وقت آخر.

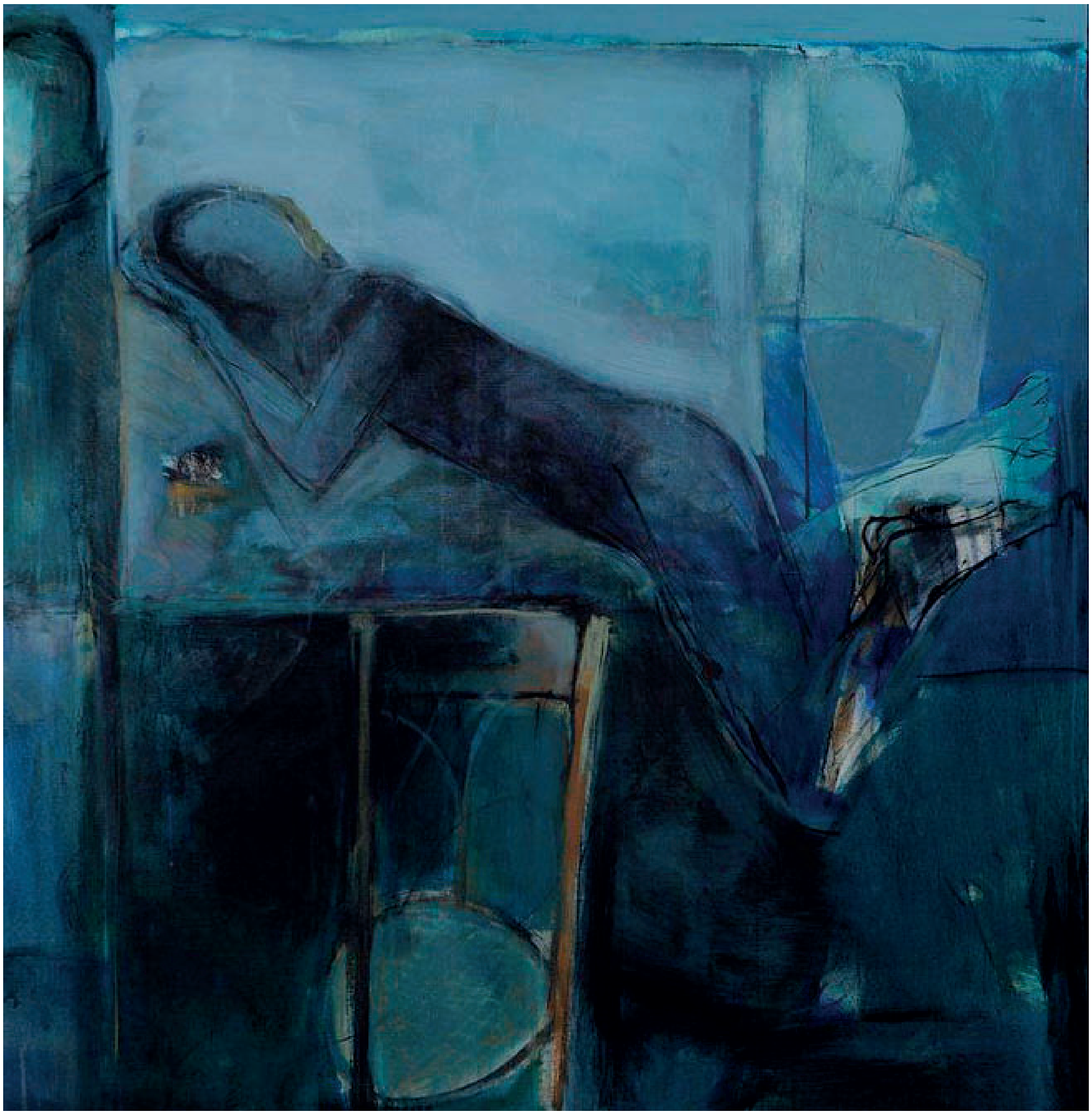
***

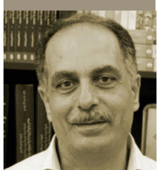
كل شيء هنا يتضخم بفعل الشعور بالفقد والحاجة القوية لأشباع رغباتنا وحاجاتنا الإنسانية، وسط دوامة الزمن المرعبة. مع تقادم السنين كان الزمن يحفر على أجسادنا آثار عبوره، التي بدأت تظهر واضحة على كائنات هذا العالم السريّ، وهي ترى مصائرها الشاقة في مهب ممارسات سلطة الاستبداد والقمع، سواء من حيث الأمراض المزمنة التي أصابت العديد من السجناء، كأمراض القلب والسرطان التي أودت بحياة العديد منهم، بعد شهور قليلة من خروجهم من السجن، أو قبل خروجهم منه، أو من حيث العلامات الفارقة التي كانت ترسم صورة لعذاباتنا، مثل الشحوب والتجاعيد والشيب، الذي أخذ يغزو شعر الرأس بسرعة عجيبة، إلى جانب تساقط المزيد من شعر الرأس واتساع مساحات التصحر فيه، أو محاولات الانتحار المحدودة التي قام بها البعض لوضع حد لهذه المعاناة، التي بدت وكأن لا أفق لنهاياتها. لكن الغريب أن تلك التبدلات والتغيرات التي كانت تطرأ علينا، لم نكن نحس بفداحتها مثل الأهل، نظرا لأننا جميعا كنا نشترك فيها، وإن كان حجم التمايزات فيها بين سجين وآخر، يخضع للنسبية والتفاوت في الأعمار، أو بين شخص وآخر. كان الزمن طويلا وطويلا جدا أشبه بصحراء أخذت تزحف رويدا رويدا داخل مساحات أعمارنا وأجسادنا وأرواحنا، ولذلك كان من الطبيعي أن ينعكس كل ذلك على مزاج السجين وقابلياته وردود أفعاله وسلوكه، خاصة أن أغلب السجناء كانوا من جيل الشباب الذين وجدوا أجمل سنوات أعمارهم، وأكثرها عطاء وحماسا، تتهدم أمام أعينهم دون أن يكونوا قادرين على فعل شيء، لوقف مسلسل الانهيار المتواصل لها، ثمنا لموقف معارض اتخذوه ضد سلطة جائرة ومستبدة، كانت ترى فيه تحديا كبيرا لسلطتها المتورمة، وأناها المريضة بجنون العظمة.

هكذا كان الزمن دوامة لا تتوقف عن الدوران، فكنا أشبه ببحارة غرقى يحاولون التجديف، في بحر عاصف، ودون أن يلمحوا نهاية ما، أو أن يأتيهم طائر ما يحمل في منقاره غصن الحياة الأخضر، الذي يحيي الأمل بالخلاص. لكنّه رغم كل هذه المكابدة العسيرة والقهر، لم نكن عاجزين عن إيجاد مساحات للفرح، كانت إرادة الحياة تنتصر فينا على إرادة القهر والموت، ففي مناسبات أعياد رأس السنة كنا نتوزع ونطلب ممن يكون موعد زيارته متوافقا مع تلك الفترة، أن يحضر أهلهم معهم ما كنا نحتاجه من موادغذائية وفواكه ومتطلبات أخرى، لكي يكون الاحتفال حقيقيا. كذلك كنا نقوم بدعوة عدد من الأصدقاء من المهاجع الأخرى لمشاركتنا الاحتفال، إذ كانت إدارة السجن تتساهل في هذا الأمر، وفي اليوم المحدد يبدأ توزيع المهام الخاصة لإعداد الطعام والتبولة والمقبلات، وغسل الفاكهة وإعداد الصحون وتوزيعها على أفراد المهجع. كانت سهرتنا التي تمتد حتى ساعات الصباح الأولى أو ما بعدها، حافلة بالغناء الذي يرافقه عزف على العود من قبل عازفين كانوا يمتلكون أصواتا جميلة.

هذه المحطات القليلة من الفرح سرعان ما كانت تختفي وسط حالة السأم والفراغ التي كنا نغرق فيها، لذلك كان لا بدَّ من البحث عن طرق مفيدة للتغلب عليها. بعض السجناء دواموا على تعلم اللغة الإنجليزية ، أو تطوير معرفتهم الكبيرة بها، استفاد منها عدد من السجناء عند خروجهم من السجن في أعمال الترجمة، التي امتهنوها، في حين داوم البعض الآخر على دورات تعلم قواعد اللغة العربية، إضافة إلى ممارسة بعض الهوايات مثل الرياضة وتعلم العزف على آلة العود، بعد أن استطاع بعض السجناء صناعة أكثر من آلة عود من خشب صناديق الخضار، التي كانوا يستولون عليها عند مجيء فاتورة الخضرة. أما أنا الذي لم أكمل دورة التعلم على آلة العود، فبعد سنوات طويلة من الانقطاع عن متابعة الرسم، قررت العودة إلى مواصلة تجربتي مع الرسم الزيتي، بعد أن أحضر لي الأهل ما طلبته منهم من أدوات وألوان وقماش. استفدت كما هو حال أكثر من سجين من تقلص عدد السجناء بعد خروج الدفعة الكبيرة منهم، في بداية التسعينات، ما سمح لي بأن أحجز مكانا خاصا بي لممارسة تلك الهواية، بالتعاون مع صديق لي من الفنانين الهواة، كان محكوما بالسجن المؤبد، وجد في هذا العمل شبه اليومي معي فسحة لنسيان معاناته وظروفه الخاصة. كان عملنا المشترك بمثابة تحريض لكلينا على الرسم يوميا، حيث كنا نقدم تلك الأعمال التي

داخل هذا الصندوق الحجري الرهيب، الذي ينغلق علينا لسنوات وسنوات، نتحول معه إلى كائنات آخرى تعيش خارج المكان والزمان، حيث الأيام تجتر بعضها البعض


إسماعيل الرفاعي



ننجزها هدية للأهل أثناء زياراتهم لنا. لقد أعادتني تجربة السجن، لا سيما بعد فتح الزيارات وانتشار صناعة الأعمال اليدوية من قبل السجناء، كاللوحات النحاسية، أو المصنوعات من نوى الزيتون أو التمر أو الخشب المحفور، إلى تجديد علاقتي بالخط العربي، ولما كنت الوحيد الذي يجيد كتابة عدة أنواع من هذا الخط، فقد أصبحت الخطاط الرسمي للجناح، ويمكنني القول إنه ما من عمل قدمه سجناء جناحي إلى أهلهم، وفي مقدمتهم السجناء اللبنانيون، الذين كنت ارتبط معهم بعلاقات خاصة، بسبب ظروف اعتقالهم، لم أخط عليه عبارة أو أكثر، إن لم يكن رسمه وتلوينه.

***

مع هذا الوقت الفائض عن الحاجة حاولت أن أعوض نقص إطلاعي على كتب التراث، فبدأت أنكب على قراءة الكثير منها، خاصة أنها كانت الكتب الأكثر توفرا في مكتبة السجن، والأقل قراءة من قبل السجناء. أثناء هذه القراءات وجدت أن اسماء الأعضاء الجنسية عند الرجل والمرأة وأنواع الجماع، هي من أكثر الأسماء استخداما، وأهمها من حيث التفصيل الدقيق في تسمية أجزائها، ما يدل على ولع العرب والثقافة العربية بهذا الموضوع وفي التفصيل فيه. حرَّضني هذا الأمر على القيام بتسجيلها في دفتر خاص في محاولة لإحصاء عددها، ومعرفة الأسباب التي كانت تدفع باللغويين العرب القدماء لهذه التفصيلات الواسعة والمثيرة، حتى أصبحت من أكثر الأسماء شيوعا وتعددا في معاجم اللغة وكتب الأدب والتراث. بعد أسابيع قليلة على هذا الجهد المتواصل، تساءلت لماذا لا أعد معجما خاصا بها، يؤمّن

للدارس مرجعا مهما، يستعين به في أيّ بحث في هذا الميدان، أو يمكن أن يدفعه للبحث في أسبابه ودوافعه ودلالاته النفسية والثقافية. عملت طوال شهور على فرز تلك الكلمات وتصنيفها وفقا لترتيب حروف الهجاء، لكنني بعد أن انتهيت من ذلك، قمت بتمزيق هذا المخطوط، خوفا من أن يقال إنني صرفت سنوات من سجني في إنجاز مثل هذا الكتاب، الذي لن يجد ناشرا له. لكنني على خلاف ما اعتقدت، فوجئت عند خروجي من السجن بوجود أكثر من معجم جنسي مؤلف في واجهات معارض الكتب، أو في مكتبات عدد من أصدقائي، فندمت عندها على ذلك الجهد الضائع الذي بددته في لحظة يأس عابرة.

***

لقد علمتنا تجربة السجن وما بعدها أن القراءة هي بنت المكان والزمان، ذلك لأن مزاج الإنسان وطبيعة اهتماماته وإحساسه بالجمال، تختلف باختلاف طبيعة التجربة، التي يعيشها هذا الإنسان، أو لنقل باختلاف المكان والزمان، ما يجعل طبيعة التذوق الجمالي والتلقي والقراءة تختلف باختلاف هذين العاملين. هذه النتيجة التي خبرناها عمليا، توصلنا إليها من خلال قراءاتنا داخل السجن وخارجه، فما كنا نتذوقه ونجده مثيرا للدهشة والإعجاب داخل السجن، تكشف لنا أنه عكس ذلك خارج السجن، نظرا لاختلاف طبيعة المزاج والظروف التي يعيشها الإنسان. هذه الحقيقة لم تكن وليدة قراءات نظرية، بل تعلمناها من التجربة المعاشاة. إن ما كنا نظنه عملا أدبيا عظيما، أو العكس أثناء قراءتنا له في السجن، اكتشفنا عكسه، عندما عدنا لقراءته مرة أخرى بعد خروجنا من السجن. في هذا السياق أتذكر قصتي مع ديوان محمود درويش «ورد أقل» فقد كانت قراءتي له في السجن مخيبة لأملي، لكنني عندما أعدت قراءته بعد سنوات من خروجي من السجن، وأثناء اشتغالي النقدي على دراسة المرجعيات التناصية في شعره، وجدت كم كان انطباعي عنه خاطئا وغريبا، فهو ديوان يضيف إلى رصيد الشاعر الكثير، ويمتلك قيمته الجمالية والفنية الخاصة، في سياق تلك التجربة الغنية والمتجددة للشاعر على مدى عقود طويلة من الزمن. هذا المثال لا يختلف عما حصل معنا في قراءتنا الأخرى.

سجناء الأبد

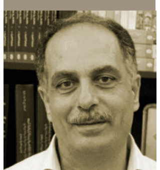
يا الله كم تتشابه الأيام هنا، وفي هذا المكان الذي تغدو فيه تجربة السجن تجربة مركبة ومتداخلة، من حيث الدلالات والأبعاد النفسية والمادية، أو جدل الذات مع ذاتها، وجدلها مع العالم الذي الذي تضيق به، ويضيق بها. أنت هنا سجين هذا المكان المسوَّر والمعزول عن العالم، وفي أعماقك الحزينة هناك رغبات وحاجات سجينة جسدك المسجون. فكرة الحرية ووطن العدل والكرامة التي أغوتك، ها أنت سجينها، وهي سجينة فيك داخلك ومعك وإلى جوارك، وهي هنا كما هي هناك يكبر سجنها ويصغر على مساحة وطن تعددت أشكال سجنه وحدودها. لا شيء يكسر إيقاع ما نحن فيه من رتابة وسأم وملل وأسى. الحدث المفاجئ والمؤثر الذي يمكن أن يكسر حلقة الزمن المفرغة، مجيء مجموعة من السجناء، أو سجين ما، أو موت أحدنا بالسكتة القلبية. إزاء هذا الواقع كان البعض لا يستطيع مواجهة هكذا حالات، فينهار أمامها ليبدأ مشهد مأساوي آخر. كان الوقت مساء والجميع داخل مهاجعهم، فجأة بدأ الطرق العنيف على أبواب أحد المهاجع القريبة من مهجعنا، مترافقا مع نداءات جماعية ملحة، تطلب من حارس الجناح المناوب الإسراع في إحضار الطبيب، لأن هناك حالة طارئة. رغم أننا اعتدنا على هذه الحالة مع كثرة الأمراض، إلا أن الطرق هذه المرة كان قويا ومتواصلا ما يعني أن الحالة الإسعافية خطيرة جدا. وهي حالة اعتاد عليها السجناء، عندما يصاب سجين ما بمرض شديد، يحتاج معه إلى الإسعاف السريع. بسرعة البرق انتشر الخبر عبر الفتحات السفلية للمهاجع، التي كان السجناء يتواصلون مع بعضهم البعض عن طريقها، أن السجين القديم، ومريض القلب الذي اعتدنا على رؤيته في المهجع التاسع ممددا على فراشه، بصورة دائمة، قد دخل في حالة احتضار. وصل الطبيب متأخرا، ليجده قد فارق الحياة. فور انتشار الخبر بين المهاجع سيطرت حالة من الرعب والشعور بالاختناق بين السجناء اللبنانيين في المهجع الرابع، إذ لم يكونوا قد اعتادوا بعد على معايشة حالة كهذه، ما أدى إلى سقوط أحدهم مغمى عليه بعد سماعه الخبر. على الأثر ساد شعور بالهلع بين بقية زملائه من السجناء الآخرين، فبدأ الطرق العنيف على الأبواب الحديدية من قبل بعضهم، وسرعان ما شاركهم في ذلك سجناء المهاجع الأخرى، الأمر الذي استدعى تدخلا سريعا من قبل حراس السجن، الذين هرعوا مذعورين. عندما عرفوا بوجود حالات إغماء بدأوا على الفور بفتح أبواب المهاجع العشرة دفعة واحدة، لكي نخرج إلى ممر الجناح، بعد أن قاموا بإغلاق الباب الحديدي الخارجي. كان العديد من السجناء في حالة بكاء شديد أو إحباط ووجوم بعد أن أخرجوا جثة السجين المتوفى، وذهبوا بها إلى مشفى التل العسكري. صار كل واحد منهم يتخيل نهايته المأساوية، التي يبدو أن النظام قد اختارها لهم «سجناء إلى الأبد» مقابل شعاره المعروف «الأسد إلى الأبد». بعد ذلك تكررت حالات الموت، لكن السجناء اعتادوا عليها مع مرور الزمن، الذي أخذ يتراكم سنوات فوق سنوات، دون أن يحدث شيء يبدل هذا الوضع المأزوم والخانق لحياة ظلت تنوس بين اليأس والأمل.

> **هذا الإصرار على المشي يوميا لساعات، لم يكن سببه محبتي القديمة لهذه الرياضة وحسب، إنما رغبتي في أن لا أستسلم لسطوة الزمن وما يولده من إحساس قاتل باليأس**

في سجن المزه، كما هو الحال في سجون النظام الأخرى، أخذت الأمراض تزداد بين السجناء، وكان نصيبي في البداية التهاب حاد في القولون، وهو المرض الذي كان أكثر انتشارا في السجن نتيجة الأوضاع النفسية للسجين. مع طول مدة السجن ظهرت أعراض فقر الدم الشديد، والهبوط



إسماعيل الرفاعي



الحاد في ضغط الدّم، حتى إن طبيب السجن (الذي كان واحدا من سجناء جناحنا) استغرب بعد أن قام بقياس ضغطي لأول مرة بعد شرائنا لهذا الجهاز كيف أني ما أزال قادرا على الحركة، مع مستوى الهبوط الشديد لضغط الدم عندي.

مع الأيام أصبح سقوطي عندما أحاول الوقوف أمرا معتادا، ورغم ذلك لم أتوقف عن الحركة، ورياضة المشي بصورة يوميا أثناء ساعات التنفس الصباحية، وفي المساء. كانت تلك الرياضة تمنحني حيوية أحتاج إليها، فقد كانت وسيلتنا الوحيدة لتفريغ انفعالاتنا من جهة، ومن جهة ثانية للتغلب على الوقت، وما يمكن أن يولده من شعور بالسأم والفراغ والبلادة. لقد كانت المتاح الوحيد أمامنا لاستعادة شيء من حيويتنا ونشاطنا وسط عالم مغلق على أقدارنا.

هذا الإصرار على المشي يوميا لساعات، لم يكن سببه محبتي القديمة لهذه الرياضة وحسب، إنما رغبتي في أن لا أستسلم لسطوة الزمن وما يولده من إحساس قاتل باليأس. هذه الرغبة في تجديد حيويتي، هي ما كان يدفعني عند خروجي من السجن إلى الانخراط السريع في الحياة، والتفاعل الإيجابي معها، على عكس بعض الزملاء الذين فشلوا في ذلك، عندما لم يستطيعوا أن يتكيّفوا حتى مع أسرهم، فانعزلوا في غرف خاصة بهم، كأنهم ما زالوا في سجنهم القديم. هكذا أضاع الطاغية أعمار الآلاف من السوريين الشباب، وأعدم آلافا أخرى على مذبح شهوته المسعورة للسلطة والاستبداد، ولم يكن وريثه أقل إجراما وعنفا ووفاء منه لهذه المسيرة الدموية المتفردة في إجرامها، والتي ستترك سوريا وشعبها في مهب عواصف الأطماع الإقليمية والدولية بها، بعد أن رهنها ورهن سلطته معها لمن يبقيه في الحكم، ولو كان على حساب خراب سوريا كلها، وهلاك بشرها في أكبر مأساة عرفها التاريخ، عقابا لهم على خروجهم للمطالبة بالحرية والكرامة والخلاص من الاستعباد والذل ■

كاتب من سوريا مقيم في برلين

التحقيق

يوميات سورية

راتب شعبو

في مساء ذلك اليوم والأيام القليلة التالية كنت الابن المدلل لفرع التحقيق. فقد خصّني بكل اهتمامه ودلاله. وقفت في المساء أمام ضابط أراه للمرة الأولى، واضح أنه أكبر سناً وأعلى رتبة وخبرة من الضابط الذي قابلني في الكركون. رجل هادئ متهكّم، يخاطبني طوال الوقت بلقب "دكتور" بنبرة يتلطّى فيها الهزل في ثنايا الجد. عرفت فيما بعد أن هذا الرجل هو ضابط برتبة رائد، وكان مساعداً في الفرع ثم درس الحقوق وتطوّع في الشرطة وعاد ضابطاً إلى الفرع نفسه. خبرته واضحة. لم يبدأ معي أيّ حديث يتعلق مباشرة بتحقيقي. بدأ بالتعبير عن تأثّره لعذاب الأمهات على غياب أبنائهن، وهو يقصدنا نحن الأبناء الذين يملؤون الزنازين في الداخل. وقال إنه يغيب عن أمّه عشرة أيام وحين يزورها تحضنه وتبوسه وتعدّ له البامية التي يحبها، رغم أنها مطمئنة عليه وتعرف أنه في عمله، فكيف حال الأمّ التي لا تعرف أين ابنها ولا تعرف ما مصيره؟ يتكلم كأنه في سهرة وليس في جلسة تحقيق. هذه الطريقة ناجحة، جعلتني بالفعل أقلّ حذراً. غلبتني طبيعتي العفوية. طلب لي كأساً من الشاي، ثم أشار إلى صورة كبيرة لرئيس الدولة حينها (حافظ الأسد) معلقة على حائط المكتب، وقال وهو يبتسم ألا تراه كالشمس. سكتّ. فضحك ضحكة قصيرة ثم دخل إلى مواضيع شخصية عن الحب والعلاقات المنفتحة بين الشباب والبنات في الجامعة وسأل عرضاً: ألا توجد صبية ما يتقطع قلبها عليك وأنت معتقل الآن. قلت لا، قال مبتسماً إذن أنت تتفرغ للقضية، مع أنك ناجح في جميع موادك الجامعية، كيف تستطيع التوفيق بين الأمرين بسهولة. هذا النوع من التحقيق يشبه الإنزال ما وراء خطوط القتال، تصبح العناصر المعادية خلف ووسط العناصر الموالية. طريقة هذا المحقق هكذا، هي لا تقتحم خطوط التماس بل تقفز فوقها، لا تواجه بل تتسلل، لا يسألك هذا المحقق مباشرة هل لديك نشاط سياسي ما، بل يفترض أن هذا قائم ويتعامل مع نتائجه المفترضة. ويتثبّت من افتراضاته حسب الإجابات. طريقة ذكية وهادئة، غير أن كل هذا "التكتيك" تغيّر ما إن تلقّى المحقق مكالمة هاتفيه أنهاها بعبارة "حاضر سيدي!".

تغيرت هيئة المحقق ونظر إليّ بطريقة جديدة أقل ألفة، وقال: لا أريد أن أتركك لهؤلاء الحمير كي يضربوك ويهينوك، أنت لا زلت بكرامتك إلى الآن، ولكن ما أن تمتد يد عليك حتى تتبهدل ولا يمكن أن تستعيد وضعك الحالي بعد ذلك، أنت الآن بلباسك وتجلس أمامي على الكنبة، أما إذا استلمك هؤلاء فمعناه أن تضرب وتجلس على الأرض بالكيلوت وتهان. أريد منك أن تخبرني كل شيء (هذه الكل شيء المعرّفة والمغرقة في الإبهام في الوقت نفسه!) كي أساعدك. ثم السيناريو المكرور: أوراق وقلم، اكتب كل شيء. ولكن ماذا يعني كل شيء؟ يعني كلّ ما تعرفه منذ ولادتك حتى الآن، اسم الأم والأب والأخوة والأعمام والعمات والخالات والأخوال وأين درست ومن تعرف وما هو نشاطك السياسي ومتى تنظّمت ومن نظّمك ومن هم أعضاء التنظيم ومن هم القياديون وأين تجتمعون وأين المطبعة.. كل شيء، كل شيء، يعني كل شيء! تكتب، ثم: أكل ما تعرفه لا يتجاوز نصف صفحة؟ اكتب من جديد! تكتب، ثم: تملأ الورقة بمعلومات فاضية لا قيمة لها، أنت تعرف ماذا نريد، اكتب من جديد.. كل شيء يسير بك نحو الهاوية الأكيدة، قطار وضع على سكة تنتهي بهاوية تفتح فمها بلهفة. السيناريو المحفوظ والمكرر نفسه: يمسك الرائد الورقة التي كتبتها للمرة الرابعة أو الخامسة ويمزقها ويقول بضيق إنه حاول أن يساعدني ولكنّي أنا لا أساعد نفسي. هذا الكلام هو بسملة البدء بالتعذيب. سبحان من حللك للتعذيب!

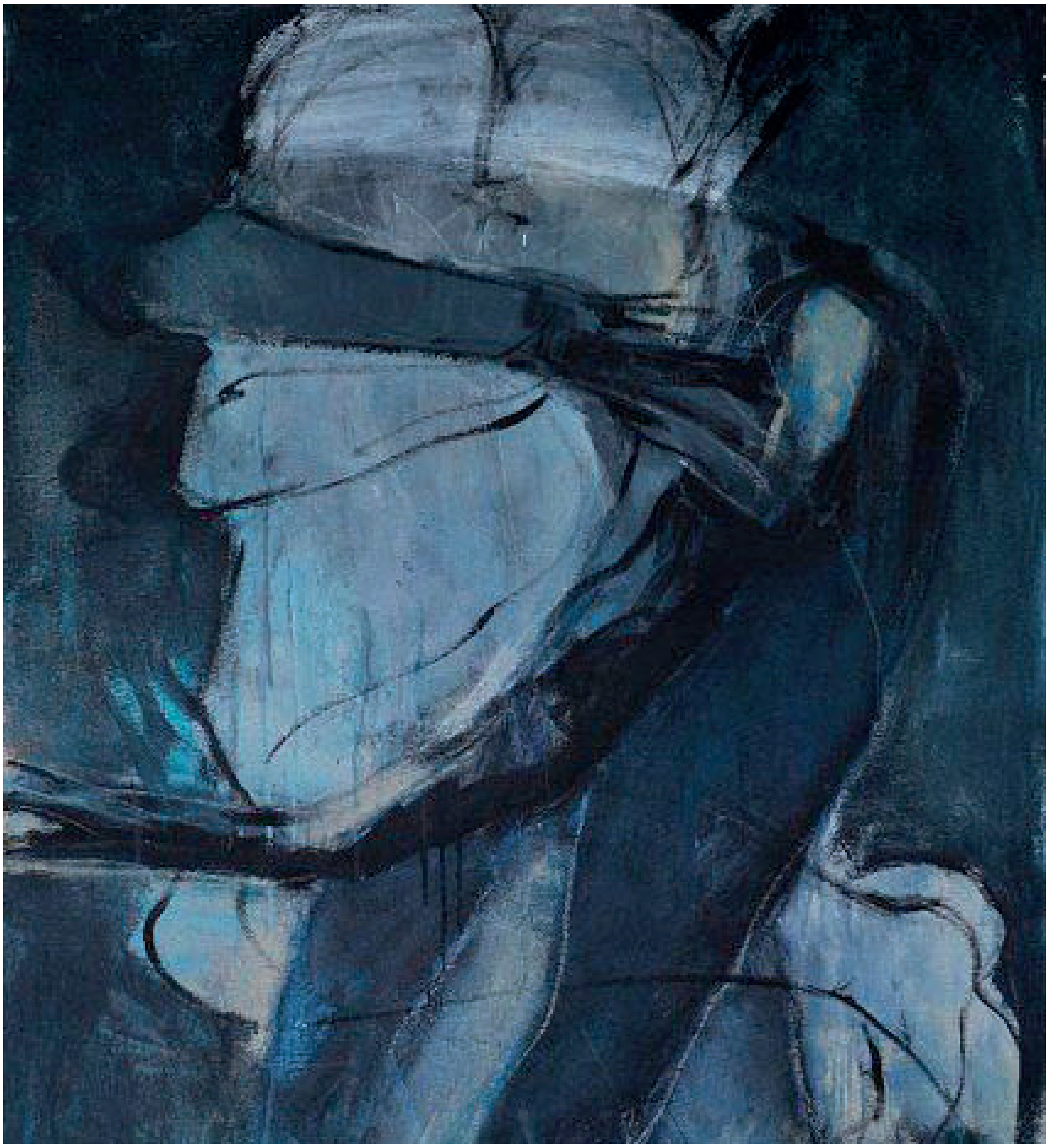
- اشلح تيابك وخليك بالكيلوت!

لكن لا أدري ماذا دار في خلد أحد عناصر الجلد حتى يشرح لي من باب لزوم ما لا يلزم قائلاً "يعني خليك بالكلسون". لفظة الكيلوت أخف وطأة من لفظة الكلسون، أقل سوقية وأقل إيحاء. ربما أراد هذا العنصر أن يعطي أمر الشلح شحنته الكاملة. الرائد يغيب عن المشهد، وقد قال لاحقاً إنه لا يحب أن يراني بهذا المنظر (الحق أن هذا الرائد لا يميل إلى العنف، وهو لم يمد يده بالضرب عليّ أو على أيّ ممن حقق معهم من مجموعتنا على الأقل، بقية الضباط، بمن فيهم رئيس الفرع، لا يروي غليلهم ضرب عناصر الجلد فيضربون بأيديهم. ربما لو كان الأمر للرائد لاتبع التحقيق سبيلاً أقل عنفاً).

- انزل بالدولاب ولا!

حتى تلك اللحظة ورغم كثرة ما سمعت قبل ذلك عن الدولاب كوسيلة تعذيب لم أستطع تخيل كيفية استخدام الدولاب في الجلد. كنت أتخيل أن المجلود يستلقي على ظهره ويمررون رجليه من الدولاب ثم يقيدون قدميه معاً بحبل ويبدؤون الجلد. ولكن هذا التصور لا يفسر الحاجة إلى الدولاب في الأساس. وقفت حائراً. حمل أحد الجلادين الدولاب وتقدم منّي ثم أنزله من رأسي ليستقر على كتفي وطلب مني أن أنزل الدولاب إلى تحت إبطي وأن أمسكه بيدي،





إسماعيل الرفاعي

كمن يريد أن يستعين بالدولاب للسباحة، وأن أستلقي، ثم طلب أن أثني رجليّ وأمرّرهما من الدولاب، كان الأمر عسيراً بعض الشيء لكن هذا العنصر ضغط بكلتا يديه بقوّة على رجليّ بحيث أصبحت مطوياً على نفسي أكثر لتدخل رجلاي في حلقة الدولاب إلى أن صارت ركبتاي أمام أنفي. صار الدولاب حلقة تشد جذعي من تحت الإبطين إلى طرفيّ السفليين من عند الركبتين، والنتيجة أن قدميّ صارتا مواجهتين تماماً للسقف بوضعية مناسبة للجلد. الوضعية بحد ذاتها تعذيب. تركوني على هذه الحالة دون ضرب لفترة من الزمن بدأت أشعر بعدها بخدر شامل في رجليّ. الغريب أني وأنا في هذه الوضعية كنت أقل خوفاً من لحظة نزولي إلى القبو يوم أمس.

دخل بعد فترة رجل قصير ذو كرش (سأعرف لاحقاً في سياق التحقيق أن هذا هو مساعد التحقيق الأساسي أبو أحمد، يقولون هنا إنه الكل بالكل، وهو أول من سيستقبلنا في الفرع الجديد في العدوي عند عودتنا من سجن تدمر بعد "عمر طويل" وقد بات بعد هذا العمر شبيهاً بكلب هرم) برفقة مجموعة من العناصر وبيد كل منهم خيزرانة. وللمزيد من التهيئة قام اثنان بشد ساقيّ إلى بعضهما بقوة بواسطة حبل مربوط إلى قطعة خشب متينة، إجراء مؤلم جداً تشعر أنه يعصر الساقين إلى حدّ أن الألم يصل إلى العظم الذي تشعر أنه يمكن أن يعجز عن مقاومة كل قوة الشد

هذه. تقدم ذو الكرش وقال بيقين وعادية من يطلب باكيت دخان من محل سمانة: مين هني أعضاء اللجنة المركزية في حزبكم. قلت له لا أعرف. ليس من باب القوة أو الصلابة أو أيّ شيء من هذا القبيل بل لأنني لا أعرف حقاً. وكأن كلمة لا أعرف كانت إشارة البدء. تواتر رهيب من الضربات على باطن قدميّ، كانت تلك خبرة قدميّ الأولى بمعنى الدولاب. يمكن أن يصح قول إن الحذر أشدّ من الوقيعة في كل شيء إلا في الألم. مهما حاولت أن تتصور الألم وتعيشه في خيالك وتحيط بأبعاده، فإنك لا يمكن أن تتكهن بشيء من حقيقته. ومهما خفت من الألم فإن خوفك لن يتفوق على شعورك به. يتصاعد الألم بحدة ويكسر كل حواجز النفس، فتصرخ وتستغيث وأنت الذي تخجل من رفع صوتك والتعبير عن حاجتك بقوة وعلانية. تشعر أن الألم الذي يكتظ به جسدك يحاول الخروج من حنجرتك غير أن سبيل خروجه مغلقة، فتصرخ كأنك تريد أن تمزّق حنجرتك لعلك بذلك تفتح سبيلاً لتحرر الألم. ثم في لحظة يتوقف الضرب وينتهي الألم. في لحظة! (سأعرف بعد سنين طويلة من هذه الخبرة أن هذه ميزة للخيزرانة مقارنة مع الكرباج الكاوتشوكي المسطح الذي خبرته في سجن تدمر، فألم الكرباج المسطح لا يتوقف بتوقف الجلد. يصح أن تقول إن الخيزرانة تلسع، أما الكرباج فيجب أن تقول إنه يدحل أو يسحق أو يبطش). يا لها من متعة! متعة العودة إلى نقطة الصفر. متعة الشعور بجسد لا يتألم.

- تذكرتن يا عرصة؟! صرخ ذو الكرش.

- وحياة ألله ما بعرف يا سيدي!

- ليش أنتو بتعرفو ألله؟

يبدو أن كلمة ما بعرف هي بمثابة الأسيد الذي يكوي أعصاب المحققين ولا سيما منهم أولئك الذين يعرفون اللّه جيداً! ذات مرة سمعت أحد "منظّري" الأقبية يقول ملاحظة مفادها أن المعتقلين السياسيين يقسمون في التحقيق بما لا يؤمنون به، فترى الشيوعي يقسم بالله وترى الإسلامي يقسم بعرضه.

الإنسان الصالح في الدول المتخلفة هو الإنسان الذي لا يسمع ولا يرى ولا يحكي، ولكن حين يسقط هذا البشري في قبو أجهزة الأمن عليه أن يعرف، بل عليه أن يكون مخزن معلومات!

من جديد تبدأ نوبة من الألم الرهيب، نوبة تدوم أكثر من سابقتها. ثم من جديد، يسأل ذو الكرش إن كان الدولاب نشّط ذاكرتي. الدولاب كان على وشك أن يغرق وعيي، وليس فقط ذاكرتي، في عالم آخر مظلم. ولا أدري كيف توفّرت لي قوة القول إنني لا أعرف شيئاً. أدرك المكروش أن الاستمرار في الجلد يعني فقد الوعي فأمر بالتوقف. استراحة جلادين وسكب ماء على الرأس ثم عود على بدء. ليت الجلادين يستريحون طويلاً! فليعط الجلادون حوافز مادية من مال الشعب كي يطيلوا استراحتهم! ليكن بطل الإنتاج في مصلحة صناعة الألم هذه هو أقل الجلادين إنتاجاً. لم يزل الجلادون يستريحون ويستأنفون "الإنتاج" حتى اقتنع ذو الكرش فيما يبدو وأيقن أنني لم أعد أحتمل المزيد من الضرب، فطلب فك قدميّ وتحريري من الدولاب، وغادر صالون التعذيب متوعداً بزيادة "الطاقة الإنتاجية" في الجولات القادمة. بقيت مكوماً على بلاط القبو غير قادر على الحركة. غير أن أحد "المنتجين" رفسني بكعبه على كتفي قائلاً بحنق:

- قزّ ولا! يلعن أبوك عرص ابن عرص، هلكتنا!

لكني لم أستطع الوقوف. وخانتني نباهتي فلم أعتذر. انهمرت الخيزرانات كالمطر على هذه الكتلة الحية المنهكة التي أتعبت الجلادين. "ليت الفتى حجر"! أعوذ بالله من رجل هو من اللؤم والحقد على استعداد لتحمل الألم إلى حدوده القصوى لا لشيء إلا لكي يتعب الجلادين! ألا يعقل أن يكون هذا الرجل حلقة في مؤامرة تستهدف الجلادين إنهاكاً وتعباً؟! ولكن مهلاً! أليس الجلد هو عرس الجلادين وربيعهم؟! لماذا يتذمرون إذن من رجل يقدم جسده وليمة لخيزراناتهم وأبواطهم؟ رفسة أخرى على الرأس هذه المرة، مشفوعة بأمر جديد بالنهوض متبوعاً بما يمكن أن يولده تعب الجلادين من شتائم. تحاملت على نفسي ووقفت فلا أحد يعلم المكان الذي يمكن أن تختاره الرفسة الثالثة. توقع أيّ شيء من تعب الجلادين. لاحظوا! هذا الرجل يستطيع الوقوف إذن، ولكنه يناكف ويعاند وغاية مسعاه إتعاب الجلادين وإفساد رواقهم! طلبوا مني الهرولة في المكان فوق بقعة من الأرض عليها ماء. حاولت أن أهرول على قدميّ اللتين صارتا ضخمتين وثقيلتين وداميتين فلم أستطع واستندت إلى الحائط. رأيت كيف راح دمي يتخلى شيئاً فشيئاً عن كثافته للماء المسفوح على بلاط القبو.

جاءني صوت أحد عناصر الشرطة:

- تحرك يا حمار! تحرك، منشانك!

ها هو جلاد يهمه شأني! بات باطن قدمي حساساً إلى حد الشعور بالألم إذا ما صادف وجود مجرّد حبة رمل تحت قدمي. بات مجرد تخيل ضربة الخيزرانة على القدمين تعذيباً. كان ثقل قدميّ هائلاً فلم أستجب للأمر.

جاء الأمر بتنزيهي. النزهة هي أن تركض على طول الصالون ذهاباً وإياباً تحف بك عناصر الجلد من الجانبين وفي يد كلّ منهم خيزرانته التي يستخدمها ضدك حين تصبح ضمن مداه المجدي. أنت دائماً ضمن المدى المجدي لأحدهم، أنت إذن دائماً تحت الضرب. لا السرعة تنجيك ولا البطء. امش إذن، المشي أسهل! غير أن هذا الضرب أقل إيلاماً لأن الضربات لا تتكرر على النقطة نفسها، لكنه ضرب مخيف واحتمال الأذى فيه كبير. يبدو أن الشرطي الذي أبدى اهتماماً بشأني يعرف ما يقول، إذا لم تهرول من تلقاء ذاتك فإنهم يجبرونك على الهرولة

> **جاء الأمر بتنزيهي. النزهة هي أن تركض على طول الصالون ذهاباً وإياباً تحف بك عناصر الجلد من الجانبين وفي يد كلّ منهم خيزرانته التي يستخدمها ضدك حين تصبح ضمن مداه المجدي**





فادية عفاش

تحت لسع الخيزرانات.
هذه البداية في التحقيق معي أعطت انطباعاً عنّي بأني عنيد. أما الحقيقة فهي أنني لا أعرف. عاد ذو الكرش، فأعادوني إلى الدولاب. ولكن هذه المرة بسؤال جديد أكثر بلاهة وعبثية من السؤال السابق. وقد مهد لسؤاله بجولة من الجلد أوقفها بإشارة منه وسأل فوراً:
- وين المطبعة ولا؟
اسودت الدنيا في وجهي وأيقنت أنني على هذه الحال قد أشوّه أو أموت تحت الضرب دون أن يكون أمامي مخرج. قد أكون جاهزاً لقول ما أعرف كي أتفادى الألم، قد أكون جاهزاً لخيانة أصدقاء ورفاق وأهل، ولكن ما يطلبه مني هذا الرجل لا أعرفه. سوف أزيد من تعب الجلادين حتى أنهكهم إذن.
- واللّه ما بعرف يا سيدي؛ قلت وأنا في قعر سحيق من اليأس وقد بدأت حنجرتي تتشنج ولا تطاوعني في الكلام، شيء أشبه بالبكاء الجاف.
- بدك تعرف؛ نحنا هون منشان نخليك تعرف؛
هذا النوع من الكلام من مثل هذا النوع من الناس وفي مثل هذا الظرف أشبه ما يكون بمرور مدحلة على القلب. الكثير من اليأس

مضافاً إلى الكثير من الألم الذي لا يطاق ينتهيان بفقد الوعي. صحوت على لطش ماء بارد، كان بدء الشعور بالصحو لذيذاً. حررت من الدولاب وأخذت إلى المكتب منهكاً لا أقوى على الوقوف، أجلسوني على الأرض أمام مكتب المحقق، عارياً مبلّلاً بالماء مرتجفاً من البرد ونفاد القوة والروح. كان في المكتب الرائد وملازمان، أحدهما هو ذو الشفاه الغليظة الذي قابلني في سجن الشيخ حسن، والآخر شاب طويل أشقر أراه للمرة الأولى، لكنه سرعان ما سيكشف بعد قليل عن نباهة فريدة. فبينما راح الرائد يجود عليّ بأقوال تشبه: هل يعجبك هذا الوضع، ألم يكن من الأشرف لك لو سمعت نصيحتي، أنت تحبّ أن تبهدل حالك! (يا سيدي، أنا رجل أحبّ أن أبهدل حالي وأحبّ أن أعذّب الجلادين وأتعبهم ولو على حساب ألمي ودمي، أنا مخلوق من هذا الطراز! يا لهذه المحنة التي ابتلاكم بها الله بأن رماني بين أيديكم!) قفل الرائد هذا "العتاب" فجأة وقال:

- شوف! بدك تضل تاكل قتل حتى تعترف وين المطبعة، هي تعليمات المعلم! منشان هيك ريّحنا وارحم حالك واحكي.

لماذا يطلبون طلبات عالية؟ هل يعتمدون سياسة اطلب العشرة كي تأخذ التسعة؟ ولكن هذا غير منطقي، فهذه العشرة لا تتضمن التسعة، ثم ما هي التسعة التي يريدونها؟ يلحّون على طلب معلومات عالية وشديدة الحساسية من شخص غرّ لم يعترف حتى أنه ينتمي فعلاً إلى الحزب الذي يدور التحقيق حوله.

- يا سيدي والله ما بعرف! وحياة الله ما بعرف!

نهض ذو الشفتين الغليظتين شاهراً في وجهي سلاح تكشيرته الثقيل وقال محاولاً فيما يبدو أن يظهر للرائد قدراته التحقيقية: رح نخليك تعرف! خدوه! لم يتدخل الرائد. شحط، تلبيس دولاب، جلد، صراخ يثقب الجدران، خلايا تموت، قلب يضمحل، وعي يتلاشى، استغاثات "عضوية" موشكة على الفناء. توقف الجلد. كان ذو التكشيرة فوق رأسي مكشّراً. كشّر كما يحلو لك، واشتم كما يحلو لك، شتائمك لطيفة، وتكشيرتك حلوة، فقط أوقف الجلد!

- تذكرت وين المطبعة ولا؟! جاءني صوت أخنّ صادر من البلعوم أو من تحت اللسان أو من دهاليز الأنف أو من أيّ مكان سوى مصدر الصوت الطبيعي.

- تذكّرت! تذكّرت سيدي!

زها ذو التكشيرة بنصره الذي يؤكد أن الدولاب يجعل من لا يعرف يعرف ومن لا يتذكّر يتذكّر. وأمل بعودة مظفرة إلى مكتب الرائد.

- وين؟ خلصنا، العمى بعيونك!

رحت أخترع عنواناً سرعان ما تبين له أنه غير حقيقي وأنه مجرد مناورة يائسة للتخلص ولو مؤقتاً من الجلد، فما كان منه إلا أن بصق عليّ ورفسني بقوة وعاد إلى المكتب وهو يشتم ويتوعد. ثم بعد قليل وجدت نفسي في المكتب أمام الثلاثي نفسه. بادرني الرائد ببرود: ما بدك تقلنا وين المطبعة وتريح حالك يا دكتور! (مخاطبته الساخرة إياي بلقب دكتور تذكر بقصة الشيخ الذي وقع بين أيدي أناس حاقدين عليه فقاموا بربطه من رقبته إلى عربة ثقيلة وطلبوا منه جرها إلى أن أنهكوه، ثم تركوه. وفي مجلسه حكى الشيخ قصة ما جرى له مع أولئك الزناديق مضيفاً، لوجه الحق، أنهم طوال الوقت لم يخاطبوه بغير كلمة "يا شيخنا"!) أقسمت له بأنني كنت أرحت نفسي من زمان لو أنّي أعرف أينها أو لو أني أعرف شيئاً عنها. فالتمعت عينا الملازم الأشقر وقال كاشفاً عن نباهة واعدة:

- منعرف أنك ما بتعرف وين المطبعة، بس بدك تدلنا عليها!

في أجهزة الأمن، القوة تملأ كل الفراغات. تملأ فراغات ضعف الشخصية وعدم اتساق المنطق وتضارب الأسئلة...الخ.

كأن كل مشاعر الخوف والإهانة والألم واليأس ترجمت نفسها إلى شعور واحد هو الشعور بالبرد. رجفة خشنة تبدأ من القلب وتنتشر إلى المحيط تليها أخرى وأخرى بتواتر يتسارع شيئاً فشيئاً. أحسست بخواء فظيع في داخلي وبغثيان عميق. تجمعت على نفسي أكثر. تمنيت يائساً وقوع كارثة، اشتهيت جريمة كبيرة، أكبر من جريمة الماغوط، تلخبط الكون وتقلب المجريات. أعادوني إلى الزنزانة كما أنا عارياً ومبللاً ومنهكاً، ورموا ملابسي خلفي داخل الزنزانة ثم أقفل الشرطي الباب وهو يقول: لسا ما شفت شي، هَيْ بس تسلاية! سلمت نفسي الكسيرة إلى النوم. النوم ترياق. نمت بعمق كما لم أنم من قبل. يستقيل الوعي، يرمي عن كاهله دفعة واحدة كل الأحمال التي أثقلت عليه في بضع الساعات السابقة، ويترك المادة للمادة، يترك الجسم يرمّم نفسه وفق قوانينه المستبطنة. استيقظت، لا أدري بعد كم من الوقت، على فتح باب الزنزانة وصوت العنصر:

- فزّ ولا!

يا ألله، هل نسوا العالم وعبدوني؟ أما من شغل لهم سواي؟ تشعر أن كل وزن الدولة يكبس على رأسك، ويطبق على صدرك. عصب ماكينة الدولة هو الأجهزة الأمنية، وحين تشاء هذه الأجهزة فإن الماكينة تتحرك حسب هذه المشيئة. تشعر أنك الشغل الشاغل للدولة، السيارات جاهزة لإحضار كل من تتلفظ باسمه، وموظفو الجامعة جاهزون لنبش الملفات والأرشيف بحثاً عن اسم زعمت أنه في الجامعة، وأجهزة الاتصال الحديثة تصل البعيد والقريب لتنسيق حركتهم كي يكتشفوا تلفيق أو حقيقة ما تقول. لا شيء ناقص، لا شيء متعثر، فقط حين يتعلق الأمر بك.

كانت الحركة في صالون التعذيب الرحيب والصقيل والشديد الإضاءة، مختلفة عن فترة الصباح. درجة الاستنفار عالية أكثر منها في الصباح، وجوه العناصر أكثر جدية، وتعاملهم أكثر قسوة. لمحت المساعد ذا الكرش الذي غاب عن معظم فترة التحقيق الصباحي. تقدم مني مهدداً وشاتماً (الشتم شديد البذاءة من الملامح الثابتة في التحقيق، وللشتم في مثل هذا الحال مفعول كاوٍ على النفس، من أين يكنّ لك هؤلاء كل

لمحت المساعد ذا الكرش الذي غاب عن معظم فترة التحقيق الصباحي. تقدم مني مهدداً وشاتماً (الشتم شديد البذاءة من الملامح الثابتة في التحقيق، وللشتم في مثل هذا الحال مفعول كاوٍ على النفس

هذه الكراهية والعدائية وهم لا يعرفونك وأنت لم تقترف شيئاً مشيناً يفسر ظهور مثل هذه المشاعر تجاهك، أن يحمل العنصر خيزرانة ويضربك فهذا تنفيذ لأمر وأداء لمهمة ولكن أن يشتمك بكل هذا الحقد وكل هذا الفحش فهذا شيء شديد المرارة على النفس، وختم تهديداته بصفعة على وجهي أتبعها بأخرى ثم أمر العناصر بوضعي في الدولاب. رغم كل قسوة الصباح الفائت يبدو هذا المساء أكثر قسوة، لا شك أن في الأمر أمرا. كل العناصر أسرعوا للمساهمة في عملية وضعي في الدولاب كما لو أنهم يؤاجرون. الكل يبادرون بإعلان العدائية ضدي بالضرب والنهر والشتم والتوعد. لحظات وينحلّ اللغز، فبينما أنا في الدولاب في وضعية الاستعداد التام قالباً (وفي وضعية غير الاستعداد التام قلباً)، وبعد أن شدوا وثاق قدميّ معاً على أتم وجه، ظهر رجل مربوع بشعر أبيض خفيف سبق أن رأيته يوم وصولي من اللاذقية في مكتبه العالي، إنه رئيس الفرع. ارتبك الجميع. توجه سيادته إليّ مباشرة ووضع حذاءه على رقبتي وقال بتكشيرة لا تضاهيها سوى تكشيرة الملازم ذي الشفاه الغليظة:

- أنت منظّم ولا؟!

طوال الصباح يقطعون جلدي سائلين عن أعضاء قيادة وعن مطبعة، وها هو سيادته يعيد الأمر إلى تتابعه المنطقي. ولكن ماذا يعني كل ما جرى في الصباح؟ من قاد التحقيق ومن حدد الأسئلة؟

- لا وحياة ألله يا سيدي! وحياة محمد مو منظم يا سيدي!

غضب من السماء نزل عليّ. كانت فاتحته صياح أحد العناصر "ولك هادا سيادة العقيد يا عرص". إذن بصرف النظر عن السؤال، يجب أن تقول نعم لسيادة العقيد رئيس الفرع، لا شيء إذن سوى النعم. "لولا التشهد كانت لاؤه نعم!". من يقف فوق رأسك الآن ليس الملازم ولا المساعد ولا حتى الرائد، إنه العقيد رئيس الفرع بشخصه. حتى الخيزرانات نفسها باتت أكثر نشاطاً وإيلاماً. ألمٌ يشتد كي يمزق شيئاً يقاوم التمزق، ليته يتمزق فأستريح! ألم يتصاعد ويتصاعد وينحشر في المنطقة الفاصلة بين أسفل الرقبة وأعلى الصدر على شكل كتلة كتيمة خانقة. غمرتني رغبة عارمة بالبكاء، ومن ثنايا حنجرة تتمزق راح يخرج صوتي رسول استغاثة إلى قوم لا يرحمون. اقترب سيادته أكثر وحاول دسّ مقدم حذائه في فمي وهو يرفع صوته بكلام لم أفهمه، فاختنقت. بعد لحظات توقف الجلد، وأنا على شفا هاوية سحيقة. تنهال فوقي المياه والشتائم. عندئذ أطلق سيادته نبوءته لي بكل ما أوتي من سلطة وكراهية وبذاءة: "بدك تصير دكتور ما هيك يا خرا؟ بيكونو شواربي على كس شرموطة إذا بعمرك بتصير دكتور!". ورغم جحيم الدولاب وتغيم الوعي وطوفان اليأس فإن ذاكرتي التقطت هذه العبارة واحتفظت بها. وبعد سنوات طويلة انكشفت لي آلية تنفيذ نبوءته الباصرة في ورقة صغيرة (توصية!) وضعها سيادته في ملفي الذي رأيته في المحكمة بعد ١١ سنة ونصف من توقيفي. وقد قضى هذا الرجل قبل أن يتحقق من صحة نبوءته، قضى في تواليت، كانت آخر لحظات حياته في ذلك المكان المناسب. ولا يمكنني أن أنكر أن خوفي من تحقق نبوءته كان ملازماً لي طوال فترة دراستي رغم أن صاحب النبوءة كان قد صار تحت التراب من سنوات. وعندي ما يكفي من الشعور بأنه ما كان يمكنني متابعة دراستي لو ظل هذا الرجل "المتنبئ" على قيد الحياة، قوياً ونافذاً وقادراً على قيادة تنبؤاته. ولعل موته المفاجئ هو ما أفشل نبوءته، فقد كان يمكن أن يوصي "حوارييه" بالسهر على نجاح تلك النبوءة لو أدرك أنه سيموت وكان لديه ما يكفي من الوقت والقوة ليوصي.

يغيب سيادته. يحررونني من الدولاب، هرولة في المكان فوق الماء، تنزيه، ثم تنزيه، ثم أحمل الدولاب على كتفي وأقف في إحدى زوايا صالون التعذيب يحرسني عنصر شاب. لعل سيادته تعب من تعذيب التعذيب ويستريح لشرب فنجان قهوة مثلاً. قليل أو كثير من الوقت لا أدري فقد تعطلت لديّ آلة الوقت، قليل أو كثير من الوقت ويعود الفيلق، يتأخرهم العقيد. ليبدأ جولة جديدة:

- بدك تساوي حالك بطل ما هيك، الظاهر بتقرا روايات كتير؟ بس لازم تعرف يا عرص يا ابن العرص أنه نحنا ما عنا أبطال، الكل راسن تحت هالصرماية!

هذا سيادة العقيد رئيس الفرع، وإذا غضب، فإن ألف خيزرانة تغضب لغضبته. وها هي الخيزرانات الغضبى تشفي غليلها من قدميك المتورمتين النازفتين.

- دخيلك يا سيدي بدي أحكي!



> طوال الصباح يقطعون جلدي سائلين عن أعضاء قيادة وعن مطبعة، وها هو سيادته يعيد الأمر إلى تتابعه المنطقي. ولكن ماذا يعني كل ما جرى في الصباح؟ من قاد التحقيق ومن حدد الأسئلة

تتوقف ماكينة الدولة، تهنأ قدماي بقليل من الراحة. ليت التوقف يطول ليطول الهناء!

- شو بدك تحكي ولا ابن العرص!

- سيدي.. سيدي.. والله أنا مو منظم يا سيدي! والله..

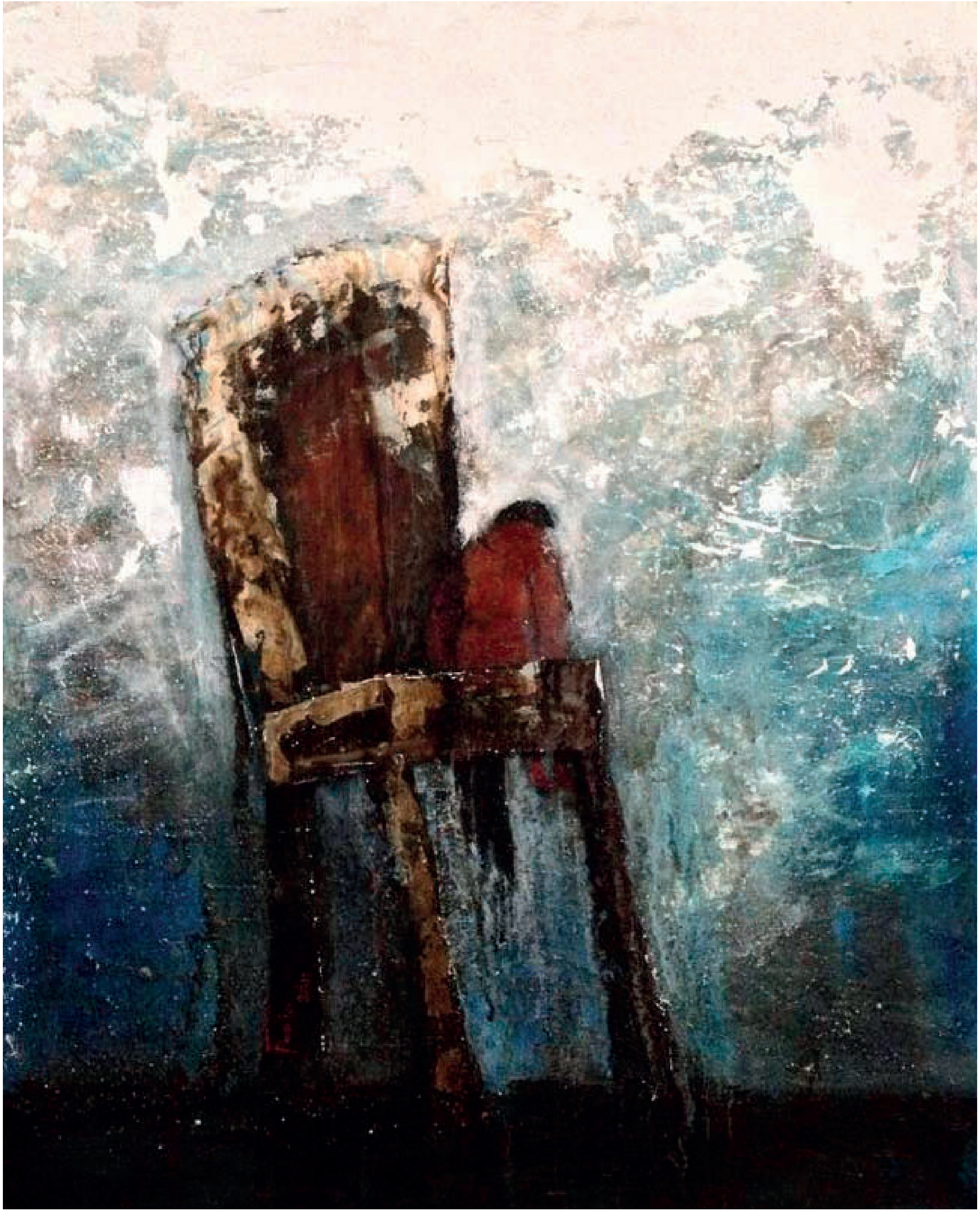
يغضب العقيد ويشتم فتغضب الخيزرانات وتشتم، وهل لا زال في رصيد قدميّ بقية لتسديد فواتير الغضب؟! غرقت في لجة من الألم الثقيل الكاوي والصراخ الشاتم المهدد من كل مكان. ضاق صدري وتيبس الهواء في حنجرتي..

- بدي أحكي يا سيدي!

غير أن ماكينة الدولة لم تعبأ بي هذه المرة وواصلت مهمتها الرهيبة. كررت الصراخ دون جدوى. "بدي أحكي يا سيدي!" ولكن دون جدوى. الألم ثقيل أكثر مما يمكن أن أحتمل، الهواء يغادر

صدري دون أن يعود، أشعر أن قلبي يلتف على نفسه ويتعثر، وكذلك وعيي. أصرخ: أنا منظم!!.. تهدأ ماكينة الدولة دفعة واحدة. تنعم قدماي باستراحة. يعثر دمي من جديد على وجهته. ماكينة الدولة ترتاح على إنجاز. وقدماي كذلك. اعتراف! لقمة تحتاج إلى مضغ! عقول شرسة تخبط في ظلمة دامسة بلا دليل ولا ضوء كاشف.
يعبر في ذهنك أن هناك مؤامرة أزلية، مؤامرة كبرى في الخلق، وإن غاية خلق القدمين على هذا الشكل هي التعذيب ولا شيء آخر. أما كان يمكن تعديل الخلق فلا يكون باطن القدمين هذا المكان المناسب للجلد؟ يخطر في ذهنك أشكال افتراضية لقدمي الإنسان، شيء ما يشبه الأظلاف مثلاً، أو على الأقل قدمان بلا أصابع، إذ ما وظيفة أصابع القدمين سوى أن تكون نقاط ألم فظيع عند الجلد؟ سوى أن تكون مكاناً يختاره جلاد كي يمارس عليه أقصى درجات الإلحاد؟
يعبر في ذهنك أن كل شيء في خلق الإنسان إنما معدّ ليناسب أولئك الذين يعذّبون ويقتلون ويغلبون، "تؤخذ الدنيا غلابا!". ولكن انتظر! حين يتعذر جَلد القدمين بعد تهتك وتلف جِلد القدمين، هل يعدم الجلاد الوسيلة؟ سيجمعك بعد حين كركون الشيخ حسن مع فرحان، الشاب الجميل الذي اشتهته السجون منذ بداية شبابه واستأثرت به طويلاً، لترى كيف يمكن أن يستعيض الجلاد عن باطن القدمين بباطن الركبتين مثلاً، كيف يصير الجزء الداخلي من مفصل الركبة مكاناً احتياطياً للجلد. تجمعك السجون الأخرى بأناس شهدوا وسائل تعذيب لا تنتهي. الألم قاسم مشترك لكل الوسائل ولا حدود للألم الذي يعانيه جسد الإنسان. ولئن كانت متعة الجسد البشري محدودة فإن ألمه غير محدود.
يمكن أن يعجز الألم الجسدي عن قهر النفس وكسرها واستعبادها، فهناك أشخاص لديهم قدرة مميزة على احتمال الألم، حينها يمكن أن يلجأ المحقق إلى إنتاج ألم من نوع آخر.
من القصص أن بحرة الكركون شهدت ذات يوم التحقيق الذي جرى مع رجل كبير السن بتهمة إسلامية. لم تكتف البحرة بالمشاهدة فقط بل شاركت أيضاً بأن استقبلت في مياهها الباردة جسد ذلك العجوز عارياً ومتورماً ومدمى مرات عديدة. غير أن الألم الجسدي فشل في تحطيم "مقاومة" هذا الرجل، مما أثار عدوانية المحقق الذي كان معروفاً بأنه لا يتورع عن فعل أيّ شيء، فما كان منه إلا أن أجبر العجوز على أن يتخذ وضعية معينة وهو عار تماماً ثم هدده بأن يجعله موضوعاً جنسياً لأحد عناصره الشباب ما لم يعترف بكل شيء، الـ"كل شيء" التاريخية إياها. كان هذا كافياً كي ينهار الرجل ويقدم اعترافات أشبه ما تكون بالهلوسة اختلط فيها الصحيح بالوهمي الأمر الذي جر المصائب على أهل قريته بالكامل، من الفران إلى الدكنجي إلى كل من له موقع في ذاكرة ذلك العجوز!
يعود العقيد إلى فريسته. تستنفر الخيزرانات والدواليب والأكف والحناجر، حتى هواء القبو يعاند طبيعته الفيزيائية ويصبح متماسكاً ويستعصي على الشهيق، كما لو أنه يرغب هو الآخر في التحول إلى عنصر في جوقة التعذيب يأتمر بأمر العقيد الظافر. لا شيء حيادياً في هذا القبو، كل شيء منحاز إلى العقيد وجنده ضد هذه الفريسة المنتخبة.
- رحت ع لبنان ولا؟! قال العقيد مكشراً باستعلاء وقرف! ما هي قصة التكشير؟ وإلى أيّ حد كنت غافلاً عن وجود هذا السلاح من قبل؟ فأنا لم أكد أستوعب تكشيرة الملازم الأول غليظ الشفتين حتى هوجمت بتكشيرة أخرى تفوقها قدرة على ختم القلوب وعمي الأبصار. تكشيرة العقيد دخلت بقوة في هذه الجولة التحقيقية كسلاح فعال على الحلبة. تفاديت التكشيرة وأجبت:
- لا والله ما رحت يا سيدي!
- كذاب!
وانطلقت آلة صناعة الألم الجبارة في عملها. الجميع ينهمكون وينصبّ تركيزهم على جسد منهك دام متخبط. أتخيل صورة انهماك الرجال (الرجال فقط، لا يجوز للنساء ذلك!) في السيطرة على الأضحية قبل ذبحها.
في خريف عام ١٩٨٢ كان حزب العمل الشيوعي، في خطوة مرتجلة، قد أرسل إلى لبنان، إلى طرابلس بالتحديد، مجموعتين من أعضائه للتدرب على القتال واستعمال السلاح في معسكرات تابعة لحركة فتح. علم الأمن بذلك فصار السؤال عن السفر إلى لبنان جزءاً من كل تحقيق مع متّهمي حزب العمل الشيوعي.
ذهبت آلة صناعة الألم بعيداً في عملها. وراح وعيي يتكسر ويتلاشى تحت موجة الألم الرهيبة. بت أشعر أن رئتيّ تنكمشان وتتحولان إلى كرة إسفنجية مشبعة بزيت ثقيل تحاول الخروج من صدري عبر البلعوم، لا تريد رئتاي أن تتحملا مشقة العيش في جسد يتعرض لكل هذا الألم.
تتوقف الآلة ليكرر صاحب الأمر سؤاله بمزيج من العدائية والقرف والتسلط، ولأكرر نفيي وأنا في حضيض من اليأس، ثم تستأنف الآلة الصماء عملها في معالجة جسد عالق في برزخ. ينهي سيادته المهمة، يقرر مصيري، ثم يودعني برفسة مشفوعة ببصاقه وبذاءته.
هل خطر يوماً في بال أبي شيء كهذا؟ كان أبي من البعثيين الأوائل وكان يكرّس نفسه للعمل الحزبي والنقابي على حساب اهتمامه بنفسه وبأسرته. صار ممثلاً للبعثيين في مكتب الاتحاد العام لنقابات العمال في أواسط خمسينات القرن الماضي ورئيس النقابة العامة لعمّال المناجم والمحاجر للإقليم السوري زمن الوحدة، بعد أن كان قد شارك، تحت إشراف "بعثي"، في تأسيس نقابة عمّال الإسفلت التي انضوت لاحقاً تحت النقابة الأولى. وانعكس إخلاصه "للبعث" على مجمل حياته وترك

> **عبر في ذهنك أن هناك مؤامرة أزلية، مؤامرة كبرى في الخلق، وإن غاية خلق القدمين على هذا الشكل هي التعذيب ولا شيء آخر. أما كان يمكن تعديل الخلق فلا يكون باطن القدمين هذا المكان المناسب للجلد**



فادية عفاش



بصمته على أسماء أولاده. يناديه الواجب البعثي فيترك كل شيء خلفه ويلبيه. ففي الوقت الذي ينشغل فيه أرباب الأسر في الريف بشؤون الزراعة والسعي لاكتساب أراض جديدة على حساب الأراضي الأميرية أو على حساب أراضي بعضهم البعض، كان أبي يجول في بلدان العالم الاشتراكي "الصديق" تنفيذاً لمهامه الحزبية التي لا يعلو عليها شيء، تاركاً أراضينا الفقيرة والمحدودة موضوعاً للإهمال ولطمع الفلاحين المجاورين. كانت أمي تقول بسخرية مريرة: أبوكم لا يطيع سوى أوامر حزبه، ليت هذا الحزب يأمره بزراعة أراضيه والاهتمام بأسرته بدلاً من هذا التجوال الدائم الذي لا نجني منه سوى الشقاء. اعتدنا على غياب أبي المتكرر عن البيت. كان تعبير "مهمة حزبية" حاضراً دائماً في حياتنا الأسرية. يسافر أبي، تاركاً لأمي كل شيء، تربية الأطفال

والحراثة والزراعة والجني والحماية والعناية بالحيوانات وتأمين حطب المواقد للطبخ والغسيل وحطب التدفئة.. الخ. كان يترك لها كل شيء، سوى النقود. وتحكي أمي أن أبي أوشك أن يضربها ذات مرة لأنها احتجت على أخذه كل الرصيد المالي الهزيل من البيت قبل سفره "الحزبي" إلى دمشق، قائلة كيف ترضى أن تتركنا دون نقود؟ ألا يؤمّن لك هذا الحزب مصاريف سفرك؟ لم تكن أمي تدرك أنه حين كانت تسطع شمس المهمة الحزبية البعثية في ذهن أبي كانت تكسف أمامها كل كواكب المهام "التافهة" الأخرى. فهل يتقاعس عن "المهمة الحزبية" خشية أن يجوع ولد أو تشقى زوجة مثلاً؟ كان بعثياً مهووساً وليس فقط مخلصاً. يحكى أنه في الثامن من آذار ١٩٦٣، حمل علم البعث عالياً في طرقات القرية قبل أن يعود ويرفعه على سطح بيتنا، ابتهاجاً بانتصار "الثورة". لم يكن يعلم أبي أن أمثاله إنما هم وقود غيرهم في الوصول إلى السلطة، أما بعد ذلك فللسلطة وقود من نوع آخر. بدأ أبي بعد "الثورة" يشرب الخيبة شيئاً فشيئاً من كأسين، الأول هو كأس شعوره بتقصير "الثورة" عن تنفيذ ما كان يحلم به منها، من وحدة وتحرير وإنصاف للعمال الذين قضى عمره يعمل للدفاع عنهم دون أدنى مكسب شخصي بل بالكثير من الخسائر الشخصية، والثاني هو كأس شعوره المتزايد يوماً وراء يوم بالتهميش والإقصاء داخل حزبه نفسه. التهميش الذي انتهى بأن تم فصله من الحزب على أيدي البعثيين الجدد الذين كان يثقل على نفوسهم في الاجتماعات بجرأة نقده وسطوع تاريخه ونظافة يده.

هل كان يخال أبي أنه بعمله "الحزبي" ذاك الذي كرّس له شبابه وحياته، إنما كان يبني لابنه الأصغر الذي ولد بعد أشهر قليلة من رفعه العلم البعثي على سطح البيت، قبواً للتعذيب. هل كان يتصور أنه في كفاحه ذاك إنما كان يحمل على كتفيه أمثال هذا العقيد الذي سيشتمه في وجهي وعن طريقي بكل هذه البذاءة؟ هذا العقيد الذي لا يملّ من تكرار القول "الكل تحت هالصرماية!" مشبعاً بسلطته غير المحدودة وغير الخاضعة لحساب، هذا العقيد الذي تغذى وأمثاله على عرق وشقاء ودم أبي وأمثاله، بات اليوم لا يرضى بأقل من السمع والطاعة، ولا يتناول أبي وأمثاله إلا بالشتائم. وقد لاحظت، بالمناسبة، أن الكثير من السجناء اليساريين الذين التقيتهم في السجن هم أبناء لآباء بعثيين يشبهون في تاريخهم تاريخ أبي.

في الأيام التالية عاد التحقيق معي إلى الأرض، أسئلة عن طبيعة علاقتي بهؤلاء الأصدقاء الذين في الزنازين، عن الكتب التي نقرؤها، الغاية من هذه القراءات، علاقة الحزب بها، متى تلتقون، أين تلتقون، من اقترح فكرة اللقاء.. الخ. تحقيق "طبيعي". تراجع ضغط التعذيب قليلاً. المساعد ذو الكرش يتولى الآن معظم مجريات التحقيق، يدوّن اعترافاتك على أوراق بيضاء، يتجاوب مع اعتراضاتك. لكن ذات مرة غضب من اعتراضي على إحدى التلفيقات التي اعتبرتها هامة ومضرّة وطلبت حذفها، فنهض وصفعني بعنف وهو يرفع صوته ويقول:

- يا حيوان أنت محلك هون خلف الطاولة مو هون! مشيراً إلى مكاني حيث أجلس أمام الطاولة. لم أفهم في البداية معنى قوله، ولم أفطن إلا بعد أيام في خلوة الزنزانة إلى الدلالة الطائفية لكلامه. هدأ بعد ذلك وكأنه يدخل في مشهد جديد، وقص عليّ كيف أنه نسي حاله مرة وصفع ابنه، الطالب الجامعي، صفعة رهيبة حاسباً أن ابنه موقوفاً. وقال إن ضغط العمل كبير ويجعل المرء عرضة للخلط. استغربت كيف ينتقل هذا الرجل بهذه السرعة وهذه الجذرية فيبوح لشخص انتهى للتو من صفعه بهذا العنف. في هذا المشهد البوحي الجديد كان يمكنني أن أسأله، فسألته ألم يختلط الأمر عليك ذات مرة فتحسب الموقوف ابنك؟ غير أن سؤالي لم يرق له، فقال "لا" ناشفة كما لو أنه ظن أني أنصب له فخاً، ذلك أن من شأن مثل هذا الشعور إذا صرح به أن يهدد حياته الوظيفية!

ذو الكرش يبهّر التقرير بأشياء كاذبة فقط ليعطي الكلام نكهة شيوعية، ولكنها أشياء قليلة الأهمية. ترضى عن ملفك، توقع عليه. ملفك يقول إنك غير منظم في أيّ حزب، وأنه لا علاقة مباشرة لهؤلاء الشباب بأيّ حزب. تشعر أنه رغم كل شيء (كل شيء!) فالخاتمة سعيدة. سترفع الملفات إلى جهة أعلى ثم ربما إلى جهة أعلى، ثم يبتّ بأمرنا ويخلى سبيلنا دون شك. تفاؤلي المسكين هذا لم يفارقني طوال ١٦ سنة من السجن. ١٦ سنة وهذا الطفل الغافل المطمئن يلهو في حديقة نفسي، لا يملّ، ولا أدري هل يتعلق بي بأكثر مما أتعلق أنا به. يضعف تفاؤلي أحياناً وينكفئ لكنه يألفني كثيراً فلا يملّني ولا يغادرني. أشعت في نفسي وفي نفوس من حولي أملاً بأننا خارجون من هنا إلى دراستنا وأهالينا. من يقرأ الملف لا بد أن يغزوه التفاؤل. لم يدر في خلدي أن هذه الأريحية من قبل المساعد في صياغة الملف تعكس عدم أهميته، وأن انطباع سيادة العقيد وتوصيته هو ما له القيمة أمام الجهة الأعلى والأعلى.

انتهى التحقيق، فتحت معظم طاقات الزنازين. وارتاحت نفوسنا من ضغط الترقب والخوف والتعذيب. وراحت أجسامنا تطالب بما فاتها من طعام طوال فترة التحقيق. وراحت الأيدي في فترة توزيع الطعام تمتد من الطاقات مطالبة بالمزيد من الخبز. على أن فترة بقائنا في الفرع بعد انتهاء التحقيق لم تشهد اعتقالات سياسية ذات قيمة، كل ما حدث هو اعتقالات متقطعة وفي قضايا غير سياسية فيما يبدو. ولم يكن هؤلاء المعتقلون يمكثون أكثر من يوم أو يومين في الفرع وأحياناً لا يبيتون فيه، دلالة على ضعف فعالية هذا الفرع قياساً على فروع الأمن الأخرى في تلك الفترة. ذات يوم من تلك الفترة وصلتنا من داخل قبو التعذيب أصوات جلد وصياح رجل يقول:

- دخيلكم أنا ماني بألبا! دخيلكم خدو الجبس كلو يا سيدي!

كان هذا بائع جبس قريب من الفرع اشترى العناصر منه واحدة ولكن تبين بعد الكسر، كما يزعمون، أنها بيضاء وقليلة الحلاوة. ويبدو أن العناصر كانوا متحاملين سلفاً على هذا الرجل لأنه لا يسامحهم في السعر، كما قال أحدهم، فاغتنموا فرصة غياب الضباط ووجود رئيس مفرزة متساهل كي "يربوه" متذرعين بأن الجبسة التي اشتروها منه كانت "مغشوشة". (لكل مستوى من مستويات الفرع ظلمه الخاص. ظلم يتناسب مستواه مع مستوى الظالم في تراتبية الفرع، "فالظلم من شيم النفوس!"). علّق أحدنا على هذه الحوادث المتفرقة والعابرة بالقول إن هذه أصوات قرقعة أمعاء الفرع الخاوية.. ■

كاتب من سوريا مقيم في باريس

أحمد قليج



ولادة العاصفة
دفتر السجن 2011

جورج صبرة

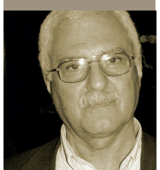
الاعتقال الأول

استيقظت باكراً صباح ذلك اليوم تلبية لموعد في منزلي مع رياض سيف. كنا في حديقة المنزل، نناقش خطة مقترحة للتحرك في إطار "إعلان دمشق"، عندما اقتربت زوجتي لتقول بصوت خفيض: الأمن يملأ الحارة، وسيارات المخابرات تجول في الشوارع. قلت مشيراً إلى ضيفي: أرجح أنهم من متابعي (أبو جواد)، ولحقوا به من قدسيا إلى هنا. وتوقعت أن يلحقوا به عندما يغادر، لكنهم لم يفعلوا. فأيقنت أنني المستهدف. رتبت أوراقي، وانتظرت بعض الوقت متوقعاً اقتحام المنزل في أيّ لحظة. وكذلك فعل أهل بيتي استعداداً لهذه الواقعة المعهودة التي تكررت في المنزل مرات عديدة.
طال انتظارنا، ولم يطرق بابنا أحد، في الوقت الذي يتحركون فيه بالمكان بوضوح ظاهر، فأردت اختبار الوضع واكتشاف حقيقة الموقف. خرجت من المنزل قاصداً السوق متصنعاً الرغبة بشراء بعض الحاجيات. ولم تمض بي السيارة عشرات الأمتار حتى لحظت من المرآة سيارات (الشباب) تلاحقني. فأيقنت ساعتها أنني المطلوب.

اختطاف

حدث ذلك صباح الأحد العاشر من نيسان 2011 في مدينتي قطنا... اخترقت شوارع المدينة بسيارتي قاصداً المؤسسة الاستهلاكية، وقافلة من السيارات المتنوعة الأشكال والألوان تتبعني. نزلت من السيارة لأرى سيارة الأمن بكامل عناصرها، تصطف خلفي بحركة طبيعية وادعة. لم يكلمني أحد، ولم يقترب مني أحد. أنهيت عملي في المؤسسة، وخرجت حاملاً حصة الأسرة من الأرز التمويني. هاجمتني عيونهم بنظرات متوعدة وكأنها تقول: إلى متى تضيِّع علينا الوقت أيها الـ(...) تحملناك كثيراً، وطال الانتظار.
عدت إلى البيت عن طريق مغاير، وشعرت فجأة أنه خال من المارة والسيارات. وفي منتصف الطريق وعلى حين غرة، اندفعت سيارة "ستيشن" مملوءة بالعناصر بأقصى سرعة، فتجاوزتني بلمح البصر، وانحرفت يميناً أمامي مباشرة لتسد الطريق، بينما كانت سيارة "بيك أب" صغيرة تندفع ورائي لتسد الطريق من الخلف، وتمنعني من التحرك، فوقعت في المصيدة.
اندفعت نحوي مجموعة من العناصر، فتحوا أبواب السيارة الأربعة، ودون أن ينبسوا ببنت شفة، قاموا باقتلاعي من السيارة، بينما كنت أصرخ فيهم: قتلة.. مجرمون.. يا ناس عصابة تختطفني، من أنتم؟ ماذا تريدون؟ وبدأت أرفع صوتي في محاولة لجذب انتباه الناس، لعل أحداً يمر، أو يفتح النافذة، أو يسمع صوتاً. لأنني أيقنت أنهم يريدون اختطافي واعتقالي وإخفاء عملهم، كي لا يعرف به أحد. بسرعة خاطفة وبمهارة من أتقن عملاً كرره آلاف المرات، وضع أحدهم "الطماشة" على وجهي، بينما كان آخران يلويان ذراعي إلى الخلف، لتطبق عليهما "الكلبشة" بإحكام.
حشرت بين وحشين في أحد مقاعد سيارتهم، لأكتشف بسرعة أن مجموعة منهم تملأ المقعد خلفي، وأخرى تحتل المقعد أمامي، بينما كنت أتحسس بقدمي بنادق الكلاشنكوف الملقاة على أرض السيارة. وغرقنا في صمت مطبق، فلا شيء يسمع إلا هدير المحرك. صمت يثير الريبة والخوف معاً.
بدأت أتابع بخيالي خط السير. ولأنني أعرف مدينتي شبراً شبراً، كنت أرسم هذا الخط، وأتابع تمهل السيارة وتوقفاتها في المنعطفات والتقاطعات بدقة كبيرة، كي لا أضل الطريق. تساءلت: هل يمكن أن يراني أحد في السيارة، ويعرف أنني اعتقلت؟ هل سمع أحد صراخي، ليخبر أهلي أنني بحوزة جهاز المخابرات؟ غير أن الصمت الثقيل كان يعطي إجابات سلبية قاسية.
أخذت السيارة طريقها للخروج من المدينة، واندفعت باتجاه الشرق، وأنا أتابع الطريق بانعطافاته ومطباته، كما يتحسس ضرير ممرات بيته بخبرة وحذر، كي لا يصطدم بشيء أو يضل سواء السبيل. وفجأة تخفف السيارة من سرعتها، وتنعطف نحو اليسار. هزني هذا الانعطاف، وشكّل لي صدمة كبيرة. فقد كنا متوجهين إلى حقل الرمي. (اسمه حقل رمي عرطوز، يتوسط المسافة بين قطنا وعرطوز)، تجري فيه قطعات الجيش تدريبات الرمي بالذخيرة الحية، كما يتم فيه تنفيذ أحكام الإعدام الصادرة على عناصر القوات المسلحة. وطالما شهد أبناء المنطقة ما يجري هنا بأم العين. فالموقع قريب من الطريق ومكشوف للمارة.
كانت مفاجأتي صاعقة تلجم اللسان. فكل شيء مختلف عن حالات الاعتقال السابقة، التي طالما عرفناها وسمعنا بها خلال أربعة عقود مضت. اختطاف من الشارع.. محاولة إخفاء.. صمت مطبق.. وتوجه إلى حقل الرمي. ما الذي يعنيه كل ذلك؟ هل يمكن أن يحصل حقاً؟ وبدأت أتخيل نفسي موثوقاً إلى عمود، وعشرة من الرماة المهرة يواجهونني ببنادق محشوة ومصوبة، وبكلمة "نار" ينتهي كل شيء. ثم أعود إلى نفسي لأقول: لكن لماذا؟ ما الذي حصل؟ ما الذي فعلناه حتى يتجرؤون على فعل كهذا؟ لا زالت الثورة في بدايتها سلمية





وسياسية، ولا شيء يبرّر إجراءات من هذا القبيل.

لم يكن يخرجني من هذا المونولوج الداخلي بيني وبين نفسي غير أصوات الحصى الذي تقذفه عجلات السيارة يميناً ويساراً، فقد كنا نسير في طريق ترابي ممهد ومفروش بالحصى. لا تتجاوز المسافة بين الطريق العام وصدر حقل الرمي أكثر من ميلين اثنين، قطعتهما السيارة بدقائق معدودة. لكنها كانت على عقلي وروحي دهراً كاملاً. فمرة أقول: لا يمكن أن يفعلوها، ثم أستدرك لأقول: لكن لماذا لا يمكن؟ فقد فعلوها في 18 تموز 1963 مع زملائهم في القوات المسلحة وشركائهم الناصريين في انقلاب 8 آذار 1963، كما فعلوها في سجن تدمر في الثمانينات مع الإخوان المسلمين، وها هم يفعلونها مع المتظاهرين العزّل في درعا وحمص وبانياس واللاذقية ومدن كثيرة في ريف دمشق.

كنت بين مُصدِّق وغير مُصدِّق أن ما يجري، وما يمكن أن يجري، هو فعلاً حقيقة. وقد حرمني هول المفاجأة وازدحام الهواجس والأفكار في زمن لا يتجاوز بضع دقائق من معاناة الخوف ورهبته. إذ كنت في حالة من الاستسلام المطلق، تحولت فيها إلى أذن صاغية لالتقاط الهمسات والسكنات بانتظار قدوم القدر.

توقفت السيارة، وأخرجتني من ذهولي. وبدأت لحظات من

الانتظار القاتل، أحسب أن أنفاسي توقفت خلالها. فتح باب السيارة القريب مني بانسحاب بطيء يرهق الروح. نزل الرجل عن يميني، وسمعت صوت ارتطام قدميه على حصى الطريق، بدأت أنتظر.. لا بد أن يداً غليظة ستدفعني على كتفي من الخلف، وينهرني أحدهم بكلمات بذيئة من أجل الخروج. أو تمتد يد من جانبي لتسحبني برفق كي أنزل بسلام. فليس للمكبل والمطمش والمسلوب أن ينزل من سيارة بسلام. حرّكت كتفي الأيمن -وهو ما أستطيعه- لأتحقق من الأمر. فأغلق باب السيارة بحركة خاطفة، أغلقت باب التوقعات، لكنها لم تغلق باب المخاوف.

عدت إلى هواجسي وقلت في نفسي: ربما لم نصل إلى المكان المطلوب، حيث تتم عمليات الإعدام. وسنستمر في المضي قدماً إلى عمق الحقل حيث المكان المحدد. غير أن استدارة السيارة وعودتها من حيث أتت، أتحفتني بمفاجأة جديدة، لكنها سارة هذه المرة. وبدأت أفكر بسيناريوهات مختلفة.

خرجت السيارة من حقل الرمي، وانعطفت نحو اليسار سالكة الطريق إلى دمشق. فتنفست الصعداء، واستبعدت احتمالات التصفية والقتل. لكن المخاطر ما زالت جاثمة على الطريق، فسوف نمر أمام معسكر الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة، حيث ماهر الأسد***، وما أدراك ما ماهر الأسد وجلاوزته. فهل يمكن أن يكون الاختطاف إلى هناك؟

تجاوزت السيارة المطب الأول عند بوابة معسكر تدريب الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة، وهو على مقربة من قرية عرطوز****. أصغيت بعمق لأستكشف المسار. هل تنعطف يساراً باتجاه مدخل المعسكر أم تتابع الطريق؟ في تلك اللحظة كانت السيارة تتجاوز المطب الثاني، وتنطلق بسرعة، فقلت: إذن إلى فروع الأمن في دمشق. وصرت أتابع طريق السيارة إلى عرطوز، فجديدة عرطوز، وبعدها إلى معضمية الشام فالسومرية ومطار المزة العسكري، حتى دخلنا إلى أوتوستراد المزة. كل شيء كان واضحاً أمامي من بصيرتي وتجربتي، فقد اختبرت هذا الطريق وعايشته لأكثر من أربعين عاماً في الذهاب اليومي والإياب بين مدينتي والعاصمة. وبقيت محتفظاً بقدرتي على رصد مسار السيارة حتى دخلت مدينة دمشق. وعند دوار الجمارك تاهت رؤيتي واختلطت المداخل والممرات والتوقفات العديدة، ولم أعد أعرف إلى أين نتجه في المدينة. طمأنت نفسي وقلت: إذن هو الاعتقال من جديد، لكنه بسرية وصمت هذه المرة.

في الفرع

توقفت السيارة، وتناول أحدهم ذراعي الأيمن، ودعاني للنزول: "يلا.. انزل". قادني الرجل بضع خطوات إلى حيث يوجد زميل له في أعلى درج القبو. وكالعادة، تناول العنصر الآخر ذراعي، وهو يرحب بي بسخرية ممزوجة بتهديد قائلاً: "أهلاً وسهلاً.. شرَّفت والله". وهبطنا الدرج.

في باحة القبو حرر الرجل يدي من الكلبشات، ورفع الطماشة عن عيني، وقال: اِلحقني. وبالتفاتة سريعة يمنة ويسرة عرفت أنني في قبو الفرع الداخلي لأمن الدولة، فقد أمضيت عامين كاملين في هذا المكان نائماً على حذائي في العديد من زنازينه الانفرادية. كان ذلك قبل أكثر من عقدين من الزمن في عامي 1987 و1988 خلال فترة اعتقالي الطويلة بين 1987-1995. سلّمت الأغراض في غرفة التحقيق التي أعرفها جيداً وتعرفني، لطالما أمضيت فيها ساعات طويلة أثناء التحقيق واقفاً أو جالساً أو مرمياً على الأرض، وصراخي يملأ المكان، ويصل إلى السماء السابعة أو إلى "حرّان العواميد" كما كان يهددني ساخراً أحد عناصر الفرع. أعرف دواليب التعذيب في الزاوية، وجهاز الفلق المسنود بعناية إلى الجدار، والأسواط المصنوعة من الكابلات الرباعية المجدولة بعناية ومعلقة بترتيب خلف الباب. وأعرف كلمات التهديد والتأنيب البذيئة بلكنة ساحلية معروفة ومميزة.

قادني أحدهم إلى إحدى المنفردات الخارجية. دققت حولي متفحصاً المكان، وإذا به هو.. هو نفس المكان. المطبخ نفسه، وكذلك الفسحة السماوية الضيقة، الزنازين الصغيرة بأبوابها الخشبية وشرّاقاتها المفتوحة باستمرار، والصمت الرصاصي الثقيل لم يغادر المكان. وكأن ما أراه أمامي الآن من أوابد سوريا التي لا تحول ولا تزول. أغلق الباب خلفي، وسمعت رتاجات الباب الثلاثة، التي ألفها سمعي بثمانينات القرن الماضي وبنفس المكان. بقيت واقفاً، أتفقد جدران الزنزانة، باحثاً عن آثار سوريين سبق أن مروا من هنا لأسباب تتعدد بتعدد شؤون الحياة. وكنت أبحث بالتحديد عن ذلك البيت من الشعر الذي قرأته في هذا المكان على جدار آخر قبل زمن بعيد، وأخرجني وقتها من اليأس إلى الأمل ومن القنوط إلى الرجاء. وبالتالي من سجن النظام إلى فضاء سوريا الرحب. لم أجده، لكنني وجدت نفسي أستذكره بصوت مسموع:

ضاقت، ولمّا استحكمت حلقاتها
\فُرجت، وكنت أظنها لا تُفرج.

في الأربعين من عمري دخلت هذه التجربة في هذا المكان، وها أنا على أبواب الخامسة والستين أدخلها من جديد لذات الأمر وفي نفس المكان. وكأن البلاد هي البلاد، لا شيء تغيَّر إلا أعمار الناس. لكن عليَّ أن أعترف، أنها اليوم بمذاق آخر. لسنا وحدنا من يتكلم، ولن نكون وحدنا في السجون. فسوريا الصامتة، خلعت صمتها. والشعب الذي نام طويلاً على الصبر والخوف، ينهض لكسر قضبان السجن الكبير. كنت هادئاً وواثقاً ولا مبالياً لأسباب عميقة، لا تطفو على السطح، أحس بها ولا أعرفها.

لم تطل إقامتي هذه المرة في "فرع الأمن الداخلي" غير يوم واحد، لأن المطلوب -كما ظهر فيما بعد- أن يجري التحقيق في المقر العام لأمن الدولة في كفرسوسة. وفي السيارة التي أقلّت المجموعة المطلوبة إلى "إدارة المخابرات العامة"، صادفت الصديق والزميل فايز سارة*****، وكان ضمن المجموعة. في القبو الشمالي من سجن كفر سوسة (الذي أعرفه أيضاً، وسبق أن أمضيت فيه أياماً طويلة) نزلنا في منفردة واحدة فايز وأنا، إضافة إلى مدرّس من آل الشيخ، اقتلعوه من مظاهرات معضمية الشام، ووصل إلى السجن حافياً. المكان شديد الضيق، غير أن الانتفاضة الشعبية حملت رحابتها إلى كل مكان. فاتسعت الأمكنة والصدور والآمال. بضعة أيام لا أكثر، هي فترة التحقيق، أمضيناها هنا.

التحقيق

(في غرفة صغيرة حسنة الفرش والهندام، باشر ضابط شاب التحقيق

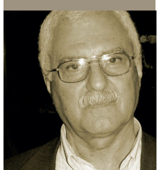
إسماعيل الرفاعي



معي. أمامه ملف سميك، يعطى له ويؤخذ منه بكلتا اليدين. وبعد فترة طويلة من القراءة وتقليب الأوراق، رفع رأسه وبادرني: أهلاً أستاذ جورج. فقلت لنفسي: هذه أولى فضائل الثورة. سألني بأدب جم: أنت عضو في حزب الشعب الديمقراطي السوري، أليس كذلك؟ فأجبت: بل أنا عضو في اللجنة المركزية للحزب أيضاً. قلت لنفسي: الله.. الله ما الذي حدث يا رجل؟ تقر الآن أمام المحقق، بأنك عضو في الحزب ومسؤول عن أقواله وأفعاله. بينما كنت في السابق -بل كنتم جميعاً- تنفون ذلك. وتتحايلون بمختلف الوسائل لتبرير الصلة والتنصل من مسؤولياتها. فكم من مرة قلت بأنك مجرد صديق للحزب، قرأت جريدته فقط، أو تبرّعت له مرة لمساعدة أسرة معتقل. وأنت الآن تقول بالفم الملآن، بأنك عضو لجنة مركزية في الحزب. ابتسمت في سرّي، وربما بانت ابتسامتي للمحقق. وقلت بفرح صامت: لقد بدأ التغيير فعلاً. إنها بعض نتائج أصوات المتظاهرين في الشوارع "سورية بدّا حرية"، فانكسر الخوف في كل مكان.

تركز التحقيق على الظهور الإعلامي، الذي أقوم به على محطات التلفزة والإذاعة والتصريحات التي أطلقتها، وعلى جملة من الاتصالات الهاتفية مع رفاقنا في دول الخليج، يعرضون علينا إرسال هواتف "الثريا"، لتأمين اتصالات فعالة وآمنة بين التنسيقيات، وكنا في أمسّ الحاجة إلى ذلك. لكن الأمر كان يتولاه الرفيق "أبو سرار"، ولم يكن لي من الأمر شيء، إلا أن أكون صلة الوصل.

مر التحقيق معي بسلام، وكأنه إجراء ضبط في مخفر للشرطة عن مشاجرة أو ضياع مفقودات. فلا إكراه ولا عنف ولا تهديد. لا شتائم ولا تقريع ولا تخوين. إنها بركات الثورة، فرضت التغيير في البلاد على كل شيء، فليس لأحد أو لشيء أن يبقى على حاله بعد اليوم. لكنني لم أكن لأعلم -إلا فيما بعد- أن الرفيق "أبو سرار" صاحب المسؤولية الأولى عن الموضوع، كان في الوقت نفسه في الفرع، ويتعرض لتعذيب شديد أوصله إلى حافة الموت. ولم ينقذه إلا صدور العفو العام في ذلك الوقت.



* ولد في مدينة دمشق عام 1946 من عائلة من الطبقة الوسطى. عمل في الصناعة، وبرز اسمه في هذا الميدان كرجل أعمال ناجح. صار عضواً في مجلس الشعب خلال دورتي 1994 و1998. شارك في نشاطات ربيع دمشق، وأثار قضية الهاتف الخليوي عام 2001، مما أورثه غضب السلطة وانتقامها، فأودعته السجن لمدة خمس سنوات. شارك في إطلاق إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي كشخصية وطنية مستقلة، وانتخب رئيساً للأمانة العامة فيه عام 2007. ثم صار عضواً في المجلس الوطني السوري وعضواً في الائتلاف.

** مدينة سورية، تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة على بعد 20 كم عند أقدام جبل الشيخ. سميت "كاتاني" التي تعني باليونانية مفترق الطرق، لأنها على الطريق الذاهبة من الشام إلى فلسطين ولبنان والأردن. عرفت قديماً كعاصمة لـ"وادي العجم"، كما عرفت المنطقة جغرافياً باسم "إقليم البلّان"، لتوفر هذا النبات الشوكي في أراضيها بكثرة. هي مدينتي، ولدت فيها وترعرت، تعلمت من أساتذتها وعلّمت أبناءها، وشاركت شبابها هموم الثورة ونشاطاتها.

*** ثالث أبناء حافظ الأسد من مواليد 1967. ضابط برتبة عميد وإرهابي كبير، يقود الفرقة الرابعة مدرعات والحرس الجمهوري، وهو أحد جلاوزة النظام. له دور كبير في القمع والقتل والتدمير الذي حصل في سوريا أثناء الثورة.

**** بلدة تابعة لمنطقة قطنا في ريف دمشق، تبعد عن العاصمة 15 كم. يعني اسمها بالسريانية "تنح عن الطريق". تقع عند التقاء الطرق الذاهبة إلى دمشق والقنيطرة وقطنا. يمر منها فرع من نهر الأعوج. سكنها بعد عام 1967 عدد كبير من أبناء الجولان النازحين في حي الضهرة، الذي صار مركزاً للنشاط الثوري السياسي والإغاثي والعسكري.

***** صحفي وكاتب معارض، ولد في جيرود بريف دمشق من أسرة فقيرة عام 1950. عمل في الصحافة منذ عام 1973، وشارك في تأسيس عدد من المنابر الإعلامية ومنظمات المجتمع المدني. كان عضواً في المجلس الوطني لإعلان دمشق 2007، واعتقل عام 2008 نتيجة لذلك. صار عضواً في هيئة التنسيق الوطنية 2011، ثم عضواً في الائتلاف الوطني 2013.

في سجن عدرا المركزي

ثلاثة أيام في إدارة المخابرات العامة كانت كافية للتحقيق معنا، حيث تم تحويلنا بعدها إلى القضاء. كنا -فايز وأنا- ضمن مجموعة

واحدة أيضاً، نقلت إلى سجن عدرا المركزي تمهيداً للمحاكمة. في المهجع الأول من الجناح (أ) تم استقبالنا بود من قبل بعض نشطاء الثورة الذين سبقونا إلى الاعتقال. وكذلك فعل بعض الآخرين، الذين يمضون عقوبات سجن لأسباب غير سياسية. فالمناخ العام في المهجع كان للثورة وحراكها ومستقبلها. وصوت النشطاء والثوريين هو الأعلى، حيث كان معظم النزلاء منهم. وكان من المألوف أن يزج السياسيون مع القضائيين في مكان واحد. وهي سُنّة سنّها النظام لحرف الأنظار عن الاضطهاد السياسي في البلاد، وتصوير اعتقال السياسيين ونشطاء المعارضة بأنه يتم في إطار القانون ومؤسساته، وأنه إجراء جزائي، يتم تحت طائلة القوانين العامة. بدأت هذه السابقة أيام نشاطات "ربيع دمشق" بعد عام 2000، حين قام النظام بزج معتقلي الرأي والسجناء السياسيين في تلك الفترة بين المرتكبين للجنح والجرائم والمخالفات القانونية المختلفة إمعاناً في اضطهادهم وزيادة عذابات السجن عليهم. وكذلك فعل مع معتقلي "إعلان دمشق" عام 2007.

كان من هؤلاء الصديق حبيب صالح"، أحد المعارضين الدائمين للنظام والأكثر جذرية. رافق معظم رموز المعارضة ونشطائها في أعمالهم ونشاطاتهم، وشاركهم أيام السجن وسنواته الطويلة. ومن حظنا أنه كان في استقبالنا في سجن عدرا، وفي المهجع نفسه. ومنه يتعرف المرء إلى السجن بكل مداخله ومخارجه وتعقيداته. فهو من أصحاب المحل وروّاده الدائمين، ومعروف من الجميع.

هنا الثورة

في باحة الجناح، حيث يخرج السجناء لقضاء بعض الوقت طلباً لجرعة هواء نقي وشعاع شمس دافئ، كان المشهد صادماً. رجال من كل الأعمار ومن مختلف المناطق السورية، بعضهم يعصب رأسه ويديه بلفافات طبية، وآخرون كسرت أقدامهم ويستخدمون عكازات، والكثير منهم تعرض لجراح وإصابات مختلفة، ولا زالت بقع الدم على قمصانهم وسراويلهم. وجوه سياسية وثقافية معروفة، وشباب عشريني يخوض غمار الصراع من أجل الحرية لأول مرة وبأقسى الظروف. دفعني هذا المشهد لأتمتم في سري "تباً لهم.. إنهم يسجنون الثورة". وتذكرت مشهداً مماثلاً في سجن صيدنايا العسكري عام 1989، عندما دخلته وشاهدت السجناء. كانوا آلافاً من السوريين من جميع الانتماءات القومية والدينية والطائفية والجهوية، ينتمون لمختلف الاتجاهات السياسية والفكرية والعقائدية، أتى بهم النظام من جميع أنحاء البلاد ليستتب له الأمر. فقلت وقتها بصوت عال: "الله لا يوفقك يا حافظ الأسد، إنه يسجن سورية".

في ذلك الوقت المبكر من أحداث الثورة، كان الوافدون من جميع المناطق التي بكّرت في تحركها خلال شهري آذار ونيسان. من درعا ومدن حوران المنتفضة، من دوما وداريا والزبداني ووادي بردى والتل وقرى الغوطة، من سبينة وحجيرة وأحياء دمشق الجنوبية والشرقية، من القابون وبرزة وكفرسوسة والحجر الأسود ونهر عيشة والقدم. غير أن المعتقلين الشباب كانوا من جميع المناطق السورية. ففيهم الحلبي والحموي والحمصي والديري والرقاوي، وابن الحسكة واللاذقية وطرطوس وإدلب والسويداء. ومنهم الكردي والعربي والتركماني، وفيهم المسلم والمسيحي والدرزي والإسماعيلي والعلوي، الذين يشاركون في مظاهرات دمشق وريفها. باختصار، كان النزلاء سجناء سوريين، يعبّرون عن صورة الثورة وحقيقتها، عن سوريتها ووطنيّتها وسلميّتها.

كانت الحميمية وروح الود والتعاون بين النزلاء تكاد لا تصدق. يتضامنون، يتكافلون، يتضاحكون بسخرية مرة، يتبادلون الطرائف المميزة في الوقائع الخاصة بالثورة في مناطقهم. أيام قليلة جعلت منهم فريقاً واحداً يقدر عمره بالسنوات. حماس للبذل منقطع النظير، ثقة بانتصار الثورة لا حدود لها، وليست موضع نقاش. والانتماء للثورة بحث دؤوب عن كرامة مفقودة، عند بعضهم همّ شخصي، وعند الكثيرين همّ وطني جامع. لا تردد ولا شكوك، فليس غير الاستمرار. حتى أن بعضهم -وخلال إقامتي معهم لشهر واحد- خرج من السجن وعاد إليه ثانية بعد أيّام لاشتراكه في مظاهرة جديدة في مكان آخر.

هي الثورة، قبس من عظمة الشعب، كبيرة بحجم البلاد، وعصيّة على الكبح والتعليب. هكذا لامستها.. هكذا عاينتها في سجن عدرا.

مفاجأة واكتشاف

في إحدى زوايا المهجع كان موقع الشابين معتز.. وفراس.. وهما شابان من جبل العرب في مقتبل الثلاثينات من العمر، يتحركان بصمت وتهذيب، ويتصرفان بكبرياء واحتشام كعادة الموحدين الدروز. كان الرجلان مثالاً للتعفف والغيرية واللباقة التي تورّثها المجالس والمضافات لمن يتربّى في حناياها. كل ذلك وغيره كان حافزاً للاحتكاك والتفاعل الإيجابي والتواصل السريع بيننا. ومن الطبيعي أن يبدأ حديث التعارف بين السجناء بالسؤال التالي: لماذا أنتم هنا؟ ماذا فعلتم؟ وتولى معتز الإجابة. حكى الرجل حكاية الصديقين ببساطة وسلاسة، مثلما يروي طفل لأمّه مجريات أول يوم من أيامه في المدرسة. وبدا لي المشهد داخل الحكاية كذلك بالفعل، بعد أن أحطت بكل جوانبها.

مساء الجمعة 17 / 12 / 2010، اليوم الذي ضج فيه العالم بحادثة محمد البوعزيزي في تونس، كان الصديقان -وهما طالبان في جامعة دمشق، يسكنان في المدينة الجامعية- يتابعان الأخبار، عندما قال أحدهما للآخر: هذا البوعزيزي عمل شيئاً مفيداً، وأثبت أنه إنسان حر. فما الذي نفعله نحن؟ نكتفي بالمشاهدة والأسف والتبرّم ممّا يجري، ثم نعود إلى الصمت وننخرط بالقطيع. أثارت هذه الوخزة الجارحة حمية الآخر، وهب في وجه صديقه صائحاً: وماذا نستطيع أن نفعل؟ قل ما تريد وأنا جاهز. اقترح الصديق على صديقه أن يكتبا بياناً ضد النظام، يوزّعانه في المدينة الجامعية. وهذا ما كان.

كتب الصديقان بياناً بخط اليد شديد اللهجة ضد الاستبداد والديكتاتورية، يهاجم تسلط أجهزة الأمن، ويفضح فساد المسؤولين، ويطالب بالحرية للشعب. وبعد تصوير العديد من النسخ، قام الرجلان بتوزيع البيان في أنحاء متفرقة من المدينة الجامعية على أوتستراد المزة. لم يحرك البيان شعرة في مفرق دمشق النائمة وجامعتها التي تسير بقوة الانصياع. ومن المرجح أن عددا قليلاً من طلاّب الجامعة سمع بالواقعة، وعددا أقل قرأ البيان واطلع عليه. لأن "الحرس الجامعي" تولّى جمع البيان بسرعة واحتراف دون إثارة أيّ ضجة أو بلبلة. في اليوم التالي لم يحصل أيّ رد فعل في المدينة الجامعية، فكأن شيئاً لم يكن. ولم تعر أجهزة الأمن بيان الصديقين المحتجين أيّ اهتمام ظاهر. فمن الواضح أنه عمل فردي، ليس فيه

أيّ أثر ليد سياسية منظمة. مكتوب بخط اليد ومحدود التوزيع في المدينة الجامعية فقط. لذلك قوبل بالتجاهل والاستخفاف من قبل السلطة، فلا شيء يستدعي القلق.

في مساء اليوم التالي عاد الاحتكاك بين الرجلين، عندما قال الأول ساخراً: ما الذي فعلته يا بطل؟ لم ينتبه أحد إلى ما فعلت، ولم يسمع به أحد. قال الثاني: لماذا لا نفعل شيئاً كبيراً، يثير الاهتمام ويلفت الأنظار؟ تعال نكتب على جدران المدينة، ليرى ويسمع كل الناس. ولم يطل الحوار. انطلق الصديقان إلى أوّل محل لبيع الدهان. وعند منتصف الليل وصلا إلى قلب دمشق، يحملان بخاخات الدهان الأسود وتصميماً على كسر الصمت، محمولان على جناحين من شجاعة وحلم. والهدف واضح لا بد من إيقاظ السوريين، فقد طال نومهم.

بدأ الحوار الصعب بين الكتابة والجدران، في ذلك الليل الدمشقي الدامس، من الجدار الغربي لقلعة دمشق، نزولاً إلى السنجقدار فالمرجة، وصولاً إلى جسر فكتوريا. وهناك أمام الجسر الصاعد على منطقة البحصة، بدأت دراما الرجلين المجهولة والصامتة. ألقي القبض عليهما، بينما كانا يكتبان على قوائم الجسر وقاعدته. ملأ الصديقان معتز وفراس قلب دمشق كتابات تندد بالفساد، وتدعو لإسقاط النظام ورئيسه، وتطالب بالحرية والديمقراطية وإطلاق سراح المعتقلين والسجناء السياسيين.

استيقظت دمشق خالية البال، لا يعكّر صفوها شيء. بضع بقع من الدهان الأبيض، تلطخ الجدران بشكل عشوائي، وتخفي خطوطاً سوداء باهتة وغير مقروءة، موزعة على جدران المنطقة الممتدة بين سوق الحميدية وفندق سمير أميس. وشابان من أقصى جنوب البلاد في أحد أقبية الأمن، لا يعلم بهما أحد. ضبطا بالجرم المشهود، ويتعرضان للاستجواب والتحقيق.

لا شيء يثير الريبة والقلق فيما فعله ويقوله الفاعلان. ولا يبدو أنهما وما فعلاه جزء من حركة عامة. وليس هناك ما يشير إلى أن وراء الأكمة جماعة أو حزب أو منظمة. وبدا للأجهزة الأمنية أن ما جرى في قلب العاصمة في الشهر العاشر من عام 2010 مجرد "ولدنة" شباب أو "حماقة" ضالين ومنحرفين، ليس لها أن تعكر صفو النظام. فدُفع الرجلان إلى زنزانة قصية، ورميت قضيتهما بالنسيان. لكن التاريخ، تاريخ سوريا والمنطقة كان يتغير بأيد شبيهة وشجاعة مماثلة. ولم يكن لأيّ منهما أن يعلم بما يجري في سوريا والمنطقة إلا بعد ثلاثة أشهر، عندما نقلا إلى سجن عدرا. كانت مفاجأة سارة لهما، وكانا مفاجأة مدهشة للجميع.

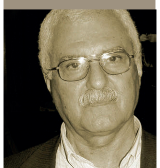
عندما انفجر البركان السوري بعد منتصف آذار، وامتلأت الأقبية والسجون وغرف التحقيق بالمنتفضين والمتظاهرين، تذكر جلاوزة الأمن العسكري، حيث يوجد سجينان منسيان بلا قضية، أنهما جزء من "المؤامرة الدولية" ظهرا على السطح في وقت مبكر. بل كانا من طلائع "المخربين" الذين يتحركون اليوم في طول البلاد وعرضها. فألحقوهما بجموع الشباب التي كانت تفد إلى سجن عدرا من مختلف أنحاء البلاد بنفس التهمة ولنفس الغرض.

لم تكن دهشتي لما أسمع، أقل من دهشة الرجلين بعد أن عرفا ما جرى ويجري في تونس ومصر وليبيا واليمن، وفي البلاد التي ضاقت بصمتها دهراً، وهي اليوم تضج بصراخها حتى الامتلاء. وكان الهتاف المكتوب والممحوّ على جدار قلعة دمشق في سياق الهتافات المسموعة اليوم في سوريا. بل كان عزفاً منفرداً ورائداً -كقصف تمهيدي- في معركة العزف الثوري المستمرة.

كانت فرحة تعقد اللسان، تلك التي انتابتني وأنا أكتشف دليلاً جديداً على عمق ثورة السوريين، وأحد إرهاصاتها المبكرة التي لم يدر بها أحد قبل أن تروى، ويشاهد أبطالها في المهجع الأول من الجناح (أ) في السجن الذي ينغل فيه الثوار كالدبابير، وتنداح منه إلى فضاء سوريا حكاياتهم المدهشة.

أنا على يقين اليوم، أن ثمة إرهاصات كثيرة للثورة السورية مماثلة ومختلفة، مازالت مخبوءة تحت الألسنة أو في الذكريات وبالصدور، تنتظر من يكشف عنها ويرويها. فتحية محبة وإعجاب للصديقين معتز وفراس حيث يقيمان ويتجهان.

حكايات متفرقة



كانت حوران تتشمس معنا بالسجن في تلك الأيام النيسانية. شباب ويافعون، كهول ابيضت مفارقهم، وأثقل الدهر كواهلهم. لقد قذفت حوران غضبها كبركان، ورمت في وجه النظام عصى الطاعة. فلم تتسع مراكز التوقيف في المحافظة -على كثرتها واتساعها- أعداد الحوارنة الذين قالوا لا.. بكل اللغات. وأردفوها بتهديد الطاغية "وك إنت علقان بدرعا". قال لي شاب منهم "أستاذ لويش صرنا بعثية، أنا بعثي، وأبوي رئيس اتحاد الفلاحين في المحافظة". قلت: لا أعرف، اسأل أباك، فأجاب "هناك هو قاعد بالشمس" وأشار إلى الجهة الأخرى، حيث يوجد البعثي خلف القضبان في سجن حزبه.

ولمحمد الدرعاوي حكاية طريفة. شاب عشريني، يعمل في محل لبيع الموبايلات في مدينة درعا. ما إن سمع هتافات المتظاهرين، حتى أغلق المحل وانضمّ إليهم. كانت المظاهرة تتقدم، وعنف النظام في مواجهتها يشتد. وبينما كان محمد يسعى مع زملائه في نقل المصابين وإسعاف الجرحى، رنّ جرس الهاتف في جيبه، وإذا بصوت أمه يناديه: وينك إنت يا محمد. (قال لي محمد: خشيت أن تفزع وتردعني إذا علمت أنني في المظاهرة) فقلت: في المحل يمّا. فما كان منها إلا أن قالت "تفو عليك، رفقاتك في المظاهرة، وإنت جالس مثل النسوان بالمحل" فقلت "حاضر

في باحة الجناح، حيث يخرج السجناء لقضاء بعض الوقت طلباً لجرعة هواء نقي وشعاع شمس دافئ، كان المشهد صادماً. رجال من كل الأعمار ومن مختلف المناطق السورية، بعضهم يعصب رأسه ويديه بلفافات طبية

يمّا، هالسع ألحقهم بالمظاهرة». فأيّ تحية يمكن أن تليق بهذه الأم، وترتقي إلى عظمتها الرائعة. وكم كان في حوران، وكم أخرجت سوريا أمهات مثل أم محمد الحورانية؟

و«للرجل البخاخ» حكاية في عدرا. راقبته لعدة أيام، شاب لا يتجاوز العشرين من عمره، هادئ، صامت، خجول، مهذب إلى درجة تستفزك. لا يفعل شيئاً إلا أن يشرب الشاي، وينظر في وجوه الناس نظرات زائغة. على وجهه مسحة من البساطة والتلقائية، تعطي انطباعاً بأن الرجل شبه أبله. سألته السؤال المعتاد. وأنت ماذا فعلت؟ قال بعفوية مطلقة: أنا الرجل البخاخ. قلت: تكتب على الحيطان أليس كذلك؟ فأومأ برأسه وقال نعم. قلت: أين كتبت؟ فأجاب دون اهتمام يذكر: على جدران وزارة الداخلية. رفعت رأسي بانتباه، ونظرت إليه كالملسوع متعجباً ومستنكراً: على جدران وزارة الداخلية يا رجل! ألم تجد أمكنة أقل خطراً، تكتب عليها؟ فأجاب ببرود متناهي البساطة: ملأت جدران دمشق، أنا أكتب وهم يمسحون خلفي. استيقظت يوماً في منتصف الليل، وفكرت أن أكتب في مكان يفضحهم إذا طرشوه بالبياض. فاقترحت على نفسي مبنى وزارة الداخلية في المرجة، وهكذا فعلت. فسألته باستغراب: وهل كنت تتوقع أن تكتب هناك دون أن يقبض عليك أحد؟ فقال الرجل: لم أفكر في ذلك. كل ما فكرت فيه هو تحديهم وفضحهم.

نجح الرجل البخاخ في إتمام عبارته على الجدار الشرقي لوزارة الداخلية دون أن يراه أحد. وقبل أن يتمّ عبارته الثانية على الجدار الجنوبي للوزارة، وقع في قبضة الأمن. حيث أن المنطقة تحت السيطرة على مدار الساعة.

دخل زميلي البخاخ السجن وخرج منه عدة مرات. وبعد أكثر من عام علمت أنه استشهد. فتحيّة لروحه المندفعة الشجاعة، وليده البارعة التي رفعت سقف الثورة إلى درجة الاقتحام. يؤلمني ويخجلني، أنني لم أعد أذكر اسمه. لكنني أعرف أنه من حي «باب سريجة» أحد أحياء دمشق القديمة.

ول«كاسر الرؤوس» حكايته أيضاً. اسمه سعيد، وكان سعيداً بما يفعله. فقد اختص من فعاليات الثورة العديدة بتحطيم «الأصنام»، ويقصد بها تماثيل حافظ الأسد. كان يتنقل مع المظاهرات المتنقلة في قرى غوطة دمشق المتلاصقة، ليمارس هوايته المفضلة إلى حد الهوس. ولمّا سألته كيف تم اعتقاله قال: خرجنا في مظاهرة من «حجيرة» (وهي إحدى قرى الريف الدمشقي الملاصق للعاصمة من جهة الجنوب)، واتجهت المظاهرة باتجاه مدخل القرية من أجل الخروج إلى القرى المجاورة، سبينة والسيدة زينب. وعند تقاطع مدخل حجيرة مع الطريق العام، جثم صنم نصفي على قاعدة من الرخام، وضعه المتنفذون والمنافقون في القرية عند مدخلها. قال سعيد: كان التمثال ينظر إليّ نظرات التحدي، فلم أتمالك نفسي. قفزت فوق المنصة التي تحمله، وبدأت أركله بقدمي لإهانته وكسر شوكته المعنوية. صعد الآخرون معي، وحاولنا تحطيمه وإسقاطه بكل الوسائل فلم نفلح. كان متيناً ومثبتاً بعناية. لكن من يمكنه أن ينزل قبل أن يحطم الصنم. وتعالى التصفيق والهتاف حولي. فلم أعد أسمع شيئاً، أو أرى شيئاً. أريد إسقاطه بأيّ ثمن. وبقيت أركل به وأدفعه بجنون باليمنى مرة وباليسرى مرات، حتى سقط. وسقطت معه على الأرض، فقد كسرت قدمي. قلت مازحاً: ما سر هذا العداء بينك وبين صنم السلطة. فقال «أستاذ.. كل البلاوي الموجودة اليوم، هي من أفضال ذاك الطاغية المقبور».

ثائر معروف



ولأبناء الجولان حكاية خاصة بل حكايات. ف«النازحون» (هكذا أطلق على أهل الجولان المحتل، الذين نزحوا عن أرضهم بعد سقوط القنيطرة أو «إسقاطها» عام 1967) انخرطوا في الثورة السورية منذ أيامها الأولى بشكل مثير ولافت للنظر. فقد اكتشفوا -ولو بعد حين- أن النظام رماهم بالإهمال والإذلال والتهميش زمناً طويلاً. فلا هو ساعدهم على استعادة أرضهم وبيوتهم المحتلة، ولم يؤمن لهم سبل التعليم والعمل والعيش الكريم، كما يليق وينبغي. لذلك وقعوا تحت ظلامات مركبة. فهم سوريون مثل الجميع، لكنهم أولاً وآخراً نازحون.

وصل أبناء الجولان إلى السجن والرصاص في أفخاذهم، لم يستخرج بعد. رغم أنهم أمضوا أسابيع في الفروع. هبت تجمعاتهم بقوة، ورمى معظمهم أنفسهم في حضن الثورة. فوفد المعتقلون من مختلف مناطق ريف دمشق، ومن الأحياء الهامشية والطرفية للمدينة، حيث يتواجدون. من عرطوز، جديدة الفضل، القدم سبينة، نهر عيشة، الحجر الأسود، ومن مناطق أخرى عديدة. ولأنهم عشائر، كان لزعامة العشيرة دور بارز في إطلاق يد الثورة في تجمعات أبناء الجولان. قال محمد، وهو ابن أحد زعماء العشائر البارزين في نهر عيشة: أوصانا أهلنا، أن افعلوا ما تشاؤون، ولا ترتبطوا معنا ومع ما نقول ونفعل. خذوا حريتكم، ولا تسألوا عن أحد. ولا تستجيبوا لنا إذا اضطررنا. إنه اتفاق ضمني، وإذا شئت «تواطؤ» كي تمر الثورة من كل الأبواب، ويقل دفع الثمن.

كانت أم رياض -من تجمع النازحين بقطنا- تصيح بأعلى صوتها، وعلى مسمع من الجميع موصية أولادها السبعة «ولكن لا تطلعن بالمظاهرة مع بعض، ما ريدكن تموتون بيوم واحد.. اطلعن تنين تنين». اقشعر بدني عندما سمعت بهذه القصة لأول مرة. وبحثت في

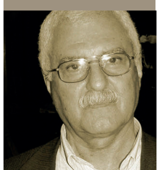
الذاكرة الثقافية والتاريخية للأمم من التراجيديا اليونانية وحتى اليوم، لم أجد مثيلاً لها. أم تدفع أولادها للتظاهر، وهي تعرف -بل متأكدة- أن الموت قابع في أحد مفارق الطريق، ولا تبالي. كل ما يهمها أن لا يموتوا في يوم واحد. فهذا ثقيل على أمّ قررت التضحية بأغلى ما تملك من أجل أمل بالخلاص.
يا للهول.. إنها التراجيديا السورية المعاصرة في صناعة الحرية والكرامة. لا بد أن تكتب، وتقرأ في صفحات التاريخ. رحمة الله عليك يا أم رياض حية وميتة.

مشعل التمو

أفادنا النزلاء الأقدم، بأن مشعل التمو** موجود في الجناح المجاور، ويمكن أن يطلّ علينا ونحادثه عبر نافذة الجناح المفتوحة على باحتنا، وهكذا كان. موعدان لنا -فايز وأنا- واحد قبل الظهر وآخر بعد الظهر مع مشعل والنافذة للحوار وتلقي نشرة الأخبار. الأوضاع في سوريا على صفيح ساخن، والتطورات سريعة ومتحوّلة كل يوم بل كل ساعة. وفي الجناح الآخر جهاز راديو، ينقل الأخبار. لذلك صار مشعل يذيع الأخبار لنا مرتين في اليوم بعناية وخبرة. فالرجل سياسي معروف، يتمتّع بصدقية وموثوقية، ويتزعم تنظيماً بارزاً بين الأحزاب الكردية اسمه "تيار المستقبل".
لم يكن وجه مشعل واضح المعالم، وهو يتلو على مسامعنا أخباره، التي كنا نراها في مجملها سارة. فستار كثيف من الزجاج والشبك الناعم، يحول دون وضوح الرؤية. لكن صوته الرصين وفصاحة لغته الواضحة، وأهمية مجريات الحدث السوري والعربي هي ما كنّا نحتاجه وننتظره، وكان يصلنا بوضوح. صار الموعد مقدساً بالنسبة إلى المنتظرين على طرفي النافذة من الأمام والخلف. ومن الطريف أن السجناء الآخرين على جانبي النافذة كانوا يحترمون هذه الخصوصية بيننا، فلا يقتحمونها، ولا يحاولون التطفل. بل يكتفون أحياناً بالاستفسار عن الأوضاع في الخارج بداعي المعرفة والاطمئنان.
أعترف اليوم أن مشعل كان كريماً علينا بوقته ورحابة صدره، وحليماً في تحمل أسئلتنا واستفساراتنا، التي تكون أحياناً نافلة أو فوق الطاقة أو زائدة عن اللزوم. وليس أقل من النبل يمكن أن تصف سلوكه الذي دأب على أداء مهمة بانتظام كامل، أبقتنا على صلة مع الخارج طوال شهر كامل، وتعامل معها كمهمة أخوية ووطنية، تستحق العناء.
فإلى روح الوطني السوري الكردي الشهيد مشعل التمو ألف رحمة ورحمة. ولشد ما يحزنني أنني قابلته في السجن لأول مرة ولآخر مرة. إذ لم تمهله طويلاً -بعد خروجه من السجن- يد الخيانة والغدر المعادية لسوريا المستقبل، فقد اغتالته تحقيقاً لمآرب النظام في طعن الثورة، وتغييب أحرارها. لأنه كان بحق مشعلاً كردياً في الثورة السورية.

محمد فليطاني

عندما قابلت الشهيد محمد فليطاني***، في الباحة، كنا كصديقين حميمين افترقا طويلاً والتقيا فجأة وعلى غير موعد. فمعرفتي بابن دوما البار معرفة سياسية. فقد عملنا معاً ولمدة طويلة من خلال حزبينا في إطار "التجمع الوطني الديمقراطي". فنحن نعرف عن بعضنا من ألسنة الآخرين أكثر مما أتاح لنا الزمن من فرص للتعارف المباشر. كان أبو عدنان عضواً في قيادة "الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي"، وقائداً بارزاً للحراك المبكر للثورة في مدينته دوما. وفد إلى السجن مع العشرات من أبنائها، بينهم ابنه وأبناء أخيه. التقينا كصديقين، وتحدثنا طويلاً كرفيقين على درب المعارضة الطويل، وفي مسار الثورة التي ارتمينا في أتونها. استمع إلى شكواي من العجز والتقصير والتردد الذي يحكم سلوك وأفكار بعض المعارضين، واستمعت إلى همومه وقلقه من الخلافات في الرأي والتباين في الرؤية مع بعض أعضاء القيادة في "الاتحاد" حول الثورة ومشاريع النظام لاحتوائها وحرفها عن مسارها. واتضح لي وأنا في السجن أن محمد فليطاني وعدنان وهبة**** في الثورة، بينما يراوح الآخرون في مواقع معارضة بمكان ما بين الثورة والنظام. وهذا ما كان، فقد مضى محمد وعدنان على رأس شهداء دوما، شهداء الثورة السورية.



استمر التواصل بيننا بعد الخروج من السجن وخروجي من البلاد عبر الهاتف والوسائل الإلكترونية الأخرى، من أجل تأمين الدعم الإغاثي والسياسي لدوما والغوطة الشرقية. وقد فعلنا ذلك بفشل حيناً ونجاح أحياناً. إذ لم تتوفر دائماً الأيدي الأمينة والنزيهة لأداء المهمة.
أعطى محمد فليطاني كل ما يستطيع وأغلى ما يملك للثورة دون حساب، كما فعلت أرض دوما.. وتستمر.

الزيارة

كانت الزيارة أسبوعية، ينادي الشرطي على الموقوف، ويصطحبه إلى مكان محدد عند أحد مداخل السجن، حيث الشبك الذي يفصل بين كلمات الأهل ونظراتهم وعواطفهم. يوم السبت 23 نيسان جاءت زيارتي. وأمر مدير السجن بالتفاتة كيدية تستهدف إذلال السجناء السياسيين، بأن يرتدي السجين المُزار أثناء الزيارة لباس السجن المعروف، كما يفعل عادة السجناء العاديون. واللباس عبارة عن قميص وبنطال من القماش المخطّط طولياً بخطوط عريضة، يسلّم للسجين عند دخوله السجن. لم تسلّمنا إدارة السجن هذا اللباس، لكنها طلبت أن نستعيره من الآخرين، ونلبسه أثناء الزيارة.
بعد مشاورة قصيرة بيننا قرّرنا عدم الاستجابة لطلب مدير السجن، ونرفض الزيارة إذا أصر على ذلك. فروح التحدي والمواجهة التي تحدى فيها الثوار السلطة في الشارع، استمرت معهم داخل السجن. ومعظم الشباب التزموا بهذا القرار. جاء الشرطي ليقول: أهلكم على الباب ينتظرون، ووقت الزيارة شارف على الانتهاء. تصدى له زياد بنبرة ديرية صارمة: قل لمعلمك لسنا مرتكبين حتى نلبس لباس السجن. أتى والد زياد من دير الزور، وهو ينتظر الزيارة منذ الصباح. وهكذا فعل ضياء. وهو شاب دمشقي من أسرة ميسورة، لا تشغلها هموم العيش، لكنها اندفعت في سياق الثورة من أجل سوريا وأهلها ومستقبلها، وفي سبيل الحرية والكرامة. دخل إلى السجن بسبب ذلك وخرج منه عدة

مرات، واستمر يحمل رسالة الثورة، ويحوم في فضائها مثل حمام دمشقي زاجل مخلص ودؤوب، همه أن تصل الرسالة. ورغم تردد البعض وانصياعهم لتعليمات مدير السجن، نجحنا في فرض إرادتنا على السجان، وعاد الشرطي ليقول: إلى الزيارة يا شباب كما تريدون.

الجمعة العظيمة

شاهدت وجوهاً عديدة من أفراد أسرتي، وسمعت كلاماً كثيراً من أفواههم. غير أنّ وجه زوجتي وكلماتها التي تروي خروج أول مظاهرة في قطنا هي الأبقى في ذاكرتي وقلبي ووجداني. قالت المرأة: يوم أمس الجمعة 22 نيسان، كانت الجمعة العظيمة. وأثناء خطبة الجمعة في مسجد الغلاييني، وبينما كان الشيخ يدعو للرئيس، صاح به الشباب من داخل المسجد، أن أسكت خزاك الله أنت ورئيسك. شتموا الخطيب، وتصدى له أحدهم، فأنزله عن المنبر، ورماه على الأرض بين يدي الشباب وأقدامهم. وخرجوا في أول مظاهرة بالمدينة.

تجمع المصلون في الساحة عند مدخل الجامع، وانضم إليهم آخرون كانوا ينتظرون خارج المسجد، واحتشدت المظاهرة. انطلق المتظاهرون في شارع ابن رشد باتجاه ساحة السريان، يحملون لافتات تطالب بإطلاق سراحك. وصلنا الخبر إلى البيت، فسارع إخوتك وأولادك وبعض الأقارب للالتحاق بالمظاهرة. وساروا معها بقية الطريق إلى ساحة العبد، حيث تفرقت بعد أن أدت رسالتها، كأول صرخة للثورة في مدينة مدجّجة بالعسكر والسلاح والموالاة.

عدت إلى المهجع متهللاً، فبادرني ابن وادي بردى، وهو زميل مناضل في أحد أحزاب المعارضة، يسأل عن حال الأهل. فقلت اسألني يا أبا محمد عن حال البلد. اليوم تأكدت أنها بخير. وتوجهت للآخرين بصوت مسموع: تعالوا لأحكي لكم حكاية السوريين والطائفية، تعالوا لتروا طائفية الثورة. لم أستطع أن أحبس دموعي وأنا أروي لهم ما سمعته في الزيارة. وأضفت: للمسلمين في قطنا أكثر من عشرين سجيناً سياسياً في سجن صيدنايا، وخرجوا من جامع الغلاييني في أول مظاهرة، يرفعون اسم مسيحي من أهل المدينة، ويطالبون بإطلاق سراحه. وأضفت بفرح داخلي غامر: أرأيتم طائفية الثورة يا شباب، وهل هناك مثال أوضح عن طائفية الشعب السوري؟

عندما حدثني الأهل على الشبك عن "الجمعة العظيمة"، لم يثر الأمر اهتمامي، لأني اعتقدت أنهم يذكرونني باقتراب عيد الفصح. فالجمعة العظيمة هي التي تسبق أحد الفصح مباشرة، وهو العيد الديني الأهم عند المسيحيين في الشرق، لذلك يسمونه العيد الكبير. لكن عندما نشرت الأخبار أن "الجمعة العظيمة" هي إحدى جمعات الثورة، أطلق الثوار اسمها على يوم الجمعة 22 نيسان 2011، جاءني هذا الاسم -كما جاء للآخرين- كدليل آخر على "طائفية" السوريين وثورتهم.

رياض سيف

مساء جمعة التحدي 6 / 5 / 2011، فتح باب المهجع، وأدخل علينا رياض سيف بشكل مفاجئ. كانت بقع الدم وآثار الاعتداء عليه ظاهرة على وجهه وملابسه. إذ نقل مباشرة من أمام جامع الحسن في حي الميدان الدمشقي العريق حيث كانت المظاهرة، ووصل إلى السجن بعد عدة ساعات فقط، أمضاها في فرع الأمن. بدا الرجل وكأنه خارج للتو من شجار كبير. استقبل بترحاب ظاهر، غير أن الازدحام في المكان لم يُبقِ سريراً فارغاً لقادم جديد. وهناك العديد من السجناء يفترشون الأرض في الفرجة الضيقة بين سريرين. غير أن "فراس" أصر على إعطاء سريره للوافد الجديد. فوقف مثل مضيف على باب مضافة في جبل العرب وقال: الأستاذ رياض ضيفي ومكانه جاهز. كان أبو جواد متواضعاً ومهيئاً لمثل هذه المواقف، فقال: أنام على الأرض، وقد سبق أن مررت بهذه التجربة أكثر من مرة وفي هذا السجن بالذات، فلا تقلقوا. غير أن إصرار فراس ومبادرته برمي بطانية على الأرض والاستلقاء عليها، قال كل شيء، ووضع حداً للنقاش بشكل حاسم.

في العام 2000 كان رياض سيف، وهو الصناعي الدمشقي المعروف عضواً في مجلس الشعب. وبدأ يرفع عقيرته بانتقادات الإدارة، ويدعو لكشف الفساد والمفسدين. وأبرز الملفات التي سلط الضوء عليها بشكل منهجي ومميز، كان ملف الهاتف الخليوي. فأعدّ دراسة، ونشرها في كراس، عمّم على أوساط واسعة من المجتمع السوري. اعتقد الرجل أنه يمارس مسؤولياته الوطنية وواجباته كنائب عن الشعب في البرلمان. فحمل عليه النظام، وبيَّت له مطعناً.

انتقل رياض نقلة نوعية في العمل العام بالاتجاه السياسي مقترباً من المعارضة أكثر فأكثر، عندما فتح منزله في صحنايا، ليكون مقراً لـ"منتدى الحوار الديمقراطي". باشر المنتدى أولى حلقاته في نفس العام بمحاضرة للمثقف السوري المعروف أنطون مقدسي*****، في موضوع المجتمع المدني. ودعا المفكر السوري برهان غليون******، الذي يعيش خارج البلاد، لإلقاء محاضرة في المنتدى وموضوعها الانتقال الديمقراطي. كانت المحاضرة حدثاً مميزاً، أثار اهتمام الوسط الثقافي والسياسي، وجاء الناس لحضورها من أقاصي سوريا.

ضاق صدر السلطة بتحركات الرجل، التي ترافقت مع تحركات سياسية وثقافية عمت البلاد وعرفت باسم "ربيع دمشق". فاعتقلته في أيلول 2001، وحكمت عليه بخمس سنوات سجن. انضم خلالها -وهو في السجن- إلى إعلان دمشق، وكان من أبرز الشخصيات الوطنية التي وقّعت على وثيقته التأسيسية. وعندما خرج من السجن، انتخب رئيساً للأمانة العامة لإعلان دمشق، في المجلس الوطني الأول، الذي عقده الإعلان في منزل رياض سيف بدمشق في كانون الأول 2007. وفي مطلع 2008 اعتقل مجدداً بصحبة عدد من قادة الإعلان، وحكم عليه -كما الآخرين- بالسجن عامين ونصف. ليخرج عند منتصف عام 2010.

عملت برفقة الصديق "أبو جواد" في إطار إعلان دمشق قبل دخوله السجن. وعدنا للعمل المشترك بعد أن خروجنا من سجن عدرا. والتقينا ثانية في العمل بأطر المعارضة خارج البلاد، في "المجلس الوطني السوري" وضمن "الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية".

العبّادة

هي قرية صغيرة من قرى غوطة دمشق، بكَّرت سريعاً في استجابتها لنداء الثورة، وبقيت في ميدانها الأوسع في كل المراحل، حتى صارت مركزاً أساسياً لعمل الجيش السوري الحر في الغوطة، ومنطلقاً لنشاطاته في العمليات العسكرية واللوجستية والإغاثية.

في المهجع عدة شباب من العبادة أبرزهم جمال. شاب ثلاثيني

نحيل، متوسط القامة، صاحب نكتة، ويتمتع بقدر كبير من الذكاء الفطري والروح المرحة. نصّب الرجل نفسه شيخاً على قريته، متسلّحاً بما حصّله من ثقافة دينية متواضعة من بعض الكتب ومن مشايخ المنطقة. طيب، ومتواضع، صادق، ويقبض نفسه كشيخ مؤمن بعقيدته ومتحمس لنشرها. إنه نموذج لابن الشعب، للفلاح المسلم في بلاد الشام. كان يكفي أنني مسيحي، ليقترب جمال مني باندفاع وحرارة. تحادثنا طويلاً بلا قيود، اختلفنا حيناً واتفقنا أحياناً، وتجادلنا بمحبة واحترام في كل الأوقات. قلت له مرة في مناكفة ودودة: اسمع يا جمال، أنت شيخ على أهل العبادة. أما هنا فأنت تلميذ، ويمكنك أن تتعلم الكثير عن الإسلام من الموجودين هنا، ولا تتعجب إذا كان أحدهم مسيحي. ضحكنا معاً بحميمية، لأنه وثق بعد حواراتنا الطويلة بحقيقة ما أقول. وبالفعل كنت أروي له الكثير من وقائع السيرة النبوية التي لم يطّلع عليها، وأذكره ببعض الأحاديث الشريفة التي نسيها، أو لم تمرّ على مسامعه قط. وكنا نتناقش معاً في معاني بعض الآيات الكريمة ومراميها وأسباب نزولها.

حدثني جمال عن "ثورة العبّادة" كما يحب أن يسميها، فقال: قررنا أن نخرج بمظاهرة. فحلقت لحيتي (لأنني متأكد، أنهم سينتفونها إذا قبضوا عليّ)، وقررنا الخروج بعد صلاة الجمعة. اتفقت مع الشباب على ضرورة خروج جميع الأهالي. وبالفعل خرجت الضيعة بكاملها. أغلق الناس بيوتهم، وخرجوا نساء ورجالاً وأطفالاً. تجمعنا أمام المسجد وانطلقنا في شوارع القرية مثل كل المظاهرات. وفي المساء كانت سيارات المخابرات تجوب الشوارع بحثاً عن المتظاهرين. وكنت في عداد القافلة الأولى من المعتقلين الذين تراهم معنا الآن. قلت مازحاً: إذن شعب العبّادة ينتفض من شيخ الجامع إلى صبيّ الحلاق، وضحكنا.

ما إن نجلس (جمال وأنا) على طرف سرير أو حول طاولة، حتى يتجمع الزملاء حولنا للاستمتاع بحديث شيق، أو طرفة محببة، أو مناكفة يحلو سماعها والتحدث بها. قال لي مرة: أستاذ.. معقول أن أبقى معك عشرين يوماً ولا أقدر أن (أسوّيك) أجعلك مسلماً. قلت: ما تطق عينك يا جمال ما رح صير مسلم. بتعرف ليش، منشان خللي هالثورة سورية. إذا أنا صرت مسلم، ما بيزيدوا المسلمين، ولا بينقصوا المسيحيين. لكن الثورة بتخسر شيء من سوريتها. وحتى تبقى هالثورة وطنية سورية، لازم نجيب كل الآخرين إلى حضنها. وما تطق عينك ما راح صير مسلم. وضحكنا، وضحك الجميع.

لكن ما فعله ابن العبّادة ليلة العاشر من أيار، وهي آخر ليلة أمضيتها في سجن عدرا، يبقى في الذاكرة، لا يبرحها لطرافته وخفة دمه والعفوية الشعبية التي عبّر عنها. كنا فايز وأنا نتحضر لمغادرة السجن بعد قرار المحكمة بالإفراج عنا بعد شهر من الاعتقال. جلسنا على حافة سريري، نحمل توصيات الزملاء الآخرين وملاحظاتهم وكلماتهم الطيبة. وكان جمال قد اتخذ موقعه كإمام للمصلين صلاة العشاء في باحة المهجع المتطاولة. وما إن علا نداء "الله أكبر" من أفواه المستوين للصلاة، حتى ترك جمال مكان الإمامة، ووقف أمامي قائلاً بصوت عال ولهجة محببة "ما الله هداك قبل ما تروح، تقوم تعمل لك ركعتين". وانفجر المهجع بالضحك. تساوى في ذلك المستوون للصلاة والجالسون على الأسرّة. وكانت أطرف كلمة وداع وأظرفها بين سجينين. أحببتها كثيراً، ورويتها كثيراً ولم أتعب.

في القلب محبة لا توصف لصديقي جمال ابن العبّادة، ابن المسلمين، ابن سوريا، وللعبّادة التي عرفتها من شيخها الشاب، واحتضانها لجذوة الثورة ■

* كاتب وسياسي معارض، ولد في طرطوس 1947. شارك في نشاطات ربيع دمشق الثقافية والسياسية والميدانية. تعرض للاعتقال والمحاكمة عدة مرات، وسجن سنين طويلة على خلفية آرائه ومواقفه.

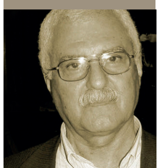
** معارض سوري كردي بارز، ولد في مدينة الدرباسية بمحافظة الحسكة عام 1957. انخرط في النشاط السياسي مبكراً، وعمل مع لجان إحياء المجتمع المدني. أسس "تيار المستقبل" الكردي عام 2005. اعتقل عام 2008، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات. أفرج عنه في حزيران 2011. شارك في أعمال مؤتمر الإنقاذ الوطني، وتم اغتياله في 7 / 10 / 2011 من قبل مسلحين من دوائر النظام، بعد خمسة أيام فقط من تأسيس المجلس الوطني السوري وانضمامه إليه.

*** عضو المكتب السياسي في حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي. كان له دور بارز كناشط سياسي في المعارضة منذ الثمانينات، مثلما كان له دور كبير في فعاليات الثورة في مدينته دوما، قادته إلى المعتقل. رئس المجلس المحلي للمدينة، وساهم في إطلاق المظاهرة الأولى فيها 18 / 3 / 2011. سمي في مدينته "معلّم الثورة" نسبة لمهنته كمدرس. قدم خطاباً رزيناً ومتوازناً وجهوداً إغاثية ملموسة، وتحدث باسم المنكوبين والمحاصرين وأبناء الثورة.استشهد في 7 / 5 / 2014 على يد عصابة من ستة مسلحين وملثمين.

**** طبيب من دوما، عضو اللجنة المركزية في حزب الاتحاد الاشتراكي العربي الديمقراطي، لقبته مدينته "حكيم الثورة" تقديراً للخدمات الجليلة التي قدمها في المجال الصحي. ترأس المجلس المحلي للمدينة، وعمل على تحصينها وتأمين أسباب صمودها. اغتيل بخسة وغدر في عيادته بتاريخ 3 / 6 / 2012 من قبل الأمن السوري.

***** مفكر ومثقف سوري كبير، ولد في مدينة يبرود عام 1914. درس الفلسفة في جامعة مونبلييه الفرنسية والحقوق والعلوم السياسية في بيروت. عمل في وزارة الثقافة السورية مديراً لمديرية التأليف والترجمة. تحرك في إطار ربيع دمشق، فوجه رسالة إلى بشار الأسد، نشرتها جريدة الحياة، يحثه فيها على تحويل شعب سوريا من الرعية إلى المواطنة. توفي عام 2005.

****** مفكر ومثقف سوري ولد في مدينة حمص عام 1945. درس الفلسفة في جامعة دمشق والعلوم الاجتماعية والإنسانية في السوربون. انتخب أول رئيس للمجلس الوطني السوري في 2 / 10 / 2011. عضو في الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة، ومن أبرز المعارضين لنظام آل الأسد. من مؤلفاته "المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات"، "بيان من أجل الديمقراطية"، "اغتيال العقل"، "المأساة العربية: الدولة ضد الأمة".



كاتب وسياسي من سوريا مقيم في اسطانبول

في الطريق إلى الحرية

جابر بكر

هبط الليل حالما بصباح عامر بالحرية. أقفلت عيوني محاولاً النوم. غداً سأركب حمار الجو "الطائرة" ولأول مرة في حياتي. لا أحد يعلم هذا إلا زوجتي وأهلي فقط. والآن لم يعد سرا أني ركبت الطائرة لأول مرة عندما كنت في الثلاثين من عمري. انبلج الفجر محمّلا بالحقائب ونسيت أنا كالعادة أن أتفقد الحرية. اتخذنا السبيل هاربين من عاصمة عربية بالكاد تملك مقومات المدينة. هي عالم أقرب للفوضى التي رأيتها، حينها، قاتلة مدمرة.

خرجنا من بيت أصدقائنا في الأشرفية البيروتية متخذين سبيل المطار. وصلنا برفقة الأصدقاء ومنهم من باتوا أكثر من أصدقاء. تلقفتنا عيون المرافقة الفرنسية على بوابة ميناء الحريري الجوي لنأمن جانبنا. مررنا على المدققين كأننا سياح لم نسأل عن شيء إلا الأوراق. لم ندفع عن فائض الوزن الكبير الذي أصرت زوجتي وضعه في عنابر الحقائب. ركبت في الختام الطائرة العائدة للخطوط الجوية الفرنسية. جلست قرب النافذة فهذه المرة الأولى في حياتي سأرقب الأرض من ارتفاع وليس من باطنها. زوجتي لم تمانع فهي سبقتني إلى هذا السبق. وعن باطن الأرض سأحدثكم كثيرا ولكن بعد حين.

جدتي والحرية

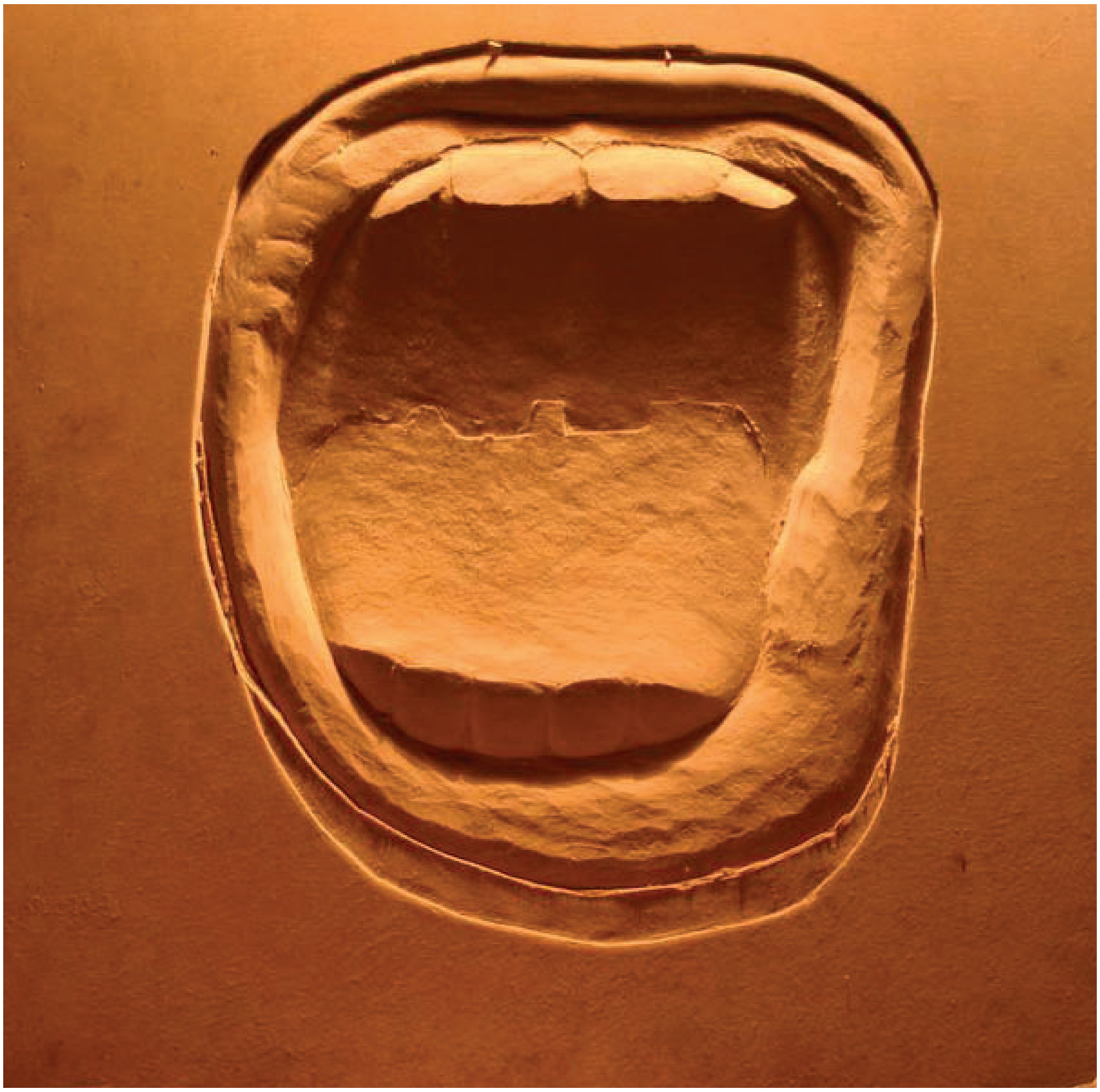
الإنسان كائن جبار. ثقل الوقت العابر يرسم عليه قليلا من التجاعيد وتعبا في قلبه. هي، أي جدتي، لم تمت لا بسبب تجاعيدها ولا بتعب القلب، تلقفها الموت بصمت عبر أمعائها المتورمة. حملتُها رويداً رويداً إلى مقامها الأخير لتسكن إلى ذاتها بعيدا عن ضجيج البشرية. أرسلت وجهها ليقابل التراب خالعاً عنه ثوبه الأخير. استرخت مبتسمة صامتة كعادة الحقيقة. رحلت وتركتني أتخبط بأسئلة لا نهاية لها ولا بداية. كيف ولماذا كل هذا الكون العبثي؟ هل ولدنا لنولد من جديد.

قبل موتها بأربع سنوات، ضربت جرس باب بيتها عائداً من سفر. خرجت تركض إلى الشارع تزغرد وتهلّل وتغنّي. قبلتني وهي تشكر خالقها الذي أعادني من القبر، "الحمد لله اللي رجعك سالم"، وتطلب مني كالعادة سرد الحكاية، كيف خرجت من السجن ولماذا تأخرت؟

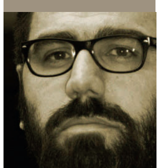
جلست بقربها فواقع الأمر أن لم ولن ينصت أحد لكلامي كجدتي، أخبرتها أنه وفي تمام التاسعة من تلك الليلة التاسع عشر من نيسان عام ٢٠٠٤، وأنا غارق في سهرة مع شاعر كردي كانت المخابرات العسكرية قد اختطفته من بيروت سراً، ومع نائب عام الموصل والذي اعتقل في مطار دمشق وهو في طريقه إلى أسبانيا، فُتح الباب يا جدتي، فإذا بسجان من أبناء السويداء شارباه يغطيان فمه، فتح الباب واستند عليه، ومن ثمة صرخ باسمي، فأجبته بنعم هادئة لا لون لها، قال: "ضب غراضك إخلاء سبيل"، فكبّر الاسلاميون يومها فرحا بخبر الإفراج رغم أني مصنّف على معسكر الخصوم. بعد أن برد الهتاف سألته وبذات اللهجة الغريبة "إخلاء سبيل أم تحويل لفرع آخر"، فسب الذات الإلهية يا جدتي وصرخ بوجه وقال "إخلاء سبيل يا حيوان"، فعلقت جدتي بحمد ربها أنه لم يتركني ويرحل.

تجهزت وودعت كل زملائي في "المهجع" ومن بينهم سعودي كنت قد راهنته على خروجي يومها، بعد أن حلمت بذلك، في السجن كل الناس لون واحد لأن الرب يومها يصير واحداً، فالألم المشترك يوحد الإيمان. وبالطريق إلى مدير السجن يا جدتي طالبني السجان ببشارة الخبر، فأخبرته أنّي لا أملك شيئاً، فنعتني بالمنتوف. مدير السجن صاحب الصوت الجهوري جداً، أحالني إلى المكتب الأول في فرع فلسطين محطتي الأخيرة قبل الخروج، وهناك استقبلني أحمد العلي، كبير محققي القسم، وبادرني بالسؤال "وين هل الغيبه"، فقلت له "بسلامة معرفتك"، رد عليّ بنظرة غاضبة وابتسامة صفراء، إن هي إلا نصف ساعة كنت في مكتب العميد الذي سرد عليّ خطابا بالأخلاق والقيم والمبادئ وغيرها الكثير، ومن ثمة ألمح للتعاون والتواصل وغيرها من التفاصيل، وأنا ارتديت لباس الغباء والبلاهة، ومن ثمة صافحني إلى باب غرفته، لأقف في الممر وحيدا لا أعرف سبيل الخروج وعندما طلبت من العليّ السبيل، ضحك وقال "نسيت إنك فتت محمل لهون"، وها أنا ذا يا جدتي بين يديك.

تذكرت ليلة الإفراج تلك، وأنا في قبر جدّتي أكمل مراسم اللحد والدفن. نعم تعلمت مراسم الموت مذ ودّعت جدي قبل بضعت أيام. جدّي كنت أظنه تعب الروح ولذا تخلص منها، الخلاص من الروح طريقتنا للهروب من الآلام التي لا تحتمل، ولكن الخوف يترصدنا لحدود الغياب. جسد جدّي بدأ يلتهم الدود ما تبقى منه، كما التهم الجرب دماء الكثيرين في تلك السجون. الجرب يكوي دمك ويذيب روحك رويداً رويداً وبصمت كسكينة النواة المحترق قبيل الانفجار. يمتص مياه روحك لتستحيل ثقيلة تسقط والزمن إلى أبعد نقطة بعمق يأسك، عندها تقر أن ترك الروح لهجرتها خير مطلق. لكن روحي تشبثت بالحياة قليلا ولا أعلم كم هذا القليل. كم تمنيت أن أخبرك يا جدّي كيف يموت الناس وهم يتحركون في تلك القبور؟



أحمد شلبي



القاعدة في دمشق

تلك القبور، كان آخرها في رحلة خروجي، المهجع العاشر بفرع فلسطين "المقر القديم" في منطقة الجمارك بدمشق، في ذلك المهجع الذي دخلته أذار عام ٢٠٠٤، قابلت أشخاصاً من مختلف الجنسيات العربية، من بينهم شخص كان يدعى أبو جعفر عرفت في اليوم الأول عبر رسله الليبي والسعودي واليمني، الذين حاولوا جرّي لطرفهم بأنه من الرجال المقربين من "الشيخ أسامة بن لادن"، وكان مقرّبا أيضا من مفتي النظام السوري أحمد بدر الدين حسون، فذاك الأخير قبل أن يكون بمنصبه هذا، كان يساعد أبو جعفر على تجنيد الشبان السوريين للتدرب في العراق من أجل الجهاد في بلاد الرافدين بحسب تعبير الرسل، وبالطبع بمقابل مالي على الرأس. في تلك القبور تطبخ الأحزمة الناسفة.

رغم كل الفوارق بين النزلاء هناك، إلا أننا كنا أصدقاء بمعنى من المعاني، ولكن الحياة لا تتغير بالعواطف كما تعلّمت في صيدنايا من أحد المعتقلين الفلسطينيين، والذي شارك بقيادة المجلس الثوري ذي السمعة السيئة والمتهم باغتيال العشرات من المعارضة العربية في مختلف البلاد، واختصر تجربة حياته بمقولة لا يمكنني نسيانها "لا أملك القدرة على التعاطف مع فرد أو جماعة أو أمّة وبالذات في حكايات القتل والدمار والحرب لأني أراها مسألة اجتماعية تاريخية 'صيرورة' لا بد منها، ولكن لا يعني ألا أعمل لنصرتهم، فالتعاطف مخدر"، وهذا الأخير قتل المسألة الفلسطينية فالبكاء لا ينفع حتى الموتى فكيف ينفع الأحياء، ومن هنا لم أبك على أولئك الذين يُطبخون بالبارود لينفجروا بعد حين.

هذا الفلسطيني لا يشبه بطريقة تفكيره من قابلتهم في صيف عام ٢٠٠٢ بفرع التحقيق العسكري ٢٤٨، وهم مجموعة ذات طابع إسلامي، حينها كانوا في السجن منذ أكثر من عامين، ففي الغرفة

الثانية عشر بالفرع والتي يتزعمها أبو الحارث أضخمهم كانوا قد أنفقوا شهور طوالا بانتظار قرار النقل إلى سجن آخر كصيدنايا أو عدرا، كحال زميلهم الذي كان في سجن صيدنايا منذ الشهور الأولى من الدعوة التي ترتكز على تهمة نقل السلاح من لبنان عبر الأراضي السورية إلى الأردن فالضفة الغربية لدعم المقاومة الفلسطينية بعد انتفاضة عام ٢٠٠٠، وفي جانب من التحقيق معهم برعاية هشام اختيار الذي كان رئيساً لفرع المنطقة وقتها، كانوا يضربون ويشتمون أمام شاشة التلفاز التي تنقل أخبار الانتفاضة، ويقول لهم ما في ولا رجل قادر على إيصال السلاح لهؤلاء الأبطال بالإشارة إلى المنتفضين في فلسطين المحتلة!

كعك العيد

شهور ثلاثة قضيتها مع تلك المجموعة الفلسطينية بفرع التحقيق العسكري، ومن ثمة نقلت إلى سجن صيدنايا العسكري، وهم نقلوا إليه في وقت لاحق. قبل صيدنايا سأبقى في فلسطين ولكن فلسطين الفرع لا البلاد، الفرع الذي يحمل الرقم ٢٣٥، هناك وفي المهجع الثاني حيث قضيت فترة التحقيق الأولى والتي لم تتجاوز الشهرين، مرّ على رأسي الكثير من القصص وتعرّفت على حقيقة نظام الحكم في بلادي.

بكل وقاحة بلاد تبنى على الدماء والظلمات، بلاد تجمع فيها المخابرات بالفروع أفواجاً من المواطنين "الرعاية" لتبحث عن تهم لكل منهم وكل بحسب ميله، فهذا عمر ابن حلب يصلّي وملتزم دينيا كان يضرب بشكل يومي ليعترف بانتمائه لحزب التحرير الإسلامي، وشيخ من العتيبة في الغوطة الشرقية بريف دمشق يضرب ليعترف بأنه ضد الحكم وأنه سبّ وقذف رئيس البلاد، وأنا أضرب لأعترف أني ماسوني وأنتمي للمحفل الماسوني الدولي لمجرد حديثي عن آل الشلاح ودورهم بمحفل الشرق الأوسط بحسب مذكرات بدرالدين الشلاح أحد أبرز وجهاء دمشق وتجارها.

بإحدى جلسات التعذيب، طلبني سجان شديد الغرور ودموي الميل اسمه شادي، وخرجت من باب الغرفة لأقف ووجهي إلى الحائط ورأسي منحن إلى الأرض ويدي خلف ظهري، هكذا كانت العادة عندما تخرج إلى التحقيق وبالطبع حافي القدمين، صعدنا الدرجات من القبو حيث السجن إلى غرفة التحقيق الأولى من بين عشر غرف تطل عليها المهاجع المدفونة بالقبو وذلك عبر الممر من خلال نوافذ صغيرة، يومها تعرفت إلى أحمد العلي الذي عرفت لاحقا أنه كبير محققي القسم الأول، والذي بدأ بتكذيب كل أقوالي وشتمي ومن فور طلب تجريدي من الثياب إلى القليل وبدأت حفلة التعذيب بالجلد والضرب حتى سال الدم من كل مسامات جسمي، بعدها بقليل انتقلنا إلى الشبح وأنا أحاول جهدي ألا أبكي أو أصرخ. علمني الشيخ الغوطاني أنهم يستمتعون بصراخنا ودموعنا فاحتفظت بالدموع ليوم أحتاجهم فيه. أما الصراخ فانفلت من لساني وصعد ندائي إلى الله بالخلاص بعد الشبح. لحظة وضع الأغلال "الكلبشة" في يدي اليمنى ومن ثمة اليسرى وبعدها رفعني على كرسي أمام عارضة معدنية مرتفعة أكثر من مترين ونصف المتر عن الأرض لأعلّق وأترك سابحاً في الهواء، حينها شعرت أن الكون تجمع عند معصمي وقلبي يعتصر بين الحديد ومسامات الجلد الذي بدأ مع الوقت يذوب وينسلخ.

يوم تعذيب كامل سبق احتفالات ذكرى تأسيس حزب البعث الحاكم بأيام عندما فتح الباب أحد السجانة المعروف باحترامه للحد الأدنى من الإنسانية، يعني بحسب المتداول هناك "ابن حلال"، رمى السجان بصندوق من "معمول العجوة" كعك العيد لشيخ الغوطاني الذي كان رئيس المهجع وقال كل عام وأنتم بخير، ورد الجميع بذات التعبير دون معرفة سبب الاحتفالات، أكلنا المعمول ومن ثمة تذكرنا سبب الاحتفال، وأياً كان السبب المهم أني أحب كعك العيد واستمتعت به.

بردى

مع بدايات شهر أيار من العام ٢٠٠٢، وفي فلسطين أيضا، ثار الفرع وارتفعت أصوات السجانة بالصراخ والشتم، وارتفعت أصوات "الكرابيج" إلى أعلى مستوى شهدته أنا ومن هم أقدم مني، ومن الجلبة تميز صوت شاب صغير ينادي ويستحلف الجلادين بأنه بريء، ويرد عليه الجلاد بأنه كاذب ويُسيل عليه طوفان شتائم وإهانات، الصراخ ذهب بالنوم من جفون الجميع وكل واحد يلزم "سيفه" أي الجنب الذي ينام عليه.

إن هي إلا ساعة حتى وصل الضرب حدا لا يحتمل، وانتقل إلى مرحلة ثانية بعد أن قال أحد الجلادين لزميله أجلسه على "قنينة البردى"، وبالطبع يقصد زجاجة البيرة ماركة بردى، وارتفع صراخ قتيبة الشاب الذي تعرفنا على اسمه من خلال التحقيق ولكونه ذا نبرة صوت مميزة فصوته أقرب للطفولة منه للرجولة، بعد دقائق شق صوت قتيبة سماء الفرع ودمشق والكون، وبدأ أنينه يبكي كل الوجوه صغيرها وكبيرها، الكل يبكي صامتاً، وقتيبة أكثرنا رجولة ينادي "أحد أحد" كما كان بلال ينادي يوم عذّبه الكفار.

> خرجت من باب الغرفة لأقف ووجهي إلى الحائط ورأسي منحن إلى الأرض ويدي خلف ظهري، هكذا كانت العادة عندما تخرج إلى التحقيق وبالطبع حافي القدمين

الجلاد، يشتمه بأمه وأخته، ويشتم ربه بأبشع الشتائم، وقتيبة ينادي "أحد أحد" والجلاد يسأل عن اسم شيخ الجامع الذي كان يتردد عليه، وقتيبة يخبره فيرد الجلاد بالتكذيب والشتائم دون وصول إلى نقطة اتفاق إلى أن صمت قتيبة بشكل مفاجئ واختفى صوته تماماً. خرجت في منتصف أيار تقريبا من فرع فلسطين منقولا إلى التحقيق العسكري ولا أعرف أين قتيبة؟ أهو حي أم ميت لا أعلم؟ وكم من قتيبة قُتل أو جُهّز ليقتل نفسه في تلك القبور لا أعلم، وربما غالبية السوريين لا يعلمون.

سوء الطالع جاء بقتيبة إلى المكان الخاطئ في التوقيت الخاطئ ما تسبب باعتقاله

وربما حكمه، في حين وبذات الفروع الأمنية الحريصة على حياة المواطنين من خطر الجماعات الإسلامية؛ تضم بين جنباتها جماعات جاءت بها اعتقالات ما بعد الحرب الأميركية على طالبان، كان لي فرصة البقاء لثلاثة أيام بزنزانة مقابلة لغرفتهم، وهم المعتقلون العرب والأجانب من الإسلاميين، يحملون أرقاما وأحرفا بدل الأسماء وفي غرفتهم كما هو واضح توجد غسالة أتوماتيكية، وبراد والكثير من المعدات والخدمات الطبية التي لا تنقطع كل يوم، ويحظون بفرصة إقامة صلاة الجماعة وإطلاق اللحية، ويتحدثون بصوت مرتفع في أيّ وقت. كل هذا كان يحدث في الفرع ٢٤٨ التحقيق العسكري، والذي كان يفرض النوم على الجميع بتمام العاشرة، وكان القمّل يأكل معتقليه في حين أن إسلاميي القاعدة يحظون بأفضل الخدمات. نعم أهلا بك في بلاد العلمانية.

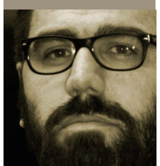
أكاديمية صيدنايا

بلاد العلمانية حيث التهم بحسب الطائفة والدين، إن كنت مسيحياً فأنت جاسوس واختر البلاد التي تريد، وإن كنت مسلماً سنياً فأنت من الإخوان المسلمين أو حزب تحرير أو جماعات إسلامية أخرى، وفي أحسن الأحوال أنت حزب بعث عراقي، إن كنت درزيا أو علويا فقد تكون يساري التهمة كحزب العمل. كرديا تهمتك معلنة بشكل مسبق، والقياس على هذا الجدول يعطي نتائج تقريبا صحيحة بنسبة مئة في المئة، يكفي أن تعرف من أيّ دين هو المعتقل أو من أيّ طائفة لتعرف تهمته.

هذا واقع تلمسه في صيدنايا حيث بقيت لفترة قصيرة قياساً بمن قابلت فمنهم كرغيد الطيار المستقيل الذي اعتقل قبل ميلادي، وأنا اعتقلت وخرجت من السجن وهو مازال من نزلائه حتى تاريخ كتابة هذه الحروف، رغيد الذي يصنع الجمال بالنحت على عظام الحيوانات، يبدع أجمل اللوحات بالحفر على عظام ميتة ويلتزم الصمت طوال اليوم إلا قليلا من الكلمات الترحيبية عندما كنا نشرب الشاي سوياً.

أحمد حمدو المحمود قتيل الجوع في سجن حلب أيام الثورة، رجل رقيق الكلمات، جميل الروح كان يعلّمني كل يوم الكثير، نبدأ قبيل إغلاق أبواب الغرفة في الجناح باء يمين ثاني، بالمشي في الممر الطويل والحديث ويعلّمني كيف يمكن للكلمات أن تصنع نصاً بديعا، ومن ثمة يخوض بمباراة مع أنور ساطع أصفر الصحفي المعتقل للمرة الثانية في حياته، والمباراة بينهما لكتابة نص عن أسطورة شجرة الحور، وهي باختصار قصة فتاة بجمال الملائكة ذات جسد رخامي الملمس وشعر يتوّج كوكبة ملامح شديدة الفتنة، بعيون لوزية ترقب بسلام جمال حبيبها الذي يشاركها جمال اللحظات والرغبة في الزواج وهذا ما تم بعكس غالب قصص الحب، لكن الحب لا يكتمل فامتنعت الدنيا أن تكمل حبّ هذه الأرواح فبقيا بلا ذرية لعقم أصاب الفتاة، وقبل الحبيب المصاب لكن الأهل لم يقبلوا وبعد صراع مرير تزوج من غيرها، فانتقمت الجميلة منه بأن أحالت بيتها مزارا للعشاق الكل يمر ويتذوق من طيبها قليلا، بعد حين تعلقت بأحد عشاقها الذي رفضها واصفا إياها بالعاهرة. صفعة أيقظتها لتبكي حزنا وألما ليقينها أنها انتقمت من نفسها، وإلى نهر الغابة المجاورة رحلت لتستحم من ذكرياتها، فاهتاج النهر لجمال جسدها المنحوت بعناية بديعة، وتلمسها بدفء وحماس، نعم مارس معها الهوى لحدود الغليان والتبخر ولتجف أرضه ويتوقف جريانه. لم تدرك ما جرى من شدة نشوتها. نشوة انقضت لتتبين ما فعلت، قضت على نهر الغابة ومصدر حياتها، والأشجار أخذت تهتاج غضبا وحزنا، فبكت الجميلة حتى عاد الماء من دمعها نهرا، وعندها نادتها الشجرة الأمّ، وقالت لها كفّري عن ذنوبك بطريقة مختلفة وكوني شجرة، أعلنت الجميلة والبكاء يقطع صوتها بين كل كلمتين أنها عقيمة لا تنجب ثمرا، فقالت أمّ الغابة لتكوني شجرة الحور يستلقي العشاق في ظلك ويعيشون الفرح، وهذا ما كان.

أحمد الذي قضى أيام اعتقاله الأخيرة في سجن حلب حيث مات من الجوع وانعدام الدواء، كان يردد هذه الكلمات على مسامعي ليعيدها بطريقة مختلفة قليلا الأصفري في سجن لا يمكن إلا أن يكون أكاديمية لمن أتقن استخدامه، كيف لا وهو من ضم في جنباته وليد عبيد صاحب المفاهيم الكبرى في الحياة اليومية كالتخطيط والمعرفة وقياس النتائج في بلاد تعيش على الصدف والمناسبات، كيف لا وكان فيه جمال أبو العلا الذي قتلته قوات الأسد دون رحمة على أحد حواجز ريف دمشق، وهو من كان الممرض الدؤوب في ذلك السجن العامر بالحب بين نزلائه قبيل وصول الإسلاميين المتطرفين إليه، كيف لا وفيه كان مدرس اللغة الإنكليزية بيير أدم يوحنا والذي تعلمها في السجن وعلّمها لمن أراد وأنا منهم وإن كنت طالبا كسولاً.



جدتي والسجن

تعلمت فلسفتي في الحياة من جدتي والسجن، هي كانت تعيش وتدرك تماما ألا مستقبل لأيّ شيء، هي كانت تعلّمني كيف نخلق السعادة ولو بكوب حليب صباحي، هي التي علمتني أننا قد نأكل أيّ شيء ونرتدي أيّ شيء ونعمل بأي شيء شرط أن نحافظ على احترامنا لأنفسنا. هي من علمتني أن الأسرة ليست إلا بابا نغلقه على أنفسنا هربا من العالم. هي التي قالت يوما بأنها لا تحمل حتى اسما خاصا بها، هي هلالة وهلالة هي أختها الكبيرة التي ماتت قبل ولادتها فكتب عليها الاسم كالعادة. هي التي أحبت جدّي على طريقتها بالحب رغم عناده وكسله وقساوة لفظه، هي التي كانت مضرب مثل في بلدتها بنشاطها وهمتها العالية، إلا أنها لم تحظ ببنت تشبهها. هي التي عرفت كل هذا واستمرت بالحياة إلى أن ماتت بثلاثة أيام، لم تحارب المرض إلا بالاستسلام له وتركت خلفها كل شيء، تركت كل ما لم ترغب به يوما ورحلت.

هي علمتني ورحلت وأنا بقيت هنا أعيد قراءة التجربة دون أن أتعلم، جدتي كانت تقول كل واحد يتعلم من كيسه، يا جدتي ماذا لو أخبرتك أني بلا كيس فمن أين أتعلم؟ وأنا اليوم يا جدتي في بلاد لا تعرف عن آلامنا إلا ملامح ضبابية، في بلاد لا تعرف عن قلق وجودنا وخوفنا الغارق في زاوية من عمق الروح ■

كاتب من سوريا مقيم في باريس

يوميات المعتقل من خارج السجن

«نوفا» التي تعيش على أمل أن زوجها مازال حيا

خالد سميسم



"خلال مذبحة حي كرم الزيتون في حمص وبعد أن غادروا بقي صوت العويل والبكاء وآهات الأشخاص الذين طعنوا ولم يفارقوا الحياة، فتحت ابنتي الباب لتجد رأس إنسان مفصول عن الجسد ففقدت عقلها".

هي كلمات نوفا الحمصية التي تسكن في أحد مخيمات برلياس في لبنان مع أربعة أطفال ثلاث بنات وصبي، حين تحكي تلك المرأة تسكن دمعة في عينها يمكن لمحدثها أن يراها دائما دمعة تتجمع فيها كل مآسي نساء سوريا.

أخبرتنا نوفا أنه وبعد انتهاء المجزرة راح من أهلها العشرات، فقرر زوجها الانتقال مع العائلة إلى لبنان، وباعتباره لم يؤذ نملة في حياته كما قالت قرر الدخول إلى لبنان ليعالج ابنته من "الهلوسات" التي أصابتها حين رأت رأس الرجل المقطوع على باب الدار.

تقول نوفا "حين وصلنا إلى حاجز قبل الحدود بقليل طلب العسكري بطاقاتنا وقبل ذلك قال العسكري ذاته: أنتم من حمص؟ أجبنا بنعم، فأمر زوجي فورا بالنزول من السيارة، لم يستطع التحدث إلا بعبارة واحدة حين قال لي: انتبهي على البنات، وهذا الكلام منذ ثلاث سنوات، مازالت عبارته تذبح قلبي، انتبهي على البنات".

وصلت نوفا مع الأطفال إلى لبنان وبحثت عن أقاربها وأبناء حي الزيتون في حمص من المهجرين قبلها لتجدهم بعد أيام في مخيم ببرلياس، وهنا كما شرحت لنا تبرع لها شخص سوري بثمن براكية

)خيمة من خشب و شوادر(، وبعض الناس أعطوها الأثاث)فراش وعدة مطبخ(لتبدأ عدّ الأيام ورحلة الانتظار، انتظار زوجها حين تحسب أيام غيابه وساعاتها ودقائقها.

وعن أخبار زوجها اليوم وما حل به في المعتقل تقول نوفا: آخر خبر سمعته عنه منذ نحو ثلاثة أعوام حين التقيت مع شاب حمصي كان معتقلا عند الأمن العسكري وأخبرني أنه رأى زوجها وتعرف عليه، هذا الشاب لم يقل تفاصيل أكثر فقط قال زوجك مازال حيّا.

في سوريا حقيقة لم تعد تعني ظروف الاعتقال لأي أحد شيء ولا الطعام ولا الشراب وأول سؤال عن المعتقل يكون هل مازال حيا أم ميتا؟، وإذا كان الجواب أنه حي فيكتفي الأهل ويعدّون الأمر مفرحا ومطمئنا.

تتابع نوفا: الشاب الذي التقى بزوجي عمره ما يقارب العشرين عاما ومتزوج وعنده بنت واحدة وهو اليوم يسكن في خيمة بأحد مخيمات بلدة غزة الواقعة في البقاع الغربي.

تشرح نوفا "هذا الشاب خرج من المعتقل مشلولا وحسب ما أخبرني أنهم كسروا ظهره، وقبل ذلك أخبروه أننا سنطلق سراحك ولكن بعد أن نسبب لك الشلل".

زوجات المعتقلين السوريين في سجون النظام وخصوصا بعد مغادرتهن سوريا تعرضن لأقسى ظروف في الحياة منها تأمين المسكن واللباس والطعام للأطفال ما عرضهن -والكلام لنوفا- لأنواع مختلفة من التحرش والاستغلال.

تقول شارحة "المرأة يلي قد حالها ما حدا بيطلعلو معها ولكن إذا أظهرت ضعفها الكل بدو يستغل حاجتها، وخليها في القلب تجرح، ومع ذلك كل المخيم بيعرفني مين أنا وكيف أتعامل مع من تسول له نفسه توجيه أيّ كلام غير لائق لي وخصوصا حين يعرف أن زوجي معتقل".

نوفا كزوجة معتقل تبكي على حظها العاثر وتبكي على طريقتها في مواجهة ظروف قاسية تعلق عليها "لم أتخيل أن أواجه مثل هذه الظروف في حياتي".

حين تنوي نوفا عمل شيء أو جلب شيء لأطفالها تربط ابنتها التي فقدت عقلها بعامود الخيمة خوفا عليها من التسرب خارج الخيمة والضياع.

وقد بررت الأمر لعدم وجود أيّ شخص يساعدها على الاعتناء بابنتها، بعض المستوصفات اللبنانية أعطتها دواء مهدئا، ولم يتغير في المرض شيء.

نوفا مازالت تنتظر زوجها مثلها كمثل آلاف النساء السوريات اللواتي سجن النظام أزواجهن، وهنا المعاناة مرتان واحدة في الاعتقال وأخرى بالجهة المقابلة أي المرأة الأم التي ستتابع الطريق بلا زوج أو أب أو أخ.

تختم المرأة حديثها: نعم زوجي معتقل وأنا معتقلة أيضا بطريقة أخرى، معتقلة بالعادات ومعتقلة بالتقاليد ومعتقلة بكلام الناس ومعتقلة بكل شيء، وحقا لولا أملي بخروج زوجي حيا لكنت اخترت الموت وبأيّ طريقة ■

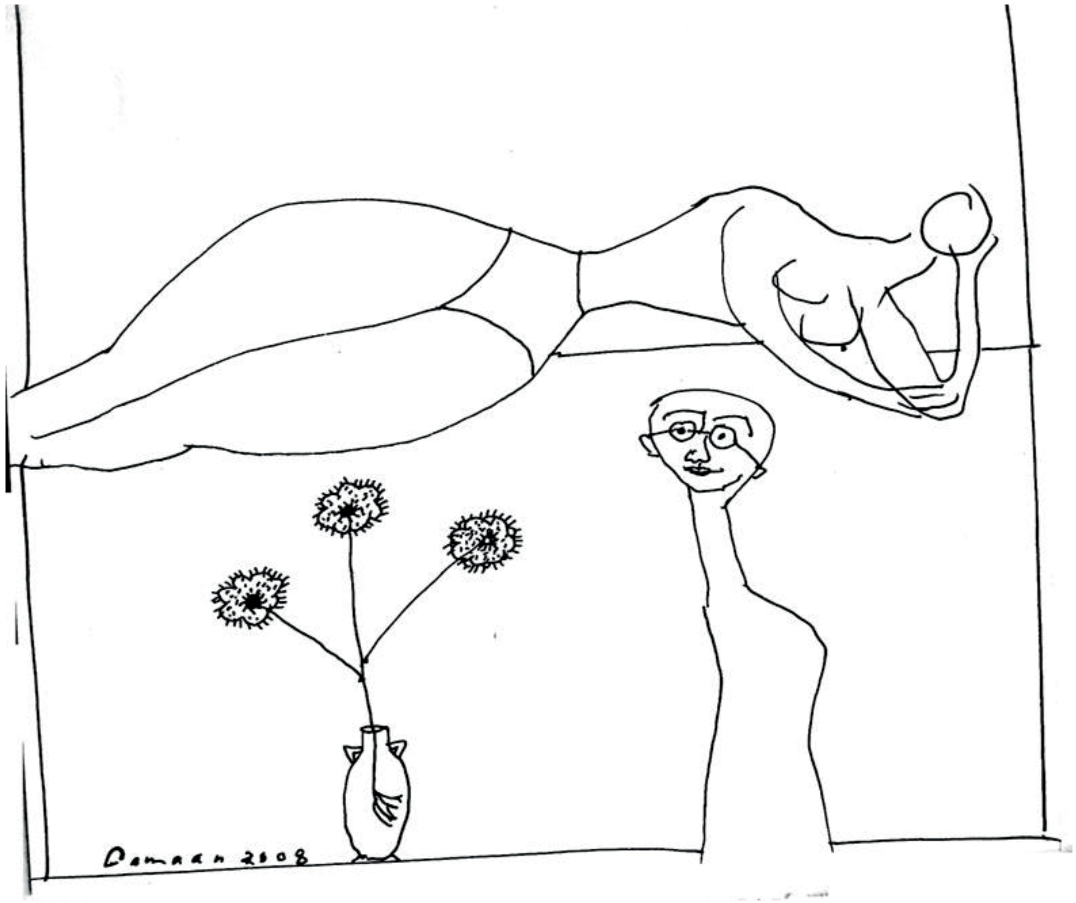
كاتب من سوريا مقيم في واشنطن

حُبّ

حسيبة عبدالرحمن

ضحكت ملء فيها والتفت إلى صديقتها:
- ألا تذكرين؟
- ماذا؟
- الاعتقال!
- أذكره، ولكن ما هو المضحك في الأمر؟
- سلسة المصادفات الغريبة لذلك اليوم. أول مرة أذهب إلى محكمة أمن الدولة التقيتك هناك، تتاجرين مع الشرطة بسبب طفل ضربه شرطي لأنه يكلم والده السجين، ضربت وضربت، وقعت على الأرض، ساعدتك على النهوض.
فتحت حقيبتي، كانت خالية من النقود، اضطررنا إلى الذهاب إلى بيتك بعد المشكلة كي نشرب القهوة ونتكلم قليلاً.
فوجئنا بدوريات الأمن عند موقف السيارات اعتقلوك، أكملت طريقي، لإخبار والدتك بما حصل، وجدت الشارع والحارة ومن ثمة البيت محاصرين بالأمن، انتظروني حتى دخلت البيت، اعتقلوني، وحجزوا أهل الدار جميعاً.
- ظننتهم أفرجوا عنك مع أختي وأولاد عمي، واكتشفت بعد أيام أنك لا تزالين قيد التوقيف.
أحسست لحظتها بقهر وإهانة وعجز لم أحسه في اعتقالاتي السابقة، كنت أنام وأصحو ونار تشتعل في داخلي، إضافة إلى القلق والتساؤلات الكثيرة عن سبب بقائك في السجن هذه الفترة، ولم يستطع التعذيب شبحك عني.
- سألوني عن تهمتي، قلت إني أعرفك ضحكت السجانة وضحكت معها السجينات ولم يصدقني أحد.
- بيدهم حق.
- لم أكن أعرف أنك خطرة إلى هذه الدرجة.
- ولا أنا.
نحن نعيد الحوار ذاته الذي دار بينا قبل أعوام، عندما دخلت المهجع بعد الأشهر التي قضيتها في الزنزانة وطالما بدأنا به، تعالي نكمله وكأننا الآن في المهجع.
- ذكريني فذاكرتي مهشمة.
- لا عليك تفاعلي معي فقط.
دخلت المهجع حضنتني، دمعت عيناك اعتذرت مني.
كنت تبتسمين بوجهي، وتعانقينني، قلت:
- لا تخافي عليّ! لقد تأقلمت بسرعة مع الظروف الجديدة.
- أتمنى ذلك.

- هي الحقيقة، لن أكذب عليك، انتابني الخوف عندما دخلت غرفة التحقيق وأنا مطمشة العينين لكني طلبت منهم رفعها، صفعت على وجهي وسقطت على الأرض.
سألوني عنك، كيف تعرفت عليك. ومنذ متى . في تلك اللحظات كرهت نفسي ويوم ولادتي وساعة رأيتك وتعرفت إليك. وعندما أنزلوني إلى المهجع تضايقت بكيت بحرقة بقيت عدة أيام على هذه الحالة كنت أُسأل كل يوم عن أشخاص وأسماء.. و.. و.. الخ، أدركوا أني لا أعرف شيئاً وعلاقتي بالسياسية واهية وكذلك بالأحزاب.
- واقتنعوا؟
- هددوني بالجلد والكهرباء وصفعوني أكثر من مرة.
- في الأيام الأولى كانت الأسئلة تدور حولك، ضربت وعذبت وأنا أؤكد أني أعرفك معرفة اجتماعية وبطريق الصدفة.
-سألوا عني في العمل، وعند جهات أمنية أخرى. وهكذا أنهوا التحقيق بسرعة، وبدأت استرخي قليلاً ثم تغير الوضع.
- ما الذي حصل؟
سمعت صوتاً قرب «دورة المياه» يناديني باسمي، اقتربت من مصدر الصوت لحقته تابعته، كان يأتي من بلوعة الحمام شطفته ووضعت أذني قرب البلوعة أصغيت السمع ولم أحس بقرف أبداً. أتاني صوت شجي:
- ضعي «النبريج» في البلوعة.
- لا أدري كيف أتيت به نظفته مددته في جورة الحمام ووضعت أذني عند فوهته جاءني صوت حنون قريب حميمي: أعرفك جيداً، أنت بيضاء عيناك واسعتان طويلة، جميلة، تعملين في الدائرة الفلانية واسم عائلتك. رأيتك أكثر من مرة قرب عملك. كنت ترتدين جاكيت وحذاء زهريين. استفسرت عنك وها أنت الآن بجواري، حائط مهجعي هو حائط مهجعك والبلوعة مشتركة بيننا.
- من أين عرفت أني هنا.
رأيتك من ثقوب المهجع في الأيام الأولى من توقيفك عندما كانوا يأخذونك إلى التحقيق.
ساعة التنفس عقوبة وكثيرا ما رفضتها واعتبرت «ساحة التنفس» سجنا أقسى وأمرّ من وجودي في المهجع وكنت أجبر دائما عليها



حسين جمعان



حتى التنفس إجباري. وحينما طلب مني الخروج إلى التنفس طواعيةً كي يراني، أثناء خروجي والعودة، صرت أنتقي وألبس أجمل البيجامات في المهجع كلما حان وقت التنفس، وتحولت تلك الساعة إلى ساعة حرية.

فيما بعد رجاني أن أتكلم بصوت عال وأنا ذاهبة وعائدةً من الساحة وقال إنه سيسمعني ويرد عليّ بقلبه وروحه وعيونه وجسده، وأنا سأفهم لغته وردّه. أما ليل السجن الطويل فأصبح فسحة للطيران خارج الأقبية والأسوار، نمضي الليل بطوله على البلوعة، أذني على فوهة «النربيج» أو فمي عندما أتكلم أو أرد عليه، أسمعني أجمل كلمات الحب والعشق، وغنّى لي أجمل الأغاني وتحولت الأقبية التي لا ترى الشمس مكاناً لأحلامي الجميلة الوردية.

- من يسمعك تتكلمين هكذا يعتبرها دعوة إلى حب الاعتقال.

- لا.. أصف حالتي بعد الحب.

- أكملي.

- تبادلنا الرسائل اليومية، رسالة، اثنتين، ثلاث. كتب فيها عن نفسه، دراسته، شكله، أهله، إخوته، أصدقاءه شهادته، سفره. وحلقت معه في سماوات وآفاق بعيدة، وكلها عبر كلمات الحب الشفافة والرومانسية. كتب لي ذات مرة أنه سيحملني كي لا يتسخ حذائي الزهري. وكان يخطط لعيد رأس السنة وكيف سنقضيه معاً.

وكان هناك سجان متعاطف معنا يحمل لي الأغراض والهدايا منه دون رشى أو مقابل.

عشت مشاعر حب جنونية. أنتظر الليل، سعادتي لا توصف عند سماعي قرعة قصعات العشاء، فهذا يعني أن وقت الكلام والمناجاة والبوح قد اقترب موعده.

طلب مني أن أنتظره بعد إطلاق سراحي كي نتزوج، كنت أراه رجلاً جميلاً ووسيماً فتياً.

- وهل رأيته؟

- حدد لي ساعة خروجه إلى مدير السجن وسعاله الذي يرافق خروجه. وقفت ساعات طويلة أمام باب المهجع رأيته ودققت النظر به. كان شاباً وسيماً فتياً. وعندما زارني في عملي بعد إطلاق سراحه لم أر فيه الشاب الوسيم الذي حرك مشاعري وزيّن سجني وحوله إلى واحة خضراء وجدته رجلاً كبيراً في السن، أما بريق عينيه فقد اختفى، تحول، ولم أر سوى شعر أشيب ووجه قاس.

السجن يزين الرجال والنساء، والنساء للرجال، حزنت كثيراً عندما نسيت الرسائل في السجن تحت البطانيات، ستعرف السجينات ما كان بيننا!

- بعد كل محاولات التغطية عليك!

- ماذا تفعل في الحمام طوال هذا الوقت؟

- إنها تكتب القصة والشعر، المكان هادئ ومريح وتستطيع التركيز فيه.

- وصدّقن؟

- البعض صدق والبعض الآخر ضحك، وعلقن أكثر من مرة على دواوين الشعر التي لم تكتب ولن تكتب.

- سأكتبها في الاعتقال القادم.

- قد لا تصادفين حبا من هذا النوع.

- إذن وداعاً ولن أراك بعد الآن كي لا أعتقل مرة ثانية! ■

كاتبة من سوريا

يوميات في المعتقل
أقبية الخوف

عبدالرحمن مطر

أربع درجات تحدّرْتُها بهدوء وصمت، ثم اندلَقَتْ روحي في الجحيم، ألفيتُ جسدي في بهو شحيح الضوء. أبواب الحديد الموصدة تحيط بي من كل جانب، وفي الزوايا ذئابٌ ملفعة بشبح العتمة. ما إن تلّبسني المشهد بوهلةٍ دالّة على الغياب المديد، حتى أحسستُ بدمي ينسحبُ من أوردتي، كمن يداري حدّة شمس فُجائيةٍ عن عينيه. أقبلتُ على الحدثِ راضياً بكل احتمالاته، لا مهرب من القبول، وإلا فإنني سوف أُنهك وأهزم من داخلي أنا.

هرير الذئاب

الضابط الذي يتدلى كرشه، متدحجراً بمشيته، كان هادئاً ينظر إليّ من باب مكتبه المشرع، يتفحصني كجثّة هامدة لاصقة على المقعد الجلدي في الصالون، يُقلّب أوراقاً بين يديه، ويقرأ. لم يطل انتظاري أكثر من نصف ساعة، حتى مرّ بي دون أن يحيد بصره عني بنظرة المنتشي، قال لي دون أن يتوقف بصوت خفيض، وهو يهزّ الأوراق : شيء يرفع الرأس.

وقعتُ في المصيدة. الكمبيوتر المحمول الذي أخذوه مني، يحتوي كل ما يساعدهم في إدانتي: كتاباتي، نصوصي بكل ما تتضمنه من أفكارٍ ورؤى، مؤرشفة ومرتبة بعناية. فهمت مآلي، لكنني لم أشعر بأيّ خوف. أعاد لي عنصر الأمن جهاز الهاتف بعد أن قال للضابط أنه لم يجد فيه شيئاً. الحقيقة كانت هناك صوراً لتحركات الجيش حول حمص، ومقطع لمظاهرة طيارة في المهاجرين، وأخرى في حرستا، وتسجيل حول مقتل أحد جنود النظام في عربين، على يد الجيش الحر. تنفستُ الصعداء.. لكن الضابط عاد إليّ وهو يتكئ على مقعدي، في مواجهتي من أعلى، وهو يسألني من أين أتيت، وماذا كنت أفعل في المنطقة، في ظل الإغلاق الذي يفرضه الأمن من حرستا إلى القابون، إلى ساحة العباسيين.

الجمعة 6 حزيران

اشتعلت بلدات ريف دمشق بسبب المواجهات بين النظام والجيش الحر، فأغلقت الغوطة الشرقية، والأتوستراد الدولي، على إثر القذائف التي أُمطر بها مقر المخابرات الجوية في حرستا، فيما تعرضت محطة كهرباء القابون لقصف من جهة مجهولة، أشعلت نيران كثيفة دمرت المحطة.

على الرغم من الإغلاق التام كنتُ مصرّاً على التحدي، والخروج إلى قلب دمشق، تحمّل السائق إلحاحي المشجع بالالتفاف حول القرى والبلدات، والطرق المغلقة والحواجز، مابين حرستا وعربين وزملكا وجوبر، وقذفني أخيراً في ساحة العباسيين، التي كانت خالية تماماً، سوى من بضعة مسلحين.. في ذلك اليوم احتل الجيش الأسدي ملعب العباسيين وأطبق الأمن على مداخل الساحة بشكل نهائي.

في الأفق كانت سحائب الدخان الأسود الكثيف، تملأ السماء زاحفة نحو عرائش الياسمين.

في جعبتي/المحمول، مقال جديد، وتقرير يتصل بسيرتي مع النظام، يمتد إلى عام ١٩٨٠، وكنت أزمع إرسالهما في بريد إلكتروني هام. حين قصدت مقهى زرياب في جادة الشهبندر، من باب توما، أحسستُ بأجواء شاحبة تلفّ المكان، وعلى غير العادة، لم يكن هناك أنترنت، ووصلة الكهرباء، غير موجودة! أشار لي النادل، أنه يمكنني الذهاب إلى مقهى الأنترنت القريب. لم أقبل بذلك، فكل الأجهزة هناك تخضع لرقابة مباشرة. جلست أحتسي القهوة، وبدأت الكتابة حول رواية بيلان.

تصاعدت حدّة القلق في ضلوعي، بحثاً عن مكان آمن للأنترنت، قادتني قدماي نحو القصاع صعوداً، فالقصور والتجارة دون جدوى. هناك كانت الحواجز في كل شارع، وهويتي طوال الوقت كانت جاهزة وأنا أجيب على الأسئلة : إلى أين، من أين، عملك.. كانت الحواجز تحدد لي خط سيري باتجاه شارع بغداد. وحين أردت الانحراف يساراً، هتف بي صوت من بعيد: أنت.. تعال هنا. ترددتُ فعلا، جاء صوته آمراً فخطوتُ إليه:

من أين أنت؟

من سوريا، من هنا.. أجبتُ متهكماً. فبدأت الأسئلة: من الرقة، تسكن حرستا، كنتَ في باب توما، وذاهب إلى شارع بغداد.. ما الذي تحمله في حقيبتك.. ثم رحّب بي: أهلا وسهلا بالكاتب وبالصحافة كلها. قالها بارتياح، ثم نادى رئيس الحرس وسلّمه بطاقتي الشخصية.

ولمَ أذهب معه.. ليفتشني هنا!

هواء تلك الليلة كان منعشاً ولطيفاً، أحسستُ بنسماته تلثم القمر، تتعطر بأشجار الصفصاف والصنوبر..ثم تمرّ بي وتمسح جفوني، وأنا أعبر البوابة الصغيرة الأخيرة إلى داخل فرع الخطيب.

- تعال، أشار لي، فهبطنا معاً نحو قبو المبنى، عدة درجات تفضي إلى باب حديدي، ضغط على الجرس، وهو يقول لهم إني ضيف جديد. كم هم لطفاء هؤلاء الساهرون على حماية البلاد من شعبها!

كنتُ في لحظة صفاءٍ نادر، ورائق إلى درجةٍ لم أفوّت فيها الرد بكياسةٍ على الضابط، بعبارة ملؤها المرارة والاستخفاف:

- شكراً على لطف الضيافة. حققت رميتي مقتله، نظر إليّ ومضى نحو الأعلى، أما أنا فقد سحبتني يدٌ إلى أسفل، درجة واحدة، أحسستُ أن لليد المشعرة أظافر ذئبٍ، قد تجمّل للحظة، قبل أن تدركني أنيابه



اسماعيل الرفاعي



التي رأيتها تقطر سمّاً زعافا.
طاولة في المدخل، وهنا توجب أن أسلّم كل ما بحوزتي، وهنا خلعت ثيابي. تدخل أحدهم عابثاً: إبق في السروال، أنت ضيفنا، و نحن نحترم المثقفين. ثم مدّ يده ونزع ما تبقى على جسدي، وألحقها ببصقة.
بدأت أفقد الإحساس بما حولي، أسمع صراخاً متداخلاً مع العواء، هكذا تنبهتُ إلى الأصوات الموجوعة دون أن أرى أحداً، التعذيب ترتفع شدته مع ارتفاع وتيرة السياط والشتائم. تبدو حفلة تعذيب جماعي، يجعل أعصابي متحفزة إلى أقصى درجات الاستسلام لما يمكن أن يحدث، علمتني التجارب السابقة أن أتماسك و أحتمل ما استطعت، أمام عطش السجان لحيونة غرائزه.
عناصر الأمن يدورون ببطء في البهو الخامل، ومع حركتهم يدفعونني إلى ركن خلف الباب، فأشعر بأنني أمام قطيع من الذئاب، يخيل إليّ همسهم بأنه هرير.. رغاء يسيل معه اللعاب وهي تنظر إليّ بعيون محمرة، تستعد للانقضاض على الفريسة الطازجة: أنا.
فتش العنصر حقيبتي على عجل، استخرج بعض الأوراق التي تضم مسودات لنصوص شعرية متفرقة، مقطوعات متناثرة، وحين قرأ بعضها، قال وهو يرميها على الطاولة: ستكتب شعراً أجمل من هذا هنا، البلد ينقصها أنتم يا خونة. ثم توالى سيل الشتائم وهو يدفعني عارياً أمامه، في ممر قصير بين الزنازين. كان يعوي وهو يصفني بما تجود به القريحة العفنة، رائحة فمه واللعاب المتطاير تذكرني بشتيمة هنري شاريير- شريحة اللحم النتنة -.
فتحَ باب الزنزانة ودفعني بقوة أوقعتني كومةَ جسدٍ لا شيء يقيه، ثم دعس على خاصرتي وأسنانه تصطك لؤماً، وأقفل الباب. نهضت وثيابي في حضني، أخذت أرتديها على مهل متكئاً إلى الجدار، ثم اقتعدت الأرض. كانت الساعة -ربما- تقترب من العاشرة، وعيناي تجولان في الظلمة، تستكشفان أيّ ملمح لخطٍ أو حرف على الحائط، لمن سبقني إلى هذا المكان. بحثت عن شق في الباب أرى منه شيئاً، دون أن أفلح. بدأ التعب يتسرب إلى داخلي، ويجهد أضلعي التي تضطرب فيها أحشائي، أبلل شفتي بلساني وأزدرد ريقي، كي أبدد العطش، فيما يتسرب البرد إلى أطرافي. جعلتُ حذائي وسادةً وتمددتُ لدقائق، لينفتح الباب على وسعه وأخرج إلى بهو الذئاب الباهت.
كان عليّ أن أجيب على أسئلة روتينية، لبطاقة معلومات أساسية، والتقاط صورة شخصية بوضعيات ثلاث للوجه والرأس، وأخذ بصمات الأصابع العشر، هذا الأمر فعلته قبل نحو عشرين يوماً من انتفاضة السوريين في ١٥ آذار ٢٠١١، لأكثر من خمس مرات، وأنا أتنقل في جولة سياحية أمنية بين فروع وإدارات الأمن وسجونها في دمشق. أدلي بالمعلومات، ووجهي إلى الجدار مغمض العينين، وأنا أتحسب من صفعة على عنقي، أو نحرة تخلخل عظامي.
سعدتُ جداً بالعودة إلى الزنزانة، الجدران المغلقة الصماء أحنّ على روحي منهم، أريد التخلص من قلق ومفاجآت المثول في حضرة الذئاب المتحفزة للوثوب عليّ.. وعلى أيّ من المعتقلين.
قرابة الثانية فجراً صحوت على صراخ قريب مني جداً، كان الصوت محترقاً، كنصلٍ يمرر لحن الدم على أوتار قلبي، وتملكني خوف ما، تسارع فيه دفق الدم في عروقي. فتح باب زنزانتي فجأة فانتفضتُ واقفاً، كأن دوري الآن في التعذيب قد أزف. أمرني بالتقدم نحو الباب، وأن أستدير، ليربط عصبة القماش على عيني، ويغلّ يديّ خلفاً، ثم صعد بي الدرجات الأربع، إلى غرفة التحقيق.

ثلاث ساعات من الاستجواب، لم يوجه لي فيها المحقق أيّ اتهام مباشر، سوى أننا كمثقفين سوريين خونة للبلد والناس.. والنظام بالطبع، وأن كل المعارضة في كفّة واحدة، إرهابية مدعومة من صنّاع المؤامرة في الغرب المعادي، وكثير من هذا الكلام الذي لا قيمة له، سوى أنه فضاء لممارسة الاعتقال والتخويف والقهر. قال إني عميل للسعودية، لم أكن أعلم بذلك من قبل. أجبته بكل بساطة.. وأردفت أن الجرائد السورية محرّمة علينا. المحقق الذي ظل طوال الوقت هادئاً دون أن يشتمني، وهو يحاول إرشادي إلى جادة الصواب، لم يحتمل جرأتي في الرد، فغضب صائحاً:

- قم انقلع يا عرص.

وقفت، أمرني أن أوقع على المحضر، فطلبت قراءته أولاً. فحصلت على شتيمة دسمة وجرني العنصر إلى تحت. تحت صرت بين الأرجل يتلقى جسدي ما شاءت له الذئاب نهشاً وهي تملأ الفناء الصغير عواءً مديداً يتلاشى لشدته الضوء الشحيح في عيوني، وأنا لا أستطيع اتقاء أنيابهم حتى صرت في الزنزانة ثانية، والذئاب ترغي وتهمهم في البرية المظلمة البعيدة الموحشة، وفي جوفي ينمو الألم، مثل وردةٍ لا أشتهي غيابها. صرخت من داخل حنجرتي الجافة، كان صوتي مبحوحاً، توالت تأوهاتي مع كل ضربة، أدركني قهر أثقل على روحي وأطبق على أنفاسي، تحدّرت دمعتي حرة في مسيلها.

تحت.. أقبلْت روحي على الورق، تدفع أصابعي للتشبث بالقلم، والتوقيع حيثما شاؤوا. لا أهمية لقراءتي، ويكاد الصباح أن يولد. أريد أن أرتاح، أن أغمض عيني ولو قليلاً، لكن لم أستطع النوم، فقد نقلتُ إلى المحشر: المهجع ٣٧.

السبت ٧ حزيران

من يخرج من الزنزانة إلى المهاجع، ويُسمح باختلاطه مع المعتقلين الآخرين، فهذا يعني، أنه انتقل إلى حياة أفضل في رحاب الجحيم. أحسستُ براحةٍ شديدة وأنا أدخل المهجع المسمى «الخارجي» ورأيتُ ابتسامتي في عيون الآخرين، وأرفع يدي بالتحية للجميع. كيف لا.. وأنا خبير سجون! وكي أوفّر عليهم وعلى نفسي، نطقتُ بصوت مسموع باسمي وعملي. كانت اللهفة التي باح بها الجميع، هي معرفة أخبار الخارج. ما الذي يحدث في سوريا، ما هي أخبار الثورة، الجيش الحر، والمعارك التي يخوضها ضد النظام. لكن لم يسألني أحد عن مؤتمرات المعارضة، ولا عن مواقف المعارضين.. ولا هم يحزنون. السؤال الذي لم يمرّ مرور الكرام، عما إذا كانت هناك أنباء حول عفو قريب عن المعتقلين، نفخت نفسي قليلاً وهممتُ بإلقاء خطاب، فشدني أحدهم هامساً:

بلا طول سيرة.. في وإلا ما في؟

الله كريم.. قريب الفرج قريب..

ضحك الجميع، وعلت بعض التعليقات الساخرة الجريئة، التي تحلّى أصحابها بالشجاعة.. تلميحاً من خلف التلال. الجماعة الأولى التي استقبلتني، وأجلستني في مربعها الصغير.. صرفتني بعد أن لاحظت تكتمي في الحديث، وأنا الذي يعرف أنه ثمة مخبرون في المهجع، كنتُ على حق! الطريق الى الحمام، كان شاقاً، فالناس فوق بعضها البعض، أكوام لحمٍ، وأنفاس خانقة. يقارب عدد المودعين هنا المئتين. ليس ثمة موضع للقدم الواحدة، والقفز هو وسيلة التحرك إلى وجهة واحدة، الحمام فقط.. وبالدور. وقفتُ أتطلع إلى مكانٍ ما ألبدُ فيه، فألمُّ جسدي على عثرتي، فلم أجد. بقيت واقفاً حتى جاء طعام الغداء، وحلّ به الفرج.

يلتمّ السوريون حسب مناطقهم، في المهجع، معظمهم من دمشق وريفها، إضافة إلى وجود أعداد من حمص وحماه، وحوران. تناولت الغداء في ضيافة الدوامنة الذين رحبوا بي وأفسحوا لي مكاناً بينهم. مرّ على اعتقالي حوالي نصف يوم، لم ألتقط فيه كسرة خبز أو جرعة ماء، أو التبول سوى مرّة واحدة أثناء التحقيق.

كانت إلى جوارنا جماعة أبو زهدي الحرستانية، التي تحتل صدر القاووش، وأكثرها مناوشة، حيوية وشغباً. في المدخل مجموعة صغيرة تفرض الابتعاد عنها، ولديها مساحة واسعة تعادل ثمن المهجع، تتحكم به ولا تسمح لأحد بالجلوس فيه، إلا عند تناول الطعام. هناك كان زعيم المهجع، بعضلاته المفتولة وجسده الضخم، ولحيته الكثّة المشيبة، لم أحظ بإعجابه مذ دخلت، ثم اجتمعت به لاحقاً في زنزانة جديدة.

المكان الذي ربضتُ فيه، على نصف ساق، وجسد في الهواء، يبعد عني بمسافة موضع رجل واحد فقط، عن واحدة من أبشع غرف التعذيب. كنت في مواجهة نافذتها الوسيعة، نافذة داخلية مطلية بالبني الداكن، لا يظهر شيء مما تحتويه أو يحدث داخلها. لكن الصوت كان واضحاً جليّاً كالقسوة التي تقصم الروح والجسد!

أسرّ لي أبو محمد الدوماني، أنني سأسمع لاحقاً أصوات التعذيب، أصوات النساء المعتقلات هنا. في الليل كان صراخهن يمزق أرواحنا، ويفاقم عجزنا وقهرنا.. فمن يحتمل؟ غير أن وصول أحد الشباب في حالة خطيرة، أشغلنا جميعاً عما نحن فيه، وعمّا يحدث من حولنا حيث النساء يتعرضن للتعذيب.. وربما لأشياء أخرى، لا ندري على وجه الدّقة ما هي.

> **سأسمع لاحقاً أصوات التعذيب، أصوات النساء المعتقلات هنا. في الليل كان صراخهن يمزق أرواحنا، ويفاقم عجزنا وقهرنا.. فمن يحتمل؟ غير أن وصول أحد الشباب في حالة خطيرة، أشغلنا جميعاً عما نحن فيه**

كان الشاب بقايا جثّة يغطيها الدم في أنحاء عديدة من جسده: الوجه والرأس، والقدمين واليدين، لا يقوى على النهوض بنفسه، أو الوقوف والمشي. قدميه متورمتان من التعذيب، وكان يصدر أنيناً خافتاً مبحوحاً ومتعباً، وعينيه شبه مغمضتين.

نزع عنه رفاقه الثياب الممزقة، ووضعوا رأسه تحت صنبور الماء، ثم مددوه على الأرض وهم يمسحون الدماء عن جسده. وما إن بدأ يستعيد وعيه، حتى علا اللغط والهرج في المهجع، وبدأت أساريره تتفتح على الرغم من الألم، سعيداً بالبقاء على قيد الحياة. تأمّلتُ ملامح وجهه الهادئ، وبريق النجاة في عينيه، والرضا

الذي باحت بها ابتسامته، لقد ربح الجولة، ولم يستطع السجان أن ينتزع منه أيّ اعتراف حتى الآن. كان طويل القامة نحيلاً، بل هزيلاً، وقد مرّ على اختطافه من أطراف معضمية الشام، ٧٦ يوماً. لا أتذكر اسمه الآن، كما لا أتذكر أسماء سوى ثلاثة أشخاص.. لكن ثمة وجوه لا يمكن نسيانها، واحد منها ذلك الشبيح المخبر.

مع أول المساء، بدأت أفواج الشباب بالخروج، جماعات وفرادى، يعودون بحالٍ أشبه بالموات، والروح مثقلةٌ بآلامٍ تترك ندوبها عميقة على الأجساد المهتوكة، التي تتحول إلى خارطة كدمات تتدرج ألوانها من الرمادي إلى الأزرق والأحمر، دوائر وخطوط السياط والعصيّ. يستخدم السجان هنا وسائل تعذيب غاية في البساطة والبدائية، لكن قدرتها على الفعل والأثر عالية جداً، فهي تعتمد على غرائز السجان، بداهته وبراعته في أبشع استخدام لها عبر التاريخ الإنساني. يمتلكون فرادة في الإيذاء، ويجهدون لتحطيم النفس البشرية، بكل ما يمكن لهم اتباعه من وسائل الترهيب المعنوية والمادية، ثمة قاموس هائل من مفردات الحط من قيمة الإنسان: شتائم وسباب، مع ضرب لامتناهي الوحشية، دون اعتبار للحياة والموت. تشريعات النظام الأسدي، تحمي مرتكبي الجرائم بحق الإنسانية، لدى الأجهزة الأمنية والمعتقلات، وتحول دون تعرضهم لأيّ مساءلة قانونية، وذلك في ظل ممارسات لا حدود لها في انتهاك حقوق المعتقلين، وحمايتهم.

هكذا رأيتُ الندوب والجروح المتقيحة والأطراف المكسورة، والأظافر المقتلعة، رأيتُ العيون المتضررة، والمصابين من أمراضٍ شتّى بفعل التعذيب والاعتقال، وعدم السّماح بالعرض على الأطباء ومواصلة علاج الأمراض المزمنة. مرضى القلب والكلى والربو، يعيش بعضهم داخل الحمام، وتلك ميزة خاصة، عندما يتحول القاووش إلى فرن لشوي المعتقلين ما بعد الظهيرة، عندما ترسل الشمس حدّة الصيف على سطح المهجع وجزءاً من ارتفاع الجدار الغربي فوق الأرض، وهذا شكل آخر من العذاب الذي يحياه المعتقل.

مع مرور الوقت يزداد عدد الوافدين الجدد، قلّة هم من يغادرون، في الغالب يتم تحويلهم إلى معتقلات أخرى، مثل كفر سوسة والدحداح. المكان يختنق بالجميع، رائحة العرق وغازات الحمام، تغشى العيون وتملأ الحلوق بحموضةٍ قَرِفَة ، وشفاطات الهواء بلا جدوى، كأنها لا تعمل وقت الضرورة، والضرورة هي طوال الوقت. خلال النهار يتناوب الجميع على النّوم، ثمة إمكانية للتبادل أحياناً بين ثلاثة مجموعات وحالات: وقوفاً وقرفصة، والجلوس متكئاً إلى الجدار مع مدّ الساقين، وهذه أفضل درجات النوم.. وأفخمها. ساعة النوم قرابة الثانية غالباً، الليل.. تتجدد فيها الصراعات على موضع قدم، يصير للحماقة والأنانية، أصواتاً تعلو بالغضب وتغلي بالحنق، هنا تتبدى صورة أخرى -جليّة- لانتماءات وانقسامات المجتمع. وفي كل الأحوال تنتظم أنساق النوم مقرفصين، ظهراً إلى ظهر لمن يحالفه الحظ، أو كلٌ في حضن الآخر، والضغط على كل فرد من كل الاتجاهات، للحصول على مكان أوسع بإنش واحد. هكذا يُحاصر الجسد ويتفصد عرقاً، ومن يضطر الذهاب إلى الحمام، لا يعود إلى مكانه إن لم يكن من قبضايات المهجع، وسادته. نمنا بفحيح مكتوم، لأن أصواتنا كادت أن تقودنا جميعاً إلى الفلق،

لم يحتمل السجان الذي يسهر في غرفة التعذيب المجاورة لنا، هذا الضجيج، فتح الباب وبيده عصا طويلة وغليظة وهددنا بها. السجان لم يحتمل أصواتنا، لكنه يتلذذ بأصوات المعذبين بين يديه، وتمنح سكرته مزيداً من النشوة بمشهد الاستقواء والإهانة. وحدها تلك المجموعة التي تحتل مكاناً واسعاً، يسار الباب، تتمدد بطول الجسد.. براحة تامة، وتترهب منها الجموع المكبلة!

مشهد النوم، يشبه كثيراً حالة سوريين في سفينة تائهة في عرض البحر، تغرق رويداً بسبب فائض الحمولة المرعب، بلا ماء ولا غذاء. سوف ينام.. من يجد إلى ذلك سبيلا، ينام الجميع، من شدة الانشغال والتفكير في الحال والمفاجآت والمصير.. ينام من شدة التعب وإرهاق النفس، علّه يستقوي بحلمٍ ما، من أجل نهار جديد!

الثلاثاء ١٠حزيران: صباحاً

اليوم تلمستُ خيوط الضغينة بين أبناء الثورة، حتى هنا في المعتقل، يحدث هذا! لم تكن خلافاتهم في وجهات النظر فحسب، كل طرف يريد فرض رأيه على الآخر، لم تكن هناك إمكانية للمناقشة، كان ذلك صعباً، مع أن الغاية واحدة، لكن ليس ثمة تفاهم على الأولويات، وعلى طرائق العمل. كل شيء مفيد منتج يصطدم بمصالح التنظيم ثم المنطقة، ثم ينحدر نحو العائلة. هذا المرض كان يثير حساسيات شديدة داخل المعتقل، سرعان ما تتحول المناقشة إلى تجاذبات خارج الموضوع، تتطور إلى عراك وشتائم، اليوم وصل إلى تشابك الأيدي.



تغلب سمة الإسلاموية في المهجع، أولئك الذين انتفضوا ضد الاستبداد، ثم احتوتهم التيارات الإسلامية، بمعنى أدق اشتغلت عليهم، واستغلت مشاعرهم الدينية، فاندفعوا بتأثير من توجيه الدعم للثورة السورية. المسألة لا تتصل بخروج الناس من المساجد، في البداية، لم تكن بيوت الله سوى فسحة للتجمع والتعبير والانطلاق. كنت أرتاد المساجد أيام الجمع، لأرى وأسمع وأشارك. العبادة والإيمان بالنسبة إليّ مسألة شخصية وخاصة جداً، ولم تكن الطريق إلى المسجد الأموي، منفصلة عن اقتعاد الأرض في كنيسة حنانيا. وفي المحصلة انتقلت الانتفاضة من السلمية إلى ثورة مسلحة، أمام الاستخدام الإجرامي لوسائل العنف والقتل، من قبل النظام. كانت تلك المسائل مثار خلاف دائم في المعتقلات وخارجها، وإلى اليوم. كثيرٌ من حملة السلاح، كانوا بيننا، وهم أشدّ وضوحاً في التعبير عن مواقفهم، بحدّة، وأكثر نكراناً وإقصاءً لنشطاء العمل المدني.. هنا وجدتُني معزولاً بينهم!

اليوم، كانت هناك أخبار جديدة يتم تداولها بين الشفاه والآذان والعيون، حول أحداث الجمعة الأخيرة، التي شهدت مواجهات عنيفة في مثلث جوبر -دوما- برزة. بلغت فيها عمليات الجيش الحر مرحلة نوعية، بعد الزيارة الفاشلة لفريق تقصي الحقائق.

خبز وحلاوة، قدم لنا السجان إفطارنا، مع هذه الأخبار التي تصل مع معتقلين جدد. حصلتُ على رغيف كامل، مع قطعة حلاوة بحجم البيضة. في المعتقلات السورية، وإن لم يكن الطعام كافياً أو صحياً، إلا أنه ليس سبباً في مقتل المعتقلين. يموت السوريين بسبب التعذيب الوحشي بلا أيّ حدود أو مساءلة.

فتح الباب وضرب القادم بقبضته كي ينصت له الجميع:

- كل حشرة يسمع اسمه يطلع.

أشهر ورقته وتلا عدة أسماء، كنتُ أحدها، فانتفضت على الفور، أتلمس حذائي، فعاجلني بالقول أن لا ضرورة. خلف الباب تجمعنا لدقيقتين لا أكثر. بصمنا على أوراقٍ قدمها لنا، وعدنا إلى الداخل. لم أعرف لماذا، لكن الخبراء في المهجع، هنّأوني، فسوف أخرج من هنا. سأخرج إذن، ولكن إلى أين؟ سأغدو حراً طليقاً؟ أم ماذا.. لا نعرف. في الغالب، ثمة معتقل جديد في الانتظار لابتلاعي!

بعد الثالثة عصراً، والشمس حادة جداً في ذروة توهجها، كنت أعبر ساحة فرع الخطيب نحو باص النقل الداخلي، حاملاً حقيبة أوراقي، دون الكمبيوتر المحمول. كنا مجموعة لا تتجاوز عشرين مُرحّلاً، ربطت معاصمنا إلى سلسلة طويلة واحدة، دون أن تُغمض أعيننا بعصبة سوداء. ومن حسن حظي أني كنتُ إلى جوار النافذة، انتابتني حالة فرح طفولي.

رافقنا مسلح واحد بكلاشينكوف معلّق على كتفه الأيسر، ينتصب في الباب الأمامي. كنا في حافلة إيرانية الصنع، وهي تتهادى بثقة الحاكم المتسلط، في شوارع دمشق شبه المهجورة في مثل هذا العصر الجاف. عبرت بنا شارع بغداد نحو نفق شارع الثورة، الحجاز والحلبوني جنوباً. فتحت عيوني عن آخر الحدقتين، وأنا ابتلع مشهد المدينة، الأشجار، وحركة الناس، وأتلمس خطاي فوق هذه الدروب. تعلمت أن لا تغيب عني أيّ تفاصيل خلال التنقل بين معتقل وآخر. لديّ هاجسٌ دائم، بأنه مشهدٌ أخيرٌ قد لا يُتاح لي مرة أخرى.

خسّة الذئاب

اجتازت الحافلة نفق أمن الدولة القريب من دوار كفر سوسة، والتفّت يميناً نحو مدخل خلفي للمبنى، لفظتنا تحت الحراب، وعبرنا المدخل إلى ساحة كبيرة، انقسمنا إلى مجموعتين، ذهبت الأولى إلى ما يعرف بالسجن الجنوبي، وأنا مع ستة موقوفين، إلى السجن الشمالي. في هذا المكان الفسيح، القلعة المنتصبة هنا تتعدد السجون في المكان الواحد: الشمالي والجنوبي، والزنازين الانفرادية تحت المبنى الضخم. ذكرني ذلك بسجون القذافي الذي كان مهووساً بالمجمعات: الأسواق، إدارات الدولة ، وبالطبع السجون، هناك قضيتُ سنواتٍ في مجمّع يضم ثلاثة سجون.

مبنى أمن الدولة، كنتُ أمرّ بجانبه كل يوم، على الطرف المقابل -حين كنتُ أعمل في مؤسسة الصحافة- مختلساً النظر بزاوية عيني إلى السور والبوابة، أتخيل ما يحدث داخله، ومن يقضي في أقبيته. فيما بعد صرتُ أعاين آثار الانفجار الذي دبرته مخابرات النظام، في زاوية ميتة من المبنى، كي ترهب السوريين، وتمنع توسع الانتفاضة.

> أوقفني في المكان الذي يريد مجدداً، وفك العصبة عن عيني، سدد نظرته القاسية إليّ وقال: أنظر.. حرك فمه المغلق، ثم قذف بصقتة في عيني، فملأت وجهي. لصقني بالحائط، ومضى عني.. غير أن صفعة قوية على رقبتي طرقت رأسي بشدة على الجدار، خلتُ فيها أن جمجمتي تهشمت

قصاصة ورق، مزقة تحمل ملاحظة حول فكرة ما لهربر ماركوز من كتابه الإنسان ذو البعد الواحد، وعلى الوجه الآخر عبارة مجتزأة بقي منها كلمتان "دولة الاستبداد". لم يتعب نفسه بالسؤال، فكل شيء كان واضحاً بالنسبة إليه، المثقفون إما خونة، وإما وطنيون مع النظام. هكذا بدأ يغني موّاله، وهو يشتمني ويشتم معي كل الكتّاب، وأننا عملاء للخارج. نهض من مكانه بهدوء ووجه لكمته القوية على كتفي، ثم أمسك بي وراح يكيل لي الصفعات المتوالية على الخدين، وهو يردد مسعوراً: دولة الاستبداد.. دولة الاستبداد، أنتم بلا شرف، الكلاب الخونة، بدكن الحرية يا أنجاس..

عاد جسدي للتقاذف بين يديّ ثعلبٌ واحد. كان الآخرون مشغولون عنه بأعمال أخرى، منها استجواب الآخرين مع الصفعات والشتائم. أنا الوحيد الذي كان له مثل هذا الاستقبال الحافل منذ دخولي. صفتي وعملي ككاتب وصحافي، استوجبت إفراغ الحقد والكراهية من صدر السجان، الذي يمثل نظاماً جعل من الحرف وأصحاب التفكير عدوه الأول، وعمد إلى ملاحقتهم وتغييبهم، عبر الاعتقال والتصفية والتهجير.

مساءً

وضعت قدمي في عتبة باب السجن، أوقفني على الحائط، ثم طلب مني أن أتحرك قليلاً، لم أفهم أنه يقصدني بكلامه، هائماً كنتُ، مغمض العينين، مكبّل اليدين إلى خلف.. لم أكن موجوداً حيث جسدي . رمى شيئاً نحوي فأخطأني. فجأةً.. ركلَتُه على إليتي رفعتني بقوةٍ من مكاني، وقذفتني فوق صاحبي، فارتمينا. أخذ يركلني بجنونٍ وهو يعوي بالسباب والشتائم، أنهَضَني من ياقة قميصي بقبضةٍ ضخمة، وأنا مثل ريشة.. وهو يوقفني وينهال على خدّي كفّاً وراء آخر..

لم أفتح فمي بكلمة، ولم تصدر عني نأمة أو آهة.. أتعجب الآن من نفسي، كيف احتملتُ ذلك، وكنتُ بين يديه، وتحت قدميه مستسلماً.. ليّناً وهشّاً تماماً.

أوقفني في المكان الذي يريد مجدداً، وفك العصبة عن عيني، سدد نظرته القاسية إليّ وقال: أنظر.. حرك فمه المغلق، ثم قذف بصقتة في عيني، فملأت وجهي. لصقني بالحائط، ومضى عني.. غير أن صفعة قوية على رقبتي طرقت رأسي بشدة على الجدار، خلتُ فيها أن جمجمتي تهشمت، أو أنها صعقة كهرباء، أفقدتني بصري وتوازني للحظة، وسمعتُ آهةً عميقةً متألمةً تخرج من بين ضلوعي، من حشايَ.. وتجرح بحرقتها بلعومي.. ثم ابتلعتني عتمة مديدة!

احتجت لدقائق كي أستعيد توازني، كنتُ مجبراً على النهوض، للإدلاء بمعلوماتي الشخصية، وتسليم الأمانات والخضوع للتفتيش الشخصي. جلس العنصر على حافة السرير، أقف أمامه مباشرة وهو يفتش حقيبتي، لم يترك شيئاً إلاّ وقلبه، حتى الأوراق، ليعثر على مفتاح الحلقة الجديدة من التعذيب.

بقيتُ وحدي مع السجانين في البهو، وأنا أتلقى درساً في الحرية والوطنية، وما الذي كان ينقصنا حتى نقوم بتخريب البلاد وحرقها، بالعمالة مع أعداء البلد. أسمع وأنا مغلق الفم، لكن روحي تغلي، فمن كتب على الجدران إذن «الأسد أو نحرق البلد». قرأت العبارة مراراً.. لم يخبرني أحد عنها. رأيتها بنفسي في حرستا، وعلى الطريق الدولي، وفي مدخل حمص، ومفرق سلمية، وأمكنة أخرى عند البوابات، على الجدران وخيم الجيش، وعلى فوهات الدبابات وأبراجها.

أقبية الخوف

أبو لؤي، مدير السجن، تردد وهو محتار بي، قبل أن يحسم أمره: أدخلوه هنا. لأول مرّة أرى مهجعاً بهذا الشكل. هو أشبه بزنزانة، بل هي كذلك. لكنها مديدة.. طويلة، يُطلق عليها اسم البولمان. المسافة بين الجدارين المتقابلين لا تسمح بتمدد جسد واحد براحة دون أن يثني جسده. وقفتُ بالباب مأخوذا بالمشهد، كان المعتقلون يجلسون متكئين إلى الجدران على صفين متقابلين يضمون أرجلهم إلى صدورهم، كي يتركوا بينهم مسافة مقدارها شبر واحد، ممر من الباب حتى الحمام، في الواجهة، بطول عشرة أمتار تقريباً.
هنا يقيم حوالي ٧٠ معتقلاً، جميعهم من حملة الشهادات العالية، بينهم مهندسون وأطباء، ومستشارون قانونيون واقتصاديون ومدرسون، وكان المكان هادئاً.
جاءني الصوت مرحبّاً، وطلب مني أن أتقدم إلى الحمام لأغتسل وأضع حذائي، على السقيفة، فلم تعد بي حاجة إليه..تم التعارف همساً، وأنا أعود إلى جانب الباب ملتمساً مكاناً لا وجود له. نهض شاب وسيم وأفسح لي كيف أقف في جواره، ترك لي موضع قدم، ثم همس في أذني كي أحترس من الكلام هنا. حسام يحمل ماجستير في الحقوق وشهادة عليا في الإدارة، وموظف رفيع في هيئة عامة، تم إلقاء القبض عليه بعد عودته من مهمة رسمية، اتصل خلالها بالقنصلية الأميركية، دون علم السلطات السورية، فاحتجزته «لخيانته»، ترك التعذيب آثاراً مباشرة على جسده، ونتج عنه مرض جلدي، وحالة نفسية متردية. يتذكر وترتجف شفتيه وصوته وهو يقول بمرارة: هذه أقبية الخوف.. والموت.
مع دخول العشاء، أومأ لي رجل ستيني كي أنضم إليهم، كان المهندس محمد أحد قادة الثورة في حرستا ودوما. شحب لونه، وخنقته عبرة الرجال، حين أخبرته باغتيال الدكتور عدنان وهبة. انتابته لحظة سكون قاسية تلمستُ إحساس الفقد فيها، لشخصية هامة في العمل المدني مثل وهبة. جلستُ إلى جانبه نتحدث حول آخر التطورات في الثورة السورية، ومآلاتها. تحدث بعمقٍ كبير كيف يمكن للسوريين أن يعملوا معاً ضمن خطط عمل مجدية. اليوم لا أعرف عن هذا الرجل شيئاً، ما أعرفه أن كاميرا السجن كانت تسجل كل شيء، لذلك مع الصباح الباكر، كنتُ أغادر البولمان.
أُمرت بأن أخلع ثيابي، وأن أدخل إلى المهجع رقم ٦ أمام باب السجن مباشرة.
لا تزيد الغرفة عن ٣×٤ متر، رائحة الغازات المنبعثة من تعرّق الأجساد العارية، تملأ السقف بغيمة سديمية، رغم شفاط الهواء الذي يصدر صوتاً قوياً مزعجاً. أجساد ما يقارب أربعين موقوفاً، جلّهم من الشباب تتكوم فوق بعضها، وفي الزاوية الجنوبية، يتمدد مسنان مريضان، الأول منهك القوى نحيل يتجاوز السبعين عاماً، والثاني لا يقدر على الحركة بسبب تقيّح الجروح والحروق في جسده الضخم. لا يوجد في الغرفة حمام، ولا صنبور مياه. يتم الخروج الجماعي إلى الحمام ثلاث مرات في اليوم، ولا يسمح بالاغتسال أو الوضوء، ويتم تعبئة عبوة بلاستيكية تتسع لعشرة لترات ماء يجب أن تكفي لفترة مابين ٦-١٢ ساعة لأربعين شخصاً في منتصف تموز!
غالبية المعتقلين من إدلب، وصلوا دفعة واحدة بالطائرة إلى دمشق، أبو مالك من تفتناز، حدثني كيف أن أجسادهم كانت تتقاذفها جدران طائرة الشحن العسكري، مع أبشع أنواع التعذيب، وكأنهم علب تنك فارغة يتم اللعب بها، في الفضاء.

ارتفع لغطٌ وملاسنة بين الشباب، ضد رئيس الغرفة، بسبب منع أحدهم من شرب رشفة ماء من قارورة يحتفظ بها لنفسه، ثم شكاهم إلى الحراس، الذين لم يتأخروا في معاقبتنا بالشتائم، وأن نقف على قدم واحدة، وأيادينا لفوق..

النور

غصباً عني وكارهاً بصمت، وقفتُ أمام النافذة الصغيرة المربعة، الملتصقة بالسقف المنخفض، داخل المهجع. فتحت عيني عن آخرهما. قلتُ أملأهما بالنور، قبل أن تحتضنني الظلمة القاسية، أخذت روحي تَشرُق الضوءَ، كمن يشربُ ماءً خشية العطشِ في الصحراء. بقيتُ على هذه الحال ساعاتٍ، طوال فترة العقوبة جاثياً، عارياً إلا بما يسترُ عورتي. أخذت أستعيد كثيراً من تفاصيل الحياة في الطريق الذي أُخمّن أن النافذة تطل عليه، وعلى بائع الزهور الذي كنتُ زبوناً دائماً لديه. أستعيد خطاي وخطى النساء الباهرات، شعرهن الذي يتطاير مع الريح صباحاً، فيتلون قاسيون بالياسمين وتغتسل دمشق بالعطر الذي يشعل في داخلي جمرة المشتهى والأمل.
مرّ الوقت دون أن يحيدَ نظري عن النافذة .. لأكتشف أن المساء قد حلّ، وأن النور الذي شُغفتُ به ليس سوى ضوءَ الكشّاف الذي يبقينا في حالٍ سديميةٍ لا تُلحظ فيها تحولاتُ الليل والنهار .. لا النور ولا الظلمة. كأن ذلك، واحدة من وسائل التعذيب. لم أكترث لمثل هذا النوع من العقوبة، على قسوتها وعدم قدرتي على احتمالها من اشتداد نوبات الربو في المكان الخانق. لكني كنتُ محبطاً من خديعةِ النور، التي لازالت تلازمني حتى اليوم!
خالد حلاق من إدلب، مرحل من السجن العسكري، لانتهاء محكوميته في قضية مخدرات، كان رئيس المهجع، ويبلّغ السجّان بمن يصلي، أو من يتحدث في قضايا الثورة، اصطدمت معه منذ اليوم الأول، شتمته هو ووليه السجان والأسد، رداً على تهديده، فسارع من فوره يشكوني لأبي لؤي. نلت حظي من البهدلة، شتمني وقال لي:
- سوف ترى العجب العجاب يا مثقف يا متفهمن، يا عميل خلّي عبدالله (الملك) ينفعك ويطالعك.
حذرني لآخر مرة، كان المخبر الفساد يواصل شكواه ضدي، وأبو



لؤي لا ينصت إليه، كان يقول له إني تحدثتُ بكلامٍ لا يقال هنا ضد الدولة. واصل تحذيري، ونجحت في الإفلات من حفلة تعذيب خاصة. على الرغم من بشاعة السجان، فإن حقارة نفس المخبر، لا شيء يعادلها في الخسّة والوضاعة.

طوال الوقت لم يتوقف التعذيب الفردي، والعقوبات الجماعية داخل الزنازين والمهاجع. كان القيد يبقى في الأيدي لأيام طويلة في المنفردة، والحجرة، لأسباب كثيرة أهمها إرغام المعتقلين على الإفادة أو الإخبار أو التوقيع على تبني جرائم لم يرتكبوها. في غرفتي كان رياض ذي الثانية والعشرين ربيعاً قد أصيب باختلال عقلي طفيف جراء التعذيب، وأقر قيامه بقتل ٤٥ جندياً في ريف إدلب. كان يتم إخراجه كل يوم إلى البهو ليروي لهم كيف أنه ذبح بالسكين خمسة عشر، ورشاً بالبندقية عشرين آخرين بمفرده.. وكيف كان لون الدم ومنظره جميلاً وهو يقتلهم.

بعد ذلك يعود إلينا منهكاً، بصورة مؤلمة للغاية. قصص اتهامات تتكرر مع كثيرين يتم إلصاق جرائم قتل الجنود بهم، عبر أسلحة وأموال يتلقونها من الخارج: تركيا والسعودية وقطر.

الجمعة 13 حزيران

جاء الطبيب اليوم، لم يختلف أسلوبه عن أيّ سجان، كان يسخر من الجميع، ويرى فيهم كاذبين مخادعين. وأفضل وصفاته حبة بنادول أو بروفين، لكنه كان يبدل على الحروق والجروح المتقيحة. لا أعرف ما يدفعه لذلك طالما يشارك في قتل السجناء وتعذيبهم. قال لي اليوم إن الربو أمر عادي وبسيط بسبب الحرّ: "سنكيّفلك السجن، وحين تختنق لن تحتاج إلى الدواء".

رفض أن يستمع إلى مريض بالقلب، لأن اسمه لم يسجل منذ الصباح، ولا وقت لديه. أما صاحب الساق المكسورة فقد رفسه، كي يعاين الكسر!

اكتشف خالد اليوم أن غالبية الشباب، يؤدون صلاة الجمعة جماعة، كلٌ في مكانه، رأى ذلك في عيونهم وصمتهم وحركة الشفاه، فأبلغ عنهم. حُرِمنا من الطعام ومن الخروج إلى الحمام، أكلنا ما تبقى لدينا من خبز. حرمنا من الجلوس على الأرض، ومن الاضطجاع أو النوم. لكن العقوبة الأشد هي حرماننا من الماء لمدة ١٢ ساعة متواصلة، دون رأفة أو رحمه.. كاد العطش والحرّ يفتكان بنا حتى الصباح.

السبت 14 حزيران

مات محي الدين اليوم، ارتمى على الأرض، أثناء تنفيذ عقوبة طويلة، كان يقف قليلاً ويرتاح قليلاً، ولم يعط دواءً كان يجب أن يتلقاه يومياً. مرّ السجان المناوب، فرآه جالساً مع آخرين، فجنّ جنونه، وأجبره على الوقوف، ترك الباب مفتوحاً وجلس أمام المهجع مراقباً لنا. لم يتوقف أنين محي الدين، لم يحتمل قلبه الضعيف فوقع على الأرض، ممدداً بطوله الرشيق، بقفصه الصدري الناتئ. ركله بقدمه كي ينهض، جروه إلى الخارج وسمعناهم يطلبون الطبيب.

لكن محي الدين لم يعد بحاجة للعودة إلى المهجع، مرة أخرى، ولا إلى الدواء!

الاثنين 16 حزيران

بدأت أخضع للتحقيق، كان الضرب شغّالاً كالعادة في غرف التعذيب، وعند الذهاب والعودة منه. رأيت مشهداً للتحقيق بحق المسّن السبعيني، لا يمكن نسيانه إطلاقاً. كان جاثياً، محني الظهر، حتى يكاد صدره يلامس ركبتيه، يداه مقيدتان إلى الخلف، معصوب العينين. يجلس على عتبة غرفة التحقيق، وقد سمح له أن يمدّ رأسه خلال الباب.. كي يجيب على أسئلة المحقق، فيما يلكزه الحارس بالهراوة بين حينٍ وآخر. كان أسلوباً يتعمد فيه المحقق إهانة المعتقل، والحطّ من آدميته إلى أكبر قدر يمكن أن تجود به عقلية التأسد على الضعيف، مَنْ لا حول ولا قوة له، بحكم الاعتقال، ثم يجبره على توقيع أوراق بيضاء.. هكذا أنا بَصَمتُ أيضاً على ورقتين فارغتين، إضافة إلى محضر التحقيق بعد أن قرأه على مسمعي!

الأحد 23 تموز

الثانية فجراً فتح الباب، وقائمة طويلة من الأسماء، خرجتُ معهم.. الحرية تدّق الأبواب.. وتفتحها غصباً عن السجان، هكذا أنشدتُ في داخلي. كنا في كل يوم نستذكر أرقام الهواتف لمن نحسّ أنه سيغادر قبلنا. خرجتُ إلى الردهة وأنا أرتدي ثيابي على عجل، مضينا إلى الساحة الخارجية ونحن نقلّب في أذهاننا صورة الإفراج عنا بعد قليل. عبرنا نحو المبنى الضخم للمخابرات العامة، من باب خلفي يفضي إلى درج نحو الأسفل.. وبدأنا ننزل. تملكني شعور بأنني لن أخرج من هنا بعد الآن، وأنني ذاهب إلى التصفية، بعد أن اتهمني المحقق بالتطاول على رئيس الجمهورية والنيل منه، والخيانة العظمى.. في أحسن الأحوال سأقتل.

> **غصباً عني وكارهاً بصمت، وقفتُ أمام النافذة الصغيرة المربعة، الملتصقة بالسقف المنخفض، داخل المهجع. فتحت عيني عن آخرهما. قلتُ أملأهما بالنور، قبل أن تحتضنني الظلمة القاسية**

ونحن ندخل الزنزانة التي اكتظت بنا وقوفاً متلاصقين، همس أحدهم بأننا مرحلون إلى المخابرات الجوية، كان ذلك مثاراً للهلع في قلوبنا وأننا ماضون إلى المجهول. في الزنزانة كان هناك أربعة شبيحة مفتولي العضلات، من بينهم رئيس قاووش الخطيب، الذي قال لرفاقه بأنني كاتب وصحفي.

الزنزانة تضيق بنا، الأوكسجين يتناقص، طلبتُ هواءً.. لم أعد بعدها أشعر بشيء. حين صحوتُ، وجدتني مرمياً عند الباب، متكوراً، عارياً ومبللاً، والشبيحة يبصقون عليّ! ■

كاتب من سوريا في الولايات المتحدة

ناديا صفي



حفريات في ذاكرة السجن

حسام ملحم

لقد تمت كتابة هذه الرؤى والأحداث عن فترة تسعة أشهر من الاعتقال في سجون نظام الأسد بين عامي ٢٠١١ و٢٠١٥، وهو ليس بحثاً أو دراسة في طبيعة الظروف والأحوال المعيشية التي يعانيها المعتقل في هذه الأقبية والمعتقلات، كما أنها لا تحاول أن توصل تقريراً أو تحقيقاً عمّا يجري هناك في السجون القابعة تحت شوارع المدن السورية. إنما هي مجرد محاولة لنقل قصص وحكايا خبرتها شخصياً أو شهدت عليها في السجون السورية ذات السمعة السيئة بأوضاعها وظروفها القاسية على نفسية المعتقل وبنيته الجسدية. وتتعامل الأفكار الواردة فيها مع موضوعات متنوعة ذات بعد تفصيلي غالباً، ولكن ذات أثرٍ قوي في دلالتها النفسية والفكرية. من طريقة النوم في السجن إلى التعامل مع الطعام والشراب، واللباس واختيار الأصدقاء، وحتى العلاقة بين السجين والسجّان.

يبقى أن نذكر أن كثيراً من الأفكار الواردة هنا قد تتشابه إلى حدّ التطابق مع قصص وسرديات مشابهة خبرها وعانى منها الكثير والكثير من شباب سوريا ورجالها ونسائها وحتى أطفالها من كلّ فئة عمرية دون استثناء، فلم يسلم من سجون الأسد رضيع ولا طالب مدرسة ولا خريج جامعة ولا كهل ولا حتى جريح أو شهيد. كلنا عرضة لأن نكون معتقلين في دولة "الأسد أو لا أحد".

"من شهد المقتلة ليس كمن عاشها".. بعد أربع سنوات من الضياع والتسكع في فم الموت، وعلى الرغم من كلّ الجرائم التي شهدها الشعب السوري، وصلت إلى حدّ القصف بالسلاح الكيميائي، تبقى تجربة الاعتقال في سجون الأسد موضوعاً استثنائياً وسريالياً في آن، لا يمكن التخلص من آثاره ولو بعد سنين.

ليست صدفة أني خبرتُ هذه التجربة، ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات، فالكثير من السوريين، وخاصة الذين انخرطوا بالثورة إلى أعمق حدّ، قد اختبروا الاعتقال، والمتكرر منه، في أقسى الظروف وأسوأ السجون سمعة على الإطلاق.

تجربة الاعتقال بقدر قسوتها وشدتها في الفترة التي يمضيها المعتقل داخل السجن، إلاّ أن الأقسى منها والأشد وقعاً وإلحاحاً وقسرية، هي تلك الرؤى والرضوض النفسية التي تحفر عميقاً في ذاكرة المعتقل في الفترة التي تلي خروجه، والتي قد تستمر لأشهر وسنوات، وقد يكون من المفيد للمعتقل أن يتعامل مع هذه الذكرى بالكثير من العقلانية والنضوج، إلا أنّ حجم الأذى والمرض النفسي الذي يحدث، يجعل منها مسماراً لا تكفّ الليالي والكوابيس عن طرقه عميقاً في الذاكرة.

مدفوعاً بحاجة ذاتية بالدرجة الأولى، وحاجة أن يتحدث جميع السوريين، معتقلين منهم أو غير معتقلين بالدرجة الثانية، فإني سأكتب هنا عن تجربتي في معتقلات دولة الأسد، آملاً أن أتمكن من إخراج هذا المسمار، الذي يحفر في العمق في رأسي، وفي رؤوس كل السوريين.

فروع الجوية

اعتقلت أول مرة بتاريخ ١٦ تشرين الأول ٢٠١١ في مدينة حمص، كنت قبلها قد انخرطت بعمقٍ في نشاطات الثورة، من تظاهر واعتصام وتشكيل تنسيقيات. يوم اعتقالي لم أكن أشعر بأيّ هاجسٍ أو خوفٍ من عناصر الأمن والشبّيحة، كان فرط القوة الذي يتملكني من المشاركة بالثورة، يجعلني غير مكترثٍ لعواقب الأمور، هكذا وبسبب التسرع والتهور، توقفت سيارة بالقرب مني، وكنت ذاهباً لأتخفى في منزل أحد الأصدقاء، قطعت عليّ الطريق، وبدأت رحلة من العذاب والحرمان والانتظار.

كان هنالك عنصران من الشبيحة الملحقين بالمخابرات الجوية، سريعاً، أدخلوني السيارة وبدأت اللكمات والصفعات والإهانات دون هوادة، لم يكن الألم الجسدي ذلك الذي حفر عميقاً في الذاكرة، فكله ينسى لحظة الخدران الذي يعتريك بعد برهة من كثرته، إلاّ أن ما آلمَ في النفس كثيراً كان الإذلال والتحقير أمام الذات أولاً وأمام الناس.

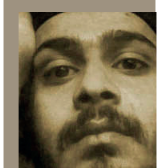
اقتادني عناصر الشبيحة، إلى أحد أحياء الطائفة العلوية، وهناك جمعوا كلّ من استطاعوا الوصول إليه من شبيحة وشبيحات، للمشاركة في أخذ القصاص من هذا "العلوي الخائن" (هكذا أشاروا إليّ). كانت امرأة خمسينية، علمت لاحقاً أنها أمٌّ لأحد الشبيحة الذين قتلوا يوم أمس في حي باب السباع. تولّت المهمة الأكبر، وأشبعت ثكلها، حين تمكّنت من تحطيم عصا خشبية، كانت تستخدمها لهش الغبار في منزلها، والآن هشتني بها.

في تلك اللحظات لم أكن أكترث لفحوى ما يجري، ما اكترثت له هو الخلاص والوصول إلى الفرع، كم رغبت أن تأتي مهمة اعتقال أخرى لهؤلاء الشبيحة، علّهم يعجلون في تسليمي للفرع، ويلتفتون لغبارٍ آخر يهشونه.

فروع المخابرات السورية تتشابه إلى أقسى الدرجات، وإن اختلفت في بعض التفاصيل الصغيرة، فالجوية تستخدم "العصا الكهربائية والأخضر الإبراهيمي [1]" لحفلة الاستقبال. في حين أن المخابرات العسكرية لا تكتفي بذلك، بل تتوج الحفلة بضرباتٍ قاسمة للظهر بواسطة "خشبة المعلم [2]"، وهذا ما سأعرفه عند دخولي لفرع فلسطين في ٢٠١٤، إذْ مضت حفلة الاستقبال في فرع المخابرات الجوية لمدة طويلة، أو هكذا شعرت بها.



فادية عفاش



كانت صعقات الكهرباء تنفض من كل صوب، تأتيك من الخلف على الكتف، أو من أسفل الظهر على المقعد، أو في أحيانٍ أخرى على ما بين الفخذين من اتصال، نصف ساعة، ساعة، أو ساعتين.. ذلك لا يهمّ. سيملؤك الخدر والانتشاء بالألم، بعد "الدولاب ٣" الثاني أو الثالث على أكبر تقدير، بعدها تدخل إلى حيث ستقضي جلّ فترتك في الفرع. يسبق إدخالك تصويرك من الجهات الثلاث، كي يتم حفظ ألمك وجروحك في ذاكرة السجن، وأضابيره التي تؤرخ عدد الكدمات والقروح المحفورة في أجساد السوريين.

لأفرع المخابرات الجوية صيت سيء مقارنة بباقي أجهزة الأمن، ويبدو أن ذلك مرده إلى حجم التعذيب الذي يتلقاه المعتقلون في أقبيتها، لكن هناك مزايا جيدة لفرع المخابرات الجوية (وهذا أمرٌ ساخر فعلاً)، تعود إلى حجم المكان الذي خصص للسجين، ونوع وكمية الطعام المقدم إليه.

الجوية نوعية، أجل هذا هو التوصيف، فالمعتقلون الذين يدخلونها لا يخرجون، إلا وحياة أخرى قد كُتبَت لهم. على الرغم من شدة التعذيب وقسوته هناك، فإن العدد داخل كل "جماعية" هو أربعة أشخاص، وهذا بالمقارنة مع الأفرع الأخرى يُعدُّ قليلاً، لذلك فالحصول على بلاطة تريّح عليها مقعدتك في فرع فلسطين يعتبر ضرباً من الخيال، بينما بلاطتان هما ما يمكن لك الحصول عليه في الجوية، وأحياناً أخرى أكثر من ذلك.

وإن كان الطعام المقدم لك في فرع الأمن السياسي، لا يتجاوز رغيفا ونصفا في اليوم الكامل، فإنك في الجوية تحصل على ثلاثة أرغفة من الخبز "الطازج" يومياً، و يا لها من "نعمة وبهجة"، لكن من ناحية أخرى، ليس هناك أيّ مجال للمقارنة بين ما تختبره في التحقيق داخل الجوية، و بين أيّ سجن آخر.

لم يكن قد مضى على وجودي داخل الجماعية رقم واحد في مطار المزة العسكري التابع لفرع تحقيق المخابرات الجوية، سوى أسبوع واحد حين تمّ طلبي إلى جلسة التحقيق الأولى، ويا له من امتحان، أخذ قلبي يخفق بسرعة دون أي انتظام، أرجلي لم تعد تقوى على حملي، لم أعرف كيف تمكن "الشاويش ٥" من إعطائي البدلة الزرقاء المخصصة للتحقيق، ووضع "الطميشة ٦"، وقذف بي إلى خارج الباب الحديدي.

ضوء شفيفٌ لا يقاوم، أخذ يتسرب من بين مسامات العصبة التي غطت عيني، رافقته رائحة نديّة لهواءٍ جديد، كان العفن داخل الجماعية يمنعنا من استنشاقه، لم أتمكن من مقاومة سحره، شعور لا يوصف مختلط ومعقد إلى أبعد حدّ، ذلك الذي اعتراني، قلق، خوف، توجس ممّا سيأتي وسيحدث، رافقه شعور مرتبك بتلمس تفاصيل العالم الخارجي ودقائقه، لقد كانت إعادة لاختبار الضوء و الهواء من جديد.

اسجدوا هذا ربّكم

لا تعدو اليوميات المعاشة في مهاجع أقبية الفروع الأمنية أو زنازينها، عن كونها يوميات اعتيادية كالتي يعيشها ويختبرها الإنسان في الخارج، إلا بفارق واحد هو أن يوميات السجن لا تُنسى، وتحفر عميقاً في الذاكرة.

الذّل اليومي في "سوريا الأسد" هو نفسه، سواء كنت في زنزانة أم كنت في بيت محشورٍ ضمن الإسمنت في "الحجر الأسود"، لن يتغير عليك سوى رحابة الأخير ودفئه، مقارنة بالأول.

الخوف اليومي هو نفسه أيضاً وإن كان بجرعة مخففة، ما يشكل فارقاً هاماً في تجربة السجن هو التداخل المركب للخوف والذلّ

اليومي، بحيث يغدو كلٌ منهما موضوعاً، يعمل السجان يومياً على إذلالك بمدى خوفك، وتخويفك بحجم الذّل الذي ينزله عليك.

في الجوية حيث كان الاعتقال الأول لي، كانت الأيام تمضي رغم تثاقلها المعروف بسرعة يومية، والآن لا يسعني أن أذكر كل التفاصيل التي كانت تصادفنا، إلاّ أن حوادث بعينها على ما يبدو تملك من الوقع والأثر في النفس ما لا طاقة للكثير منا على نسيانه.

كان يتم إيقاظنا عند أول الفجر فيقدم لنا السجان طعام الفطور، ويتوجب على الجماعية بأسرها أن تُجْهِز على أغلب الخبز وحبات الزيتون المقدمة، وإلا فالحساب عسير.

لا أدري كيف اتفق في ذلك الصباح القارس من شهر كانون الأول في عام ٢٠١١، بحيث لم يكن أغلب المعتقلين على استعداد لتفويت فرصة الدفء تحت بطانيات القمل والحشرات، مقابل تناول بضع حباتٍ من الزيتون الأخضر القادم "من الشجر مباشرة إلى الأفواه"، فبقي الكثير منه بعد انتهاء الوجبة. وهل كان هو مزاج السجان الذي تعكّر، بسبب رائحة التراب الندي الذي انبعث من جراء أمطار الليل، والتي غطت على كل روائح العفن والعرق والنشادر المنبعثة من الجماعية، أم كانت أصوات المعتقلين وصرخاتهم ما تزال تطن وتنقر في رأس "أبو صخر"، وذلك في ليلة طويلة قضاها وهو يعذّب في الأمس، محاولاً معرفة عدد المظاهرات التي شارك فيها شباب من الرستن من خلال توريم أقدامهم وإدمائها.

كل شيء ممكن في عقل أبو صخر الذي لا يسع جمجمته الضخمة أن تستوعبه، فهو وإن كان لا يحمل شهادة ثانوية أو حتى إعدادية، لكنه قادرٌ على تعليم فن السياسة والآداب وحتى أصول الدين وشرائعه، لهذه "الصراصير" التي لا تقوى على النظر بين عينه حين يفتح باب الحديد الذي يملك مفاتيحه.

وحين جاء أبو صخر ليأخذ "القصعات ١"، وجد أغلب الزيتون على حاله، ولمح في الزاوية القصية المقابلة للحمام، أحد المعتقلين وهو يسجد داعياً ربه دون أيّ حراك.

لقد اقترفت الجماعية إثماً مضاعفاً، فهؤلاء "الدواب" يرفضون النعمة التي تقدمها دولة الأسد، على الرغم من كلّ العداء الذي بينهم وبينها، لا بل أكثر من ذلك يؤوون بينهم متملقين ومرائين، يدعون إلى الدين والصلاة، وهم في الخارج لا يكفون عن تفخيخ السيارات وتفجير عربات الجيش وقتل جنوده.

بدأت ثورة الغضب لدى أبو صخر، و لم تنته "بالفلقة ٢" التي أنزلها على المصلّي مستخدماً الأخضر الإبراهيمي، بل كان عليه أن يبين لكل المساجين الطريقة الصحيحة للصلاة، وأن يرسم ملامح جديدة في علم اللاهوت ويبرهن لنا من هو الإله الحقيقي والمعاصر حالياً والجدير بالعبادة والسجود. لم يتوقف غضبه وهو يشرع بفك أربطة "البوط العسكري" الذي يرتديه، والمحاضرة السياسية الأخلاقية الدينية لم تنته كذلك، إلا وقد وضع ما خلعه من قدمه عالياً على الحائط الذي يستر الحمام عن فسحة الجماعية، من ثمة عمد وبصوت واحد إلى نظم صفوف المصلين وترتيبهم "كالنظام المنضم ٣"، رافعاً أخضره الابراهيمي فوق قدمي المصلي، طالب من الجميع قائلا "اسجدوا، لآدم.. اسجدوا أنا ربكم، والبوط العسكري خليفتي يا ملاعين"، لم يسجد أحد، فانهال بالأخضر على قدمي المصلي، كرر عبارته ثلاث مرات، فدخلت صرخات المصلي في الآذان وأحدثت ثقباً في الذاكرة لا يزول.. لقد سجد الجميع للبوط العسكري دون استثناء، وأذكر أنّ من لم تدمع عيناه بعد السجدة، قد أدمعت بعد القهقهة التي أصدرها أبو صخر ولم تنته طوال ذلك اليوم، حتى جاء لأخذ دفعة جديدة من الأقدام كي يعمل ليلاً على توريمها وإدمائها.

مضت عليّ ثلاثة شهور داخل نفس الجماعية، لم أكن أشعر بحجم هذا الذّل الذي كنا نختبره، كان كلّ الذي يؤرّقني، وأعتقد أنّه كان يؤرق الجميع، هو الخلاص والخروج بأقل الخسائر الممكنة من أذيات الجسد والروح، فالكثير.. ويا للأسف، قد يفقد عيناً فتعمى، أو يداً وقدماً فتشلّ أو تصاب بالغانغرين، أما خسائر الروح وندوبها وقروحها، فلا تعدو أن تكون ومضاتٍ تعترينا كمعتقلين في لحظاتٍ ممزوجة بين الفرح والحزن، كأن يمرّ السجان صباحاً وقد فاحت رائحة عطره "الرخيص"، فذكرتنا بروائح كانت لنا مع أحبة وأصدقاء في خارج هذا البئر، أو صوتٍ لراديو أو مسجلة تأتي من سراديب الفرع، تغني فيها فيروز "كيفك أنت ، ملّا أنت".

بتاريخ ٢٠١٢/١/١٦ تم إعلان اسمي في سجن حمص المركزي، و إخلاء سبيلي من هذه البئر، لكن على ما يبدو كان إخلاءً إلى حين.

لم يكن قد مضى على وجودي داخل الجماعية رقم واحد في مطار المزة العسكري التابع لفرع تحقيق المخابرات الجوية، سوى أسبوع واحد حين تمّ طلبي إلى جلسة التحقيق الأولى، ويا له من امتحان، أخذ قلبي يخفق بسرعة دون أي انتظام، أرجلي لم تعد تقوى على حملي

تلك الحيرة

يطلق عليهم في أفغانستان اسم "الخاد"، أما في إسرائيل فيعرفون باسم "الموساد"، لكن هنا في سوريا الاسم لا يُنسى، إنهم المخابرات.

لا تكاد تخلو حياة كل سوري في مرحلة ما منها، من احتكاكٍ أو اتصالٍ مباشر أو غير مباشر مع أجهزة المخابرات أو رجالاتها، هذا الاحتكاك أو الاتصال لا يمكن أن يأخذ شكلاً متكافئاً ومتساوياً، وليس مقدّراً له هذا الشكل أساساً، فالعلاقة مع المخابرات وعلى الدوام مبنية على الرعب والخوف والغموض الممزوج بالمجهول، ومهما كانت خبرتك أو معرفتك بهذه الأجهزة، فلن يكون بمقدورك أن تلمس فيها فهماً موضوعياً وحقيقياً، لسلوك المخابرات السورية و طريقة عملها وتصرفها، ملمح غامض أصيل، فحتى أكبر المعتقلين السياسيين الذي قضوا سنوات في أقبية الفروع الأمنية، ليس بمقدورهم أن يعطوا رسماً واضحاً وشاملاً لآليات عملهم وتصرفاتهم، فالمفاجأة في سجون الأسد

موجودة على الدوام، ولا تنتهي!

كانت قد مضت سنتان على اعتقالي الأول في بداية الثورة السورية، وكنت قد أخذت بالتعافي والتخلص تدريجياً من آثارها الجسدية والنفسية، إلا أنه في ظل حكم المخابرات السورية، لا يمكن أن تخمّن حقيقةً أو تدرك معنى، فقامت قوات الأمن العسكري باعتقالي مجدداً في حمص، وعلى الرغم من أنها المرة الثانية، ومن المفترض أن تكون كلّ الأمور المعاشة مختبرة ومعلومة، إلاّ أن الأمر لم يكن كذلك، وعرفت المخابرات السورية من جديد كيف تفاجئني وتصدمني.

بتاريخ ٢٠١٤/١٠/٢ ترجّلت من الحافلة التي أقلّتني من دمشق إلى حمص، ودخلت في سيارة الدورية التي حملتني إلى الفرع ٢٦١، ما كان مُستغرباً في ذلك الوقت ومُحيّراً بالنسبة إلى السجان الذي استلمني، هو المكان الذي سيضعني فيه، فالفرع ٢٦١ يحتوي على مهجعين كبيرين، الأول يدعى المهجع المدني، "وهو مخصص لمعتقلي الثورة أو كما يسمّونهم المسلحين وكلّهم من السنة"، والثاني يدعى المهجع العسكري، "وهو مخصص لعناصر الدفاع الوطني والشبيحة، وهؤلاء كلّهم من العلويين".

المعضلة كانت في التصنيف الذي يجب أن يسبغوه عليّ، فأنا لست شبيحاً أو عنصراً مقاتلاً في النظام، بل على العكس كنت من أشد معارضيه، لكن من جهة أخرى لست مناسباً لأكون نزيلاً في المهجع المدني، حيث أن هويّتي الطائفية لا تحمل نفس الدلالات الجرمية بالنسبة إلى السجان.

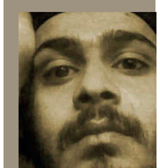
من شدة الحيرة التي وقع فيها السجان أمام حالتي، لم يعرف طريقة مناسبة للاستقبال كي يحتفي بي فيها، على كلّ حال، اختار الدولاب و"الشبح الخلفي"، قصاصاً مني عن هذا الإرباك الذي وضعته فيه، وبعد الدولاب الثاني، والشبح الثالث، جاؤوا بموقوف آخر وأخذ عني الحمل. يبدو أن الإرباك لم ولن ينتهي في حمص، هذه المدينة التي رسمت الملامح الثورية في سوريا منذ بدايتها، ولكنها أيضاً فتحت للحرب والطائفية أبواباً أدخلتنا في دواماتٍ من المجهول، ليس معلوماً متى تنتهي.

هذه المرة كان الإرباك أيضاً من حالة الموقوف الجديد الذي جُلب إلى السجان، اسمه مازن وكان يلقب بالصيني، وعلمت وأنا معلق على "البلنغو ٢" أنه عنصر في مجموعة كبيرة من الشبيحة في مدينة حمص، ويا للمفارقة، فقد كان من الطائفة السنية، الآن أصبح الإرباك مضاعفاً بالنسبة إلى السجان، وهذا كان دافعاً مهماً له، ليضاعف الدولاب، ليس فقط بالنسبة إلى الشبيح الصيني، بل أيضاً بالنسبة إلى المعارض المشبوح أمامه.

لقد احتار كثيراً، ما هذه الحيرة التي سببناها له، لماذا هناك معارض علوي، وشبيح سني؟ لماذا لا تلتزمون جميعاً بالقاعدة الأسدية؟ العلويون هم الشبيحة وفقط، والسنة هم المسلحون المعارضون وفقط؟ كان عقل السجان يضطرم بهذه الأفكار المشوشة، أو هكذا اعتقدت وأنا أحاول أن أشتت التركيز عن الألم الذي يعتصر معصمي، ويشد بساعدي حتى أسفل أقدامي المتورمة.

لا أدري إن كانت ساعة تلك التي مضت، والسجان بين أخذٍ ورد، فمرة يكلم ضابطاً ما على الهاتف ويشرح له ماهية المعضلة التي أوقعه فيها المواقيف الجدد، ومرة ينطلق مسرعاً نحوي أو نحو الشبيح، عله يحلّ الإشكال بالعصا المنمقة التي بين يديه، لم أعد أحتسب الضربات والومضات التي كانت تبرق بين عينيّ، إثر كل لكمة وصفعة، لقد قررت أن أفكر بأشياء جديدة، راحت ذكريات طفولية تدهمني، تذكرت مرة حين كنا نلعب قرب سكة القطار الحديدية في الضاحية التي قطنها أهلي في ريف دمشق، حيث كنا نضع قطعة معدنية من فئة الليرة على السكة قبل وصول القطار بأمتار قليلة فقط، كي يمرّ بدواليبه فوقها، فتتمدد وتصبح بحجم مضاعف، فعلاً كان للدولاب أثر مضاعف، فتحت عيني ونظرت نحو الأسفل، كانت قدماي قد تمددتا من جراء دولاب السجان الذي لقّنني إياه.

وأخيراً، جاء الأمر مباشرة من رئيس الفرع "ضعوا كلا الموقوفين في منفردة العقوبات"، وهذه المنفردة عبارة عن زنزانة بين المهجعين، تتم معاقبة المواقيف التي تعصي أوامر السجان فيها، يبدو أنّ كلانا كان عاصياً بمجرد وجوده، لا يمكن، وليس معقولاً لدى المخابرات السورية أن تكون معارضاً علويّاً، كما أنّه ليس مستحباً أن تكون سنيّاً شبيحاً وترتكب مخالفة أمنية، فهذا مقصورٌ على العلويين، أما أن تكون شبيحاً عاصياً وسنيّاً في ذات الوقت، فتلك معصية وإثم مضاعف.



كان يتناوب في التسلية سجاننا، بيني وبين الشبيح الصيني، نشأت بيننا علاقة تثقيفية ثلاثية، فلا بد للسجان أن يعاقب أحدنا، وأن يجعله موعظة وعبرة للآخر، فحين كان ينهال عليّ بالأخضر الإبراهيمي، كان يبرهن للشبيح، أنّ "الدولة" ليست طائفية كما يدّعي "الثوار"، والدلالة هذه الجروح التي يحفرها في جسد هذا العلوي، وبالمقابل، حين يعلق الشبيح على البلنغو، سائطاً ظهره بعصاه المنمقة، كان يبرهن لي، وبالدليل القاطع، أن السنّة كلّهم مجرمون ولا يجب الوثوق بهم أو تنصيبهم أيّ منصب في دولة النقاء العلوية، لأنهم حينها سيرتكبون كلّ الجرائم التي يبدأ الصيني بالاعتراف فيها، من سرقة ونهب وتفعيش واغتصاب حتى.

هل كانت قدرتي على التحمل أكبر؟ أم

”

المعضلة كانت في التصنيف الذي يجب أن يسبغوه عليّ، فأنا لست شبيحاً أو عنصراً مقاتلاً في النظام، بل على العكس كنت من أشد معارضيه، لكن من جهة أخرى لست مناسباً لأكون نزيلاً في المهجع المدني، حيث أن هويّتي الطائفية لا تحمل نفس الدلالات الجرمية بالنسبة إلى السجان

“

أن الدواليب والشبح الذي ناله الصيني كان أعنف مما نلته؟ أم أن قوة خفية حفظتني ولمست عدالة ما بين قضيتي وقضيته؟ لا أدري، لكن بعد أسبوع من العذاب المشترك راحت قدم الشبيح الصيني تتعفن وانتشر فيها الإنتان، وعلى الرغم من كل الإجراءات العلاجية التي قمت بها، لتنظيف الخراج و تضميد الجروح، إلا أن الموت كان نصيبه، فبعد عشر محاولاتٍ من الإنعاش قمت بها، انقطعت فيها أنفاسي وصرخاتي، وأنا أحاول أن أنادي على السجّان علّه يأتي ليأخذ الموت منه، إلاّ أن الصيني فارق الحياة شبيحاً سنيّاً قضى في سجون الأسد، وأنا بقيت وحيداً في زنزانة العقوبة، لا أدري هل ما تزال تلك الحيرة والإرباك الذي أوجده وجودنا، قائماً في عقل السجان كتساؤلٍ أم نازلاً من بين يديه كضربات سوطٍ و دواليب. أمضيت شهراً و نصفا في الفرع ٢٦١، ثم تم نقلي إلى مكان آخر، عدت فيه لألتقي مع الموت وأوشك أن اقترب منه حدّ الوقوع.

عارٍ من الاسم

كلّهم قد مروا من هنا، ملأوا جدران الزنازين والمهاجع بنقوش أسمائهم وذكرياتهم وأعداد الأشهر التي مضت عليهم في هذه المقابر، وهناك على مصطبة الطابق الأول، قد مسحوا إبهامهم المطبوع بلون أزرق البصمة، ليختموا رحلة التعذيب في سراديب التحقيق. هنا مروا من الفرع ٢٣٥، القوميون، الشيوعيون، اليساريون، الإسلاميون، المتظاهرون السلميون، الجيش الحر، جبهة النصرة، وحتى داعش قد مرّت من هنا، لكن هذا الطريق لم يفضي إلى فلسطين، ما دام في العاصمة دمشق يقبع جاثماً على أرواح السوريين، إنّه "فرع فلسطين". الساعة الخامسة عصراً، كانت سيارة "اللحمة" تقل جنزيراً كاملاً من المعتقلين الذين جاؤوا من كل المحافظات، واحتشدوا في السجن البالوني، ليتم ترحيلهم عند اكتمال النصاب صوب دمشق، حيث ينتصب عالياً جداً تحت الأرض القبر الذي لم يُنس، ولن يُنسى من هذه الذاكرة السورية الهائمة بين افتراء القومية العربية وكذبة "القضية الفلسطينية"، وبين ركلات عناصر الأمن ولكماتهم.

دخلنا الفرع سيء الصيت، الأحاديث الهامسة والنظرات الواجمة بيننا تحاول اكتشاف المصير القادم، هل هناك حفلة استقبال؟ بالتأكيد هذا أمر مفروغ منه، حسنا، كم ستدوم؟ هل سنتألم؟ وكم سيحشرون في كل جماعية؟ لم تتوقف هذه النقرات في باطن كل المعتقلين وهم يجرجرون إلى داخل فم الموت.

أصعب ما تختبره في فرع فلسطين غير الانتظار الطويل داخل المهجع، هو الاستقبال الأولي الذي يهندسه وبكل حرافة، المساعد أبو حبيب، المشهور بعصاه المصممة من سنين لتأديب المارقين والخارجين عن "قضية فلسطين".

لأبو حبيب عصا خاصة تدعى "عصا المعلم"، تستخدم ضربة واحدة منها، لكل معتقل كتتويج وتكليل لحفلة الاستقبال التي يتولاها عناصر "السخرة [1]"، لم أنس عصا أبو حبيب، ولا أعتقد أن كل الذين مروا من هنا في السراديب الطويلة التي لا تنتهي قد نسوها، مربعة الشكل، مخصورة عند المقبض، منمقة ومزينة بكل ألوان المسامير الحديدية التي تشكل قوس قزح، وبضربة واحدة، تقدح في العيون والرؤى ألوانها، ليغدو قوس قزح حقيقة مجردة، فلا حقيقة غير القهر هناك.

كلّهم قد مروا من هنا، ملأوا جدران الزنازين والمهاجع بنقوش أسمائهم وذكرياتهم وأعداد الأشهر التي مضت عليهم في هذه المقابر، وهناك على مصطبة الطابق الأول، قد مسحوا إبهامهم المطبوع بلون أزرق البصمة، ليختموا رحلة التعذيب في سراديب التحقيق

قد تكون الثماني ساعات تلك التي مرت قبل أن ننتهي من إجراءات الدخول، الضرب، عصا أبو حبيب، الانتظار في "التشميسة [2]"، التصوير من الجهات الثلاث، وأخيراً "الترقيم".

في فلسطين، لا أهمية للأسماء أو الألقاب، الكل يتحول إلى رقم، يخبرك السجان قبل إدخالك إلى المهجع الخاص بك قائلاً "هون بتنسى اسمك، فهمان ولا، اسمك ٥٠ على ١٦..."، هكذا أصبح اسمي، طالما أحببت الأرقام الزوجية، فهي خلافاً للفردية تقبل المشاركة والتعدد، أخذت أردد اسمي الجديد باستمرار.

في الصباح، أرسم خيالاتٍ و تراكيب عن علاقة الخمسين بمفاهيم الحياة، وهل الستة عشر تصلح لأن تفسر ظواهر الكينونة، لم أكن أدري أن كان هناك كينونة بعد، أم يا ترى كان مجرد هذيانٍ ليس إلا! أو يبدو أن رائحة المهجع التي اقتحمت الأنوف ووصلت حتى الصدوغ، قد جعلت من كلّ اعتبارات العقل والفهم، أموراً لا قيمة لها.

الجميع عارٍ في فرع فلسطين، ليس الاسم وحده الذي يتعرى منك، لا بل جسدك أيضاً هو الذي يُعرّى، عند دخول المهجع يستقبلك الشاويش وزبانيته، بكفٍ وركلة مصطنعة أمام السجان المتلصص من عين الباب، يطلبون منك أن تخلع كل الثياب، وتُبقي على ما يستر العورة في الأسفل، لم يكن هناك أوراق أشجار أو عشب أخضر لنعود كما الإنسان في العصور الغابرة، يتلحف ورق الشجر بين فخذيه، لكن ثيابك الداخلية السفلية، ستخضر وتتعفن مع تفاعلها مع عرق رفاقك الذين ينامون فوقك وتحتك وعلى الميمنة والميسرة، فتحاكي شيئاً ما من عهدٍ فات على الإنسان.

قد يكون من المفيد أن تعود عارياً بين حين وآخر، هذا ما يقدمه فرع فلسطين للزوار، ستكون مخيلتك، عواطفك، أحاسيسك، رؤاك، وكل اعتباراتك المعرفية تجاه حياة عارية وبلا أيّ قيمة، أمام الغريزة الأهم والوحيدة داخل المهجع، غريزة البقاء بأقل ما يمكن من حياة، ستتعرى من التزاماتك واعتباراتك العاطفية نحو الأهل والأصحاب والعشاق، لا وقت لهذه الترهات، هناك خبز عليك أن تحصل عليه، وحبة بطاطا أو بندورة عليك أن تجاهد لتنال أكثر منها في اليوم، عليك التزلف للشاويش وزبانيته، عليك أن تمسح بالأرض كل قيمة واعتبار، لتحصل على فرصة ثانية بالتبول أثناء الليل و"نوم القطار".

مضت الأيام في فرع فلسطين أسوأ من الجحيم، مع أنّي لم أختبر هذا الأخير، لكن أعتقد أنه لن يكون أسوأ من تلك الأيام المريرة، أحاسيس الجوع، والحصر البولي،

والتشقق المحفور في حواف العظام، وتورّم الخصى من ثقل رأس الرفاق الذين ينامون كالقطار، كلها كانت تشتت أي تركيز واستفكار في الخارج والحياة فيه، وقد يبدو أن ذلك هو الفائدة الوحيدة من الحرمان والفقد الجذري في هذه البيئات، فهنا لست مضطراً لأن تكون مهموماً حيال الأحبة والأصدقاء، عليك أن تكون لنفسك وتنجو بنفسك.

وجاء اليوم المرتقب، ليلاً وقبل أن نصطف قطاراً للنوم، فتح السجان الباب ونادى خمسين، تدربت كثيراً وحفظت اسمي الجديد عن ظهر قلب، لكن حين جاءت لحظة الحساب، لا أدري ما جرى، لم أرتكس قيد أنملة، ليس هذا اسمي، ليس هذا ما اعتدت أن ينادي به البشر، النتيجة كانت صفعتين لا أكثر على ظهر عنقي لأني "كما هؤلاء الدواب ليس لديّ عقل لأحفظ فيه اسمي البسيط حتى".

لم أختلف عن الباقين، ولم يختلف فرع فلسطين في وسائل التعذيب المتبعة أثناء التحقيق، "الأخضر الإبراهيمي" سمة مشتركة، و"الدولاب" و"الكرسي المقلوب" أيضاً متوافرة وبكثرة، لم أقاوم أيّ شيء، اعترفت بكل ما لديّ، فلا حاجة أن تقف في وجه العاصفة إن كنت ستكسر على أيّ حال، أكتب ما تريد يا سيادة المحقق، فتوقي لأن أطبع بصمة الإبهام على ورقك الأبيض، لا تقل عن توقي للعودة إلى بيتي العفن هنا في الأسفل، طبعت البصمة، نزلت مع الباقيين مسرعاً، تدور رائحة ما كان يطبخ وصوت أغنية جبلية بين تفاصيل رأسي، دخلت المهجع وكان العرس.

مصافحات، سلامات، وقبلات حارة، انهالت عليّ من الجميع، ما إن رأوا اللون الأزرق يغطي باطن الإبهام، لقد نجحت في اختبار الحياة، لم يبق لديّ من مهمة سوى الانتظار إلى أن يحين موعد الخروج إليها.

الخروج الأخير

خرجت من فرع فلسطين بتاريخ ٢٠١٤/١٢/٢٨ وتمّ تحويلي إلى سجن عدرا المركزي ، قضيت هناك حوالي ثلاثة أشهر، كانت أسهل بكثير من ظروف و أحوال الاعتقال في الأفرع الأمنية. يعتبر سجن عدرا "فندق خمس نجوم" مقارنة بمعتقلات المخابرات و سجون الظلام في دولة الأسد.

في عدرا أخذت الصحة والتعافي بالعودة إلى تدريجياً، الوجه أخذ يتوضح، ونضرة على البدن أخذت أتلمسها كلما نظرت إلى نفسي في انعكاسات الشمس على رخام الحمامات المركزية هناك.

لم تكن الشهور الثلاثة في عدرا تقارن بتلك التي كانت في أفرع الأمن العسكري و معتقلاته، إلاّ بما تشاركه من ازدحام وحجز للحرية بشكلٍّ أقلّ إجحافاً وانتهاكاً للجسد والروح.

خرجت بتاريخ ٢٠١٥/٣/٢٨ وكانت لحظة ولادة من جديد.. وأنا عائد إلى بيتي في قلب دمشق، لم يكن في الطريق سوى صور "الأسد" ، رغم الحرية "الكاملة" التي كنت قد منحت إياها، إلاّ أني لم أعد أتحمل وجودي في هكذا أرض لا شيء فيها سوى الجلادين والسجانين ، وأصوات المعذبين وصرخاتهم من تحت القبور.

مضى ما لا يزيد عن شهر، خرجت بعدها من سوريا، و كان المنفى كلّ ما أمامي وتلك الحفريات في الذاكرة التي أخذت تبض في الصدغ تذكّر بالسجن وآلامه، لكن دون عودة إليها في الواقع ، فهي ستظل حفيرة الذاكرة ليس إلاّ ■

إشارات

أولا:

١- الأخضر الابراهيمي: عبارة عن أنبوب أخضر اللون يستخدم عادة لتمديدات المياه والصرف الصحي، لكن لدى المخابرات السورية، يعتبر أداة تعذيب ناجعة لاستخلاص المعلومات والتحقيق، وسمي نسبة إلى الأخضر الإبراهيمي مبعوث الأمم المتحدة في سوريا سابقاً.

2- خشبة المعلم: أداة تعذيب شاهدتها فقط في فرع فلسطين، عبارة عن خشبة يستخدمها عمال البناء لتشكيل القوالب الإسمنتية، وملفوف عليها شريط لاصق أسود، مدعم بعدد كبير من الدبابيس المعدنية في ذروتها.

3- الدولاب: وسيلة تعذيب مشهورة جداً في سوريا، يتم فيها وضع السجين داخل الإطار الخارجي لدولاب سيارة كبير، ومن ثم يقلب المعتقل على ظهره، بحيث تصبح قدماه للأعلى، ويتم ضربه بواسطة عصا الأخضر الإبراهيمي عليهما.

4- جماعية: المهجع الذي يجتمع فيه عدد كبير من المعتقلين، وهي أكبر من الزنازين "المنفردات"، وشروطها أفضل منها من حيث المكان والحمام والمرحاض.

5- الشاويش: لكل جماعية رئيس يسمى الشاويش، وعادة يكون معتقلا قديما يعيّنه السجانة، ليمارس دورهم من تنكيل وإذلال بالسجناء داخل الجماعية.

6- الطميشة: عصبة يتم وضعها حول عيني المعتقل خلال تنقيله داخل أقبية الفرع وأثناء التحقيق.

ثانيا:

١- القصعة: عبارة عن وعاء معدني غالباً من التنك، يتم تقديم الطعام للمعتقلين فيه.

2- الفلقة: طريقة للعقوبة يستخدمها السجانون أحياناً خارج فترة التحقيق، ويتم فيها ضرب السجين على باطن قدميه، وغالباً باستخدام الأخضر الإبراهيمي.

3- النظام المنضم: إحدى وسائل التدريب العسكري المتبعة في مدارس البعث والكليات العسكرية.

ثالثاً

١- الشبح الخلفي: طريقة مستخدمة بكثرة للتعذيب في أفرع الأمن السورية، حيث يتم تعليق المعتقل من معصميه بالاتجاه الخلفي، ورفعه بحيث لا تكاد رؤوس أصابعه تلامس الأرض، ويبقى على هذه الحال مدة من الزمن تتراوح بين نصف الساعة إلى أكثر من أربع ساعات أحيانا.

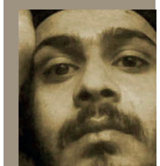
2- البلنغو: قطعة حديد يتم تعليق المعتقل عليها، تستخدم لإتمام عملية الشبح، وأحيانا تكون وسيلة لرفع المعتقل رأساً على عقب.

رابعاً

١- السخرة: هم معتقلون يتم استخدامهم من قبل السجانين للقيام بأعمال النظافة، وتوزيع الأكل داخل الفرع، وعادة توكل إليهم مهمة ضرب واستقبال المعتقلين الجدد.

2- التشميسة: فسحة داخل فرع فلسطين يتم تجميع المعتقلين الجدد فيها قبل توزيعهم على المهاجع، دون سقف ومفتوحة على عوامل البيئة كلها من مطر إلى شمس إلى برد.

شاعر من سوريا



الدولاب والكرسي ولسع الكهرباء

الاعتقال من قبل ومن بعد

سحر حويجة

يبني المستبد نظامه على أساس البقاء للأبد في السلطة، لدرجة يصبح الانتماء للوطن هو الانتماء للنظام ذاته، وبالتالي تخوين كل معارض للنظام. يترافق ذلك مع إنتاج ما يلزم من مراسيم وقرارات و قوانين تبيح القمع على أن مصدره القانون. لذلك القوانين الاستثنائية، وقانون الأحكام العرفية والمحاكم الميدانية، التي تعطل العمل بالدستور وتجعل منه واجهة لتزيين الاستبداد، رأت النور في السنة الأولى من عمر النظام الدكتاتوري لتضمن له الاعتقالات التعسفية، والتوقيف والاعتقال دون محاكمة لمدة طويلة، والمحاكمات الصورية التي تلغي حق الدفاع، وعدم المساءلة في حالة قتل المعتقل تحت التعذيب، وقوانين أخرى تزيد الخناق على المعارضين، وتمنع عليهم حق العمل والنشاط والاجتماع.

ومع ذلك يمكننا التمييز بين مراحل من عمر الدكتاتورية، تبرز فيها السمات العضوية الجوهرية المشتركة، كما تبرز الاختلافات، وما لذلك من تأثير وتداعيات على سلوك النظام وعلى المعارضة.

في الثمانينات عندما عصفت بالبلاد أحداث دامية نتيجة الصراع المسلح بين النظام وحركة الإخوان المسلمين حصلت خلالها مجازر وقتل واغتيالات وتدمير أحياء من مدينة حماة واعتقالات طالت عشرات الآلاف، كما حدث استقطاب واصطفاف للمعارضة التي كانت منظمة في أطر سياسية وأيديولوجية مع العلم أنه لم يكن معترفاً بها قانوناً، حيث لجأت إلى العمل السري، وجذبت إليها نخب من المثقفين الشباب خاصة طلاب الجامعات. وما إن حسم الصراع لصالح النظام، الذي استغل الظروف القائمة لتطهير النقابات المهنية من المعارضين، والمستقلين وتحويلها إلى أدوات تابعة للنظام، بما يضمن سيطرته ورقابته على حركة أعضائها، وعمد إلى شن حملات اعتقال واسعة ضد المعارضين من مختلف الاتجاهات السياسية: الشيوعيين والبعث الديمقراطي وبعث العراق.

كانت غاية النظام الأساسية، هي تصفية هذه الأحزاب وحلها، طالت الاعتقالات إضافة إلى الأعضاء، كل من يقدم الدعم والحماية من أصدقاء هذه التنظيمات، وكل من تثبت صلته حتى الشخصية بأحد المتوارين، واعتقال الزوجات رهائن عن أزوجهن، اعتقالات تعسفية كانت غايتها بث الخوف والرعب في صفوف الشعب ليكون المعتقل عبرة لغيره للابتعاد عن العمل السياسي المعارض.

طال التعذيب جميع المعتقلين نساء ورجالاً، حتى أنه كان يتعذر أن تلتقي أحداً دخل فرعاً للأمن بتهمة سياسية لم يتعرض للتعذيب. وإن اختلفت شدة التعذيب والوسائل المستخدمة بين معتقل وآخر بحسب أهمية وضعه التنظيمي، والمعلومات التي يملكها. بداية الضرب بالأكف أو الكابل والخيزران واستخدام الدولاب والكرسي ولسع بالكهرباء، وقد تم تعذيب جميع النساء اللواتي تم اعتقالهن بتهمة الانتماء إلى حزب العمل الشيوعي بتلك الوسائل وتعرضت البعض منهن للابتزاز والتحرش الجنسي، ناهيك عن توجيه الكلمات النابية والتعريض بسمعة النساء المعتقلات حتى أمام أهلهن. تعرض الشباب إضافة لذلك إلى وسائل أخرى من التعذيب مثل الشبح والمظلة والكرسي الألماني والخازوق وغيرها، ما أدى إلى استشهاد بعضهم تحت التعذيب. نشير هنا أن النظام لم يكن يرغب بتعذيب المعتقلين حتى الموت، باستثناء "الإخوان"، حيث كان همه أن يصلوا إلى الانهيار، وجعلهم يعترفون بالمعلومات المطلوبة منهم، كما يريد إذلالهم وتصغيرهم. غصت الفروع الأمنية بالمعتقلين، كما غصت المنفردات والمزدوجات والمهاجع، وهي الأماكن التي يتم حجز المعتقلين بها في الفروع.

أغلب النساء، وأنا منهن، تم حجزهن بمنفردة لمدد مختلفة، بعضهن بقين فيها أشهراً. وتم جمعنا في مزدوجات في داخلها مرحاض، حيث تم حجز العشرات في داخلها. كنا ننام على أسطح المزدوجة وفي الممرات من كثر الزحام. كما جمعوا النساء في مهجع بلغ عدد نزلائه أكثر من ستين في مساحة أربعة في ستة أمتار. نمنا بطريق المناوبة والتسييف، طعامنا كان سيئاً، بالطعم والرائحة والمنظر. والزيارات مقطوعة في الفرع إلا من أغراض وصلت بعضهن. كنا نلتهب حماساً ولدينا ما يكفي من طاقة الشباب للمواجهة وتحمل السجن، صنعنا واخترعنا لحظات الفرح والضحك، نغني نرقص، نواسي الأمهات اللواتي أبعدهن السجن عن أطفالهن الصغار، كان أكثر ما يحزننا ويضربنا في الصميم هي أخبار الاعتقالات والنزيف اليومي للقوى السياسية والحزب الذي كنا ننتمي إليه. حملة الاعتقالات استمرت شهوراً، في كل يوم أخبار اعتقالات جديدة.

تم الاحتفاظ بنا كموقوفات عرفياً، دون

محاكمة، ونقلنا إلى دوما السجن المدني للنساء، حيث التقينا بنساء معتقلات بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين وسمعنا منهن قصصاً عن تعذيب شديد، وقصصاً عن نساء تعرضن للاغتصاب. وجدنا أطفالاً ولدوا في السجن برفقة أمهاتهن، بعض المعتقلات تم اعتقالهن في عمر الرابعة عشرة والخامسة عشرة. كنا نتطلع إلى الحرية والخروج من السجن ولكن بشكل جماعي ولم ننتظر إفراجا فردياً. ترقبنا وتابعنا التطورات السياسية ذات التأثير على الوضع الداخلي، والتي تسمح بالعفو عن المعتقلين.

وحين اندلعت حرب الخليج الأولى، التي أثارت موجة من التوقعات والإشاعات، كما حدث قبلها عاصفة التغيير في الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية، فتوقعنا إفراجاً مع الموجة الديمقراطية الدولية. وفي أحد الأيام من عام 1990 تم ترحيلنا إلى فرع التحقيق العسكري، تم مساومتنا على كتابة تعهد سياسي وأمني. وتم رفض ذلك من جميع النساء كانت لنا في ذلك كلمة واحدة نختصر فيها مواجهتنا للنظام، عدنا أدراجنا إلى دوما. وبعد شهر من ذلك، أخذوا نساء الإخوان وتم الإفراج عنهن. احتفظوا بنا سنة أخرى، وبمناسبة الاستفتاء للرئيس تم العفو عن النساء السياسيات، دون أن يطلب منهن تنازلات وخرجنا إلى الحرية.

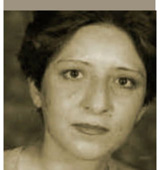
إذن كانت السمة العامة للاعتقالات في الثمانينات نتيجة الانتماء أو العلاقة بحزب ما، كان هدف النظام الأساسي هو تصفية هذه الأحزاب، لم يخل الأمر من اعتقال أشخاص دون انتماء أو مستقلين، ولكن كثيراً ما كانوا يوجّهون لهم تهمة انتماء أو علاقة بالأحزاب المغضوب عليها. استُخدمت وسائل التعذيب لجمع المعلومات عن الأشخاص وأماكنهم. لم يعمل النظام على قتل المعتقلين تحت التعذيب، وإن مات أحدهم كان لا يعترف بموته، كما جرى مع مضر الجندي، الذي لم يكشف النظام حتى الآن عن موته، بل ينكر وجوده أصلاً. يختلف الوضع بالنسبة للإخوان، فقد كان قتلهم تحت التعذيب أو تنفيذ الأحكام الميدانية بالإعدام بهم، إلى جانب حلّ التنظيم هو غاية عند النظام، الذي قتل في سجن تدمر آلافاً من المعتقلين، مرة واحدة، بعملية مدروسة مقصودة، كما تم قتل آلاف آخرين على أساس أحكام صورية صدرت عن المحاكم الميدانية، وتوفّيت أعداد كبيرة منهم تحت التعذيب. كان التخلص من المتهمين بتهمة الانتماء للإخوان المسلمين، انتقاماً وثأراً، ومن أجل نشر الخوف والرعب في المجتمع.

الاعتقالات بعد الحراك الثوري في سوريا بعد أن خال للنظام أنه انتصر في معركة الإلغاء لكل القوى المعارضة، وقد انتصر فعلاً في إنهاء الوجود السياسي المعارض المنظم، ترافق ذلك مع تضخم مؤسسته الأمنية وأدواتها القمعية وتغوّلها في مسام المجتمع، وسد كل إمكانية للتجديد، حتى حصل الانفجار نتيجة الضغط الهائل الذي لا يحتمل على المجتمع. بدأ الحراك، وبدأت الاعتقالات كلما زاد الحراك زادت الاعتقالات. وأكثر ما يميز هذه الاعتقالات أنه لا توجه تهمة تنظيمية للمعتقلين. فالتهم الموجهة للمعتقل تدور حول سبب مشاركته في المظاهرات ضد النظام. وكلما تغيّرت شعارات وهتافات المتظاهرين تغيّرت التهم، بدكن حرية؟ بعدها بدكن إسقاط النظام؟ وتمت محاكمة المعتقلين بتهم زعزعة الأمن والاستقرار والنيل من الشعور القومي، وهيبة الدولة، العمل على تغيير الدستور، وغيرها من تهم يفصّلها النظام كما يحلو له.

ومع تحول الحراك الثوري إلى العمل المسلح، تحولت التهم بما يناسب الوضع الجديد، وصدر قانون مكافحة الإرهاب، حيث أحيل جميع المعتقلين بعد هذا القانون إلى محكمة الإرهاب، فكل النشاط السياسي المعارض صار دعماً للإرهاب، تهمة تنال كل من يقدّم العون المادي والإغاثة. حتى التعبير عن الرأي يمكن اتهامه بدعم الإرهاب، ناهيك عن نقل السلاح وحمله. اعتقالات واسعة طالت أهالي المناطق التي خرجت عن سيطرة النظام، اعتقالات على الهوية بسبب الانتماء لعائلة انشق منها بعض أفرادها عن النظام، أو حملوا السلاح ضده. أصبح كل الشعب السوري مشكوكاً بولائه وليس أمامه سوى تقديم صكوك الولاء والطاعة، والاستسلام عبر التطوع في مؤسسة ما يسمى بلجان الدفاع الوطني، والقتال إلى جانب النظام. والنتيجة مئات الآلاف من المعتقلين ومئات آلاف أخرى من المفقودين. التعذيب حتى الموت تحول إلى ظاهرة واسعة، وعملية مقصودة ممنهجة، غايتها بث الرعب والخوف في المجتمع، حيث الاعتقال وحده لم يعد يكفي.

ومن أجل إضعاف الحاضنة الشعبية للمعارضة، ولمنع كل أشكال الدعم والمساندة حتى بشكلها الإنساني البحت. بالإضافة إلى إضعاف المعارضين المسلحين بالضغط على أهاليهم وتعذيبهم حتى الموت، ومعاقبة المناطق التي خرجت عن السيطرة، ورغبة النظام بإبادتهم، والانتقام منهم بالموت. فعوامل الحقد والثأر والانتقام، هي التي تقف وراء عمليات الموت تحت التعذيب في المرحلة الراهنة، وبالتالي من لم يمت يصدر بحقه عقوبات كبيرة تصل حتى الإعدام. في هذا السياق يمكن القول إن من تمّ قتلهم في السجون السورية يفوق عدد من تمّ قتلهم في ساحة المعارك الدائرة بين النظام وقوى المعارضة المسلحة، وأغلب من تمّ قتله في السجن ليس من حملة السلاح لأن من يقاتل يقتل في ساحة المعركة وليس من السهل القبض عليه، بل أغلبهم معارضون سلميون مدنيون، أو متّهمون بتقديم خدمات للمعارضة المسلحة، أو تربطهم صلة بهم كما أسلفنا.

إن عمليات الاغتصاب ضد النساء حصلت فترة أحداث الإخوان وزادت في هذه المرحلة أضعافاً مضاعفة، لأن الانفجار والحراك أوسع ولأنّ الحقد أكثر من قوى النظام ليس إلا. هناك شيء يواسي المعتقل في مرحلة ما بعد الحراك الثوري كنا نفتقده نحن المعتقلين في مرحلة الثمانينات، حيث كنا نعاني من ظروف الجزر والركود في المجتمع، وجاءت تصفية الأحزاب لتزيدنا كآبة وضعفاً. أما المعتقلون في مرحلة ما بعد الثورة، يعزيهم أن المجتمع تحرك وأن هناك من يطالب بهم، ومن سوف يكمل المشوار بعدهم وكل انتصار يزيدهم طاقة وعزيمة ■



كاتبة من سوريا

دوري المعتقلين

بسام سفر

أطل الرقيب خليل ببذلته الخاكي الصيفية على جسده النحيل، حاملاً مفتاحه الحديد الكبير للبوابة العريضة للجناح (ج، يسار) في سجن صيدنايا، وبيده الأخرى ورقة كتبت عليها أسماء المزارين لذاك اليوم 1989/7/15، وما إن دنا من البوابة الكبيرة وضرب بمفتاحه الأسود على حديد البوابة صائحاً:

جهاد.. يا جهاد عنابي.

حتى حضر جهاد من المهجع التاسع راكضاً:

نعم يا رقيب خليل.

الرقيب خليل: الزيارات اليوم جاهزين (مروان العلي، عبدو مكارم، قيش درويش، عبد القهار الدموك (أبو مرهف)، بسام سفر.

جهاد: جاهزين .. افتح الباب حضرة الرقيب.

يضع مفتاحه الأسود في القفل ويديره.. يخرج الخمسة.. وكل منهم قد لبس أجمل ما لديه من ثياب للزيارة وكل منهم حمل هداياه للأحبة والأهل الذين قطعوا الأرض السورية من غربها في مدينة اللاذقية، إلى شمال الشرق السوري دير الزور، والى الجنوب قرية (مروك) في السويداء، وضاحية جرمانا في الريف الدمشقي، ومدينة دمشق، ومع وصولهم من الطابق الثالث إلى الساحة المركزية في الطابق الأول حتى طلب منهم المساعد زهير الهدايا.. وفتشها بدقة متناهية.. وأعادها إليهم، عندها تقدم قيس وأبو مرهف وبسام طالبين خمسة دقائق إضافية على زمن الزيارة.

المساعد زهير: سأعطيكم جميعاً خمسة دقائق إضافية.. لكن دون شغب ومشاكل، وفيما إذا حصل سأقطع الزيارة عند أول بادرة شغب دون صراخ.

غرفة الزيارة ذات الشبكيين جاهزة.. انتبهوا.. هل أنتم جاهزون؟

أبو مرهف: جاهزين.

المساعد: (للرقيب خليل) افتحوا بوابة الدخول.

يدخل جميع المزارين تعلو أصوات الأهل، ويبدأ الصراخ والحديث بالصوت المرتفع تمضي الدقائق العشرون كنسمة من الحياة.. أصوات الأطفال تملأ غرفة الزيارة والعسكر في المتر الفاصل بين الشبكيين ويطرق المساعد زهير بيده على حديد الشبك حيث يقف في الزاوية، ويطلق العسكر بمفاتيحهم على الحديد إعلان على انتهاء الزيارة.. ونبدأ بالانسحاب الكيفي في الأول مروان ثم عبدو، بينما تستمر أرجل الثلاثة الباقين ويعلو صوت غادة.. بسام سأعود في الشهر القادم.

بسام يودع الأهل جميعاً بينما غادة تبقى مسمّرة في مكانها تشيعه بنظرات الحب ومع علو الأصوات يخاطب بسام غادة قائلاً: إقرئي الرسالة جيداً.. أرسلي الرد مع زيارة (أم ياسر) في رواية الحب والظلام لإيزابيل أليندي..(نخرج جميعاً والعيون تشيع لحظات الحياة الهاربة من خلال الأهل والأحبة).

ويتجمع المزارون في المهجع (11) الواصل بين الجانحين (ج يسار، ج يمين) ويبدأ الرفاق بطرح الأسئلة على المزارين، يخاطب الجميع مروان قائلاً : قال أخي كميل أن أخبار الإفراج تتنقل في شوارع العاصمة شارعاً شارع وتقف في بداية شارع المهاجرين.. على الجسر

أصلان : ماذا تقول يا مروان.. عند الجسر

رستم رستم: الم اقل لكم ما ذكرته دلال في اللاذقية تنتشر هذه الإشاعة أيضا.

اترك النقاش الدائر (11) و أسير (بالكاريدور) مع عبدو الذي يسألني هل عبرت الرسالة؟

بسام: نعم.. نعم ماذا كتبت بها.. ندخل المهجع الرابع أتناول ورقة كتبت نسخة منها أعطيها لعبدو الذي يأخذ الرسالة ويقرأ:

(1)

عينان تحدقان بذهول!
عقل شلت خلاياه!
دماً تجمد بالعروق
لساناً ربطته لغتك.

(2)

يا غادتي لغتك هذه
أعطت الحياة معنى جديد
أوقدت ناراً
أطفئت صيدنايا جذورها
منذ أمد بعيد.

***

عبدو: لك صاير شاعر.. وعم تكتب.. أيام الدراسة بالثانوية ما كنت تحب الكتابة.

باسم: من بعدك عبود بتذكر لما نشرت قصة (سبع بلاطات بمجلة الهدف الفلسطينية) ومقدار فرحانا بك وبها.

عبدو: طبعاً.. أيام الدراسة بجرمانا.. سقى اللّه تلك الأيام.

(ب)

مع إشاعات الإفراج عن المعتقلين السياسيين التي اجتاحت سجن صيدنايا، وعدم حصول ذلك بدأت حالة من اليأس والإحباط تدب في نفوس سكان جناح (ج يسار)، لذلك ارتأت اللجنة الاجتماعية أن تبدأ بطولة كرة القدم ذات الفرق الرباعية في المهجع (11)، وشكلت المهاجع فرقها التي ستلعب في البطولة بما فيها المهجع رقم عشرة الذي وزعته إدارة السجن على المهاجع إلا أن إدارة البطولة كانت

لفريق المهجع العاشر، وأجريت القرعة بين الفرق على مبدأ خروج المغلوب ولكي تكتمل المجموعة المؤلفة خمسة فائزين تصوت إدارة البطولة على أفضل خاسر لتكتمل فرق الدور الثاني وبهذه الأجواء بدأت المباريات التي مدة كل واحدة منها نص ساعة منذ الرابعة بعد الظهر حتى الساعة السادسة بمباراتين، وكان يقوم بمهمة التعليق الرياضي اللعب ناصر إسماعيل وشاهر الشاهر ومازن الشعراني ومروان العلي وعلي البرازي بالتناوب حسب المباريات، بينما يقوم بهمة التحكيم لكل مباراة (ياسر مخلوف أبو علي، عباس عباس أبو حسين، نهاد نحاس أبو عبدو).

ومع التمرينات الصباحية للفرق التي تبدأ مع فتح المهاجع في الساعة السابعة والذين يلعبون التمرينات والجري الصباحي كعادة يومية.

كانت المباراة الأولى في المساء بين فريق الختيارة في المهجع الثاني ممثلاً بـ(مصطفى خليفة أبو شادي، نشأت طعيمة أبو عصام، حسين صعيو، سليمان أبو خالد، جهاد خضور)، وفريق المهجع التاسع المؤلف من (فائق حويجه، جفان الحمصي، جهاد عنابي، جمال سعيد "الصلوح"، حسين محمد، زينة الشباب الشاعر علي الخطيب أبو نسرين).

وكانت المباراة مذهلة في سرعتها حيث انتهت بفوز فريق المهجع التاسع بقيادة الكابتن أبو نسرين وقلب الهجوم جفانا لحمصي، أما فريق المهجع الثاني تحمل أبو شادي خليفة عبء قيادة هجوم فريق المهجع، بينما تحمل أبو عصام عبء حماية مرمى الفريق لكنه بدا بدون خطة لعب وتنسيق بين الخطوط الثالثة الهجوم والوسط والدفاع لذلك خسر المباراة.

والمباراة الثانية كانت بين فريق المهجع الثامن الذي لعب له (طلال أبو دان، غياث العيون السود، جورج عيسى، عيسى طراد، تاطرس طراد، سهيل شماس أبو عبدو. وفريق المهجع السادس الذي يمثله (إبراهيم إسماعيل،عدنان خضور، قيس درويش، طلال مارتينوس، ومنيف ملحم)، حيث استطاع شباب السادس هزيمة شباب الثامن بنتيجة قاسية بلغت 12 هدفا مقابل 4 أهداف وتميز من السادس إسماعيل وخضور.

وفي اليوم الثاني لعب للمهجع الرابع (مروان العلي، مازن الشعراني، نظير الصيفي، أنور بدر، وجلال مسعود).

والمهجع الثالث مثّله المقاتل الشرس (جميل أضنيلي، بلال السوسي، رستم رستم، علي إسماعيل، خالد حيدر أبو شريف)، وفاز في المباراة فريق المهجع الرابع وتميز في حراسة المرمى جلال مسعود، بينما في المباراة الثانية لعب للمهجع السابع كلّ من (شاهر الشاهر، عبدو مكارم، ناصر إسماعيل، بسام سفر، عبدالقهار سعود)، ومثل المهجع الأول (باسل حوارني، عبدالله العليان أبو أنمار، نبيل إبراهيم أبو عصام، عبدالرحمان أبو الرحيم أبو الحارس، علي البرازي، ويوسف عزو)، وفاز في المباراة فريق المهجع التاسع وتميز له اللعب شاهر الشاهر في الهجوم بينما تميز في المرمى ناصر إسماعيل.

أما المباراة الأخيرة في الدوري الأول كانت في اليوم الثالث بين فريق المهجع العاشر الذي لعب له (عبدالله طعمة، عصام أبو حمدان، إسماعيل محمود، خالد إسماعيل أبو جورج)، وفريق المهجع الخامس الذي مثّله (طريف عبدالرزاق، سليمان أمون، زياد مشهور "العميد"، علي الصارم)، وفاز فريق المهجع الخامس بصعوبة بالغة حيث استمر التعادل طويلاً في المباراة.

أما مباريات الدوري الثاني صعدت إليها فرق المهاجع (التاسع، السادس، الرابع، السابع، الخامس) وحددت اللجنة أفضل الخاسرين فريق المهجع الثامن، وجرت فيه ثلاث مباريات على مدار ثلاثة أيام حيث فازت فرق المهاجع (الرابع، السابع، التاسع)، وأفضل الخاسرين الخامس وفي الدور ما قبل النهائي لعب الرابع والخامس وفاز فريق الرابع، وكذلك لعب فريق السابع والتاسع، وفاز فريق السابع، وتأهل للنهائي الرابع والسابع، وعلى المركزين الثالث والرابع فريقا المهجعين التاسع والخامس، وفاز بالمركز الثالث فريق المهجع التاسع، بينما حلّ بالمركز الرابع فريق المهجع الخامس.

(ج)

المباراة النهائية في البطولة كانت بين فريق المهجع الرابع وفريق المهجع السابع وتميز فريق الرابع بكثرة اللاعبين الاحتياطيين الشباب بينما عانى فريق المهجع السابع من قلة اللاعبين المتواجدين في المهجع، وبدأت المباراة النهائية في الساعة الخامسة بتوقيت صيدنايا، وهاجم الرابع بضراوة وأحرز العديد من الأهداف وصلت بالشوط الأول إلى عشرة أهداف، بينما كانت خطة اللعب لفريق السابع الصمود مع أقل عدد من الأهداف نحو الوصول إلى الشوط الثاني بقمة النشاط، لمنع فريق الرابع من تسجيل الأهداف، وهذا ما استطاع الوصول إليه في الشوط الثاني، وإذا تميز في الشوط الأول للرابع (مروان العلي، نظير الصيفي، مازن الشعراني)، فإن الصمود الكبير في أرض الملعب كان لشاهر الشاهر، وعبدو مكارم، ناصر إسماعيل، وتناوب على حراسة المهجع السابع إسماعيل وسفر، ومع سير المباراة نحو الدقائق النهائية استطاع السابع الاعتماد على البديل فاتح جاموس في تحقيق سرعة الحركة بأرض الملعب باتجاه الفوز وحسم المباراة قبل الوصول إلى التعادل والدخول في ضربات الجزاء الترجيحية.



وتحقق لفريق المهجع السابع ما أراده في تكتيك المباراة حيث فاز بنتيجة 17 مقابل 16 في النهائية معتمداً على خطف هدف الفوز بالثواني الأخيرة عبر الاحتفاظ بالكرة في الدقائق الأخيرة، وجاء هدف الفوز عن طريق المتميز شاهر الشاهر، حيث قدمت اللجنة كأس البطولة مجموعة من(الكتب)، وتمثالا نحته الفنان التشكيلي طلال أبو دان.

وتميز في النقل الإذاعي والتلفزيوني المذيع ذائع الصيت والشهرة (علي برازي بوظو).

كلما زادت الحياة في (ج يسار) قسوة وشهوة للحرية كلما أبدع في تحقيق متعته الخاصة بملاعبة الزمان الطويل، وخير دليل على ذاك التحايل في تمرير الزمان ما قام به في بطولة كأس العالم في العام 1990، حيث اشترى مجموعة من الأصدقاء والرفاق تلفزيونا صغيرا بحجم 6 بوصة لرؤية ومشاهدة مباريات كاس العالم حيث كنا نجتمع أكثر من أربعين راغبا بالمشاهدة في المهجع السابع لمتابعة المباريات رغم منع إدارة السجون العسكرية أجهزة التلفزيون في السجن ■

كاتب من سوريا

هذا القبر صومعة هذا المدفون راهب

مقطع من رواية لن تكتمل

صادق أبو حامد

الآن. في عتمة مليئة بالتوجسات، وغياب مجبول بالبرد، عليّ أن أذكر ما كان. بين زمجرتين للحديد عليّ أن أكسر جدار النسيان والكتمان. بين زمجرتين للحديد، تباعدتا، أم تقاربتا، سيكون لي ناس وأيام وبلاد أكبر من ظلمات الأرض والسماء. هنا، في المكان الضيّق الذي يسمونه منفردة.

طولها يتيح لجسدي أن يتمدد، ويترك لي عرضها فرصة إسناد ظهري وحكّ أصابع قدمي بالجدار المقابل. السقف يسمح لي بالوقوف، وهم لا يسمحون. وماذا أيضاً.. لديّ ثلاث بطانيات صغيرة، تتبادل أدوار الفراش واللحاف والغطاء. صحن وكأس وملعقة من البلاستيك. أهذا كل شيء؟ لا يهم، هذا خارج الموضوع. ما لدي هو ظلام يترك لك أن تغفو على ساعدي روحك. ينتشر مساحات إن اتسعت أفكارك، ويلتصق بجلدك إن ضاقت. ولديّ زاوية بين حائطين، أستطيع أن أحتفظ فيها بكل ما تحضره الذاكرة من أشياء. وتوجد رائحة رطوبة أو رائحتي أو رائحة ثالثة مكونة من رطوبة ومني. وأيضاً.. صوت وقع أقدام السجّان الذي لم يعرفني يوماً، لكنه يكرهني كما لو أن صورتي محفورة في رأسه منذ جززت عنق أبيه، وشخر بين يدي، فقط لأنه منعني من اغتصاب أمه، فلما رأت زوجها يهوي صريعاً، دقت مخالبها في صدري، فقتلتها بدم بارد، ولما كان السجّان صغيراً، حاول أن يضربني بيديه الناعمتين، فلم يبلغ ركبتي، فرحت أقهقه كمارد شرير، ولمّا مللت صراخه، رفسته ووضعت حذائي فوق وجهه، بل وربما تماديت فدست فوق جبينه الصغير، ثم رحلت.

ماذا لدي أيضاً؟ نعم.. صنبور ماء يمد رأسه فوق أجمل أشيائي، شيء يشبه الحفرة، وليس بحفرة. يسمونه هنا «بخشة»، ونقول عنه بطة، وفي الكتب قد تجده في باب «مرحاض». هذا أروع ما لديّ. ليس فقط لأنه أقرب ألوان كهفي إلى الأبيض، بل لأن ثقباً في شبك الحديد الذي يغطي أعلى بوابة المنفردة، يترك لحزمة رقيقة من الضوء أن تسقط فوقه فأراه أبيض. ودعوني أقول أيضاً، حين تكون قريباً من هذا البياض إلى هذه الدرجة، لن تحتاج إلى كثير حركة كي ترسل خيطاً من ماء النشادر فوق صفحة بياضه، فترسم من سريرك الحجري المرتفع قدر قدم، ضربت حتى الشبع، ما تريد. ثم تأمّل ما يمكن أن تريك إياه الحزمة الرقيقة من التماعات وإضاءات، حتى كأنك في ملهى ليلي، ربما ثمل بعض الشيء، لكن سطوتك في الملهى تجعلك تتمدد وأنت نصف عار فوق الأرائك كأنك هارون الرشيد، ثم انظر وتخيّر. أجمل نساء الأرض يستعرضن أمامك، ما حولهن وما بينهن، فإذا هاجت نفسك، وأردت إحداهن فلن تضطر للحراك أيضاً، فقط أرخ رأسك، واذهب إليها وبها، كيف تشاء، ولا بأس بعد ليلة تضيء الجلد من بعض النظافة، وإن بماء بارد ينز من صنبور، أنت في النهاية، تحبه. أما إذا لم تعجبك أيّ امرأة باعها لك خيالك، فما عليك سوى أن ترفع سروالك لتعود إلى عمل آخر.. وما أكثر الأعمال هنا.

ربما عليّ الاعتراف. لا تسير الأمور دائماً بهذا اليسر. يحدث أحياناً أن ترغب بواحدة منهن، لكن رأسك يأبى الاسترخاء، فتحاول نيلها في صحوك. تمسك، تهتز، تتوتر، فإذا بها تفلت، وإذا بجميع الفتيات يختفين بلمحة بصر. لا يبدو مفهوماً لماذا يكرهن الصحو إلى هذه الدرجة. بيد أنني أنظر إلى الأمر بموضوعية، فمهما كانت جاذبيتك، لا بد وأن يكون هناك فتاة لا تنسجم ومداركـ.. القصة قصة شحنات. النتائج الأسوأ تحصل حين لا تحصل على الفتيات، ولا يختفين، بل يأتي الشاب الذي يكرهني أو أيّ من أخوته الأشقاء اللئام، فيزمجر بحديد الباب، ويدفع بصوته من الباب كفقاعة من القذارة ظلت جرذان المصارف تكورها عصوراً:

. لبرّه يا حماااار.

وكما تعلمون. لا نستطيع شيئاً أمام قوانين الفيزياء، فما إن تدخل فقاعته ظلام ملهاي، حتى تُقذف الفتيات خارجه، وأقذف أنا خلفهن في عراء الممر. لكن الشاب لم يخطئ يوماً في تلقفي، مهما كنت لصيقاً بهن. يمسكني كما أمسكت أباه. ولرقة قلبه، يغطي عينيّ بأنشوطة سوداء، يسميها «طميشة»، كي لا يقتلني الشوق إلى الظلام الذي غادرته، وربما أيضاً لأنه لا يريد لبراءتي أن تخدشها مشاهد الجريمة، كما حصل معه في طفولته. ثم يزيدني حناناً فيقودني من رقبتي كي لا أتعثر أو أخطئ الطريق، فقد أخبروه ـولا بدـ أن التعثر والخطأ، صفات ورثتها عن أجدادي.

بيد أن جمال البياض لا ينتهي هنا، وإلا لما أسميته الرائع، فالضوء النحيل الذي لا يفارقه، يجعلني أشرق حتى حين أقرفص فوقه. ليس هذا من علم الماضي، وإنما من علم الظلام، فأكثر الأمور اعتيادية



شادي أبوسعدة



تبدو أشدها معنى حين فقدانها. ما الذي كان سيحصل لو أن الضوء النحيل انقرض. هل عليّ أن أشرح ما حدث حين أخطأ مسؤولو الكهرباء فقطعوا التيار عن المجرّة التي أقبع في قبوها. هل يمكن تخيّل مجرّة بلا نجوم. يومها حبلت نجوم ضباط الفرع سخطاً، ولولا أن تداركت الكهرباء نفسها فأعادت التيار محملة كل إلكترون اعتذاراً وقبلة استسماح، لرأينا أهل وزارة الكهرباء في كهفنا، ولجعلوهم يرون نجوماً من نوع ثالث هذه المرة. غير أن القصة لم تنته، إذ كان الانقطاع قد أحدث عطلاً في كوكبنا، فقضي علينا أن نبقى دهراً نجلس، نحن أصحاب الكهوف السفلية، بلا بياض.. أي .. بلا أيّ لون!

جميعنا كنا في العتمة ذاتها. امتداد لا تعرف أين يبدأ لتعرف أين ينتهي. في البداية، شعرنا بفرحة سوداء، لكنها فرحة. ربما كنا نتمنى أن تكتمل عزلتنا، أن نبلغ انفصالنا الكلي عن أيّ نأمة خارج ذواتنا. الذات التي تكورت جنيناً في رحم أكبر من أن نملأه فنخرج. كنا نحس معاً بالاتساع في ظلام يشمل الكوكب، وكل يشعر بالاكتمال في دائرة تنغلق على سواده الخاص.

هكذا قيّض لنا أن نعيش حال زميلنا الأعمى. وفي حين كان هو يحفظ تاريخاً من التجربة، كنا نحن نحبو في ظلام الولادة. سرعان ما لفّنا الجهل والضعف. راحت دوائر التساؤلات تخنق أنفاسنا: كيف كان للظلمة أن تقسم أجزاءها؟ بأيّ لون رسمت المكان والأشياء؟ ربما كان سؤالاً غبياً، لكنك حين تتحرك في لون واحد، فتصطدم بجدار، وتتعثر بصحن، وتنزلق في حفرة، ستقف مذهولاً أمام حقيقة أن الأشياء موجودة ليس لأنك بينها وتحس بها، تحملها، أو تتجنبها، أو تنام فوقها. إنما لأنها موجودة، وتعرف أكثر منك كيف وأين توجد. بل إنك لا تشعر بوجودك، بحيّزك، إلا حين تصطدم بها. تصبح هي، الأشياء، تحدد وجودك. كلما تهت عنك دلّتك قرقعة الأشياء على جانبيك.

في ضياع كهذا كان يمكن لأذنيك أن تسعدا. صرنا نُهرّب أصواتنا، الوحيدة التي لا خوف عليها من الاصطدام، نهرّبها بين الكهوف. كنا كصراصير الليل، لا نكف عن الأزيز. أصوات بلا تاريخ، تقول الكثير: همهمات، نحنحات، سعال، ولا مفر، كان هناك نحيب وبكاء.

لم نستطع أن نرتقي عن حال الصرصور لنصبح خفافيش مثلاً فترشدنا آذاننا. كان ذلك يتطلب أجيالاً من حياة الكهوف. ولم يكن بمقدورنا، ونحن في حنين للجلد المتيبّس في كعوب أقدام أهالينا، أن نعتب عليهم لاختيارهم النور بدلاً من الظلام.

الهمّ الأكبر الذي خلّف وجعاً في قلوبنا، لم نفهمه، ولم يزُل، كان الحفرة التي لازلنا نذكر أن لونها لم يكن كالذي يملأ عالمنا. ليس حنيناً فحسب، بل مأساة أن نقرفص فوقها، لنُخرج ما اعتاد البشر على إخراجه منذ بدؤوا وجودهم. لا أظن أن أحداً منا فكّر في الأمر، أو حدس أننا سنعاني في هذه الحركة الطبيعية. لا يبدو الأمر صعباً. بعض العناء في الوصول. وضع القدمين في المكان المناسب، بقليل من الحذر والهدوء تستطيع أن تتحسس الأبعاد، وسترشدك الأشياء الصديقة. لكن ما إن تخلع سروالك وتهبط مقرفصاً حتى تغيب الدنيا. ليست الدنيا الغائبة أصلاً، بل تلك المتبقية في سراديب داخلك. حين تقرفص.. هل تعلم أنك تحدق في شيء ما. نحن عرفنا ذلك هنا، وكل منا واجه التجربة وحيداً أمام ماذا.. هل أقول أمام غائطه. أردنا رؤية شيء لنحدق فيه. لو أن خيط الضوء يتسلل فيرينا نملة تتحرك على بعد أميال. النملة سوداء. نحن نريد فقط نقطة ضوء فوق رأسها أو ظهرها، كان ذلك سيعني بهجة كاملة. لم يكن أمام أعيننا شيء، لم يكن هناك أمامٌ لأعيننا. كلما جاهدت لتستحضر شيئاً من تاريخ النور، لا تحظى بغير خيالات سوداء. كانت عيوننا مثلنا، تدور في كهف

محجرها، كما ندور. يفاجئها الجدار كما يفاجئنا. في غمرة خيبتنا ننسى ما قرفصنا لأجله. نغمض أعيننا علّنا نحس فرقاً بين ظلام بجفون وظلام من دونها، فنفشل. نركز نظرنا ونحدق كأنما نريد حرق الأردية السوداء التي تلفّنا، أو نكسر زجاج حوض الماء الأسود الذي بَدَوْنا غرقى فيه، فنشعر بأصابع تضغط فوق عيوننا، بهدوء، لكن بقوة وثبات. نعود فنغلق الأجفان خوفاً على العيون من التعب. ليس سهلاً أن تمنع جسدك من التصرف على طبيعته، فقط لأن المنطق لا يتفق وهذا التصرف.

أخيراً، كان يمكنك أن تدرك أن المنطق انتصر. ستسمع حشرجة مخنوقة، وتشمّ أطراف رائحة هزيمة، وصوت ماء ينزف.

يوم انتشلونا من مأساتنا، وأعادوا خيط الضوء النحيل، كدنا نتحول إلى عبيد له. كم مرة غافلته وهو يمتد مستقيماً دافئاً باتجاه البياض فقبّلته. أقتربُ من الثقب وأمدّ شفتي حتى يظهر خيالهما كفراشة سوداء.. وَ.. قبلة. أما القرفصاء فصارت نشوة خالصة. كنت أنثر قبلات متصلة في حضوره، كلما جلست القرفصاء. الجلسة التي تحوّلت من همّ إلى راحة، فصرت تسمع أصوات المياه ضاحكة دون انقطاع. ولعل ذلك ما جعل جرذان المصارف تعبّر عن رفضها، فبدأت تغزو كهوفنا كلما كفانا النوم مشقة التخيل، فحملنا على بساط خياله حيث يشاء ونحب.

بدأت تحرشات الجرذان بعد يوم أو يومين من مناسبة سياسية عظيمة. كنت أعجن عقلي لأخبز فكرة. تلك كانت متعتي المفضلة، رغم ثقتي أن البرد والرطوبة لن يتركاها تنضج كما يجب، لذا أتأملها بعد أن أشكلها آلاف الأشكال، ثم أصرخ في وجهها: "غبيّة"، وأرميها في الحفرة. على الأقل أستمتع بصوت الماء المنسكب فوقها وتحتها، لينزلقا معاً إلى أسفل السافلين.

سمعنا في البداية، صوت حركة عنيفة صادرة عن أحد الكهوف، صوت ارتطام بحائط، ثم بالباب الحديدي. اعتقدت أنه المجنون، فهذه حركاته، وإن يكن من عادته أن يوقظنا على هذه الأصوات باكراً، وقلت: لعله يعتقد أن شهر رمضان قد حل.. فأخذ دور المسحّر. أزعجتني الضجة التي بعثرت الصور في رأسي. وددت أن أضع وجهي فوق شبك الثقب، وأصرخ فيه أن يتوقف، وهي رغبة يحلو لي ألاّ أخسرها رغم استحالة تنفيذها، فصرخة من هذا القبيل، ستكلفني صرخات من كل قبيل. ربما لهذا أحب هذه الرغبة، فهي تشعرني أنني لازلت قادراً على التفكير بما ليس مسموحاً.

بعد معركة ظننّا أن زميلنا يخوضها مع نفسه، خرجت من كهفه صرخة، أكبر من الحلم. هببنا ننظر من ثقب الشباك. لم نر شيئاً إلا الأبواب السوداء الحزينة، وسرعان ما سمعنا صوت فتح طاقات أبواب الحديد، وصوت صرخات ألم قصيرة متقاطعة. قبل أن أحاول التفسير، فُتحت طاقة بابي، اندفعت قبضة إلى بطني، فأعادتني إلى جلستي.

من مجلسي الأثير، وصلتني الأصوات دون عناء، وفهمت الحكاية، فحين عاد الجميع إلى مواقعهم سالمين بعد صرخة أو اثنتين، بقي واحد يصرخ، مكملاً صرخته الجبارة تلك، ففتح الأشقاء اللئام بابه، معربدين متوعدين، ولمّا رأوا حاله فهموا أن الأمر يستحق إعادة نظر. هتف أحدهم فزعاً: ولك يا حمار.. شو عمل فيك هيك..

علّق آخر ضاحكاً:

ـ ولك جردون غلبك..

واستمر يصرخ..

قال ثالث مستعيداً لهجة الوعيد

ـ لا تبعق ولك.. يعني لما شفته ما عرفت تنادي..

فسرّب جوابه بين الألم والخوف:

ـ خفت..

وبسماع صوته علمنا أننا ظلمنا المجنون..

قال أحد اللئام:

ـ خفت!! رح علمك الخوف على أصوله..

وسمعنا صوت العصا تنهش جلده

وكان أحدهم يقول:

ـ خلينا ناخده ونشوف قصته.. بركي الجرح خطير..

سمعنا وقع أقدام.. وزحف جسد.. وشراهة عصا.. وأيضاً تكنيس جرذ.

من يستطيع أن يفهم هذه الجرذان! ما الذي تريده منّا! طعامنا لا يكفينا حتى نترك لها حصة، وكهوفنا أضيق من خيالها، بل وليس لدينا حفر وسراديب ولا حتى صناديق أو أكياس لتختفي فيها أو خلفها. أيّ جنون ركب رأسها حتى تركت عالماً رحباً لتأتي إلى متاعيس الكهوف.

وظلّت على جنونها. اعتدنا أن نسمع كل يوم صوت عراك. ولمّا كان الأول قد ابتلى بالعصيّ لأنه لم ينادهم، لم يعد غريباً أن نسمع من يستنجد باللئام خوفاً من عدوّ أسود، شجاعته أكبر من حجمه بمرات. لكن الاستنجاد باللئام لم يكن يغير شيئاً.. إذ يصرخ أحدهم:

ـ وطي صوتك ولا.. شو في..

ـ جردون!

ـ أي اقتله.. شو مستني..

وينسحب تاركاً المعركة تحتدم. قرقعة صحن وكأس وملعقة، ضربات حائط، وربما صوت قنبلة تصدر عن الباب الحديدي، وأخيراً يعمّ الهدوء، فينقر المحارب بابه ليأتي أحدهم صارخاً:

ـ قتلته؟

ـ إيه..

ثم يفتح طاقة الطعام ويبتعد آمراً: ارميه من الطاقة..

لغبائي، استرقت النظر مرة باتجاه الصوت، ورأيت يد زميلي تمتد ممسكة بذيل أسود كأنه صل ثعبان، وجرذ.. وأيّ جرذ! جرذ بحجم قط.. وأي قط.. كأنه أكبر من الكلب. خرجت عيناي من شباك الثقب، كاد شعر الجرذ يخزها، وعادت قفزاً مملوءة بالقرف.

عدت إلى مكاني وقد غزتني قشعريرة راحت تهزني على دفعات. كانت الفكرة مرعبة. كيف استطاع أن يقتل حيواناً بهذه الضخامة في كهف ضيق دون أي أداة. إنه لا يحتاج أداة ما، بل عدّة صيد كاملة! وماذا لو فاجأني جرذ بهذا الحجم، بل من أيّ حجم كان، هنا، في قعر كهفي. صارت الخيالات تأخذني وترميني. أفكر كيف سأجهّز نفسي للمعركة. لكنني علّلت نفسي بالآمال هرباً من القلق. إذ لا بد أن حظّي أفضل من غيري ولن يهاجمني أيّ جرذ. ثم لا يمكن أن يكون لكل ساكن كهف جرذه الخاص. لولا أن كوابيس أمي مع قرينتها ذكّرتني باحتمال آخر. فالجرذان التي كانت تهاجمنا بدت وكأنها قرائننا. والقرين همّ ما بعده هم. كانت أمي تحكي لي عن قرينتها.

ريما سلمون



كيف تأتيها في الحلم لتصارعها. أمي كانت تعرف قرينتها من بين مئات الأشخاص في حلمها. تقول: «كلما صادفتني صعوبة في حلمي، أتلفت يميناً ويساراً، فقرينتي لا تهاجمني إلا حين تجدني في مصيبة. لهذا كنت أستعد لها. ولم أكن أتردد في مهاجمتها. أعلم أن حياتي معلقة بهذه المصارعة. أتحول إلى وحش مرعب. أنا التي لم تعارك أحداً في حياتها، أصبح أشرس من نمر، وفي كل مرة كنت أصرعها، ثم أستيقظ فرحة بنصري، وتعبة أشد التعب. أتعرف يا ولدي، سمعت قصصاً كثيرة عن مساكين صرعتهم قرائنهم، فركبهم الجنون، أو دخلوا في مرض وغيبوبة بلا نهاية». أغمضت عينيّ لأبتعد عن الموضوع، ففُتحت أذناي، شنفتا لقرقعة في أسفل الحفرة. قلتُ: (أتى!..). وكان الصوت يرتفع. العدو يتقدم بزحف ثابت. قفزت معدلاً جلستي، فإذا بي أتحفز كنمر، بل كهرّة. ورأيت الخوف يرقص أمام عيني مبتهجاً بسطوته. هززت رأسي، وهل تصدقون، كشّرت عن أنيابي كأني سأنهش لحم عدوي ذي الشعر الأسود.

أشبه ببطل يدخل المسرح. مدّ الأسود رأسه كتلةَ صوف معتمة، وكان هناك رأسا دبوسين يلمعان كعينين. انطلق جيش من النمل من رأس أنفي وانتشر حتى أقاصيّ. كأنها رجفة الموت. ليس خوفاً.. ربما.. لكنه قرف.. عجب.. رفض. زأرت من مكاني دون أن أخسر هيبتي، فخرج صوتي مواء. لم يتراجع أمام صوت مرتعد كصوتي. أخذ يتقدم صاعداً الأبيض الجميل، وكأنه يدخل بيتاً اعتاده منذ صباه. عدت فصرخت، وما خرج صوتي، وكان جسدي يتراجع معلناً خيانته العظمى. تلفتّ بحثاً عن أيّ شيء أدافع به عن نفسي، فلم أجد سوى قطعة صابون عسكري. قفزت نحوها.. فقفز إليها، أوشك أن يقضم يدي، فسارعت بإمساكه. قلت: انتصرت. لكن جسدي عاد فخذلني، وصار يرتجف تقززاً. ليس هناك ما هو أشد قرفاً من إمساك جرذ، ولو كان خارجاً من ألف عملية تنظيف. يكفي أن تلمس شعره الأسود اللزج، وجسده الذي يعلن عن كل ما بداخله فور إمساكه، حتى تشعر بغثيان ثقيل، فكيف بواحد خارج للتو من مستنقع الخراء. تراخت يدي، فمال برأسه محاولاً قضم إصبعي. قذفه ذعري إلى الباب، وانتهى كل شيء. كان معلقاً بأحد نتوءات الباب الحديدي، صامتاً إلا من عربدة رائحة نتنة راحت تتوغل في الكهف وفي جسدي.

غسلت يدي ووجهي مئات المرات. لم أدر ما أفعل لأتخلص من الإحساس بالنتانة، والأسوأ أن الجرذ ظلّ أمامي متدلياً كجورب الشيطان. عليّ أن أخرجه. لكن كيف؟ لم أحتمل أن يُطلب مني رميه من الطاقة، فأنتزعه من النتوء تاركاً قطع جسده تنزّ بين يدي.

لم أفعل شيئاً من ذلك. حملت بطانيتي العزيزة. تكورت في الزاوية، وغطّيت همّي. أنكرت أن هناك مشكلة، وغصتُ في كهف أكثر عمقاً وعتمة من كهفي. غصت وأوغلت حتى ذهبت الرائحة. رفعت الغطاء. نظرت إلى الجرذ دون انزعاج. نقرت الباب بهدوء. حضر أحدهم. قلت له: افتح الطاقة. ففعل. قلت: قتلت الجرذ. مدّ يدك وخذه. تلمّس يميناً ويساراً فوجده. قال: انتظر قليلاً. أغلق الطاقة. ركض فأحضر مفتاح القبر. فتحه، وكانت زمجرة الحديد أخف وقعاً. سألني مندهشاً: الله أكبر.. كيف قتلته؟. هززت كتفي أن «هكذا». انتشل الجرذ من مشجب موته، وركض به. عاد بممسحة. مسح قذارة الجرذ وسألني: ألا ترغب بالاستحمام؟ لم أستغرب سؤاله. كان يتوقع إحساسي بالاشمئزاز. قلت: أجل. قال: اتبعني. تبعته، فأشار إليّ أن أدخل حمام الكهوف. دخلت ورددت الباب. حين أكملت خلع أسمالي، حركت يد الصنبور، فلم يخرج الماء، بل دخل الأشقاء جميعهم، كلّ بعصاه، وراحوا يضربونني، فأتقلب بين عصيهم. أتقي واحدة فتنالني أخرى. ظللت أدور كدجاج يشوى، حتى نال أحدهم خصيتي بضربة أخرجت عيني. اختفوا جميعاً، لم تبق إلا عيناي. فتحتهما فرأيت ظلام بطانيتي. رفعتها، فرأيت سواد الجرذ. نقرت الباب. أتى أحدهم. فتح الطاقة. حملت الجرذ بكفيّ كأنه طفل صغير.. رميته خارجاً. أغلق الطاقة وهو يتذمر:

ـ قرف يقرفكن.. ما أوسخ شغلتكن..

ما حدث بيني وبين الجرذ لم يكن آخر مشاكلنا مع معشرهم، ولا أهمّها، فآخر غزواتهم كانت أمراً آخر. لم تتركنا الجرذان إلا وقد خلفت وصمات عار في جباهنا الصفراء، وبدّلت عادات كهوفنا السرية.

كان الوقت ما بعد عشاء البطاطا المسلوقة بتخيّل وتبديل جلسة. انطلق صوت من الكهف المجاور، الكهف الذي تلقّى ساكناً جديداً لم نستطع رؤيته حين دخل، إذ توزع الأشقاء اللئام ينقرون على الأبواب كي لا نسترق النظر. الصوت الذي هبّ كفرس فزعة، كان صراخ أنثى. اندفعت إلى الثقب، فرأيت عيون زملائي تطل أيضاً. كانت هناك فرحة في العيون يشوبها خوف. يا أيها العالم.. بيننا أنثى. لم نستطع منع فرحة الاكتشاف، لكن سرعان ما أخذت مكانها لعناتنا على القدر الذي قاد فتاة إلى باطن الأرض. وها هي تتخبط فزعاً أمام جرذ بلا قلب. اشتعلت دماؤنا نخوة. صرنا ندور في ضيّق مكاننا كأننا نبحث عن ثقب لنلج منه. لم نجد إلا الجدران لنضربها. ليس ليهرب الجرذ، بل لنفكّ عقدة النخوة التي كادت تختنق بحثاً عن طريقة لإنقاذ الفتاة. اهتزت جدران الكهوف من ضرباتنا. فاندفع الأشقاء اللئام صارخين مهددين. وعادت الأنثى



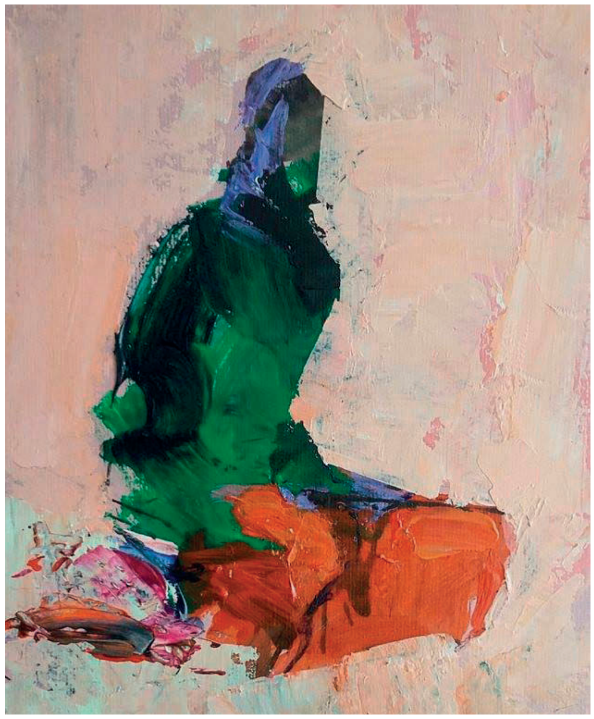
للصراخ.
هتف أحدهم: لا تصرخ يا كلب.
لم نفهم لِمَ يخاطبها بصيغة مذكر.
صاحت الأنثى:
ـ جردووون
فهتف جميع الأشقاء:
ـ سد حلقك يا شرموط.
وسمعنا صوت زمجرة حديد
ـ لبرّه..
خرجَتْ وما كان باستطاعتنا استراق النظر.
ـ وين الجردون
ـ ها..
لم تكمل
ـ لا تتكلم يا حيوان
وسمعنا صفعة عنيفة، وبكاء أمّ وأخت وابنة وحبيبة وصديقة.. كلهن بكين.. كل اللاتي نعرفهن سمعنا صوت بكائهن قبل أن تعاد جارتي إلى كهفها ويغلق الباب. أردت أن أحطم باب الحديد، أفتح أبواب زملائي، إلا بابها. نمسك أشقاء القذارة، نرميهم أرضاً، وندوسهم.. ندوسهم.. حتى يتحولوا إلى عجين من لحم. حينها سنفتح بابها.. ونقول لها.. مرّي فوقهم.. ابصقي على جباههم وعودي إلى دنياك..
كان القهر قد سمم هواءنا. فرُحنا نتقلب في هزيمتنا الإضافية بحثاً عن نَفَس نظيف، ينسينا ما كان.. بلا جدوى.
لم نفهم لماذا قتلتنا تلك الصفعة، مرّغت رؤوسنا. لم نفهم كيف يمكن لصفعة أن تفعل بنا هذا، نحن الذين نسمع كل يوم صوت العصيّ والسياط تنهش أجسادنا التي تطلق صراخاً وزعيقاً وجعيراً. نحن الذين لم تُترك مساحة من أجسادنا دون ذكرى تظلّ تلحّ علينا كلما حاولنا أن نشبه أنفسنا. كيف تهزمنا صفعة وكلٌّ منا يخرج من كهفه بالصفع واللبط واللكمات، ويُعاد بمثلها. كل ذلك يحدث هنا، في المكان الذي بدت فيه صفعة أشبه بحذاء رُمي في وجه فارس يختال عائداً من انتصاراته. أترانا كنّا ما نزال نخبّئ في سراديب موتنا شموخ فارس لا يُهان!
بين يدي بكائها آخر الليل. رحنا نسعل سعالاً حاداً كي نسألها الغفران، كي نخبرها: نحن معك.. إن لم يكن بقوتنا.. فبضعفنا.

***

حضور الأنثى، أو معرفتنا بحضورها، غيّر الكثير. شعورا الهزيمة والخطيئة اللذان تمددا بارتياح في صدورنا جعلانا نقف أمام ذواتنا وقفة مصارحة، وما أصعبها من مصارحة في كهوف النسيان. قبلها كان وقتنا يمر برهبته، حزنه، وجعه، وبعالم من التخيلات المريضة، كان يمضي بكل ما فيه، وهذا ما كان يعنينا. حياة الكهوف علمتنا كيف نكذب، وأن نحترف الكذب. الكذب الذي بدأ بين أيدي وأرجل وعصي المحققين.. ولم يتوقف. بدا يسيراً، ولازماً. أن نبتعد عن الحقيقة يعني أن نرتاح من رؤية تحطم أحلامنا وأفكارنا في كل يوم. حتى إن مدت الحقيقة لسانها في وجهنا، سنعلن أنها عدم. ما كان يمكننا الاعتراف بحقيقة تقول إننا مدفونون في كهوف معتمة. إن الدنيا رحلت بعيداً، ولم تترك سوى ظلمتها، ومخلوقات مجبولة بالحقد والكره. إذا تخيلت أنني أركض مزهواً بريح الحب بين أغصان شمس لا تنطفئ، فسأركض وستحرقني الشمس. إذا مضى خيالي إلى أهلي، أصدقائي، حياتي، فلن أدعه وحيداً، سأذهب معه، وأكون بينهم، أو أحضرهم إليّ. إذا تذكرت أغنية لفيروز، لن أقول تذكرت، سأسمع صوتها، وسأطرب. سأقف بوجه أيّ منطق يخبرني أنني واهم. سأعيش حريتي حتى هنا، ليس على سبيل المجاز، بل هو الواقع. وحين أعود متورّماً من مذبح التحقيق زاخراً بكل أصناف الألم، أتمدد على ظهري، أنظر في خيط الضوء، وأقول: كان يمكن للتعذيب أن يكون أقسى. أقول: شيء رائع ألا أحسّ بالألم. أقول: كم كنت قوياً إذ لم أصرخ. وربما: كم كنت شجاعاً عندما كسرت العصا فوق رأس المحقق، وجعلتهم جميعاً يركعون، ثم غادرت الغرفة، صعدت إلى الأرض، وانطلقت في الشوارع، وكانت الجماهير تصفق لانتصار الإرادة، ثم أرحل أبعد في خيالي حين يستلّني النوم من ألمي.. ممتطياً صهوة الأحلام.
حضور الأنثى جعل الحياة أصعب. لم تتوقف خيالاتنا، لكننا بتنا أضعف من أن ننكر الحقيقة. صرنا نشمّ رائحة واقعنا ونختنق بها. الكهف الذي كنا نستطيع نشره عالماً من التاريخ والبشر والعلاقات وحتى الضحكات، عاد قبراً، ومكث كذلك. ألم التعذيب أصبح ألمين. وإحساس الذل كبر، حتى خطاب العيون والأصابع بين القبور، راح يتضاءل حتى اقتصر على التحية.
للحظة كرهت الأنثى. قلت لماذا نتحمل كل هذا الشعور بالذنب، أليست مثلنا؟ كلنا مظلومون هنا، وكلنا معذّبون. لماذا علينا التفكير بها وكأنها من عالم آخر. وكل ذلك بسبب صفعة. وما قيمة الصفعة في جهنم العنف التي نعيشها، بل وما قيمتها أمام التعذيب الذي لا بد وأنها ذاقت منه دون أن نسمع صوتها. قلت وقلت وشيئاً لم يتغير. فتلك الأنثى ذاتها، إذ أعادتنا إلى الواقع جعلت محاولة هروب كهذه كذبة مفضوحة. كانت الحقيقة تقدم نفسها لي بكل ثقة: ربما.. لو أن ما حصل في الجنة لما فكرنا في الأنثى وكأنها مخلوق سحري يأتي من السماء، أما هنا، فالأنثى عنوان كل جميل يأتينا من الماضي. كل ما ينقصنا من عاطفة ولطف ونعومة وجنس وحتى نظافة، وربما ما نحمله من أساطير عن ضعفها أمام ذكورتنا. ولماذا لا نعترف، كنّا نحتاج إلى أن نتذكر أن الحياة فيها من هو أضعف منا.
ما فعله حضور الأنثى أيضاً أننا بتنا نتصرف بخجل في قبورنا، وكأنها لا تكف عن مراقبتنا. توقفت ألعاب خيوط النشادر، ومنعت الخيالات الخليعة عن نفسي في صحوي، لكن الأصعب كان كتمان أصوات أجسادنا. صرنا نخجل من صوت بصاقنا، مخاطنا، ضراطنا، وتبرّزنا. الأصوات المقرفة التي كانت عادية بين حشد من الرجال، باتت مذلة بعد حضورها.
مع هذا.. كان هناك شيء جميل جديد: على حواف قبري نبتت أنثى..

***

الأيام التي تلت ذلك التحول، جلبت معها ما هو أخطر. لا أدري كيف أصبحتُ زاهداً. وليس أيّ نوع من الزهاد، فلم أكن أبتعد فقط عمّا يسمونه غوايات النفس، بل شعرت بحب يفيض في قلبي فيغطّيني ويغطّي كل من قُدّر له الوجود.
بدأ انقلابي حين رحت أراجع تصرفاتي مُذ حشرت في القبر. كان ذلك آخر تأثيرات حضور الأنثى. فتّشت عن أخطائي، فراعني ما اكتشفته. لعلها لم تكن أخطاء كثيرة. لكن كلّ واحد منها بدا جريمة رهيبة.



أحمد قليج

تذكرت الأيام الأولى لدفني، ساعة وقفت وقفتي الأولى أنظر من الشبك. قبل ذلك لم أكن أجرؤ، وأنا حديث العهد، أن أخالف أمراً قالوه لي أكفاً لوجهي وكلاماً لأذني «ممنوع الوقوف»، وقالوا «إذا رأيناك تنظر من الشبك.. خلعنا عينيك». ترددت كثيراً قبل أن أنظر أوّل مرة، إلى أن وجدت في نفسي الشجاعة، وفي جسدي استعداداً للعقوبة. اقتربت من زاوية الشبك بعد أن جلست ردحاً أنصت لأيّ همسة، ومقلّباً الأمر في رأسي حتى كاد يهترئ.

أول ما نظرت، شهقت. كان مشهداً مرعباً. خيالي مغلق العينين بـ«الطميشة» لم يرسم لي القبور على هذا النحو. كنت أتخيل المكان واسعاً، بل وأن فيه مقاعد وكراسي، إذ لطالما مكث الأشقاء اللئام لساعات هنا، لكني لم أر سوى ممر ضيق، وصفّاً من القبور مقابلاً لقبري.

سمعتُ صوتاً، فسقطت في مكاني، كاتماً أنفاس خوفي، وقلبي. لم أسمع حركة بعد ذلك، فهدأت. عاد الصوت من جديد «بس.. بس»، نهضت ببطء، وقبل أن أصل الشبك تراجعت خوف أن يكون الصوت فخاً. ولما عاد على شكل «ولك بس..»، غامرتُ ونظرت، فرأيت زميل القبور الأول. رأيت عينين ضاحكتين، هكذا بدتا لي، وبدتا غائرتين في محجرين عميقين على نحو ساخر، أما حول المحجرين فلم تترك العتمة سوى لمعة سواد، عرفت بعد تمعّن أنه شارب ولحية. ابتسمت له فلم يُجب، بل عاد وسرّب صوته: «ولك .. بس». فهمت أنه لم يرني بعد، لذا عليّ الاقتراب. كان اكتشافاً مهماً، فرغم أنه يعني مخاطرة أكبر، لكنه عنى أيضاً أن الأشقاء اللئام لن يروني إذا ما ابتعدت قليلاً عن الشبك.

قرّبت وجهي من الشبك، وهززت رأسي للتحية، ردّ بابتسامة عريضة، فغمرتني سعادة عاشق. انتبهت أنني كنت مشتاقاً لوجه إنساني. وجه يبتسم، يحس، يخاف، ليس محتقناً بالحقد كوجوههم. وجه يشبه وجهي الذي أذكره.

أخذ يحرّك أصابعه وشفتيه، ولعل صوتاً ما كان يصدر عنه ولا أفهمه. أعاد حركاته مرات حتى بدأت أفهم، وصرت أجيب بطريقته. سألني من أيّ البلاد أنا، وإن كنت وحيداً في قضيّتي أم لا، وسألته، منذ متى يسكن هذا القبر، فأشار برقم لم أستطع تصديقه حتى أعاد إشارته أربع مرات. قال إنه هنا منذ ثمانية أشهر وخمسة أيام. شعرت بدمي يهبط إلى قدمي. ما عدت قادراً على الوقوف. قاطعت إشاراته بتلويحة وداع، وجلست على عتبة ضياع رهيب كاد يخلع عقلي. أيمكن أن أبقى هنا كل هذا الزمن. هنا.. وحيداً.. بارداً.. مقفراً.. معذباً.. وكيف؟ لن أستطيع الاحتمال. لكن ماذا سأفعل إن لم أحتمل؟ أليس الجنون أسهل من الإجابة على هذا السؤال: كيف لا يكون لي إلا الصبر وأنا واثق أنني لن أستطيع الاحتمال! هي لحظة اختناق ما قبل الموت، تبقى عمراً في حالة اختناق أخيرة.. لا تنتهي.. تتمنى الموت القريب فلا يأتي، وتتمنى الحياة التي تواصل ابتعادها بصمت..

لم يتركني زميلي. راح يسعل سعالاً منظماً، وما أردت إجابته. شعرت أنني أكرهه. بدا غراباً أو بوم شؤم.. بل شيطاناً. ظل مصرّاً على ندائه، فقلت لعله كان يمزح ويريد أن يتراجع. قفزت إلى الشبك مع هذه الفكرة، فسارع يرمي إشاراته وكأنه يستدرك خطأه بعد عذاب ضمير. أخبرني أن حالته خاصة جداً، لذلك ليس هناك سبب كي أخاف. وأشار أنه قريباً من كهوفنا الصغيرة يوجد كهف أكبر يسمّونه «جماعية» حيث ستكون الحياة أشبه بالجنة بالنسبة إلى حياتنا هنا. وقال إنه خلال فترة إقامته تبدل أغلب سكان الكهوف الصغيرة، وقبل أن يودّعني، على أمل أن ألقاه في الغد بعد الغداء، أفهمني أنه إذا لم تكن قضيتي كبيرة فسيضعونني في الكهف الجماعي فور اعتقالهم مجموعة جديدة، فالقبور ملآنة الآن. وختم كلماته بابتسامته العريضة مرتاحاً لأثر كلماته في عيني.



في ليل ذلك اليوم، كانت جريمتي الأولى، جلست جلسة صلاة، هي الأولى لي منذ كنت طفلاً، ولم أصلّ، فقط دعوت بقلب أسود أن يأتوا بسكان جدد للكهوف، وكي لا أرى سواد قلبي فضّلت أن يكون الجدد من البشر السيئين، لم أحدد أيّ سوء هذا والكهوف نادراً ما تفتح أبوابها لهؤلاء، لكنني ارتحت لجمل الدعاء التي لا تميّز شيئاً.

لا أنكر على نفسي أنني تراجعت عن موقفي بعد ذلك، لكن ما بقي عبئاً ثقيلاً على ضميري أنني لم أتراجع إلا حين أحضروا جدداً، فأدخلوهم حمّام الكهوف، لينقلوهم بعد الغداء إلى الكهف الجماعي مباشرة، فظللنا على حالنا. حينها تراجعت عن دعواتي، ليس لأن قلبي لم يعد أسود، بل لأنني لم أستفد من سواده.

الجريمة الثانية كانت أيام العتمة. تلك الظلمة التي كشفت كثيراً من عيوبنا ونقاط ضعفنا. في ليلة من لياليها، وبين يدي ضجر يطبق فوق الصدر كبرميل قمامة.. ثقلاً ورائحة. لم يكن باستطاعتنا أن نصدر أيّ صوت غير طبيعي، فكيف لنا أن نجزم أن أحداً من اللئام لا يتربص بين قبورنا. في تلك الليلة، جاء الكلاب مهرولين كعادتهم، فتحوا باباً، جرّوا زميلاً، وذهبوا. لن أتحدث عن ذنب نحمله جميعنا كلما سمعنا صوت ركضهم. ترتعد قلوبنا، نسمع زمجرة حديد، ينسحب الدم من عروقنا، وكثيراً ما يصعب

التمييز أيّ باب يفتح بابي أم سواه، ربما الخوف هو من يشوّش سمعنا. وعندما يفتح الباب، يشعر كل الذين ظلت أبوابهم مغلقة على رعب انتظارهم بالدم يعود إلى مجاريه، معلناً الفرحة بالنجاة، الفرحة المذنبة التي سنعتذر عنها في قلوبنا، لكننا نعلم أنها ستعود مرة أخرى. الجريمة كانت حين بدأ صراخ زميلنا يعلو. ما كان باستطاعتي أن أعرفه من صوت صراخه، ففي صراخ العذاب تصبح كل الأصوات متشابهة. وحده الجنس يظهر فارقاً بين صراخ ذكر أو أنثى. تحت سطوة الصراخ، عادة ما كانت أجسادنا تنتفض وكأنها هي التي تتلقى الضرب، إلا أنني في تلك الساعة لم أشاركه عذابه. رحت أستمع إلى الصراخ كصوت، كموسيقى، ولم أنتبه لإحساس أشبه بالطرب إلا بعد أن اكتمل رافعاً في وجهي جريمتي التي لن أغفرها لنفسي ما حييت. أهو السأم.. الأنانية.. الجنون.. لم أعلم أيّ سبب كان وراء لذتي بسماع صراخه. هالني أن أكون بشعاً إلى هذا الحد. رغبت أن أحظى بمرآة ونور لأرى وجهي. كيف يمكن أن يواجهني بعد هكذا سفالة! رأيت نفسي طاغية قديماً يضع معارضيه في ثور ذهبي، ويشويهم تاركاً أصوات عذاباتهم تخرج من منخري الثور لحناً موسيقياً. آمنت ببشاعة صورتي، ورحت أتمتم كرجل دين تائه، ندماً، اعتذاراً، وما نفع شيء. سجلت في دفتر نفسي "أنا قذر".

أما أكبر ذنوبي، فقد بدّل رغبتي في المرآة إلى خوف منها. كنت أكيداً أنني بت أحمل وجه وحش. لم يكن ذنبي تصرفاً أو رغبة، كان شعوراً قاتماً سفك خضرة الجمال في أعماقي.

كان ذلك يوم اكتشاف وجود صديقي في كهف لا يفصلني عنه سوى كهف آخر. صديقُ عمر، صديق حرية. كان معي تحت الشمس، بين نسائم الهواء. دخّنا معاً، شربنا معاً، هناك حيث يمكن أن تضع يدك على كتف صديقك، أن تضحك معه وتثرثر، بل وأن تختلف معه.

توقعت أول اعتقالي أن يكون قد اعتقل أيضاً، ثم حذفت الفكرة. قلت لا بد أنه نجا. ورغم أنني كثيراً ما كنت أستطيع رؤية الأجساد المنهكة وهي تخرج من كهوفها صاعدة إلى العذاب، لكن قرب كهفه من مدخل الممر منعني من رؤيته، ولعلّي لو رأيته ما كنت لأعرفه. فالأشكال هنا تتبدل. الرأس إما حليق الشعر أو مهمله، والوجه شاحب يغطي اصفراره طحالب وأعشاب برية كان يمكن أن ندعوها شعراً، أما الثياب فضاع لونها وشكلها وعمرها، حتى شابت أجسادنا.

لأكثر من مرة، جاءوا فانتشلوني من وحدة المنفردة التي لا أحنّ إليها إلا حين ينتزعوني منها، كحال الوطن. وعندما أصل إلى حيث عليّ الاتجاه يميناً نحو غرفة التحقيق، كنت أسمع أحياناً صوت سعال عنيف، أعنف من أن يبدو رسالة. لم أهتم لأمره، خاصة وأنني في الطريق إلى التحقيق أحظى بمئات الحواس لكنها جميعاً تسبقني إلى الغرفة، لتتركني وحيداً في الطريق إليها. لم أكترث بذاك السعال إلا عندما لفت انتباهي أحد اللئام وهو يقودني حين صرخ متوعداً، انتبه قلبي إلى أن هناك رسالة. وحين أعادوني سمعت السعال، فخاطرت بابتسامة من تحت ظلمة «الطميشة»، فصار السعال لحناً، وكأنه عواء ذئب حزين، وانتبه الكلب الذي يقود عماي، فرفسني إلى الكهف، وصرخ بصاحب السعال: حاج تنهق يا حمار.

بعد العشاء، وقفت أراقب الممر. حين تأكدت أن الوضع آمن، سعلت سعلتين متقطعتين، وانتظرت الجواب، فجاءني سعال مختلف من الجهة الأخرى، تنحنحت موضحاً أنه الرجل الخطأ، فلم يُعِد المحاولة. مرة أخرى سعلت السعال ذاته، فجاءني الرد من الاتجاه الذي أريد، وسعلنا عدة مرات معاً، كأن سعالنا استحال زقزقة عصافير تلتقي على غصن الحب. دبّ فيّ الحماس لمعرفته، فسألت بصوت مسموع «من؟» وجاءني الجواب قصيدة هبطت راقصة إلى أذني: «أنا محمد..» إنه صديقي.. سوق من المشاعر قام في أعماقي. فرحت، حزنت، خفت، ارتحت، وقفت على رؤوس أصابعي. التصقت شفتاي بالشبك، وكانت ضحكة معجونة بالخوف والاختناق تخرج من صدري. وسمعت ضحكته حدائق من الحب. سألته : «متى؟» وانقطع الحلم.

دخل أحد الأشقاء على عجل..

لم أنم يومها، وكنت أعلم أن صديقي لم ينم. تمنيت ألا ينام بين كهوفنا أحد من الأشقاء اللئام كما يحدث غالباً، وكان أن تحققت أمنيتي. صرت أرتب الكلام الذي سأقوله، سأسأله متى .. كيف.. أين وصل التحقيق معه.. ماذا قال لهم.. فيض من الأسئلة ملأ رأسي متأهباً للانطلاق.

في وقت بين العشاء والفطور، اقتربت من الشبك. صمت القبور في هذا الوقت يصنع عالماً من الرعب، تعززه روائح الرطوبة والعفونة، وزادت عليها رائحة صدأ الشبك.

سعلتُ السعال ذاته بصوت ضعيف، وسرعان ما جاء الرد كلاماً..

ـ صاحي؟

ـ صاحي.. من زمان هون؟

ـ بعد بيوم..

كاد الحزن يتحد برائحة الرطوبة لولا أن أنقذني بضحكته الطيبة

ـ كيفك.. عجبك التعذيب؟

ـ غير شكل

ـ شكلك متغير كتير

ـ من كتر ضرب الكفوف صار وجهي متل الرغيف العجيب.

وفرقعنا معاً ضحكتين أزعجت صمت الكهوف. فهبّ أحد اللئام، ويبدو أنه كان قريباً فاصطاد بنظره صديقي، بينما تراجعت سريعاً.

خلال لحظات غزا جيش اللئام الممر. فتحوا طاقة باب صديقي أولاً، وسمعتهم يسألونه مع من كان يتحدث، فأنكر، وسمعت أحدهم يقول له: «شوي.. وحياتك لأشويك شوي.. ».. ثم فتحوا طاقة باب المجنون.

ـ تعال ولك.. مين كان عم يحكي؟

ـ ما بعرف.

ـ شو اشتقت للفلقة.. احكي ولك.

ـ رقم ستة ورقم تمانة.

عندما لفظ رقمي كهفينا، انكمش قلبي على تجاعيده كورقة في قبضة الخوف، ودمي أصبح مكعبات جليد تتحرك في أوردتي مخلفة وجعاً وبرداً، أما جلدي فتحول إلى خبز يابس. هكذا هو الخوف.. إذ يعلن عن حضوره يغيّر كل شيء، يسحب من الروح ألوانها، ولا يترك إلا الرغبة في الانطفاء، في عدم لا يسبقه سؤال. ماذا نفعل يا إلهي؟ هناك أشياء لا نستطيع أن نعتادها. الذل، الانكسار، الألم، كلما لاحت لنا، اتسعت رغبة الموت فينا، حتى تبدو الحقيقة الوحيدة.

بدؤوا بصديقي. أرعد الحديد القذر، انفتح بابه، وكنت أعلم أن صديقي سيكون واقفاً بشموخ كأنه جبل. لماذا عليه أن يُظهر لهم الجليد والخبز اليابس! سيقودونه إلى المسلخ، وهناك لا يظل جبلاً. الجبال لا تصيح، لا تتألم، لا تبدّل أقدامها المرعوبة تحت جنون العصي، لا تزرقّ ظهورها من انحنائها في قلب «الدولاب» فوق البلاط. لكننا لم نكن نتخلى عن وقفة الشموخ الوحيدة. هنا.. في أحضان

كهوفنا. الوقفة التي لن يراها أحد، لن يشعر بقيمتها أحد، إلا.. نحن. عذابي كان عذابين، وخوفي كان عمراً كاملاً. كل العصي التي انهالت عليه كانت تصيبني بصرخات ألمه، ولحظات انتظار دوري. حين عادوا به يجر أقداماً ضاع شكلها، كنت قد بلغت آخر أنفاس صبري. وقفت بصعوبة كأنّ تعذيبي انتهى للتو. غير أني وقفت قبل أن يفتح الباب، ولا أدري لم ابتسمت للوحشين المتلمظين لصيدهم السهل.

ـ متضحك يا عرصة.. بالله لكسرلك سنونك.

هبطت من زنزانتي المرتفعة عدة سنتمترات عن الممر. غطوا عيني ليريحوني من بشاعة وجوههم، ورموني في المسلخ، حيث لم يبق حقد إلا وأنزلوه بي. واحد رأى فيّ أباه الذي كان يضرب أبناءه حين ينزعج وحين يفرح، ويبصق عليهم كلما رآهم وكأنهم لعنة من الآلهة. الآخر لا يراني إلا ويتذكر كيف رفضته كل بنات الضيعة. أذكّره بشاب أخذ منه حبيبته التي ما أحبّ سواها، وما أحبّته يوماً. الثالث يضربني دون أن ينظر إليّ، فعقله مشغول بأسرته التي لا يعلم ما يفعل ليسكت جوعها. أما الرابع فكان على وشك أن يحقق حلمه في أن يصبح نجماً سينمائياً. الشعر مصفف ولامع دائماً، اللحية مشذبة، والثياب لا تختلف عن ثياب أيّ نجم أميركي، ولا بأس إن كان لا يبدّلها طوال السنة. لم يكن ينقصه سوى أن يتعلم أساليب الضرب. يرى نفسه يتطور بسرعة، لكن ما يؤرّقه أنه عندما أتيحت له فرصة توجيه لكمات مباشرة إلى وجهي بعد جولة تعذيب، لم أسقط أرضاً. لكمني مرات ومرات، ولم أسقط، بينما كان يرى الأبطال تكتفي بلكمة لتصرع خصمها. أليس هذا سبباً كافياً لحقد أكبر.. وتدريب أعنف!

في صباح التعذيب ذاك كرهتُ كل ما أنجبه الكون. كرهت نفسي، كرهت صديقي، وراح رماد كرهي يخرج من كهفي لينتشر في باطن الأرض ويخرج إلى سطحها، يمرّ بالمدينة المستيقظة على الضعف والجبن والجهل، حتى عندما اقترب رماد الكره من أهلي لم يتوقف، تردّد قليلاً، ثم امتد فوقهم على مهل، واندفع يلفّ المجرات جميعاً. نمتُ على وسادة حذائي، كنت أتمتم.. أكرههم.. أكرههم.. إلا.. أنتِ.

***

لم أكن لأبلغ مرحلة مراجعة جرائمي، لولا أن اكتمل نصابها عندما رقصت الفرحة في قلبي وفي عينيّ إذ سمعت صوت الأنثى لأول مرة، الصوت الذي سأذكره دائماً.. حباً.. وندماً.

بعد كل تلك الجرائم صرت أخشى ألا أجد فارقاً بيني وبين وحوش العتمة الرابضة على أبواب كهوفنا، وكهوف كل البشر. كيف لا أكون مثلهم طالما كنتُ أستطيع أن أغطّي الكون بغيمة كراهية. إن استطعت فتح بوابة السماء لأتمنى للآخرين الدفن هنا، وحوّلت صراخ عذاب زميلي إلى أغنية، وصراخ الأنثى في جوف الكهوف إلى متعة..

غسلت رأسي. نظرت إلى نفسي في لحظة صمت. قلت: هذا القبر أصبح صومعة.. وهذا المدفون صار راهباً. سيتسع قلبي للجميع، سأحزن لأجلهم، سأرى المصائب التي تجبرهم على الخطأ، وسأغفر، لن أكره، لن أحقد.

رأيت أوساخ أفكاري تغادرني، رأيت سواد مشاعري يقطر من أصابعي، وحين تأكدت أنني نظيف من كل لوث، بدأت أغربل حياتي، لأسامح وأغفر لكل من أساؤوا إليّ، كل من ظلمت نفسي وظلمتهم بطردهم من قلبي.

سامحت الكثيرين، لكلّ وجدت عذراً، فأرسلت إليه مع الهواء الرطب سلامي وحبي. ومن لم أستطع مسامحته طلبت له الغفران، وكانوا ثلاثة. أولهم أساتذتي في المدرسة الذين لم يفهموا إلا العنف والعقاب حتى مع أطفال دون العاشرة، وثانيهم أولئك الذين سرقونا من أيامنا ليدفنونا، ثم ليذيقونا من عذابات القبر ما لم يرد بنص، وثالثهم.. أنا.

الأرق الذي صادفني وأنا أرتّب شكلاً جديداً لوجودي كان سؤالاً سهلاً، لم أحظ بجوابه: لمن أدعو.. ممن أسأل الغفران؟ هكذا.. وجدت نفسي أمام عودة جديدة لسؤال قديم.

حين تكون وحيداً، وحيداً إلى حدّ تصبح معه الفكرة والتجربة، الذات والآخر، الخارج والداخل، خيوطاً تنسج دائرة صغيرة اسمها «أنا». حينذاك، إن لم تكن تؤمن أنك صورة لمتعال خارجك، فستحتاج أن تحاكي صورتك في البعيد، أن تحاكي الثابت خارج حركتك، ستحتاج لمرآة كي ترى سعي الوجود في دائرتك، الدائرة التي تحتاج، على الأقل، إلى التأكد من أنها مازالت تعيش دورانها.

جلبت من ذاكرتي حفنة رموز، رأيتها الأجمل. أسميتها آلهة وأنبياء. ورأيت البشر يغلقون باب تاريخ مضى، ويفتحون قلوبهم للضحكة القادمة. لملمت ثمار أفكاري. أشعلتُ سراج دين جديد، وشهدتُ: أنا مؤمن فأنا أحب، كافر إن رضيت نفسي بالكره. وسافرتُ في تأملي. أوّل من فكّرت فيه، أولئك المتمترسين أمام أبوابنا. رأيتهم بعينين جديدتين. بدوا لي رغم كل عنفهم وصلفهم مساكين. أيّ حقد يمكن أن أحمله على رجل لا يذهب إلى بيته إلا في أوقات الفراغ. قيامه وقعوده في باطن الأرض. حريته غادرته في يوم لا يذكره، وصار السجن قدره، والفقر قدره. قدر يجعله لا يكف عن سؤال الآخرين. بالترهيب مرة، وبالتذلل مرات، فلا يرى في عيون الناس إلا الخوف والكره والتقزز. وبعد كل ذلك.. إذا أراد أن يأكل، سيجلس جلسة طويلة مع زملائه ليتفقوا على جمع ثمن طعام، هو دائماً بلا أيّ لحم، لهذا سيشعر دائماً أن في دمه شوق للّحم، ولن يستطيع منع يده من سرقة الفتات الطافي والمترسب في حسائنا. ورغم سطوته على المكبلين، غير أنه دائم الخوف. لا تسأله لماذا ومن ماذا، فالجميع يراقب الجميع هنا. إحساسه أن حياته غدت مشياً على صراط يلاحقه منذ أصبح قدره خليطا من السجن والفقر والخوف.

تخيلتُ أنني أسأله: ألست من اختار؟ وعرفت أن جوابه، إن كان صراطه يترك فسحة للجواب، سيكون آهات ما اعتاد أن يظهرها إلا على حجر أمّه وهو صغير. وسأرى في عينيه قلق السؤال: أنا اخترت.. فمن أنا؟ أليس فقر أبي.. أنا.. أليس جهل عائلتي .. أنا.. وفشلي والأبواب الموصدة.. أليست هي الأخرى أنا؟ هذا بعض مني فقد اختار.. فهل اخترت أنا؟

ودّعت ضياع السجّان، وأكملت رحلتي بين الناس. كنت أعيد الجميع إلى البداية، حيث نتساوى جميعاً. ها أنا أعود شبيهاً للسجان بعد كل هروبي. صرتُ سجيناً لأن من اختار الواقع لي في البداية جعلني اختار هذا الطريق في النهاية..

الواقع اختار لي وله.. ثم اخترنا.. فكنت سجيناً.. وكان سجاناً..

في الآخر.. عرفت أن طريق الهداية.. قد هداني إلى الضياع.

هذا القبر صومعة.. هذا المدفون راهب ■

تشرين الثاني 2001

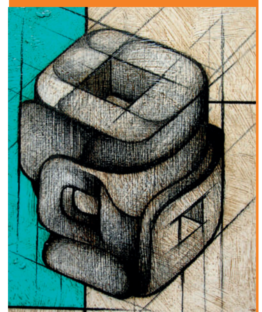
كاتب فلسطيني سوري مقيم في باريس



ماذا في وسع الفيلسوف في لحظة الدَم

طيب تيزيني: حوار الحيرة والاحتمال

خالد حسين



تنبغي الإشارة أخيراً -وعلى الرَّغم من جدية قراءة د. طيب تيزيني للحدث السوري- أن هذا الحدث ما يزال يبحث عمن يستنطق ماهيته بمنأى عن خارجه، وبعيداً عن الأدوات المعرفية التي أُستهلكت في المقاربات المعهودة، إنه الحدث الذي يتطلب المصطلح الجديد الذي يمكن به مفهمةُ هذه الرغبة الجامحة للسوريِّ أن يخرج من "مضيق الأبد".

هكذا يتساءل طيب تيزيني أو هكذا يتخيّله محاوره (عمار المأمون) وهو يرمي حيرتَهُ وقنوطَهُ بوجه العالم في هذا التسآل الموجع بشأن الأزمة السورية: ماذا يكون بوسع الفيلسوف في لحظة الدّم؟ لا شك أنَّ مواجهةَ الحدث السوريِّ المريع تقتضي جسارة عالية؛ تتكئ على استكشافٍ عميقٍ لتضاريس الحدث والكشف عن القوى المتصارعة، التاريخية منها واللاتاريخية، الإقليمية والدولية وما نتج عن تصارع هذه الأخيرة من إهدار أو تأجيل "اللحظة الحاسمة" بحسب طيب تيزيني، اللحظة التي كنا نحن ـ السوريين ـ ننتظرها ونحلم بها للمضي قدماً بها نحو تأسيس فضاء ديمقراطيٍّ كان في لحظةٍ ما ينتمي إلى دائرة المسكوت عنه أو حتى المستحيل التفكير فيه في زمن الاستبداد الأسدي؛ هذه الجسارة يرتكبها طيب تيزيني في حوار مجلة الجديد معه؛ ليغدو التسآل "ماذا يكون بوسع الفيلسوف في لحظة الدم" عَتبة يأسٍ مؤقتةٍ سرعان ما ينطلق منها د. تيزيني في تدبُّر خريطة الحراك السوري وقراءته بهدوءٍ وبأدواتٍ تبيح الائتلاف والاختلاف مع نتائج القراءة التي انتهى إليها في الوقت نفسه.

يمتاز الحوار بالغنى المعرفي والاستبصارات الفلسفية عبر توظيف المنهج التاريخي ـ وأحياناً بتوظيفٍ تقليديٍّ ـ في مقاربة الموضوع بمحاوره الجديدة ـ القديمة والمتنوعة: اللحظة المناسبة، خطاب الثورة، الحامل الديني الإسلامي والقراءة المرتقبة للنص الديني، دولة القانون والمواطنة، العولمة، اليسار، القومية والانفصال.. إلخ؛ محاور تكشف عن طاقة تيزيني على التحرك بين الأنساق المعرفية التي من شأنها تفسير معضلة الحدث السوري وإعادة النظر في كثيرٍ من المفهومات والأدوات المعرفية التي قرأ بها الواقع العربي سابقاً على ضوء ما جرى ويجرى في العالم العربي. وإذا كان من الصعب مواكبة هذه المحاور جميعاً هنا قراءة وتفكيكاً؛ فمن الضرورة بمكان استقصاء بعض هذه المحاور الخطيرة ومناقشتها قبل الانتقال إلى الحوارات التي تضافرت اتفاقاً واختلافاً مع حوار د. تيزيني لعدد من الباحثين في كثيرٍ من الموضوعات التي ناقشها واستفاض فيها.

يتوقف د. طيب تيزيني عند اللحظة المناسبة أو/الحاسمة؛ ذلك أن الثورة إنْ لم تتح لهذه اللحظة بالحضور والانبثاق، فهي ليست بثورة؛ لأنَّ الثورة بذاتها هي هذه اللحظة المرتقبة والفارقة؛ وهي التي تهب الزمنَ خاصية الاختلاف في أن يكون مفارقاً ومتبايناً لكونه "المجال الذي ينطوي على لحظة أو أخرى قد تجسد لحظة التخطي والانتقال إلى ما يشير إلى مرحلة جديدة، وهذه المرحلة الجديدة إذ تطرح نفسها على بساط البحث فإن حاملاً اجتماعياً جديداً بقدر أو بآخر قد أعلن عن نفسه وعن رسالته التي على المتلقي أن يكتشفها ويحفزّها على الإيضاح عن نفسها". لا شك أن الثورات العربية قد وفّرت هذه اللحظة ـ الحلم؛ ولكن المشكلة كانت في حامل اللحظة التاريخية الذي تُرك معزولاً إزاء توحش السلطة وتوغلها (حالة سوريا) أو الالتفاف عليها من قبل القوى الإسلاموية والمتشددة وإزاحتها من مسار التاريخ بسيطرة العسكر ثانية (حالة مصر)؛ وإزاء هذا التوحش الضاري من قبل القوى المضادة لهذه الثورات؛ وما استقدمته من قوى لاتاريخية إلى جانبها (روسيا وإيران وعصابات طائفية ومرتزقة من هنا وهناك/حالة سوريا) كان لا بدّ أن تضيع هذه اللحظة الحاسمة أو على الأقل أن تنسحب من الحضور. هذا التوصيف المتقن للحظة الحاسمة يعاني من غياب أو تحديد شكل الحامل الاجتماعي لها، الحامل الذي يمهد لتجسيدها واقعاً تاريخياً؛ لكنه ظلّ هلامياً أو على شكل هيولى غير محددة القوام في توصيفه؛ يقول أستاذنا "غابت الكتلة التاريخية التي كانت ملاحقة ومدانة على ضعفها ومحدوديتها"، لا ريبَ أنَّ الكتلة التاريخية الذي تحيلنا مفهوماً على المرجعية الماركسية التي ترسم بدورها خطوات منهج القراءة لدى د. تيزيني كانت على الدوام لاتاريخية سواء تمثلت باليسار التقليدي الذي كان مشغولاً بالانتشاء في حضن النظام الفاشي أو اليسار الراديكالي الذي لم يستطع أن يتجذَّر اجتماعياً؛ ولذلك إذا كان ثمة من حامل اجتماعي لهذه اللحظة التاريخية فهو هذه



عمرو وهبية

"الكتلة البشرية" التي وحّدها مطلب الحرية بالدرجة الأولى، ولكن توصيفها يبقى ضبابياً في مقاربة د. تيزيني؛ كما لو أنها لا تستحق نعت التاريخية؛ فرغم الحضور الكثيف للنظام السوري على أرض الواقع ـ كما يقول تيزيني ـ الذي من شأنه أن يمنع تشكّل هذه الكتلة التاريخية فإن السوريين جسّدوا التاريخ قوةً سلميةً للمطالبة بالحرية والكرامة والعمل.

وينظر د. طيب تيزيني إلى الخطاب الشبابي الذي تسيّد الحراك الثوري عبر مفهوم التمفصل "وثمة ملاحظة تتمثل في أنّ ما يقال عن تورط الخطاب الشبابي الراهن في إعادة إنتاج أفكار الأجيال السابقة بدلاً من إنتاج خطاب شبابي معاصر، أمر قد لا يصح إلا جزئياً، فثمة حراك جديد يتبين في عمق الأحداث السورية، ليبعُد عما يمكن أن ننظر إليه بمثابته جهوداً غير متسقة تماماً، ولكن جدية باتجاه إنتاج خطاب شبابي جديد، يظلّ مع ذلك متواطئاً مع الخطاب السابق عليه". لكن المسافة التي تفاقم الاختلاف بين الخطاب السابق الذي كان يتناسل من أيديولوجيات قومية أو ماركسية أو إسلاموية وبين الخطاب الشبابي يتمثل في انخفاض المنسوب الأيديولوجي في الأخير؛ وهذا ما منح هذا الخطاب مصداقيته أو واقعيته في جذب مشارب متنوعة من أطياف الشعب السوري(مظاهرات حمص؛ مظاهرة حماة الكبرى)

إنَّ ثيمات الحرية والكرامة والعمل هي التي صاغت بنية هذا الخطاب، لذلك تمتَّعَ بانتشار عارم في الفضاءات السورية ـ وإنْ مُرِّرَ عبر أنسجة خطاب إسلامي شعبي ـ إذا ما قورن مع خطابات اليسار والقوميين وخطاب السلطة الكارثي: الأسد أو نحرق البلد أو الخطاب الإسلاموي المتشدد الذي أنتج الإنسان ـ الوحش متمثلاً بداعش وماشاكلها. إن خطاب الحراك الشبابي كان وفياً للحظة الراهنة والمستقبل: الرفض العارم للدولة الأمنية المتوغلة في التوحش و التركيز ما من شأنه المضي قدماً بالشعب السوري نحو دولة المواطنة قبل أن ينفتح الحراك على جحيم طائفي أوقده نظام غولي وتوحش إسلاموي منبتَّين عن الحياة ويتغذيان معاً على أسوأ ما أنتجه الماضي من أحقاد .

وعن إمكانية إنتاج قراءة للنص الديني يمضي الدكتور طيب تيزيني إلى حقل الاحتمال الذي يميز كثيراً تضاريس هذا الحوار؛ ويعكس ذلك نبرة اليأس والحيرة التي تنتاب خطاب تيزيني؛ من حيث أن إنتاج هكذا قراءة مشروطة بفضاء التسامح الذي يمكن وحده أن يتيح المجال لهذه القراءة أن تحدث أصلاً. ويتوقف د. طيب تيزيني في سياق السؤال عن القراءات التي واجهت العقل العربي مشيراً بملاحظةٍ هامة إلى اقتصارها على باحثين ذكور دون النساء؛ الأمر الذي يثير الكثير من الأسئلة حول غياب مريع لقراءات نسوية للعقل العربي أسوة بما نجده من قراءات عتيدة نسوية للعقل الغربي. ولكن من جهة أخرى يتحاشى د. تيزيني التذكير بقراءات جادة للفكر العربي والإسلامي كمثل قراءة محمد أركون التي لم تتخل برأيي عن أبعادها الإبستمولوجية والتنويرية والمابعد حداثية. ولكنه يكتفي بالتوقف عند مشروع محمد عابد الجابري الذي سرعان وما وقع في فخ النكوص بحسب رأيه، حيث يرى أنَّ الجابري وبعد أن توغّل في الفكر التنويري اكتشف نفسه على ضفاف "الأشعرية" وما يترتّب على ذلك من إخلاء المشهد لخطاب إسلاموي متشدد يتمثل بداعش وتوابعها.



ويشير المفكر السوري في هذا السياق إلى القراءة اللاتاريخية لأدونيس بتأويله للحدث السوري بوصفه تعبيراً عن صراعات إسلامية طائفية، ولم يدرك أن الحراك لم يكن إلا للمطالبة بدولة الحرية والعمل والكرامة لكن الرشيمات اللاتاريخية التي تحرّك قراءة أدونيس هي التي قادته إلى هذا الموقف اللاتاريخي بالسكوت المطبق عن توحش النظام وآلته الجهنمية.

وما يستأثر بالاهتمام هنا القراءة التقليدية للعولمة، ولا شك فإنها تعكس الرشيمات الماركسية الشاغلة ـ بقوة في مقاربة تيزيني ـ لتفسير هذا التحول المريع الذي أصاب بنية العالم، فهو لا يرى من العولمة سوى التشيؤ مستعيداً قولة ماركس المعروفة عن التشيؤ، يقول بهذا الصدد"وهذا ما يدعو إلى وضع اليد على جوهر ذلك كله، فإذا كان ماركس قد وضع يده على ما يجعل من العولمة نظاماً من إنتاج الأشياء عبر تحويل الإنسان إلى حالة مشيّأة، فإن الوصول إلى المقولة التالية عبر ماركس يغدو أمرا منطقياً، كلما ارتفعت قيمة الأشياء، هبطت قيمة الإنسان"، لكنني أرى أن الإمكانيات الأخرى

والثورية التي تتجذّر في نسيج العولمة كما لو أنها غابت عن أستاذنا؛ فالثورة المعلوماتية بما توفره من وسائل التواصل الاجتماعي كمنجزٍ عولميٍّ كانت حاملاً أساسياً في توصيل صوت الحراك وصورته وفضح الأنظمة العربية الاستبدادية وجرائمها، ومن هنا فالعولمة كانت الوسط الذي سمح بانتشار الثورة وتساوق أنشطتها في الوقت نفسه، مما جعلها حراكاً عاماً شمل عدة بلدان عربية؛ لتغدو بمنزلة التسوماني الذي ضرب هذه الأنظمة المستبدة في ليلة مدلهمة.

ويرفض د. تيزيني الفكرة القائلة بانهيار القومية العرب حيث يجيب "إن القول بانهيار فكرة القومية العربية لعله غير دقيق، فما حدث ربما مثّل حالة مفتوحة من التفكك، الذي أنتج مثل ذلك القول، وإنما نفضل القول بأن ثمة هزة عميقة أتت على الفكرة المذكورة وعلى العوامل المجتمعية التي تمثل حاضنة أو حاضنات"، لكن الواقع الفعلي يناقض ما يذهب إليه؛ فالمأساة السورية كشفت عن تهافت الفكرة القومية بصيغتها الناصرية أو البعثية؛ فلم تخرج مظاهرة واحدة لمناصرة الحراك وضد جرائم النظام في البلاد العربية، بل إن الأحزاب الماركسية والقومية في البلدان العربية (الأردن مثلاً) نافحت عن النظام، وهذا لا يعني البتة اضمحلال الفكرة القومية ولكن الحِرَاكات العربية وضعت وتضع هذه الفكرة بصيغتها العتيقة تحت الشطب، ولا بدّ من قراءة تفكيكية تتولى الإرث الذي تستند إليه الفكرة القومية لتتخلص من أبعادها الميتافيزيقية التي مازال خطاب د. تيزيني يتعكّز عليها بصورتها القديمة. وسأضع هذه الفكرة ثانية تحت مبضع التفكيك في سياق اشتباك هوشنك أوسي مع الحوار في مناقشته لهذه الفكرة.

> **الرشيمات اللاتاريخية التي تحرّك قراءة أدونيس هي التي قادته إلى هذا الموقف اللاتاريخي بالسكوت المطبق عن توحش النظام وآلته الجهنمية**

وفي سياق مرتبط بذلك نعرف أن النظام السوري الموغل في التوحش قد استغل بعض الشعارات ذات الصبغة الدينية الشعبية (وهنا أتحدث عن المرحلة السلمية للثورة)؛ ليخرجها عن سياقها، ويسرع بدفعها إلى خانة الإرهاب والطائفية حتى يسوّغ لنفسه باستعمال السلاح ضدها؛ يلتقط د. تيزيني هذا الأمر موضِحاً الفارق الذي انطلى على اليسار التقليدي وجزء من اليسار الراديكالي الذي اصطف مع النظام بحجة هيمنة الشعارات الدينية، يقول "ظهر الإسلام في المراحل الأولى -من الثورة - بوصفه عقيدة شعبية غير مرتبطة بحمولات سياسية وغير مرتبط بأيدولوجيات مسيّسة، بوضوح أكبر، ظهر الدين المذكور في بدايات الموقف بمثابة دين شعبي غير مقترن بحمولات سياسية واجتماعية وأيديولوجية، على عكس ما راح يظهر لاحقاً، حيث ظهر الإسلاميون بمثابتهم مسلمين ومدافعين عن دينهم ضد خصومه، وهذا ما تزامن مع نشأة داعش التي شكّلت وما تزال تشكل عبئاً على "الآخرين" من المتدينين وكذلك "المسلمين". إن عدم التفريق بين الإسلام الاجتماعي الذي ينتمي إليه أغلب السوريين والإسلام الأيديولوجي المنافح عن الماضي ويعمل من أجل استعادته، غياب هذا التفريق أوقع الكثير من الباحثين في عطالة تامة لتفسير الشعارات الدينية الشعبية؛ وفي هذا السياق أعلن أدونيس عداءه للحراك السوري لأنه يخرج من الجوامع، كما لو الفضاء السوري لم يكن مكبوحاً بقانون الطوارئ منذ عشرات السنين؛ ومن ثمة وجد المتظاهرون الساحات مرخصة للاجتماع فيها والسير في المظاهرات؛ فالجوامع لم تكن سوى مكان تجميع للمتظاهرين بدليل انضمام غير المسلمين إليها.

هذه حزمة من المقولات والأفكار التي ناقشها د. طيب تيزيني في حواره الذي لا يكفُّ عن النوسان بين الحيرة والقنوط ومحاولة استبصار في الأفق المسدود مع مجلة الجديد التي - ولإغناء الحوار - واجهتهُ بحوارات أخرى لكتّاب من بلدان عربية مختلفة. لنرى كيف تفاعل هؤلاء مع حوار د. تيزيني ومقاربته للحِراكات الشعبية إن ائتلافاً أو اختلافاً؛ وفي هذه الانعطافة من مسار هذه المقاربة، تأتي قراءة د. عبد الباسط سيدا "كيف تتحول الانتفاضة إلى ثورة" في مواجهة حوار أستاذه تيزيني مشوبة بالهدوء ومحاولة توسيع دلالة المقولات التي طرحها بشأن المحاور آنفة الذكر، حيث تغدو قراءة أفقية دون محاولة الصدام والاشتباك والتناحر، ومن هنا هيمن التفسير والشرح دون التفكيك على مساحة القراءة، أهي "مديوية المعنى" تجاه الأستاذ والمشرف؟ ربما؛ لكن الكاتب لم يترك لأفقية القراءة أن تستبدَّ به، ففي انعطافة الخاتمة يحاول سيدا التقاط المسكوت عنه في حوار تيزيني، الذي لا يني في حواره يتحدَّث عن انبثاق مرحلة جديدة تستوجب جدة في المفاهيم والأدوات؛ ومن هنا يتساءل سيدا "وبناء على ذلك كنت أتوقع من المفكر تيزيني أن يتوقف بمزيد من الصبر والعمق عند المآسي التي أحدثها المشروع القومي البعثي في سوريا؛ هذا المشروع الذي أجهز على المشروع الوطني عبر محاولته فرض صورة أحادية المنحى على واقع متعدد متنوع بطبيعته. فالتعددية المذهبية والدينية والقومية واقع معيش قائم، لا بدَّ أن نتفاعل معه بحكمةٍ وموضوعيةٍ على أساس احترام الحقوق والخصوصيات، ضمن إطار وحدة الوطن؛ كما أسس المشروع البعثي لتوجّه فاشي استبدادي رافض للآخر المختلف على كل المستويات". هذه الخيبة التي تعصف بكلمات سيدا تستغرق الكثير من قراء هذا الحوار- وأنا واحد من هؤلاء الذين تساءلوا عن شساعة المسكوت عنه فيما يتعلق بالمشروع القومي البعثي في حوار تيزيني؛ هذا المشروع الذي لم يترك شيئاً دون تعطيل وتخريب؛ فلصالح الوحدة والتطابق والتشابه اختفى الاختلاف والتنوع من الحياة السورية، فعاصفة الجفاف القاسية التي حاصرت وتحاصر الكينونة السورية بمختلف مناحيها يتحمَّلها المشروع البعثي أولاً وأخيراً، لكنّ هذا كله يغدو بحكم المسكوت عنه في خطاب تيزيني، الذي لا ينفك يركّز على الدولة الأمنية وشؤونها دون تفكيك الخطاب الأيديولوجي البعثي، العنصري، الذي كان قد

أسس ماهية هذه الدولة الأمنية ذاتها.وفي سياق التفاعل الأفقي مع الحوار يتورّط ربوح البشير (الجزائر) بعنوان كبير "المفكر العربي ومآزق الأيديولوجيا"، لكنه سرعان ما يخيّبُ أفق انتظار المتلقي، ذلك أن القراءة تخلو من اشتباك حقيقي مع المقروء والقضايا الكثيرة والحسّاسة التي يطرحها؛ فالكاتب يتهم مقاربة تيزيني بالمتسرعة في تناول الثورة السورية " وبعد الحديث المتسرع عن مسار الثورة السورية في بدايتها تبين له أن غياب العقلانية والحكمة السياسية كان سببا في ظهور انتفاخات عنيفة مثل ظاهرة داعش على جسد الثورة، مما تسبّب في إجهاض الحمل المتوقع والمأمول في ولادة اللحظة النهضوية الحاسمة. وبرؤية متداخلة يذهب مفكرنا صوب تقديم قراءة بانورامية للواقع السوري حيث يتحدث عن تقاطع العامل الاجتماعي"، لكن الأمر على خلاف ذلك تماماً فتيزيني قدّم لوحة وافية لقوى الصّراع وطبيعة الخطابات التي تحرك الأطراف في الأزمة السورية.

حتى وحين يتلبّس خطاب المفكر بالأيديولوجيا؛ فإنه لم يهرب من إدانة القوى اليسارية التي شارفت على الاضمحلال؛ فالأمر لا يتجاوز الاتهام المجاني؛ فقد تحدّث تيزيني عن غياب الكتلة التاريخية التي كان من المفترض أن تؤدي دورها ولا سيما وأن هذه "اللحظة الحاسمة" كانت موجودة بالقوة، وتنتظر من يشقُّ لها الطريق.

وتسهم الباحثة التونسية نزيهة الخليفي بقراءتها "عجز اليسار وأوهام الإسلاميين" في توسيع فضاء المحاورة من خلال الإمساك بثنائية مترادفة "عجز اليسار وأوهام الإسلاميين"؛ فالعجز يشتمل على الوهم والعكس صحيح؛ ذلك أنَّ عجز اليسار لم يقده سوى إلى أوهام ضارة وضالة بالمجتمعات العربية والإسلامية ولم يجد اليسار في الأزمة السورية سوى اللواذ بالسلطة الدكتاتورية، وفي الحقيقة فإن اليسار التقليدي لم يغادر جانب السلطة أصلاً؛ لذلك توافق الباحثة على ما ذهب إليه تزيني "أمّا في مسألة مصائر اليسار، فقد ذهب إلى أنّ قوى اليسار المتقدّم مشروع للانتقال إلى مرحلة ما بعد الثورات"، والأمر ذاته فيما يتعلق بالإسلاميين الذين لا ينفكون عن إنتاج الأوهام التي لا تقود إلا إلى العجز عن إدارة البلدان وإهدار الثورات كما فعل الإخوان المسلمون في مصر؛ مما أدّى إلى حضور ثان للعسكرتاريا وعلى نحوٍ كثيفٍ ومرعبٍ.

وإذا تجاوزنا الكثير من النقاط التي تتفق فيها الباحثة مع ما جاء به الحوار؛ فإنها من جهة أخرى تصدم القارئ إذ تتقمص الباحثة دور الدفاع عن النظام السوري؛ وهذا ليس بغريب على عدد من المثقفين المغاربة الذين مازالوا ضحايا أكاذيب نظام المقاومة والممانعة، لنقرأ ".. فنضال القوى الديمقراطية العربيّة يجب أن يتمّ تقديمه باعتباره جزءا من هذا النّضال العالمي، في مواجهة النّظام العالمي ومرتكزاته. وبناء على ذلك ندرك أنّ النظام السوري يدرك جيّدا أنّ تسليم الدولة سيكون في يد مجموعات متطرّفة مثلما وقع في ليبيا واليمن. ما يدعو إلى الغرابة أن تذهب الباحثة هذا المنحى؛ فالنظام السوري الذي لا يفتأ عن تدمير المدن السورية بالبراميل المتفجرة وقتل مئات الآلاف من السوريين و.. و.. يغدو بلمحة بصر قوةً ديمقراطيةً، وهنا يمكن أن نتساءل ألم يستمر الحراك شهوراً عديدة بحالةٍ سلميةٍ؟ ألم يكن بإمكان النظام السوري أن يستمع إلى صوت العقل ويقوم بإصلاحات جدية؟ إن الذي قاد المتظاهرين إلى حمل السلاح هو النظام الطائفي المتلبس بالرداء البعثي الذي سعى بشتى السبل والطرق إلى إلصاق الإرهاب بالحراك الشبابي فبرنامجه يخلو من أيِّ شكلٍ من أشكال الاعتراف بصندوق الانتخاب والتداول السلمي للسلطة. هذه الحقيقة غالباً ما تغيب عن كثيرٍ من الباحثين الذين في لحظةٍ ما تُصاب بصيرتهم بالعمى.

> **إن الذي قاد المتظاهرين إلى حمل السلاح هو النظام الطائفي المتلبس بالرداء البعثي الذي سعى بشتى السبل والطرق إلى إلصاق الإرهاب بالحراك الشبابي فبرنامجه يخلو من أيِّ شكلٍ من أشكال الاعتراف بصندوق الانتخاب والتداول السلمي للسلطة. هذه الحقيقة غالباً ما تغيب عن كثيرٍ من الباحثين الذين في لحظةٍ ما تُصاب بصيرتهم بالعمى.**



أما هوشنك أوسي (سوريا) فيقدّم محاورةً أكثر إقناعاً وتفصيلاً لـ/ وتعاضداً مع حوار طيب تيزيني وتتحدَّد خريطة قراءته بتكثيف الحالة التي تضطرم بها المنطقة العربية بأنه ليس سوى "خطاب الردة" كتحويل وترجمة لعنوان الحوار "زمن الإنسان الوحش: العودة إلى ما قبل التاريخ"، وهذا التوضيح ضروري حتى لا يلتبس الأمر على القارئ الذي قد يمضي به الظنُّ إلى أن الحوار موضع القراءة ما هو إلا ارتداد ونكوص. لكنه في الحقيقة يأتي تعضيداً لما جاء به د. تيزيني وتأويلاً له؛ يكتب أوسي "وكأن هذه المنطقة، تعيش خارج الزمان الذي يعيشه العالم، فإنما يحدث، يمكن وصفه بالردة عن القيم الإنسانيّة والغرق في قيم الغابة، ولربما أفظع من ذلك أيضاً". وهذه هي حقيقة الأوضاع التي تهيمن على المنطقة

العربية ولاسيما سوريا والعراق. وفي هذا السياق التفسيري والتأويلي تمضي مقاربةُ هوشنك أوسي؛ لتصل في نهايتها إلى نقطةِ خلافٍ جديرة بالإيراد والمناقشة وقد تجاوزتْ مناقشتها عمداً في سياقها على أمل التحاور معها وعبر قراءة هوشنك الذي استفاض فيها. إن الأمر يتعلق بإجابة أستاذنا تيزيني على فكرة التقسيم التي يمكن أن تصيب سوريا، وهي إجابة تشكّك بفكرة التقسيم؛ نظراً لأن المكوِّنات السورية باستثناء الكورد ترفض هذا الحدث، يقول تيزيني "ويبقى العائق الأخير المتمثل في المجموعات والطوائف التي يُراد لها أن تنفصل عن سوريا -ربماعداالأكراد- لكنها ترفض ذلك بمخزونها الوطني السوري والقومي العربي". واللافت للانتباه أن تيزيني . وإن لم يكن يقصدو/أو يقصد ذلك- فإنه ينزع عن الكورد شعورهم الوطني بتضاد مع المجموعات الأخرى التي ترفض التقسيم نظراً لمخزونها الوطني. هنا يقدم هوشنك أوسي قراءة دقيقة؛ ليكشف عن الافتراضات المسبقة التي تشوب خطاب المفكر هنا وارتهانه لرؤية ميتافيزيقية تنأى عن الواقع وتقترب من الخطاب السائد الذي لم تنفك أدبيات حزب البعث عن تكراره ليل نهار؛ يكتب هوشنك "أمّا استثناء تيزيني للأكراد، عن الحالة الوطنيّة النابذة والطاردة للتقسيم والانفصال، ضمن مكوّنات الشعب السوري (...) هذا الرأي أيضاً، يقف بالضد من معطيات التاريخ الحديث لسوريا. فمنذ تشكّل الكيان السوري، بيد الاستعمار الفرنسي-البريطاني للشرق الأوسط، والكرد السوريون يحاولون أن يقنعوا الشريك أي العرب (الأغلبيّة) بأنهم ليسوا انفصاليين، ويريدون العيش معه في وطن واحد. حين طرح الفرنسيون تشكيل دويلات خاصّة على مكوّنات الشعب السوري، رفضها الكرد، وقبل بها الشريك العربي، فتشكّلت دولة حلب (1920-1925) دولة دمشق (1923-1925) دولةجبل الدروز(1921-1936)، دولة العلويين(1925-1936)، وكان لكل دويلة رئيس وعلم خاص بها. وحين أراد الفرنسيون دمج هذه الدويلات، أيضاً وافق أصحابها على ذلك، وإذا لم تكن "وحدة الدويلات السوريّة" رغبة ومشيئة فرنسيّة، لما سعى السوريون إلى التوحّد، ولبقيت تلك الدويلات باقية وقائمة حتى الآن!". وأعتقد أن إدعاء المفكر بتماسك المكوِّنات السورية على أنواعها برفضها التقسيم فكرة تنخرها الميتافيزيقا وتكذّبها وقائع الأزمة السورية، فهو تماسك مزعوم يتفكك بسهولةٍ مريعة تحت ضغط الوقائع والأحداث.

> يكتشف الكاتب اللبناني أن "الحرية" -هذه الكلمة التي سحرت السوريين- هي المساحة المسكوت عنها في حوار تيزيني لحساب مفهومي: الكرامة والعمل، المفهومين اللذين يتكرران في نسيج الحوار

ويقدّم الكاتب اللبناني شادي علاء الدين عبر عنوان "التواصل الأيديولوجي بين الإسلام الداعشي والعالم المعولم" محاورة تتسم بحرارة وجدانية عالية إلى جانب الشعب السوري؛ ولذلك يرى بأن الأدوات التي استخدمها طيب تيزيني في حواره لتوصيف "اللحظة الحاسمة" لا ترتقي إلى مستوى الحدث السوري أو أنها تبتعد عن حرارة اللحظة السورية؛ لكونه يستل مفهوماته من معجم قديم لا يستقم وهذه اللحظة التي تتطلب استكناه التفكيك الذي أحدثته اللحظة السورية على ما يحيط بها. ويقيناً لم تعد ترسانة المفهومات الماركسية التي يمتحُ منها تيزيني أدواته تصلح لتحليل هذه الظواهر العارمة التي تندُّ عن خرائط العقل؛ وهذا ما يمكن ملاحظته في الأخذ برؤى ماركس في تحليل العولمة التي بدت تشييئاً للإنسان ليس إلا. مع أن تحليلاً تاريخياً -ويتسم بالواقعية- سيكون أكثر وفاءً للحظة العولمة.

يكتشف الكاتب اللبناني أن "الحرية" -هذه الكلمة التي سحرت السوريين- هي المساحة المسكوت عنها في حوار تيزيني لحساب مفهومي: الكرامة والعمل، المفهومين اللذين يتكرران في نسيج الحوار؛ فقد "كانت مفردة الحرية هي التصعيد الأقصى لغياب الحياة في سوريا الأسد".ومن هنا فحضور الكرامة والعمل مشروط بحضور الحرية وتحققها؛ فهي- وبلغة هيدغرية- السؤال الذي لا ينبغي أن يكون طيَّ النسيان؛ لكونه الأفق الذي يتيح حدوث المعنى وحدوث النهضة العزيزة على تيزيني.

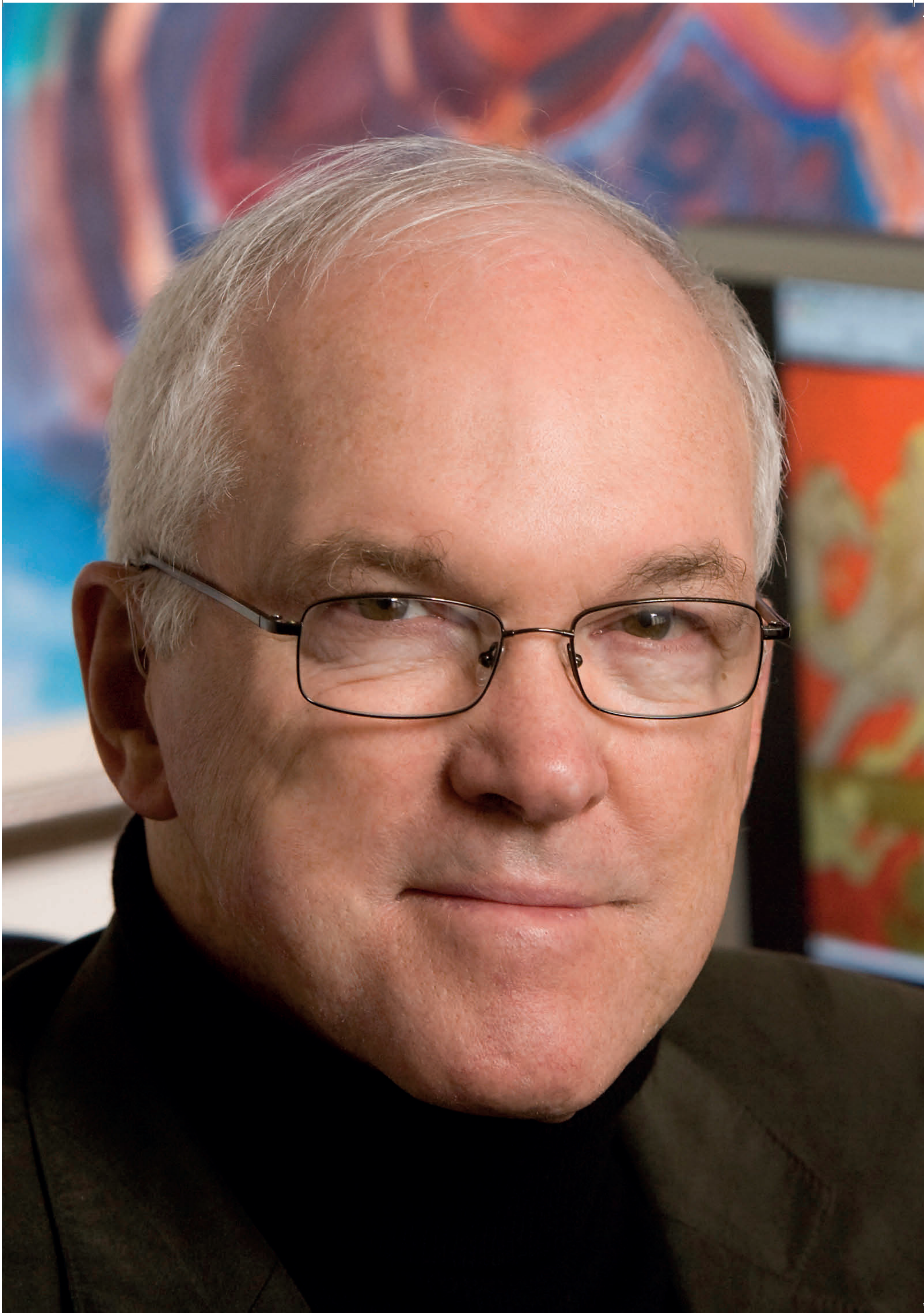
ومن الأهمية أيضاً بمكان الإشارة إلى قراءتي الكاتب الأردني زهير توفيق "في السُّؤال عن اللحظة المناسبة" والكاتب الفلسطيني عبدالرحمن بسيسو "أثورة أم نهضة أم كلاهما" (والصواب: كلتاهما معاً)، وإذا كانت القراءة الأولى لا تتجاوز عملية تفسير بعض الأفكار الواردة وتوسيعها في محفل حوار الطيب تيزيني، وهي في مجملها تفسيرات تتفق مع القراءات السابقة عليها، أقول إذا كان ذلك كذلك، فإنَّ الكاتب الفلسطيني يقدم قراءة تفصيلية وعميقة للقضايا الكثيرة الواردة في الحوار؛ ولذلك لم يكتفِ الكاتب بما ورد وإنما تمددت إحالاته النصية إلى حوارات وكتب أخرى للمفكر. والقضية التي تستأثر باهتمام القارئ في هذه القراءة تتمثل بهذا التأمُّل العميق لَدُنْ ثنائية: الثورة/النهضة التي تلخّص بل تكثّف مجمل المدوَّنة النّصية التي أنجزها تيزيني، وتكشف أدوات الاستفهام الواردة في العنوان وفي ثنايا القراءة (أ، أم، أم) عن الغموض الذي يعصف بانتقالات تيزيني بين حدي الثنائية وعدم استقراره على أيٍّ منهما، وهذا يومئ من جهة أخرى إلى أنَّ الحراكَ في البلدان العربي قد عصفَ بمشاريع فكرية كثيرة وأجبر أصحابها على إعادة النَّظر في الكثير من البديهيات والأطر والاستراتيجيات التي ينطلقون منها وبها، أو تركهم في لحظة حيرى قاسية.

تنبغي الإشارة أخيراً -وعلى الرَّغم من جدية قراءة د. طيب تيزيني للحدث السوري- أن هذا الحدث ما يزال يبحث عمن يستنطق ماهيته بمنأى عن خارجه، وبعيداً عن الأدوات المعرفية التي أستهلكت في المقاربات المعهودة، إنه الحدث الذي يتطلب المصطلح الجديد الذي يمكن به مفهمةُ هذه الرغبة الجامحة للسوريِّ أن يخرج من "مضيق الأبد" ■

عمرو وهيبة

كاتب من فلسطين


02



بروس لورانس

الأصوليون حداثيون ضد الحداثة

ذاعت شهرة المفكّر والكاتب الأميركي بروس لورانس بعد صدور كتابه "المدافعون عن الإله: الثورة الأصولية ضد عصر الحداثة" (1989)، لورانس مهتم بتاريخ الأديان في الشرق وله العديد من المؤلفات المرتبطة بالديانات الشرقية وحركات العنف المرتبطة بها لدراسة العلاقة بين العنف والنص المقدس وخصوصاً في ما يتعلق بالحالة الإسلامية والشرق العربي، بالإضافة إلى مؤلفاته التي ترتبط بالصوفية وأفكارها وانتشارها، دراسات لورانس لا تنحصر في الشرق الأوسط بل تمتد لأقصى الشرق ودراسة الظاهرة الدينية هناك والحركات الناتجة عنها، حيث تناول في مؤلفاته الهندوسية والبوذية والسيخية، في هذا الحوار مع بروس لورانس جملة من القضايا المتصلة بالنقاش حول "الربيع العربي" والتيارات الإسلامية الصاعدة وقضايا الاستشراق.

بداية بروفيسور لورانس نريد سؤالك عن "دولة الإسلام" وخصوصاً فيما يتعلق بالتسمية التي يطلقها التنظيم على نفسه "دولة" و"الإسلام"، ألا يعكس رغبة هذا التنظيم في أن يرى نفسه، على عكس التنظيمات الأصولية الأخرى، الممثل الشرعي للإسلام من خلال تأسيس دولة. خصوصاً أنه طلب البيعة من التنظيمات الأخرى، ألا تعتبر هذه قراءة جديدة للنص الإسلامي في مواجهة "الدولة الطاغية" المتمثلة بالأنظمة العربيّة؟ أم هل تراها مجرد محاولة للتحول لتنظيم سياسي، وهل تمتلك هذه "الدولة" -التي تحلم بوجودها المنظمات الأصولية الوليدة خلال القرن المنصرم- إن وجدت مقومات "الدولة المعاصرة"؟

لورانس إن طرح فكرة وجود دولة للإسلام أو تنظيم سياسي من نوع ما بوصفها فكرة متأصلة في الإسلام يعتبر طرحاً خاطئاً، إذ كان هناك العديد من أنظمة الحكم الإسلامية منذ وفاة النبي محمد حتى زمننا المعاصر هذا، فالإمبراطوريات والدولة-الأمة بجوهرها ليست دينيّة، والحكّام فقط هم من يجعلون الدين يتحول لدولة ذات عقيدة أو مذهب، وآخر المحاولات للقيام بهذا التحول تتمثل بـ"دولة الإسلام" التي تدّعي بأنها تمثل الخلافة الأصيلة بوصفها الشكل "الحقيقي" للحكم الإسلامي، إلا أن "دولة الإسلام" لا تمثل الإسلام ولا الحداثة والأمر ينطبق على سلطنة بروناي، إلا أن الأخيرة تمتلك فرصة أكبر بأن تكون دولة لأنها تعبّر عن قوتها سلمياً سواء في جنوب شرق آسيا أو أمام قاطنيها وسكان العالم المتحضر.

الإسلام والحداثة

لطالما كان هاجس الباحثين العرب إلى جانب بعض الباحثين الغربيين إيجاد جذور للحداثة في الدين الإسلامي أو إيجاد توليفة لجمعهما معاً (إسلام- حداثة)، لمَ برأيك الإسلام مطالب بأن يكون حداثياً أو متلائماً مع الحداثة وأن يكون نظاماً وممارسةً سياسية واقتصادية لا مجرد ممارسة روحيّة، أوليس ظهور "دولة الإسلام" في حد ذاته إثباتا بأن الإسلام لا يمكن أن يكون حداثياً كنظام حكم؟

لورانس: الحداثة مبالغ بأهميتها بوصفها معيارا للجودة والسلطة الزمنيّة، الإمام الغزالي توفي في القرن الثاني عشر إلا أنه دافع عن آرائه بوصفها حداثية (معاصرة)، الحداثة هي مجرد كلمة أخرى للمعاصرة، كما أنه لا يوجد احتكار للمعاصرة حتى في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين.

السؤال هو ليس هل باستطاعة الإسلام أن يكون معاصراً أم لا، لكن هل بإمكان العالم المعاصر أن يمتد وأن يكون ذا أشكال متعددة سياسياً واجتماعياً وثقافياً بل وحتى دينياً.

مفهوم الغرب

: من المعروف أن التنظيمات الإسلامية الأصوليّة كالقاعدة ودولة الإسلام، تتلقى دعماً من الغرب، والآن خرجت عن نطاق سيطرة الغرب ذاته، ألا يمكن لنا أن نعتبر ذلك بأنه الجانب المظلم للرؤية الاستشراقية عن الإسلام التي ارتدّت ضد الغرب الذي لعب دوراً هاماً في خلق فكرة الإسلاموفوبيا؟

لورانس ما يسمّى بـ(الغرب) لا يعني الغرب كله، بل هو فقط شمال أوروبا وأميركا، بالإضافة لليابان (جغرافياً هي في الشرق إلا أنها تعبر جزءاً من الفكر الغربي)، كما يعني أن تكون رأسمالياً وديمقراطياً، علماً أن الكثير من الأنظمة الغربية محكومة من قبل الأغنياء لا بشكل يتساوى فيه الجميع ويضمن تشكّل وتوسع وتوزيع رأس المال عبر كل قطاعات المجتمع، وهذه البلدان أحياناً أقل ديمقراطية من تلك

التي تدّعي ذلك نظرياً.

الإسلام لا يحتكر الأصوليّة، فاليهود والمسيحيون والهندوس والبوذيون لديهم طرق أصوليّة في التفكير والتصرف والتنظيم والسيطرة، إلا أن الانقسام الرأسمالي-الشيوعي المسمّى بالحرب الباردة أدّى إلى التدخل الأميركي/الأوروبي في أفغانستان، ما أدى إلى إيجاد تنظيم القاعدة ودولة الإسلام ليست إلا استمراراً لهذا النهج، أما الإسلاموفوبيا فليست إلا امتدادا لأنظمة الحكم عبر البحار والتي تعرّف المسلمين بوصفهم (الآخرون، القاطنون هناك، الغرباء/الأجانب) بالإضافة إلى كونهم الأعداء حين يتواجدون على الأراضي الغربيّة.

الأصولي والحداثة

الجديد: لطالما كان هناك خلاف بين الحداثة وبين النصوص المقدسة التي لا يمكن تجاوزها، مع ذلك نرى الأصوليين يستخدمون منتجات الحداثة كالتكنولوجيا وأساليب التنظيم الحديثة وتكنيكاتها، من وجهة النظر هذه هل بإمكاننا اعتبار الأصولية باقية بوصفها جزءا من حركة التاريخ، أم هل نحن بحاجة لمؤسسات تفكك النصوص والأفكار الأصولية؟ أم ببساطة علينا أن نهجر الدين ومفهومه؟

لورانس لقد كتبت كثيراً في هذا الموضوع، بإمكاننا أن نكون ضد الحداثة لكن لا يمكننا أن نهرب من التحديث. الأصوليون هم ضد الحداثة، إلا أنهم حداثيون (محدّثون) بشكل كبير، إذ لا يمكنهم النجاح دون الهواتف والطائرات والرسائل القصيرة والقنابل، كما أن هذا لا يعني الاستغناء عن الدين كي نكون حداثيين، إن أكبر خطأ لمنظّري العلمانية هو ظنهم أنه كلما ازداد استخدامنا لمنتجات الحداثة التكنولوجيّة كلما أصبحنا أكثر حداثة على الصعيدين النفسي والديني، وهذا ما لم يحدث.

الإسلام ديمقراطي

الجديد: أنتج الربيع العربي العديد من الأفكار، لكن ما نراه مسيطراً هو الخيارات الإسلامية وفق قراءات مختلفة، هل تظن أن الإسلام يمكن أن يكون ثورياً بالرغم من أنه يحوي نصوصاً "لا يمكن نقاشها"، وبما أن الثورات العربية لم تستطع حتى الآن التأسيس لدولة معاصرة أو تحقيق القطيعة مع الماضي، هل هناك من أمل بقيام دولة ديمقراطية في المنطقة العربية أم أنها محكومة بالصراع؟

لورانس أظن أنه مازال مبكراً القول بأن الربيع العربي قد انتهى، أو أن الحركات العربية للتغير قد فشلت، أما الإسلام فأظن أنه ديمقراطي وقائم

> **الإسلاموفوبيا ليست إلا امتدادا لأنظمة الحكم عبر البحار والتي تعرّف المسلمين بوصفهم (الآخرون، القاطنون هناك، الغرباء/الأجانب) بالإضافة إلى كونهم الأعداء حين يتواجدون على الأراضي الغربيّة**

على المشاركة كأيّ دين، أما التحدي الأكبر للدول المسلمة هو إيجاد طريقة لخلق فرص عمل ودعم للأجيال التي تخرجت حديثاً من الجامعات، حتى في بلدان الذهب الأسود، فالسعودية كمثال لكي تحقق التحرك نحو الديمقراطية بسرعة عليها أن تخرّج عدداً كافيا من الأفراد المحترفين ذوي المهارات، وأن تخلق فرص عملٍ لهؤلاء الأشخاص للوصول إلى دولة ذات صيغة تشاركية وديمقراطية قابلة للاستمرار والنمو.

الأمل الصوفي

الجديد: تعتبر الصوفية رؤية متفردة للعالم وتعود جذورها إلى النص (القرآن) الذي تعود له الرؤية الأصوليّة، إلا أن الصوفيّة فشلت في التأسيس لنظام حاكم، لأنها لم تُتبنى من قبل السلطة الحاكمة، ألا تقوّض هذه الحجة مفهوم الدولة الدينية من ضمنها فكرة الدولة الأصولية الإسلامية، جاعلة إياها لا تنتمي للنص بل تجعلها جزءًا من الاستراتيجية السياسية؟ وألا يمكن اعتبار غياب نظام سياسي كامل للحكم في النص الإسلامي داعماً لهذه الحجة؟

لورانس حقيقةً، الصوفية لم تسع لأن تكون جزءًا من نظام حاكم، معظم أبطال الصوفيّة ومشايخها كانوا خارج الحكم أو معارضين له، لكن ما قامت به الصوفية وما زالت تقوم به هو الانخراط في (الجوانيات) ودواخل النفس وعوالم الروح، وجعلها مصدرا للأمل والشجاعة للعديد من المسلمين ومعظم هذا التفكير يقع خارج بنية القوة. أما الجهاد الذي أقصده وأشير إليه في الجواب الأخير فله حضور قوي وراسخ في تاريخ الصوفيّة.

النص الصامت

الجديد: العنف موجود في نصوص الديانات الإبراهيمية كلها (الإسلام، المسيحية، اليهودية)، وهذا ما جعل الحركات الأصولية تظهر في كل أنحاء العالم لا المنطقة العربيّة فحسب، السؤال (من وجهة نظر شرقيّة)، لمَ يقوم الغرب (أميركا أولاً) بدعم هذه الحركات التي ينتهي بها الأمر بمهاجمته؟ وألا يمكننا القول بأن الحركات الأصوليّة المضادة للحداثة هي نتاج الغرب والأنظمة العربية الديكتاتوريّة؟ أم أن اللوم يقع على النصوص الدينيّة؟

لورانس كل النصوص صامتة، البشر هم من يؤولونها ويكسبونها المعنى في كل منطقة وكل جيل وكل لحظة اتخاذ قرار. التوراة ليست محافظة والإنجيل ليس تقليداً والقرآن ليس متجانساً، كل

كتاب مقدس له مصادر قوة قادرة على التغير، إلا أن القرّاء والمؤوّلين والمفسرين الجدد لهذا النص هم من يجعلون هذا النوع من التغيير ممكناً ومستداماً.

الأسباب الحقيقية

الجديد: الديكتاتوريات العربية حالياً مازالت تواجه الربيع العربي، الذي يسميه البعض الربيع الإسلامي، هل تظن أنه بعد انهيار الديكتاتوريات العربية ستنتصر الرؤية الإسلامية؟ ولمَ أنتجت الثورات العربية حقيقة موضوعية بأن الدين الإسلامي هو الحل الوحيد، لا دولة الديمقراطية والمساواة، علما أنّنا نعيش في عالم ما بعد حداثي تسمح فيه وسائل الاتصال بانتقال كافة أنواع المعلومات بين الجميع؟ وما رأيك باستخدام وسائل الاتصال الحديثة لنشر الفكر الجهادي في الغرب، أليست هذه ضريبة ما بعد الحداثة نفسها؟

لورانس هذا السؤال يحيل للسؤال الخامس، إذ لا يوجد ما هو رجعي أو إرهابي ضمن النص القرآني، وأظن أن العقلية الجهادية هي نتيجة للحوادث المؤسفة ضمن التاريخ، وأغلبها تعود لمرحلة ما بعد سقوط جدار برلين خلال الخمس وعشرين عاماً السابقة، فلولا اجتياح صدام حسين للكويت وحرب الخليج الأولى ثم الحصار الطويل الذي فرض على العراق وأحداث الحادي عشر من سبتمبر والسابع من تموز في لندن والحربان على أفغانستان والعراق، لما كان الفكر الجهادي قد انتشر أو ظهر الخطر الذي تمثله دولة الإسلام.

التوليفة الداعشية

الجديد: هل من الممكن أن نشهد انتشار واسعا للجهاديين في الغرب نظراً لأن هدف "دولة الإسلام_داعش" هو نشر الرعب في العالم الغربي؟ وما هو المكون السحري في دولة الإسلام الذي يدفع الشبان والشابات من الغرب للانضمام إلى صفوفها؟ لأني شخصياً لا أظن أن الأمر مرتبط برخصة القتل المجانية التي تعطيها دولة الإسلام لمقاتليها أو توافر النساء.

لورانس التوليفة السحرية التي تمتلكها دولة الإسلام لتجنيد المقاتلين ترتبط باستخدامها الدرامي للصورة والمواقع المختلفة وشبكات التواصل لتعكس صورة تدفع الآخر للتعاطف معها ومع بنيتها اليوتوبية، إلى جانب مواردها وأهدافها، فالكثير من الشبان الذين لا يعيشون في وهم الماديات ولا يأسرهم المجد ونمط الحياة الذي يقدمه الغرب، وهذا ما يجعل الجمهور يستجيب لـ"سحر" دولة الإسلام.

إعادة نظر

الجديد: هل بإمكاننا أن نشهد أسلوباً جديدا للتعامل مع قضايا الشرق الأوسط إن قمنا بنشر وعي جديد وأسلوب جديد في التفكير مختلف عن ذلك المرتبط بجغرافيا العالم القديم -الجغرافيا المذكورة في الكتب المقدسة التي لا تسمح بقراءة محايدة- وخصوصاً في ظل التعقيدات التي أنتجها الصراع الحالي في المنطقة؟

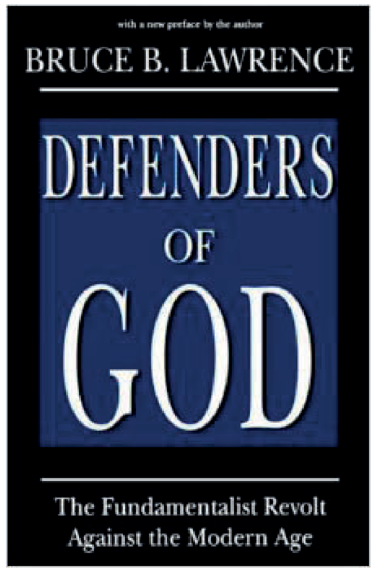
لورانس هناك العديد من الأشخاص في العالم العربي يستحقون التقدير والاتباع ومعظمهم ليسوا سياسيين وأغلبهم ليسوا حكاماً. ودعني أقول إن آلية التفكير الجديدة في الشرق الأوسط تستدعي إعادة النظر في قضايا مختلفة، كالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، كذلك ما يحصل في ليبيا وسوريا والعراق مع الأخذ بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه الأطراف الخارجية. ولا يبدو الآن أن هناك رغبة سياسية لدى أوروبا الغربية أو أميركا الشمالية إلى جانب روسيا والصين لإعادة تقييم أدوارهم المتعددة والمتصارعة في المنطقة، أما النصوص المقدسة فدورها ضئيل فيما يخص المستقبل واللاعبين السياسيين الذين لا ينتمون لأيّ مقدس والمصالح الاقتصادية القائمة على الاستغلال والفقر.

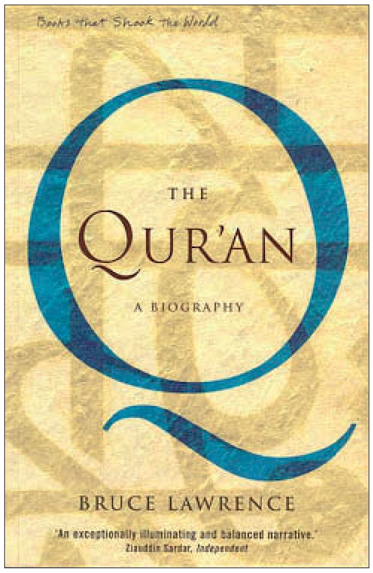
قنبلة غربية

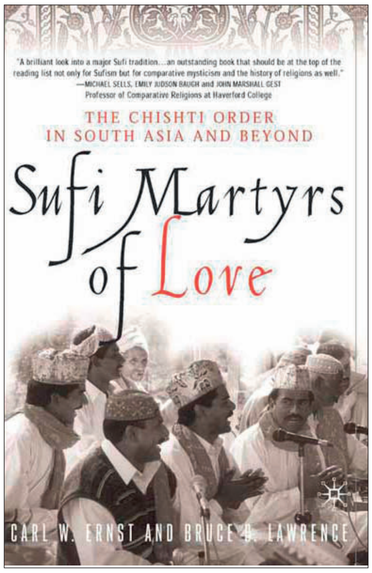
الجديد: من جهة النظر السابقة هل بإمكاننا القول أن العنف المرتبط بالإسلام تم تعزيزه بسبب الآراء الاستشراقية، أوليست وسائل الإعلام جزءًا من صناعة هذه الصورة - صورة الجهادي المسلم العنيف- التي يتم تبنيها من قبل الإسلاميين أنفسهم، أوليست نوعاً من "خطاب القوة" الذي يُفرض على المسلمين، جاعلاً المسلم العادي في حياته اليومية ضحية لأولئك الذين يستخدمون الإسلام لتغطية أعمالهم الإرهابية؟

> الأصوليون هم ضد الحداثة، إلا أنهم حداثيون (محدَّثون) بشكل كبير، إذ لا يمكنهم النجاح دون الهواتف والطائرات والرسائل القصيرة والقنابل، كما أن هذا لا يعني الاستغناء عن الدين كي نكون حداثيين

لورانس لا، فمرة علّق الماليزي فاريش نور وقال إن القنبلة الأصولية هي اختراع غربي، وهو محق في جزء من كلامه، فبعد عام 1989 شهد العالم ما قام به الغرب الذي استبدل الخطر الأحمر (الشيوعيّة) بالخطر الأخضر (الإسلام)، وهذه المعادلة خاطئة في جوهرها، لأن أغلب المسلمين يتقاسمون مع الغرب القيم الإنسانية ذاتها: الوفاء للعائلة، احترام الأفراد، الأمل ببشرية أفضل.
أما سبب ذلك فلا يقع على وسائل







الإعلام فحسب فهناك لوم يقع على المصالح السياسية والاقتصادية والمؤسساتية التي رسمت صورة عن الإسلام والمسلمين بوصفهما مصنعاً للمتعصبين وأرضاً خصبةً للإرهابيين. أما الإسلام الحقيقي فهو كما كان وكما سيبقى دعوة للسلام، لا بالاسم فقط بل أيضاً بالممارسة.

ما بعد الاستشراق

الجديد: هناك ما يسمى بـ"الرؤية الاستشراقية للعالم العربي" والتي أنتجت دراسات تخص البلاد الإسلامية، هذه الدراسات تستند معظمها إلى النصوص الخيالية والمقدسة وأدبيات الجماعات الأصولية، هل بإمكاننا الاعتماد على نتائج هذه الدراسات؟ وخصوصاً أنها لا تمثل الحقيقة بل ما يتم فرضه على العرب والمسلمين من قبل المؤسسات الغربية ليكون الحقيقة؟

لورانس: الدراسات دائماً ناقصة، لكنّي أظن أن هناك البعض ممن يمتلكون نظرة ثاقبة، كالمرحوم ألبيرت حوراني ومكسيم رودينسون ومارشال هودغسون وجانيت أبو لغد التي أسست لطرق جديدة ومنتجة لدراسة العالم العربي والإسلامي، ببساطة هم لم يكونوا صدى لغيرهم أو خضعوا لتأثير صناع القرار والسياسة.

الجديد: إن جهود مفكرين كإدوارد سعيد أضاءت حقيقة الصورة الاستشراقية للعالم الغربي كجزء من دراساته للعالم ما بعد الاستعماري، هل تظن بأن آراءه مازالت في هذه اللحظة فعّالة، بعد أن شهدنا رؤية جديدة لـ"إسلام" و"الدولة" لا مجرد تنظيمات منتشرة في العالم العربي؟

لورانس: إدوارد سعيد كان شخصاً ذا بصيرة، بالإضافة إلى كونه إنساناً لطيفاً، لكنني أظن أننا نعيش في عالم ما بعد استشراقي سواء كان ذلك بالنسبة إلى العرب أو غير العرب، المسلمين وغير المسلمين وخصوصاً ضمن أفكار الجيل الشاب، الذي أرى فيه الأمل لتجاوز الجمود واليأس السياسي الذي يحكم العالم بشكل عام وخصوصاً بالنسبة إلى العالم العربي والإسلامي.

المقاتل الجهادي

الجديد: هل من المعقول أن البعض يصدق الصورة الرومانسية للجهادي التي تنتشر عبر الشاشات؟ أي بالرغم من التطور التكنولوجي الذي وصلنا إليه والأفكار الثورية، هل من المعقول أن هذه الصورة مغرية للبعض سواء من الشرق أو الغرب؟ وهل يصدقها بعض المثقفين والمتنورين؟

لورانس: المقاتل الجهادي لن يختفي ما لم تتحقق العدالة والمساواة والأمل والنجاة لمزيد من الناس، ولتجاوز اللاتماثل والاختلاف الذي يحويه النظام العالمي الآن لا بد من وجود أشخاص ذوي بصيرة يقدّمون للناس بصدر رحب رؤية واضحة فيما يخص الخيارات والأفكار التي يشاركونها مع البشرية.

الجهاديون ليسوا أصحاب رؤية مستقبلية إلا أن غياب الأصوات الأخرى جعلت ما يقومون به يعطي الأمل لأولئك الذين فقدوه ولا يكفي فقط أن نعارضهم، بل على المرء أن يعمل ويكدح من أجل عالم تسود فيه المساواة والعدالة، ليكون الجهاد الحقيقي ضد الفقر والجهل والفساد والطغيان ■

أجرى الحوار من باريس: عمار المأمون

شادي أبوسعدة



سمات النص السيرذاتي في "أثقل من رضوى"

نهلة راحيل

هناك احتمال آخر لتتويج مسعانا بغير الهزيمة، ما دمنا قررنا أننا لن نموت قبل أن نحاول أن نحيا".

بهذه المقولة تُنهي رضوى عاشور فصل الختام بسيرتها الذاتية "أثقل من رضوى"؛ والذي اختارت أن تنهيه بشكل دائري فتعود بالأحداث إلى نقطة البدء، فمشهد الاستهلال المليء بالألم الذي يفتتح آفاق السيرة في بيت العائلة بعد وفاة "طارق" الأخ الأكبر لرضوى عاشور وبعده بخمسة أسابيع رحيل الأم، ينغلق في مشهد أخير مفعم بالأمل في بيت العائلة أيضا حيث يجتمع الأولاد والأحفاد وأبناء الأحفاد وغيرهم من الأهل والأصدقاء. هذه البنية الدائرية -على العكس من البنية الخطية- قد تسعى إلى طرح رؤية مليئة بالأمل والإصرار على تحقيقه وإحيائه، أو قد تسعى إلى طرح دلالات مغايرة مثل الهروب من وطأة الواقع الفعلي، وهو الاستنتاج الذي رغبت الكاتبة في أن تدفعه بعيدا عن ذهن قارئها تاركة له المجال ليستشعر بنفسه سبب هذه العودة إلى طبيعة الحدث الأول.

لا تأتي هذه السيرة على النمط التقليدي للأعمال الكلاسيكية المنتمية إلى النوع السيرذاتي؛ فلم ترتبط بالميلاد البيولوجي لرضوى/البطلة كما هو شائع لدى كثيرين من الكُتّاب، إنما اختارت رضوى عاشور أن تبدأ سيرتها بلحظة التسمية، وهي اللحظة التي اختار فيها الجد اسمي حفيديه (طارق ورضوى)، لتنتقل منها مباشرة إلى سرد تجربتها في مواجهة المرض متزامنة مع اندلاع ثورة مصر 2011، فتحكي عن نفسها وأسرتها، وعن الشهداء والمصابين، دامجة الذاتي مع الجماعي في صورة متداخلة يتضافر فيها العام بالخاص. وبهذا جاءت بداية السيرة بداية رمزية ارتبطت بالميلاد النفسي للذات، أي بلحظة حاسمة في حياة رضوى/البطلة وهي رحيل أخيها في السادس من سبتمبر 2010، ثم اندلاع ثورة يناير التي طالما تمنتها وهي تجري عملية جراحية لإزالة التورّم المزعج من الدماغ.

من هذا المنطلق لم تلتزم رضوى عاشور في سيرتها الذاتية بالترتيب الكرونولوجي للزمن الذي تنطلق فيه الأحداث من البداية صعودا تجاه النهاية؛ إذ جاءت الأحداث مرتبة وفق ضرورات العملية السردية، فلم تحاول الكاتبة تتبع مجريات الأحداث وفق التسلسل الزمني الطبيعي/الخطي، إنما لجأت لتقنيات مثل الاستباق والاسترجاع لجعل السيرة أكثر فنية ولتخليصها من الطابع الخبري، ولعل هذا جاء نتيجة اعتماد كاتبتها على الذاكرة في تدوين مادتها الأدبية وتنظيمها في نص سيري متماسك.

كما أنها لم تكتفِ باسترجاع مراحل العمر بشكل متسلسل أو مختلط زمنيًا، وهو ما يميّز الكتابة السيرذاتية عمومًا، بل أيضًا كتبت يوميات غير متصلة، أي دوّنت تفاصيل الأحداث ونقلت مشاعرها تجاهها بشكل يومي مباشر، لتجمع بذلك بين المواكبة الآنية واستدعاء الماضي، وتحقق المراوغة بين الزمنين الحاضر والماضي في سلاسة ووعي.

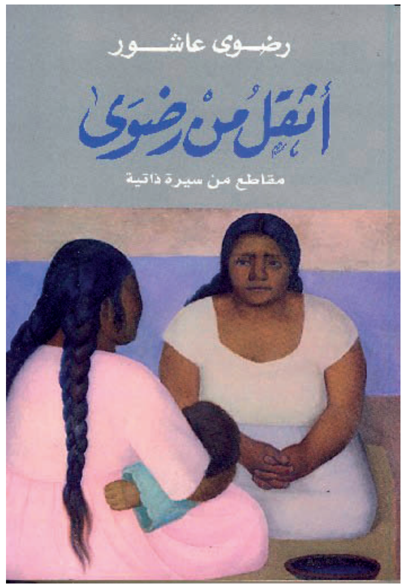
"أثقل من رضوى" هي سيرة رضوى عاشور الذاتية نُشرت عام 2013، تحكي فيها الكاتبة عن تجربتها مع المرحلة الأولى من المرض والعلاج طوال السنوات الثلاث الأخيرة، وتربطها بسنوات سابقة، وتوثّق بإبداع ما كان يقع في مصر من أحداث بين عامي 2010 و2013. وقد صدر بعد وفاة الكاتبة الجزء الثاني من كتابها "أثقل من رضوى" تحت عنوان "الصرخة" في عام 2015، وفيه تُكمل رضوى عاشور رواية تجربتها مع عودة المرض وما جرى في مصر، وقد توقفت عن الكتابة في سبتمبر 2014، ووافتها المنية في الأول من ديسمبر من العام ذاته.

من المعروف أن السمة الأساسية التي تفرق السيرة الذاتية عن الرواية -بالنسبة إلى فيليب لوجون- تكمن في الميثاق أو العقد المبرم بين كاتب السيرة الذاتية والقارئ، هذا الميثاق الذي يبدأ من نسبة العمل إلى كاتبه في عنوان السيرة الذاتية، ويتضح بعد ذلك تدريجيًّا عبر صفحات الكتاب. وبالتالي فإن العناصر الذاتية في العمل تملك، من خلال الاسم الحقيقي لكاتب السيرة الذاتية، مرجعيَّةً يمكن التحقق منها في الواقع، ومن خلال ضمير المتكلم الذي يميّز السرد في السيرة الذاتية يتحقق التطابق بشكل واضح بين الكاتب والسارد والبطل.[1]

ومن الممكن تحديد السمات التي تميز السيرة الذاتية عن بقية الأنواع الأدبية، عن طريق دراسة سيرة رضوى عاشور الذاتية في محورين متبعين في ذلك ما اتبعه فيليب لوجون في دراسته للسيرة الذاتية:

(1) العناصر المنتمية لداخل النص السيرذاتي، وتتضمن:

(2) العناصر المنتمية لخارج النص، وتتضمن:



- التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية المركزية
- الميثاق السيرذاتي
- العناصر المحيطة بالنص التي تشكل بحسب رأي جينيت «العتبات التي تسيّج النص وتسقيه وتحميه وتدافع عنه وتميزه عن غيره وتعيّن موقعه في جنسه وتحث القارئ على اقتنائه» [2]، وتشمل العناوين الأساسية والفرعية والداخلية، واسم المؤلف، والغلاف، ودار النشر، والإهداء، وفاتحة الكتاب، والمقدمة، وغيرها.
- العناصر التي لا تأتي مصاحبة للنص بشكل مباشر، بل تأتي معزولة عنه وتنتمي إلى النص الملحق، وتشمل كتابات الكاتب الأخرى التي تتفق مع ما جاء في سيرته الذاتية، أو ما كتب عنه والتي يمكن أن تلتقي مع ما جاء في السيرة. [3].

ومن الممكن التعبير عن هذين المحورين عن طريق الرسم التوضيحي التالي:

العناصر المنتمية لداخل النص
العناصر المنتمية لخارج النص
التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسة
الميثاق السيرذاتي
العناصر المحيطة بالنص
النص الملحق
النص السيرذاتي

أولاً: العناصر المنتمية لداخل النص:

(1) التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسة:

لكي تكون هناك سيرة ذاتية يجب أن تتطابق ثلاثة أنواع من «الأنا» تندرج في المتن السيرذاتي:

- أنا المؤلف الحقيقي: هو الكاتب المُعلن عنه صراحة.
- أنا السارد: هو الذي يروي الأحداث في الحاضر.
- أنا الشخصية الرئيسية «البطل»: الذي سوف يتحدد نسبةً إلى الأفعال والوصف داخل العمل نفسه.

ويتضح هذا التطابق «بين المؤلف والسارد والبطل» في سيرة رضوى عاشور الذاتية؛ حيث نجد أن كاتب العمل هو الأديبة رضوى عاشور المعلن عنها صراحة على الغلاف الخارجي للسيرة، وقد جاء اسم الكاتبة وسط أعلى صفحة الغلاف، وربما كان الهدف من ذلك هو التأكيد أن الذات المتحدثة في هذا الكتاب هي البؤرة التي تتمركز حولها كل العناصر الأخرى في السيرة.

كما أن راوي الأحداث هو رضوى عاشور البالغة من العمر الرابعة والستين التي تروي بضمير المتكلم. عن بطلة السيرة رضوى عاشور المرأة «صغيرة الحجم نسبيًّا، ترتدي ملابس بسيطة.. شعرها صبياني قصير وإن كان أبيضه يغلب أسوده، يكاد يغيبه». [4].

وينظر د. يحيى إبراهيم عبدالدايم إلى المسألة نظرة مشابهة عندما يعلن أن التطابق بين اسمي الراوي/البطل والمؤلف دالٌّ أساسيٌّ على أن العمل سيرة ذاتية.[5] وقد أعلنت المؤلفة منذ المدخل عن الاسم بوصفه علامة سيميائية فارقة، حين قالت «فلما جاءت البنت بعد سنتين وتسعة أشهر، اختار لها اسم جبل آخر، لا يقع في الطرف الغربي من المتوسط، مشرفًا على المضيق الذي يربط المغرب الأقصى بشبه الجزيرة الأيبيرية، بل يقع بالقرب من المدينة المنوَّرة، يضربُ به العرب المثل في الرسوخ فنقول أثقلُ من رضوى». [6]، فكأن الاسم سمة من سمات الشخصية أسهم في تشكيلها منذ اللحظات الأولى للسرد، وحدد ما يُسند إليها من صفات وسمات.

وتأتي أهمية استخدام ضمير المتكلم في أنه «يحيل على الذات مباشرة، ويجعل الحكاية المسرودة مندمجة في روح المؤلف، كما أنه يقرّب القارئ من العمل السردي ويجعله أكثر التصاقًا به، ويستطيع التوغل في أعماق النفس البشرية، فيعرّيها بصدق، ويكشف عن نواياها بحق، ويقدّمها للقارئ كما هي لا كما يجب أن تكون» [7]، وبالتالي فإن استخدامه قد سمح للكاتبة بأن تصور انفعالاتها وتنقل انطباعاتها تجاه أحداث العالم الخارجي بمباشرة وحميمية.

ففي سيرة رضوى عاشور، تسرد المؤلفة الأحداث بضمير المتكلم؛ لتتحدث بشفافية ومباشرة عمّا وقع لها في سنوات سابقة، ولكنها تستخدم أحيانًا ضمير المخاطب وهي تتوجه إلى القارئ/القارئة بالحديث عمّا عاشته من آلام وآمال، وكأنها ترغب في أن تشركه معها فيما جرى لها، مما يثير دائما انتباه القارئ وشوقه لقراءة المزيد، فتستخدم مفردات مثل «عزيزي القارئ وعزيزتي القارئة»، «سيدتي القارئة»، «اسمح لي أيها القارئ»، «يا سيدي القارئ»، «يا قرائي الكرام»، وغيرها.

وهكذا نجد أن ضمير المتكلم هو الضمير الذي يميز صيغة السرد الذاتي بالعمل، وهو ضمير له قدرة على التذكر والاسترجاع والتحليل والاستبطان الذاتي للشخصية المحورية؛ فمن خلاله تسرد الشخصية المحورية الساردة -«رضوى عاشور» في سيرتها «أثقل من رضوى»- وهي واقعة في زمن حاضر، الذي هو زمن السرد، ما مرّ بها من مواقف وأحداث وشخصيات في زمن مضى، هو زمن القصة، مما جعل الرواية تتجلى في شكل سيرة ذاتية.

إلا أن التطابق المفترض حصوله بصورة مباشرة في السرد بضمير المتكلم لا يخلو من التعقيد؛ إذ ليس هناك تطابق تام بين السارد والشخصية الرئيسة «البطل» في النص السيرذاتي؛ حيث يرى جيرار جينيت أن هناك «في كل حكي لشكل سيرذاتي مسافة فاصلة بين «أنا الساردة» و«أنا المسرودة» أي أن التطابق التام بين السارد والبطل أمر غير وارد حتى في النص السيرذاتي، فالسارد حتمًا يعلم أكثر مما يعلمه البطل «الشخصية الرئيسة»». [8]

(1) **الميثاق السيرذاتي**:

إن الميثاق السيرذاتي، كما يرى فيليب

لوجون، هو عقد يقيمه الكاتب مع القارئ، يقوم على أن السيرة الذاتية هي "نثر استعادي يحكي فيه شخص حقيقي عن حياته الفعلية بصورة تستهدف إبراز حياته الفردية وتاريخ شخصيته الفعلية بشكل خاص" [9]، ومن مضمرات هذا الاتفاق أو التعاقد السيرذاتي أن الكاتب سيحكي للقارئ ما حدث في الواقع دون إدخال أيّ عنصر من عناصر الإيهام والتخيل في العملية السردية، وأن على القارئ أن يصدّق كل ما يرويه له الكاتب. [10].

ونجد هناك نوعًا من المواثيق يمكن أن يلجأ إليه كاتب السيرة الذاتية، هو الميثاق المرجعي. وهذا النوع خاص بفنون القول الذي يتوخى الكاتب فيها الدقة العلمية والحقيقة التاريخية التي يمكن التحقق من صحتها بالرجوع إلى المصادر الأخرى أو تلك التي يحيل عليها الكاتب في النص؛ إذ يعمل هذا الميثاق على تحديد حقل الواقع المراد تصويره كما يحدد كيفية ودرجة التشابه الذي يزعمه النص بالواقع. وتدخل السيرة الذاتية في النصوص المرجعية كونها تشترك مع الخطاب العلمي أو التاريخي في أنها تخبر عن واقع خارج النص ويمكن التحقق من صحته، وبهذا يكون لدينا نوعان من الميثاق (مرجعي، وسيرذاتي) ليس من السهل التمييز بينهما لشدة ارتباطهما معًا. [11].

والقارئ لسيرة رضوى عاشور الذاتية يجد نفسه أمام نوعين من الميثاق:

الأول/ الميثاق السيرذاتي، ويظهر بوضوح في التطابق الاسمي بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسة في الكتاب؛ إذ أُعلِن عن اسم المؤلف بوضوح على غلاف الكتاب، كما صُرِح باسم البطل فيها أكثر من مرة.

فتعلن الرّاوية عن اسم بطلتها تدريجيًّا (بعد إعلانه صراحةً في المدخل) كلما توغلنا في قراءة فصول السيرة الذاتية، فنجدها تُحدّث نفسها بضمير الغائب قائلة "رضوى بالتكوين والوراثة، فيها هشاشة، قلقة، تُثقلها المخاوف ووطأة مجريات الحياة. مُصابة على ما أظن، باكتئاب بنوعٍ ما، اكتئاب مُزمن".[12].

كما يتضح اسم البطلة/رضوى كذلك في الإهداء الذي يوقّعه تلميذها شعبان مكاوي على الكتاب الذي يهديه لأستاذته فور صدوره "إهداء المترجم. إلى الدكتورة رضوى عاشور". [13]

أما الثاني/فهو الميثاق المرجعي الذي يظهر عندما تحيل رضوى عاشور في سردها للأحداث إلى واقع خارج النص يتمثل في إشارة الكاتبة إلى حوادث تاريخية بعينها تُخبر عن واقع تاريخي أو حقيقة تاريخية يمكن التحقق من صحتها بالرجوع إلى المصادر الأخرى، ممّا يدل على حرص الكاتبة على إعطاء سيرتها صفة المصداقية، والتزامها بالعقد المبرم بينها وبين القارئ.

ومن ذلك، توقّفها عند أحداث تاريخية معينة تخضعها لقوانين صارمة من التوثيق والاستشهاد بالأشخاص الواقعيين والشواهد التاريخية والمعارف الإنسانية، مثل ربطها الواعي بين لوحة الجرنيكا التي أبدعها بيكاسو إبان قصف الطائرات الألمانية لقرية الجرنيكا بإقليم الباسك خلال الحرب الأهلية الأسبانية، وأحداث محمد محمود الأولى والثانية، بوصفهما يمثلان حدثين كارثيين- على حد وصفها- عانى فيهما الناس أهوال القتل والتعذيب "أريد أن أحكي عن اللوحة، أن أصفها لقرائي، أن أدعوهم للبحث عنها على مواقع الشبكة الإلكترونية ومشاهدة صورها، وتأملها والنظر في تفاصيلها". [14]

> **ففي سيرة رضوى عاشور، تسرد المؤلفة الأحداث بضمير المتكلم؛ لتتحدث بشفافية ومباشرة عمّا وقع لها في سنوات سابقة، ولكنها تستخدم أحيانًا ضمير المخاطب وهي تتوجه إلى القارئ/القارئة بالحديث عمّا عاشته من آلام وآمال**

وفي النهاية نتفق مع الرأي الذي يرى أنه يجب أن نتعامل مع مفهومي الميثاق السيرذاتي والتطابق بشكل من المرونة، فيكفي أن يقرّ الكاتب بشكل من الأشكال أنه يروي قصة حياته، ويكفي أن نفهم أن السارد المتحدث هو الشخصية المحورية وهما معًا الكاتب الذي يضع كتابه بين قرائه؛ ليروي لهم سيرته الذاتية. ويمكن الاكتفاء بمبدأين أساسيين للتسليم بمشروعية الجنس، وهما مبدأ التطابق بين أعوان السرد الثلاثة: المؤلف=السارد=الشخصية، والميثاق السيرذاتي، حتى وإن كانا ضمنيين. [15].

ثانيًا/العناصر المنتمية لخارج النص:

(1) العناصر المحيطة بالنص:

وتشمل عناصر مثل العنوان واسم المؤلف ودار النشر والمقدمة والإهداء والأحاديث الصحفية التي تتمّ وقت النشر ودلالة الصورة على الغلاف أو الصور الداخلية للعمل.

- **العنوان:**

إن أول ما تقع عليه عين القارئ عند دخوله عالم الرواية هو العنوان؛ فالعنوان يحمل دلالات قد تتعدد أو تتمحور أو تتضح أو تستغلق على القارئ، وبالتالي فإنه البنية الأساسية أو العتبة الأولى التي يدخل منها إلى العمل، كما أن العنوان يقوم بدور المحفز للقارئ كي يبحث عن المعنى المستتر وراء العنوان. [16].

ويشكل العنوان عنصرًا أساسيًا في النص ولا سيما النص النثري، فهو المفتاح الإجرائي الذي يمكّن من خلاله الولوج إلى عالم النص وكشف أسراره. ومن الممكن تقسيم العنوان إلى ثلاثة أقسام هي: العنوان الرئيسي، العنوان الفرعي، العنوان الداخلي. [17].

وقد اختارت رضوى عاشور لسيرتها عنوانًا موحيًا، وهو "أثقل من رضوى"، وقد يكون (الثِّقَل) دالاّ على معنى (الرسوخ) -كما أعلنت الكاتبة في مدخل سيرتها- فيعبر عن شخصية الكاتبة وصمودها أمام ما عايشته من هموم وآلام، وقد يكون بمعنى (الحِمل الثقيل) فيعبّر بشكل مباشر عن آلام المرض ومتاعب الحياة التي كانت أثقل من الجبل، وسواء أكان (الثقل) معبّرًا عن شخص رضوى عاشور أم معبّرًا عن المواقف والتجارب

ذاتها، فإنه يعبّر في كلتا الحالتين عن الهموم الثقال، ورسوخ الكاتبة أمام تلك الهموم التي كانت "أثقل من رضوى".

أما العنوان الفرعي، فيجيب عن الإشكالية المتعلقة بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه العمل؛ حيث نجد عنوانًا أصغر وهو "مقاطع من سيرة ذاتية". وقد جاء وصف العنوان بأنه "مقاطع"؛ ليؤكد على عنصر الانتقاء المميز للسرد السيرذاتي؛ فالعمل في مجمله محاولة لتقديم عدد مُختار من التجارب الحياتية والخبرات الذاتية التي مرّت بها رضوى عاشور وأرادت نقلها للقارئ بعد أن نَحَّتْ جانبًا كثيرًا من التفاصيل التي استعادتها الذاكرة.

كما يشير العنوان الفرعي إلى جنس العمل الأدبي بأنه "سيرة ذاتية"، ولعل حذف (ال) التعريف التي تفيد التخصيص، يؤكد بوضوح أن العمل يضمّ الهمّ العام والهمّ الخاص معًا، وأنه سيرة الذات والوطن بأكمله؛ فرضوى لم تسرد لنا حياتها الخاصة بالصورة التقليدية التي يتّبعها معظم كُتّاب السير الذاتية، إنما عمدت إلى تصوير -بجانب حكايتها الخاصة- حكاية الوطن في مرحلة فارقة من تاريخه، فجاءت سيرتها نمطًا مغايرًا لكل الأنماط السابقة.

ورغم أن العنوان الفرعي كان دالاً على نوع العمل وحدده بأنه "سيرة ذاتية"، وهو ما أكدته رضوى في مدخل سيرتها "مشروع لكتابة سيرة ذاتية" [18]، إلا أنها قد أثارت مشكلة التجنيس في كتابها حين أعلنت في الفصل الثالث والعشرين منه قائلة "أعي منذ بدأت في كتابة هذا النص أنني أجمع فيه بين السيرة الذاتية والمذكرات، وهما نوعان مختلفان من الكتابة، وإن اشتركا في التأريخ للذات وتقديم التجربة الشخصية وتصنيفها وتأملها والتعليق عليها، باسترجاع مراحل العمر.. ولكن ما جدّ عليّ دون سابق نية أو إعداد، هو النقل المباشر لحدث يومي أسجل بعض تفاصيله ومشاعري تجاهه، وهو ما يدخلنا في نوع ثالث من الكتابة أقرب لليوميات". [19].

مما يوضح لنا أن رضوى عاشور قد استخدمت مصطلح "السيرة الذاتية" بشكل حداثي يؤكد دمجها في السيرة لأشكال ثلاثة من أشكال السرد الذاتي يصعب الفصل بينها (السيرة- المذكرات- اليوميات) بوصفها تعبيرًا دقيقًا عن أحداث أو تجارب يمر بها الكاتب، لأن هذا الكتاب في النهاية "ليس رواية بل سيرة ذاتية، تتطابق فيها المؤلفة والراوية والمروي عنها" [20]، وهو ما أعلنه من البداية العنوان الفرعي الذي يعد من المؤشرات السردية المهمة على نوع العمل وتصنيفه.

أما بالنسبة إلى العناوين الداخلية فكانت من الإشارات الأخرى داخل النص الدالة على نوعه؛ حيث جعلت الكاتبة لكل فصل عنوانًا قد يشير إلى حدث خاص أو حدث عام، مثل "واقعة الرابع من نوفمبر 2010"، و"في زمان الثورة"، و"المستشفى مرة أخرى" وغيرها. وهكذا امتازت العناوين الداخلية في السيرة بالدقة والوضوح، فعبّرت عن المضمون بشكل دقيق وتداخلت بفاعلية في العمل ككل.

● **اسم المؤلف**:

وللاسم في النص السيرذاتي أهمية كبيرة فهو يمثل عتبة أولى تمهد للقارئ تعامله مع النص إن لم يكن يوجّه هذا التعامل. ويؤكد جيرار جينيت على أن "إثبات اسم المؤلف يصبح فعلاً دالاً أكثر عندما يتعلق الأمر

> **اختارت رضوى عاشور لسيرتها عنوانًا موحيًا، وهو "أثقل من رضوى"، وقد يكون (الثِّقَل) دالاً على معنى (الرسوخ) -كما أعلنت الكاتبة في مدخل سيرتها- فيعبر عن شخصية الكاتبة وصمودها أمام ما عايشته من هموم وآلام**

بالسيرة الذاتية خاصة؛ لأنه يكون حينئذ جزءًا من العقد المقام بين المؤلف والقارئ"، كما أنه يخلق نوعًا من الإثارة لدى المتلقي يدفعه إلى قراءة هذا الأثر مدفوعًا في ذلك بنوع من الفضول لمعرفة حياة الآخر والوقوف على مكنوناته الداخلية، فهو يدرك أن الذات المنكشفة أمامه في السيرة هي ذات المؤلف، بعيدًا عن التمويه أو القناع الذي يلبسه المؤلف عادة في كتاباته الأخرى". [21].

وفي هذا الاسم يتلخص كل وجود هذا الذي نسميه الكاتب وهو العلامة النصية الوحيدة على ما هو موجود خارج النص؛ إذ يحيل على شخص حقيقي يتحمل مسؤولية كتابة العمل. والسيرة الذاتية (بوصفها سردا يحكي قصة الكاتب) تفترض وجود تطابق صريح بين هوية الكاتب (كما تحددت على غلاف الكتاب) وبين السارد والشخصية المتحدث عنها في الحكاية. [22].

من هنا كان ارتباط اسم الكاتبة بالنشاط الأكاديمي والمدني في مصر والوطن العربي كله، والنظر إليها بوصفها من أهم أبناء هذا الجيل عطاء على المستوى الفكري والسردي والنقدي، واعتبارها جزءًا من التجربة الفلسطينية بزواجها من الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي وتبنيها بالتالي مسؤولية توثيق الذاكرة الجمعية الفلسطينية بأعمالها، كل هذا قد أثار فضول القارئ العربي في "أثقل من رضوى" لمعرفة بعض من سيرة حياتها ورحلتها الأدبية، ووجّهته إلى اتخاذ مواقف معينة عند قراءة العمل، هذه المواقف تستند في أساسها إلى معرفته السابقة للمؤلفة من خلال أعمالها الأدبية الأخرى وآرائها التي كشفت عنها في بعض المقالات التي كتبتها أو اللقاءات التي أجريت معها.

● **كلمة الناشر**:

نجد أن كلمة الناشر أيضًا لها هدف يدل على نوع العمل؛ إذ إنها مثل العناوين، واسم المؤلف تؤثر على فهم القارئ للنص، فكلمة الغلاف الخلفي تكشف عن وضعية النص. [23].

من هذا المنطلق نلاحظ أن كلمة الناشر على الغلاف الخلفي لـ"أثقل من رضوى"، وهي دون توقيع، توضح لنا نوع العمل وأنه "مقاطع من سيرتها الذاتية" تمزج فيها رضوى عاشور بين "مشاهد من الثورة وتجربتها في مواجهة

المرض طوال السنوات الثلاث الأخيرة".

• آراء النقاد:

موقف الجمهور القارئ من العمل الأدبي لا تحدّده فقط الملامح الخاصة بالنص المكتوب، بل إن النقد والانتشار لهما أيضًا نصيب في العملية؛ فعلى أساس منهما يبني القارئ توقعاته أو يُكّون آراءه التي تحكم القراءة التالية. كما أن المقابلات الشخصية مع المؤلف قد تؤدي الوظيفة نفسها من أجل إقامة عقد قراءة مقدمًا أو بأثر رجعي. [24].

فعندما يصف الناقد محمود عبدالوهاب "أثقل من رضوى" بأنها "فصول من سيرة رضوى عاشور الذاتية"، وعندما يقول عنها د. مصطفى رجب إنها "كتاب فريد من نوعيته في مكتبة السير الذاتية العربية". [25]، نستطيع أن نعتبر هذا علامة دالة على نوع العمل الأدبي بأنه سيرة ذاتية.

وقد أكدت رضوى عاشور هذا التصنيف عندما صرحت في حوار صحفي لها بأن "أثقل من رضوى" هو الجزء الأول من سيرتها الذاتية سيتمّمها الجزء الثاني الذي عنونته بـ"الصرخة"، وذلك عندما تحدثت عن دوافعها لكتابة العمل "ربما كانت معايشتي لمرض أخي واستعداده للرحيل عنصرًا في رغبتي في كتابة سيرة ذاتية، أو هذا ما بدا لي. رحل أخي، ثم أمي، وتوالت مستجدّات تخص وضعي الصحي ووضع البلد، فوجدتُ نفسي أكتب هذه المقاطع. ليست سيرة ذاتية مكتملة، بل مقاطع منها.[26].

• الإهداء:

يمثل الإهداء عنصرًا من العناصر الموجهة للنص السيرذاتي، ويمثل أيضا عتبة نصية مهمة تسهم في إضاءة النص ورسم ملامحه، ويحيل على داخل النص ويعمل على توضيح بعض جوانبه، ومع ذلك فقد غاب الإهداء عن صفحات "أثقل من رضوى".

• المقدمة:

تعد مقدمة الكتاب من العتبات النصية المحيطة بالنص، التي تسهم في فهم النص وتحليله، كما أنها تمثل مدخلاً من المداخل التي تجعل المتلقي يمسك بالخيوط الأولية والأساسية للعمل، فتساعد على التعرف على محيط النص، والإلمام بمقاصد مؤلفه، وكيفية تلقيه من قبل جمهور القراء. [27].

وهذا يعني بوضوح أن المقدمة تضمّ مجموعة من الأفكار التي قصدها الكاتب، ونيّاته ودوافعه وتوجهاته الفكرية التي تمثّل موجهات محورية تقود القارئ إلى فهم أشمل وأدق للنص. وقد جاءت "أثقل من رضوى" في ثلاثة وثلاثين فصلاً يحمل الفصل الأول منها عنوان "مدخل"، والذي يمكن اعتباره مقدمة الكتاب التي تقدم فيها رضوى دافعها لكتابة سيرتها الذاتية، وهو معايشتها لمرض أخيها واستعداده للرحيل "يبدو لي الآن بوضوح أن الشروع في كتابة سيرة ذاتية في تلك الأيام تحديدًا، كان يتّصل بشكل ما بمرض أخي وتدهور حالته الصحية وهواجسنا المتنامية أنه يستعد للرحيل. [28].

وتقدم قراءة مقدمة سيرة رضوى عاشور نوع العمل بوصفه "سيرة ذاتية" توثق تجربتي المرض والثورة، وبذلك أوردت رضوى عاشور بدايات الميثاق السيرذاتي في مقدمة العمل وفي مواضع أخرى منه، موضحة كيف شرعت في كتابة هذا العمل وكيف ظهر على هذا النحو "كانت النية أن أطلب من حاتم مُسودة الرسالة التي وجهها المحامي الشاب إلى الدكتور عبد الوهاب ليطلب يد ابنته (وكنت اطّلعت عليها ونحن نُنظم أوراقه بعد رحيله)، لأُضمِّنها النص الذي كان واضحًا أنه مشروعٌ لكتابة سيرة ذاتية تبدأ بالحديث عن أمي وأبي وإخوتي، وتنتقل بعد ذلك لتحكي البعض الآخر من حكايتي. [29].

• صورة الغلاف:

تعد الرسوم والأشكال مظهرًا من مظاهر تشكّل فضاء النص كما أشار ميشال بوتور، ويتركز هذا التشكيل في "الغلاف الأمامي الخارجي للنص. [30]. ويمكن تصنيف أنماط الغلاف الأمامي إلى نمطين؛ تشكيل واقعي: يشير بشكل مباشر إلى أحداث النص أو إلى مشهد مجسّد من هذه الأحداث، وتشكيل تجريدي:يتطلب خبرة فنية لدى المتلقي لإدراك بعض دلالاته وللربط بينه وبين النص. [31].

فرسمة الغلاف ما هي إلا تواصل بصري يترجم واقع العمل الفعلي؛ فالرسمة تكون أسرع في الوصول إلى المتلقي من العنوان. ومن هنا، فإن الغلاف يساعد على فهم المضمون العام من المحتوى وبيان المقصدية منه على المستوى الفني أو التشكيلي.

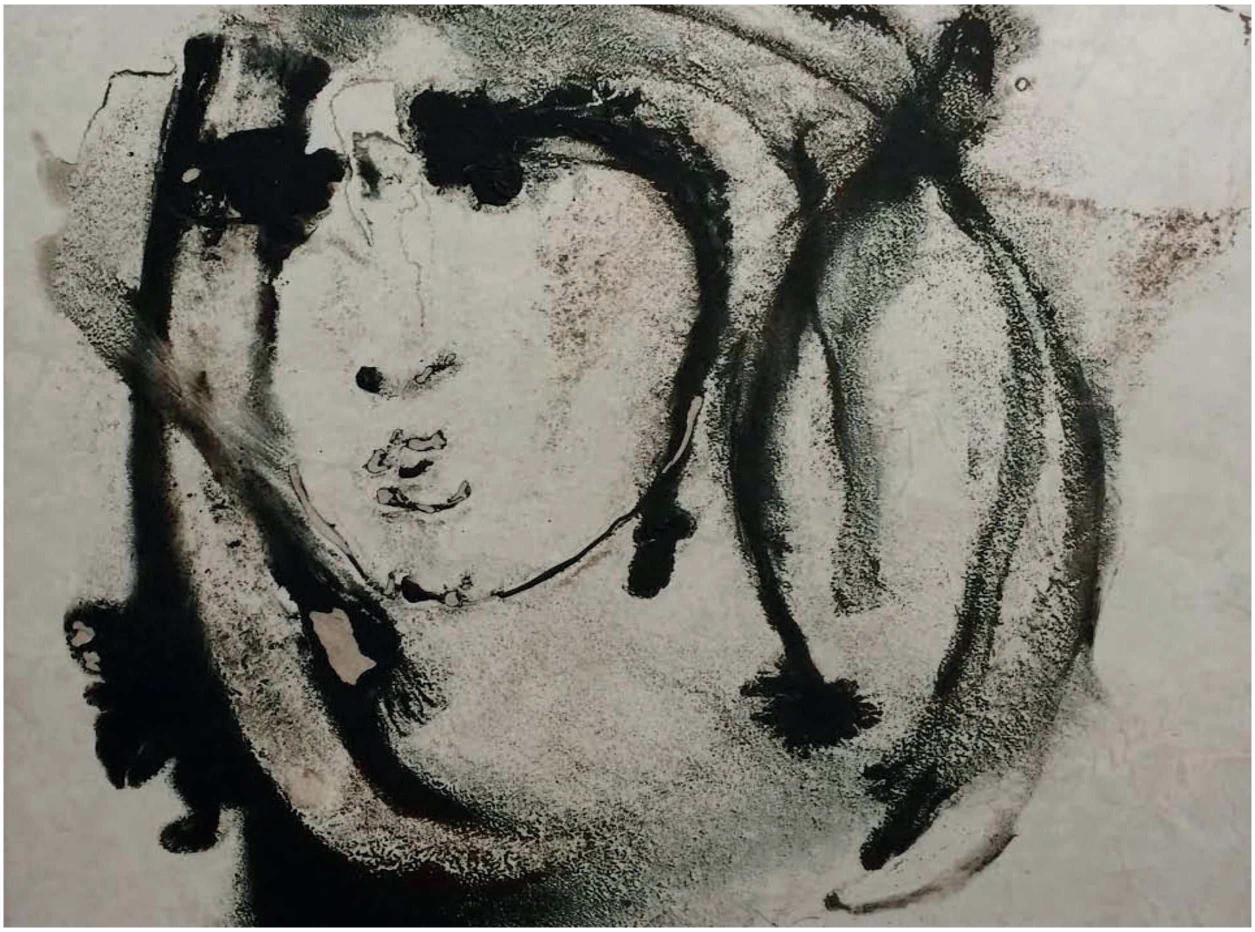
وقد جاء عنوان العمل "أثقل من رضوى" على خلفية صورة للفنان المكسيكي (دييجو ريفيرا)، وهو من أهم رسامي أميركا اللاتينية، كان يؤمن بالأفكار الثورية ويمجد في جدارياته الخالدة الثورة المكسيكية، ويجسد بها قيمًا تاريخية خاصة بوطنه. ولعل اختيار إحدى لوحات (ريفيرا) المؤيد للثورة المكسيكية والمعبر عنها، يعد معادلاً موضوعيًّا لرسوم (الجرافيتي) التي تراها رضوى عاشور الفن الأول الذي يعبر عن مطالب الثورة المصرية ويوثق يومياتها ويسجل تفاصيلها الدقيقة.

نجد أن صورة الغلاف تضم امرأتين تتخذان وضعية "الحكي"، والحكي فتنة نسوية في الأساس تهتم برؤية التفاصيل الصغرى بوصفها مكونًا مهمّا للمشهد ككل، وهو ما يتفق ضمنيًّا مع الهدف الرئيس للسيرة، وهو حكي رضوى عاشور لتجربتها وحرصها على نقل تفاصيلها للآخرين، وكأن الحكي هو وسيلتها في الصراع وسلاحها في وجه النسيان.

ونلاحظ مستويين في اللوحة، هما مستوى التكوين: فنجد أن الأوضاع التي تتخذها الأجساد أوضاع مرهقة تمنح إحساسًا بمعاناة المرأتين، وكذلك الملامح البادية على وجوههم، وهي ملامح مُتعبة وأحيانًا منكسرة تشي بالحزن والألم. ومستوى اللون: فنجد أن الألوان -على عكس الأجساد- تميل إلى الإشراق والبهجة، مما يدلّ على حيوية الشخصيات وحبها للحياة رغم المعاناة الشديدة والحياة القاسية، وهكذا، تدعم الصورة الموجودة على الغلاف فكرة المعاناة التي عاشتها رضوى وواجهتها بإصرار وأمل وحب للحياة، وكأنها تُحّرض قارئها على التفاؤل والتمسك بالحياة في مواجهة الفناء.

(2) النص الملحق:

ويقصد بالنص الملحق أو اللاحق "تلك الظاهرة النصية التي تكون فيها العلاقة بين نص لاحق.. (أ) بنص سابق.. (ب) حيث يكون له مرجعًا ونموذجًا، إذ لا وجود للنص اللاحق دون النص السابق. وهذا يعني أن العلاقة بين النصين إنما هي علاقة اشتقاق وتحويل ومحاكاة. [32].



عاصم الباشا

وتأتي أهمية النص الملحق في النص السيرذاتي لكونه -وبحسب رأي لوجون- إحدى الطرق فضلاً عن -التطابق والميثاق- الذي يتم بموجبه تحديد النص السيرذاتي، فضلاً عن كونه وسيلة لمعرفة السيرة الذاتية الصحيحة الصادقة من السيرة الذاتية الكاذبة أو المزورة.

وهو من جهة ثانية يعتمد على مصادر الكاتب الأخرى في معرفة مدى صحة ما يرويه الكاتب في سيرته "فلكي نحدد هل نحن بصدد سيرة ذاتية أم لا يكون من اللازم أن نعرف عن طريق مصادر أخرى حياة الكاتب.. وبما أن معظم كُتّاب السيرة الذاتية معروفون بأنهم قد حققوا شيئًا قبل كتابة قصة حياتهم فلن يكون من الصعب بصفة عامة التعرف على النصوص التي تعتبر ثمرة مشروع كتابة سيرة ذاتية والنصوص الأخرى التي ترجع إلى الخيال. [33].

ويشكل موضوع النص الملحق ظاهرة لافتة للنظر في سيرة رضوى عاشور الذاتية، وذلك بسبب الطابع الإحالي المرجعي الذي ظهر بشكل واضح في أكثر من موضع في السيرة. ومن ذلك تعليق المؤلفة على روايتها "الرحيل" الجزء الأخير من ثلاثية غرناطة "في عام 94 جاء مريد إلى القاهرة، وكانت فترة نفيه ما زالت قائمة. أتى بإذن خاص يتيح له الإقامة في مصر لأسابيع معدودة. كنت قد بدأت في كتابة "الرحيل" الجزء الثالث والأخير من ثلاثية غرناطة. [34].

إن رضوى عاشور أديبة كتبت في معظم الفنون الأدبية كالرواية والرواية القصيرة والمقالة وغيرها، وكانت تجد في أعمالها الأدبية ميدانًا واسعًا للحديث عن تجاربها واستعادة كثير من الأحداث التي مرت بها في حياتها في هذه الأعمال، ورسم بعض الشخصيات الروائية التي تشبه شخصيتها من بعض الجوانب. وهنا، يتضح الطابع الإحالي المرجعي بالسيرة، عندما تحيلنا رضوى إلى خارج النص، إلى بعض كتاباتها الأخرى التي ترجع إلى ما قبل كتابة سيرتها الذاتية، ومن ذلك روايتها القصيرة "سراج" وبطلتها "آمنة" التي "تتبعت حكايتها إلى أن نشرتها باسم "سراج". انتهيت من الرواية، وهي رواية قصيرة لا تتجاوز المئة صفحة، في شهرين أو أقل قليلاً. [35].

كما تعد شخوص رضوى عاشور النسائية علامات مميزة في منجزها السردي كله. ولذلك؛ تحيلنا الكاتبة في الفصل الحادي والعشرين من سيرتها إلى شخصيات أو بطلات أعمالها مثل (آمنة/رواية سراج) و(ندى/رواية فرج) و(مريمة/ثلاثية غرناطة) و(رقية/الطنطورية)، فتقول "تأتيني لا أدري من أين، امرأة اسمها آمنة أو مريمة أو ندى أو رقية، يشرد الخيال خلفها ليلتقط لحظة عاشتها أو بيتًا أقامت فيه". [36].

وهكذا يعد النص الملحق وسيلة أخرى من الوسائل الخارجية عن النص، أسهم في فهم بعض جوانب النص السيرذاتي، وتعزيز الميثاق الخاص به، كما وجّه القارئ إلى أن ما يقرأه في السيرة الذاتية دقيق وصادق مع

الحقيقة التاريخية.
وفي النهاية نجد أن السيرة الذاتية تفترض نوعًا من الاتفاق أو التعهد أو الميثاق بين الكاتب والقارئ بشأن حقيقة النص وصدقه. وهذا الميثاق يتم بشكل من العرف الأدبي، كوجود نظام من العلامات الدالة على النوع الأدبي تظهر في النص أو على ضفافه (عنوان الكتاب، أو المقدمة، أو كلمة الناشر) وعند تفسير تلك العلامات فإنها تدلنا على أن النص يهدف إلى تقديم القصة الحقيقية لحياة الكاتب، كما تحثنا على تقبلها كما هي. واعتمادًا على وضوح تلك العلامات التعريفية الخاصة بالنوع الأدبي، يمكن أن يكون ميثاق السيرة الذاتية "واضحًا" صريحًا/معلنًا، أو "متضمنًا" بالتلميح.

واعتمادًا على ما سبق يتضح لنا أن سيرة رضوى عاشور الذاتية هي سيرة ذاتية صريحة واضحة، كما تمّ الإعلان عنها في عنوان السيرة الفرعي، وقد أيد ذلك:

- أن البطلة يُشار إليها في النص باسم "رضوى"، كما أن الكتاب -كما هو مُثبت على غلافه- من تأليف "رضوى عاشور"، والسرد جاء بضمير المتكلم على لسان الرَاوية "رضوى" وهي البطلة في الوقت ذاته. وهنا تحقق التطابق بين المؤلفة والرَاوية والمروي عنها.
- أن مقدمة العمل قد حددت نوعه بوصفه سيرة ذاتية تحكي قصة حياة الكاتبة رضوى عاشور وثوّق تجربتي المرض والثورة.
- أن كلمة الناشر وآراء النقاد وحوارات الكاتبة قد صنّفت العمل على أنه سيرة ذاتية لصاحبتها كتبتها وهي في الرابعة والستين من عمرها.
- أن الراوية/ المؤلفة قد أحالت أجزاء من سيرتها إلى أعمال أدبية أخرى ألفّتها بالفعل قبل كتابة السيرة ■

كاتبة من مصر

الهوامش:

[1] James Goodwin: autobiography, the self made text, twayne publishers, New York, 1993, p. 15- 16

[2] جيرار جينيت: خطاب الحكاية، بحث في المنهج، مجموعة مترجمين، المشروع القومي للترجمة/10، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 1997، ص15.

[3] خليل شكري هياس: سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 8.

[4] رضوى عاشور: أثقل من رضوى، مقاطع من سيرة ذاتية، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 2013، ص 384.

[5] يحيى إبراهيم عبدالدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، 1975، ص 22.

[6] رضوى عاشور: أثقل من رضوى، مرجع سابق، ص 6.

[7] عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة/ 240، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 184- 185.

[8] جيرار جينيت: خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص 262.

[9] فيليب لوجون: الميثاق والتاريخ الأدبي، ت: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1994، ص 8.

[10] صبري حافظ: رقش الذات لا كتابتها، تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية، ضمن لغة الذات: السير الذاتية والشهادات، مجلة ألف، العدد 22، 2002، ص 7- 8.

[11] خليل شكري هياس: سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات)، مرجع سابق، ص 20- 21.

[12] رضوى عاشور: أثقل من رضوى، مرجع سابق، ص 377.

[13] المرجع السابق، ص 183.

[14] المرجع السابق، ص 292.

[15] محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 240- 241.

[16] عفاف البطاينة: تمثيلات الأنا والآخر في رواية ظل الشمس لطالب الرفاعي، مجلة فصول، العدد 75، شتاء/ربيع 2009، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 194.

[17] خليل شكري هياس: سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات)، مرجع سابق، ص 26- 28.

[18] رضوى عاشور: أثقل من رضوى، مرجع سابق، ص 7.

[19] المرجع السابق، ص 271.

[20] المرجع السابق، ص 252.

[21] خليل شكري هياس: سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأولى وشارع الأميرات)، مرجع سابق، ص 45.

[22] فيليب لوجون: الميثاق والتاريخ الأدبي، مرجع سابق، ص 35.

[23] تيتز رووكي: في طفولتي، دراسة في السير الذاتية العربية، ت: طلعت الشايب، المشروع القومي للترجمة/500، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2002، ص 116.

[24] المرجع السابق، ص 117.

[25] راجع مقال محمود عبد الوهاب: أثقل من رضوى، فصول من سيرة رضوى عاشور الذاتية، ومقال د. مصطفى رجب: أثقل من رضوى، من تضليل التناص إلى اقتناص الجوهر، مجلة الثقافة الجديدة، فبراير 2014، العدد 281، ص 43، ص 53.

[26] رضوى عاشور: شعارات الثورة المصرية لم تتحقق، حوار: سلوى عبد الحليم، مجلة الحياة، مايو 2014.

[27] عبد الواحد بن ياسر: الخطاب المقدماتي، علامات، الجزء 47، مارس 2003، ص 626.

[28] رضوى عاشور: أثقل من رضوى، مرجع سابق، ص 8.

[29] المرجع السابق، ص 7.

[30] ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ت: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، ط 3، 1986، ص 127.

[31] حميد لحمداني: بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 1991، ص 59.

[32] محمد الهادي المطوي: المتعالي النصي والمتعاليات النصية، المجلة العربية للثقافة، العدد32، 1997، ص 185.

[33] فيليب لوجون: أدب السيرة الذاتية في فرنسا، المفاهيم والتصورات، ت: ضحى شبيحة، مجلة الثقافة الأجنبية بغداد، العدد4، 1984، ص 29-31.

[34] رضوى عاشور: أثقل من رضوى، مرجع سابق، ص 250.

[35] المرجع السابق، ص 252.

[36] المرجع السابق، ص 252.

نيتشه
المناهض للمنظومة

أبو بكر العيادي

نيتشه، ككل عبقري، شغل الناس حيّا، وشغلهم ميتا، وما زالت فلسفته حتى يوم الناس هذا مثار جدل. فهو لدى البعض لا يجمل الاقتراب منه لاحتواء فكره على نصوص توهم بالتفوق العرقي، فيما يرى البعض الآخر أن العيب ليس فيه بل في من اقترب منه ولم يفهم فلسفته، أو نحا بها منحى غير الذي ذهب إليه صاحب "العلم المرح"، و"ما وراء الخير والشر". وقد خصته مجلة "فلسفة" الشهر الماضي بعدد ممتاز حمل صورته وعنوانا بارزا: نيتشه المناهض للمنظومة، وحوى مساهمات لثلة من الفلاسفة الفرنسيين والأجانب تناولت أهمّ محاور فكره كالنيهيلية، والأخلاق، والجسد، وأبولونوديونيزوس، والعود الأبدي، والإنسان الأرقى.

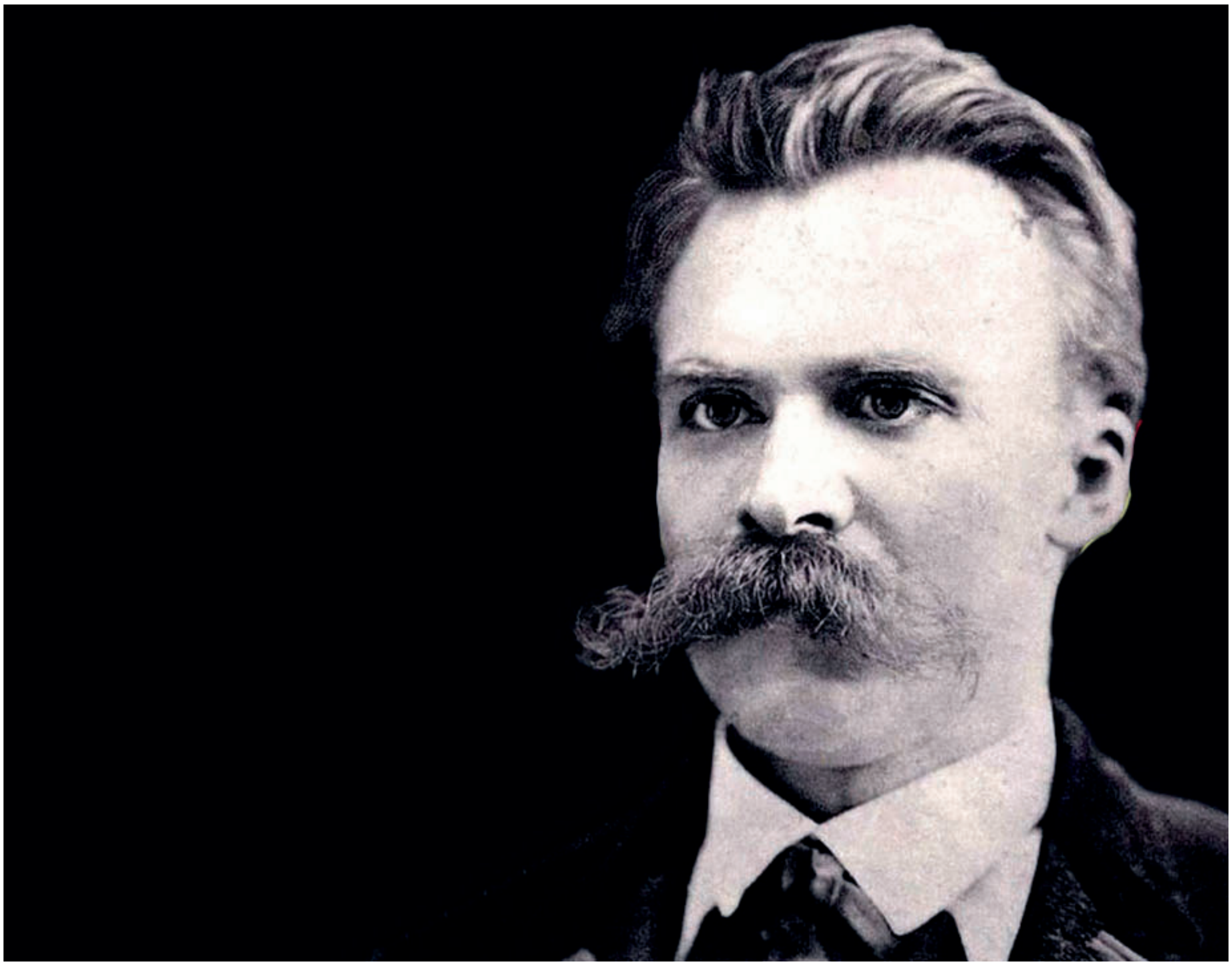
من بين الذين يحرصون على تصويب ما نسب إليه خطأ وأدّى إلى مجانبة طروحاته، الفيلسوف الفرنسي كليمان روسيه، صاحب كتاب "الواقعي ومثيله"، فهو يعتقد أن الدارسين، على تعاقب الأجيال، لم يقفوا إلا على نسخ خاطئة من نيتشه. والسبب أن الحظ شاء أن تخونه أخته إليزابيت فورستر نيتشه، وزوجها الذي كان نازيا بارزا ساهم في بعث مخيمات للشباب الآري في باراغواي، حتى من قبل أن يمسك هتلر رسميا مقاليد السلطة.

ذلك أن الأخت وزوجها استوليا على مخطوطات نيتشه عندما فقدَ مداركه العقلية قبل أن ينهار تماما عام 1889، وسمحا بأن يُتخذ فيلسوفا رسميا لنظام هستيري مجرم، والحال أن نيتشه (1844-1900) لو عاش في زمن هتلر لكان من أوائل المنفيين إلى المعتقلات بسبب نقده اللاذع للذهنية الألمانية، وهجومه الدائم لمعادي السامية، فضلا عن شخصيته ونمط عيشه.

وليس للأخت من فضل سوى أنها ساهمت في التعريف به بعد أن كان ينشر كتبه على نفقته، ولا يبيع منها سنويا أكثر من عشرين نسخة. كما شاء له حظه المنكود أن يستحوذ عليه هيدغر ليقوّله ما لم يقله.

فقد راح في دروسه التي نشرت في جزأين، بعد تخلّيه عن النازية خلال الحرب العالمية الثانية، يحاول مَحْوَ ما علق بنيتشه من تهم، ولكنه كان في الواقع يكرّس تلك التهم، أولا بجعل نيتشه مجرد حلقة وصل بين هيغل وكانط وهو ذاته، ثانيا باستناده إلى كتب لم يؤلفها نيتشه مثل كتاب "إرادة القوة" الذي اختلقته أخته. فهيدغر، في رأي روسيه، لم يستند فقط إلى كتاب لا وجود له، وإنما أيضا إلى ما يزعم أن نيتشه "استشعره وفضّل إخفاءه أو التكتم عنه"، وما هو في الحقيقة سوى فلسفة هيدغر نفسه. دليل روسيه أن نيتشه لم يهتم إطلاقا بالأونطولوجيا أي علم الكائن، وأن الكائن لا يمثل مشكلة بالنسبة إليه، لأنه- شأنه شأن سبينوزا - ليس من النفاة، بل من الإثباتيين، فالحقيقي في نظره هو الاتصال بالواقعي دون لبس، في حين أن هيدغر من الفلاسفة الذين ينفون المحسوس، ويميّزون بين مستوى جوهري أونطولوجي للواقع ومستوى غير جوهري متعلق بمعرفة الأشياء (ontique) وبذلك جعل من نيتشه مجرد جبلّة خارجية (ec-toplasme) سابقة لوجوده. أما المظهر الثالث لسوء الحظ الذي رافق نيتشه، فيتمثل في استحواذ فلاسفة اليسار الفرنسي على فكره مثل بيير كلوسّوفسكي وجاك دريدا وميشيل فوكو وجيل دولوز، إذ جعلوا منه مفكرا تقدميا ثوريا يهدم كل الأيديولوجيات بلا استثناء متجاهلين أن الاحتفاء بالفرح وقبول العالم بحلوه ومرّه هما من تيماته الكبرى.

أما الفيلسوف مارك دو لوناي، الذي ترجم نيتشه وبعضا من كبار الفلاسفة الألمان مثل هوسرل وأرندت وهابرماس ووضع كتابا عن تجربته بعنوان "ماذا تعني عملية الترجمة"، فقد تناول استعمال نيتشه للنيهيلية (العدمية)، هذا المفهوم، الذي أطلقه أول مرة الكاتب الروسي تورغنييف على مجموعة من الأنارشيست الإرهابيين في روسيا خلال القرن التاسع عشر لأنهم كانوا ينكرون كل قيمة أخلاقية أو ميتافيزيقية، تبناه نيتشه ليطبقه على كل من يدافع عن دين أو أخلاق أو فلسفة تحقّر الحياة. فما النيهيلية في رأيه سوى عرضة من أعراض حياة منهكة منحطة عاجزة عن تحمل الوجود، وقبوله كما هو، وأنها بدأت مع سقراط الذي لا تستطيع فلسفته أن تَثبُت إلا بما يسميه نيتشه في ازدراء "العالم الخلفي" للقيم المطلقة كالجمال والخير والحق، تلك القيم التي لا يبلغها إلا العاقل. وفي رأيه أنها قيم تستهين بالحياة الواقعية بدعوى عدم امتلاكها نقاءَ عالم الأفكار. وتواصلت مع أفلاطون الذي لم يأخذ مأخذ الجدّ حضور التراجيدي في الوضع البشري، خلافا لأعلام المسرح اليوناني القديم. ولكن هجومه الأشدّ كان على المدافعين عن مثالية الأخلاق اليهودية المسيحية لكونها تستهين بالقوة والغريزة والجسد والطبيعة. وفي رأيه أن دافع الأخلاق الدينية الأول هو البغضاء، أي



كره الحياة. وقد بيّن منذ كتابه "جينالوجيا الأخلاق" ما تخفيه دروس الأخلاق والحقائق المطلقة، فدعاتها يهدرون وقتهم وجهدهم في شتم الحياة باسم عالم آخر غير مضمون، وكره وجود ما عادوا يملكون قوة لمحبته. وليس المقصود بالجينالوجيا البحث عن زمن سابق لولادة فكرة أو قيمة، بل التولد الأكثر عمقا الذي يصل ميتافزيقا معيّنة بدوافع وجدانية.

والأخلاق، في تصور نيتشه، هي عكس الإيثيقا كما يوضّح الفيلسوف رافاييل إنتوفن الصحافي بإذاعة فرنسا الثقافية وقناة أرتي الفرنسية الألمانية. فالإيثيقا كما تتبدى له عند نيتشه تهتم بالواقعي، وتعتمد على التفهم، وتنوب عن وحدة الجسد والذهن، وتتوجه إلى الأفراد الذين يشكلون مجموعة دون أن تلغي كون كل فرد منهم لا يقل ذكاء عن أيّ إنسان آخر، وتسعى لفحص الفعل أو الحدث قبل إصدار الحكم، في حين أن الأخلاق تهتم بالمعيار، وتتوسل بالأوامر والتحريم واللعن بالمفهوم الكنسي، وتصلح للتوجه إلى الجماعات التي تخضع للعصا والجزرة، وتخلط عمدا بين وصف الشيء وفرضه. فالإنسان الذي نصفه بأنه "على خلق" هو في الغالب منحرف يمنح نفسه مبادئ أقوى من طبعه ويضحي بالعالم وبالآخرين وفق إدراكه الممالئ لنفسه. ويرى أنتوفن أن مطرقة نيتشه ليست فقط مطرقة عدو للتقاليد (iconoclaste)، بل هي وسيلة فيلسوف اختار في معركته أن يفهم ويكشف عن الوجه الآخر لفضائلنا.

ولا يختلف عنهم ألكسندر لاكروا مدير تحرير المجلة وصاحب كتاب "كيف نحيا حين لا نؤمن بأيّ شيء؟" في فهمه لنقد نيتشه للأخلاق، وفي رأيه أن قوة هذا الفيلسوف تكمن في كونه لا يقنع بنقد تحديد ماهية الخير والشر كما تتداولها المسيحية، بل يقدم حجة ضدّ منظومة القيم، ويبين أن الأخلاق، كمجموعة تعاليم تحض على التقوى والاستقامة، ومعايير تستعمل للحكم على أفعال الناس، إنما هي وسيلة هيمنة. فالرهبان يعلّمون رعيّتهم أن تتحلى بالصبر والخشوع والزهد في الحياة الدنيا، وتعدها بسعادة خالدة حالما تغادر هذا العالم. وما تلك في نظر نيتشه إلا خدعة من "طائفة الرهبان" لخدمة مصالح الأقوياء، وكلام معسول غايته إبقاء الشعب في حالة خضوع واستسلام. ومن ثَمّة يدعو إلى نبذ فكرة القضاء والقدر (fatum) واعتماد ما سماه (amorfati)، أي أن نحب الحياة كما هي بحلوها ومرّها، مبتكرا نظرية العود الأبدي.

هذا العود الأبدي يفسره الفيلسوف الإيطالي باولو ديويرو مؤسس جمعية "هيبر نيتشه" ومؤلف كتاب "نشوء فلسفة الفكر الحر" بكونه تعبيرًا عن عالم لا تسيّره أيّ بنية ثابتة ولا أيّ غائية، وامتحانًا لانتخاب الأقوياء والضعاف عن طريق الـ"أمور فاتي" أي أن

نحب ما يحدث كيفما يحدث. والسؤال هو معرفة من يملك القوة لحبّ الحياة إلى درجة قبول فرضية استعادة كل أطوارها، حتى المؤلمة والمشينة، بشكل يتكرر بلا نهاية، ويعود الإيجابي -كالسلبي- "في نفس ترتيبه ونفس تعاقبه". هذه الفكرة، التي يُعد زرادشت خير مثال لها، هي أمر فظيع بالنسبة إلى الضعيف، لأنه لا يحب الحياة.
ولا يعني نيتشه بالقوة والضعف هنا التكوين الجسدي أو المكانة الاجتماعية، فالأقوياء لديه هم من تكون إرادة القوة عندهم فاعلة، أما الضعاف فأولئك الذين تنحصر تلك الإرادة لديهم في ردة الفعل، وإنما يقصد أن يتصرف المرء بطريقة تجعله يريد العود الأبدي لحياته كلها، لا ليمحو منها خيباتها وآلامها، بل ليحبّ وجوده بشكل يجعله يعيد خلق كل لحظة دون أن يكون مهتما بعالم خلفي أو غائية للكون والحياة، وحتى بالموت. هذه النظرية قد يكون من جرائرها تعزيز الأقوياء ودفع الضعاف إلى اليأس والاندحار، ولكن نيتشه يرى فيها أداة لتحسين النسل وتحويل الإنسان المتفوق إلى إنسان فوق العادة.
مفهوم الإنسان فوق العادي (Übermensch) بعبارة نيتشه، والذي اختلف العرب في ترجمته (الإنسان الأعلى، الإنسان الأسمى، الإنسان الأرقى) هو الذي ألقى بظلال كثيرة على فكره، حيث اتخذه الفاشيون خلال الحرب العالمية الأولى ثم النازيون في مطلع الثلاثينات مرجعية فكرية لأيديولوجيتهم. ويذكر الفيلسوف الألماني فولكر غرهارد في حديث للمجلة أن ألفريد بوملر، أبرز فلاسفة القومية الاشتراكية الألمانية، كان انتقى في كتابه "نيتشه، الفيلسوف والمفكر السياسي" مقولات من مؤلفات نيتشه، وتأوّلها على هواه ليجعل منه منظّرا للنازية، ويؤوّل "الإنسان الأرقى" بالفوهرر، أي الزعيم والقائد، الذي يجمع في شخصه بعبقرية نادرة كل ما هو ثقافي وفني وسياسي وعسكري.
ثم أردفه عام 1934 بكتاب ثان "نيتشه والقومية الاشتراكية" جعل فيه مفهوم "إرادة القوة" مطرقة أيديولوجية يستعملها الحاكم كما يشاء. وقال فيما قال "عندما نهتف 'هايل هتلر!'، فنحن نحيّي أيضا فريدريخ نيتشه". وهو ما كان منطلقا لاستحواذ النازيين على نيتشه، حتى أن كتاب "هكذا تحدث زرادشت" كان لا يفارق الجنود الألمان في الجبهة. ولو أن غرهارد يقرّ بأن لنيتشه أشياء تفتح الطريق لمثل تلك التأويلات، كمعاداته للديمقراطية، وأرستقراطيته، وإشادته في كتاب "جينالوجيا الأخلاق" بـ"الدابة الشقراء"، ذلك المفهوم الذي وقع تأويله بصورة "الآري" الجرماني الشمالي.
أما الفيلسوف الألماني كارل لوفيت، صاحب كتاب "فلسفة عَود الشيء نفسه أبدا"، فيرى أن نيتشه يريد أن يعطي الإنسانية هدفا يتجاوز الكائن-الإنسان الحالي ولا يكون داخل "العالم الخلفي" أي الآخرة، بل في نطاق سيرورة العالم. هذا الإنسان ينبغي أن يتسامى على ذاته، وهو معنى (-Übermen sch) الذي ينطلق منه نيتشه في دعوته إلى العودة ووضع قيم جديدة لإرادة القوة.
فهو يشخّص "العقم العميق للقرن التاسع عشر"، لأنه لم يصادف إنسانا أدرك مثالية جديدة، ما يجعل نظرية العود الأبدي في معناها التاريخي والأنتروبولوجي "مركز ثقل الإيثيقا الأسمى" من أجل إرادة فقدت أهدافها ضمن وجود صار سريع الزوال.
هي نظرية تريد تغيير تصوّرنا للإنسان من خلال إعادة تحديد مفهومه ومؤثراته، وزرادشت هو المثال، فهو النمط الأسمى للإنسان، إذ يحكم نفسه بنفسه، ويخضعها لنظام صارم.
وكان الفيلسوف المجري جورج لوكاتش قد ذهب أبعد من ذلك. فقد رأى أن معركة نيتشه ضد المسيحية نابعة من اعتباره إياها أصل الديمقراطية الحديثة، كاعتباره مساواةَ الناس أمام الرب التي جاءت بها المسيحية بداية انحطاط الديمقراطية.
ذلك أن الديمقراطية في نظر نيتشه ليست تدهور الدولة فحسب، وإنما هي أيضا تبلّد أوروبا وتضاؤل الإنسان الأوروبي. لأنها، بإلغائها التفاوت بين البشر، تقود البشرية كافة إلى الانحطاط، وتنتج بحسب عبارة زرادشت "الإنسان الأخير"، أي المقابل السلبي للمثال النيتشوي "الإنسان الأرقى".
ويرى لوكاتش أن ألفريد بوملر لا يحيد عن المعنى الذي قصد إليه نيتشه بالإنسان الأخير، حين وصفه بـ"موظف المجتمع الديمقراطي الألماني"، حيث تزول الفوارق وتسود هيمنة الغوغاء في أعلى المجتمع وفي أسفله.
ولوكاتش يقرّ بأن نظرية نيتشه ليست مماثلة للأيديولوجيا الهتلرية الرسمية، نظرا لأن البربرية الإمبريالية لديه تبقى حلمَ مستقبل، فيما الأيديولوجيا الفاشية كانت نتيجة تفكك الإمبريالية المتطورة، مثلما يقر بوجود فوارق فكرية وجمالية وأخلاقية بين الطرفين، إلا أنه يعتقد أن ألفريد روزنبرغ كان محقا حينما عدّ نيتشه سلف الفاشية الألمانية، لكونه أورد في الفلسفة الألمانية تمجيد البربرية.
ويرى الإيطالي جورجو كولّي أن دعوة نيتشه إلى الإنسان الأرقى إنما هي دعوة إلى تجاوز الإنسان الحالي، الذي يتسم بالعدمية والانحطاط، دعوة عاجلة لا تقنع بانتظاره بل تعمل على قدومه وتسعى إليه، لأن الانتظار دون فعل معناه حلول الإنسان الأخير، أي ذلك الذي يرفض الإبداع، أي إنسان البغضاء الذي لا يفعل بل يكتفي برد الفعل.
وفي رأيه أن المقصود بالإنسان الأرقى ليس ذلك الفارس المغوار كما فهمه هتلر بل هو شبه النموذج الإنساني لعصر النهضة، الذي تلخص سماته مقولة "العقل السليم في الجسم السليم"، ولكن دونما ربّ، ولا دولة، ولا ملاذ بعالم آخر، ولا إيمان بأيّ معبود. لأن الإنسان الأرقى ينبغي أن يكون "معنى الأرض"، أي المؤكد الأكبر لكل شيء، ومتقمص القيم الديونيسية، ومعتنق الـ"أمور فاتي"، لكي يستعيد غرائز الغزو التي أنكرتها الأخلاق وكبتتها منذ القدم. فإذا ما تحرر من كل أشكال النيهيلية وكره الحياة، فسوف يجد القوة ليرغب بامتلاء وبشكل دائم للعود الأبدي لوجوده.
في كتابه "الإنسان الثائر"، يقول ألبير كامو "إذا استثنينا ماركس، فإن مغامرة نيتشه لا مثيل لها في تاريخ الفكر، ولن نخلُص أبدا من رفع المظلمة التي سُلّطت عليه. نعرف دون ريب عبر التاريخ فلسفات تمّت ترجمتها وخيانتها، ولكن لحدّ نيتشه والقومية الاشتراكية، لم يحصل قط أن قوبل فكر كامل ينيره نبل وتمزق روح استثنائية بمثل هذا الفيض من الكذب المنشور على مرأى العالم، وهذا الركام الفظيع من جثث المعتقلات" ■

كاتب من تونس مقيم في باريس



حين تتخطى الرواية أسوار الصمت

”جدار الصمت“ لدينا سليم

جميل الشبيبي



تمتثل رواية ”جدار الصمت“ للروائية الفلسطينية دينا سليم، الصادرة عن دار الجندي – 2015 إلى السيرة الذاتية، حين تؤكد كاتبتها ”قمت بتدوين هذه الرواية مباشرة بعد وفاة ابني باسم سنة 2014. تستحضر فيها لحظة وجود مشخص لابنها بقامته التي تعاند الاختفاء عن عالمنا الأرضي وتؤجل لحظة وداع لا تريد لها الاستمرار، وبين هاتين اللحظتين، تعمد الروائية، على استنفار الذاكرة مرة والتقنيات الروائية مرة أخرى، كي تبني صرحا ناطقا لذات تلاشت ثم غابت في اللانهائي لتعود إلى دائرة الوجود المفتوحة ”تقرع ناقوسها في فراغ الوجود من جديد، مثلما عادت إلى رؤوسنا التساؤلات الكثيرة لتطرح نفسها، أهمها، لماذا رحلت الآن بالذات، ولماذا لم تنتظر قليلا؟“.

نفس حزينة

كيف يتسنى لروائية -هي في الآن أمّ- أن تسرد حياة ولدها البكر بعد أن غادر الحياة، وهو في اكتمال شبابه وحيوية حضوره الطاغي في ذاكرتها كطيف نقيّ من الأدران الأرضية التي كانت تحيط به أو حين يقوم بها؟ كيف لها أن تتجرد من حزنها المقيم وتجعل ابنها (باسم) شخصية روائية، تحتمل التألق والذبول، وتطالها الرذيلة أو تكتنفها فضيلة من نوع خاص، أتأمل قدرة كاتبة واعية لحزنها المقيم أن تحيل سرد حياتها الخاصة إلى سرد روائي يحتمل الخيال الروائي في كذبه وصدقه، في ما يطاله من خيال وما يكتنفه من غموض وتداعيات ورغبات غير بريئة !

بداية مهدت الروائية دينا سليم للحدث الطارئ -الموت- الذي سيطرق باب بيتها بإحساس مرهف ومخاوف تغلف النفس، تتحرى كل حركة أو صوت غريب أو أيّ تغيير مهما كان صغيرا، وهو يتضخم في قرارة النفس كهاجس بقدوم كارثة، وخلال ذلك ينمو إحساسها ”أحسست بروحك تحوم في البيت، روحك حلت دون أن تطرق الباب ولم تقف على عتبة الدار، وكما في كل مرة نظرت خلفي، لكي أحظى برؤيتك“، كان ذلك قبل يوم من عيد ميلادها، ثم يأتي سقوط الساعة الجدارية التي أهداها لها في عيد ميلادها وتهشّمها علامة دالة على الموت الذي يتربص بابنها المريض. ولا تكتفي الروائية بأحاسيس الأم/الساردة عشية الرحيل الأبدي لابنها بل تعمد إلى افتراض انتشار هاجسها في أجواء المدينة، ليصل إلى (بيضاء) و(دجانة) المسؤولتين عن تغسيل وتكفين جثث الموتى وإقامة العزاء والندب، وهما تحضران عدتهما لاستقبال جثة الابن المريض .

تقييد سلطة الموت

في معظم الروايات السيرية، يتسيد ضمير الأنا في سرد تفاصيل الرواية، لتبدو التفاصيل تعبيرا عن حياة خاصة، وتظهر الأسئلة والحوارات وكأنها تعبير عن هذه الحياة، مما يكسب الرواية صدقا فنيا، يسمح لكاتبها إيصال أفكاره وتساؤلاته دون رقيب أو تشكيك. وفي هذه الرواية استثمار واع للتفاصيل السيرية، فالكاتبة تغادر حزنها المقيم، وهواجسها نحو عالم روايتها التي تريد منه هدّ جدار الصمت، وبناء حياة مفعمة بالأمل، حياة تستعيد فيها حياة ابنها باسم، وتتويج حضوره بتلك الحوارات الكثيرة معه، مرة بالحوار المباشر وأخرى باعتباره مرويا له، يستمع لتداعيات ذاتها ونداءاتها لتأجيل الرحيل ثم بالوصف الدقيق المسهب لمراحل مرضه، وتحولات شخصيته حين تلقي ضوءا كاشفا على معاناته، وتمرده على مرضه وأطبائه، وأيضا وهو يمر بأدوار المرض، بالتزامن مع معاناة الأمّ وهي تضحّي بكل شيء من أجله ومن أجل عائلتها الكبيرة،





سمان خوام

حين تهجر وطنها فلسطين تجاه وطن جديد سترى فيه رعاية واحتضان من نوع فريد وهي إذ تسهب في سرد معاناتها من خلال تضحياتها، فهي تسجل صورة مفعمة بالإيثار والحب والشفقة النادرة .

والروائية في سعيها إلى كتابة رواية، تكثف سيرة حياتها الممتدة على زمن طويل، وتركز الكثير من تفاصيلها على علاقتها بابنها ومرضه ومن أجل إدامة ذلك تلجأ إلى تنويع وجهات النظر في روايتها هذه، بتشكيلة من الضمائر التي تناسب سرد أحداثها، كضمير الغائب، وضمير المخاطب وضمير الأنا، بالتناغم مع فصول الرواية ومنعطفات أحداثها وحواراتها. يضاف إلى ذلك دخول صوت باسم إلى السرد من خلال مذكراته التي يتحدث فيها عن حوادث أخرى من وجهة نظره ويسجل فيها آلام أمه وحزنها عليه ومكابداتها مع والده القاسي .

وتكشف الحوارات الطويلة بين الساردة وباسم، صراعا خفيا بين جيلين، أحدهما -الأم- يحرص على بقاء نظام العائلة، بالعناية والتضحية في سبيلها، والثاني يتبنى الفوضى، والتمرد على قوانين العائلة بالشكل الذي يمجد الفردية وسيادة صوت الذات وتمركزها على نفسها، وبهذا المعنى، تدشن السيرة موقفين من الحياة كل موقف يحمل تساؤلاته وخبرته في حياة عاشها وخبر منعطفاتها، وفي هذا المجال حرصت الروائية على إدامة هذا الصراع الخفي، وغذته بما يبقيه صراعا لا يحتمل التصالح .

من جانب آخر طورت الروائية صوتا ثالثا، إلى جانب الصوتين المتصارعين، يتعلق بالأجواء الصحية التي كرسها الوصف والتعليق لبيئة المنفى: الطبيعة الخلابة في أستراليا، والأنظمة والقوانين العادلة التي تكفل حرية الإنسان وتسمح له بالاحتفاء بذاته ضمن قوانين احترام الآخر وحريته وحياته الخاصة، وكل ذلك أعطى الرواية توجها إنسانيا، وشفافية عالية كسرت أفق الإحزان والندب والانكسار، تجاه حياة نابضة بالحركة والتغيير لا تتوقف عند الهواجس والأحزان الخاصة، ولا تكرس العزلة والانكفاء على الذات، بل تدعو إلى الانغمار في تيار الحياة البهيج الجارف لكل شيء.

استطاعت الروائية دينا سليم أن تستثمر سيرتها الذاتية لتكتب رواية مشبعة بالأحاسيس والأفكار والحوارات المثمرة، وبناء الشخصيات القوية المؤثرة كشخصية الأم وشخصية باسم وشخصية الأب الأناني الذي يمتثل لرغباته ومتعته فقط، إضافة إلى الشخصيات الثانوية التي أعطت الرواية انعطافة نحو الشفافية والإنسانية العذبة كشخصية الراهبة دي لورد التي "كانت أول من انتشلني من حيرتي، وأوفى من ساهم بترميم قلبي المجروح، ساندتني عندما أمضيت وحيدة لا ألوي على شيء سوى التفكير بعدم العودة"، وشخصية هيلينا عازفة البيانو التي تعزف للمرضى وهم يعيشون لحظاتهم الأخيرة حتى نهايتهم المحتومة !

وخلال ذلك تخطت الروائية أسوار آلامها وأحزانها العالية لتؤسس عالما من الرحمة والإنسانية والتسامح على أنقاض وقائع القهر والعسف والحرمان التي عاشتها في طفولتها وصباها في مسقط رأسها فلسطين. ولتعيد سيرة حياة ابنها باسم بما يحقق له حياة روائية ورقية خارج جبروت الموت والفناء ■

كاتب من العراق



المختصر

كمال البستاني

الأدب والسياسة

"الأدب والالتزام" لبونوا دوني أستاذ الأدب الفرنسي والفرانكفوني في جامعة لييج ببلجيكا عنوان كتاب يبحث في العلاقة بين الأدب والسياسة من خلال سيرة أدباء القرن العشرين ومواقفهم المعلنة أو المبثوثة في أعمالهم. يلاحظ الكاتب أن كل المراحل شهدت حضور السياسة لدى الأدباء في أشكال متنوعة، تتجدد بتجدد الظروف والمناسبات. ويتساءل لماذا استبد هوس الالتزام بكتّاب القرن العشرين. والجواب أن الحداثة خلعت عن الكتّاب مسألة السياسة كما يقول بودلير، فما عاد الالتزام حقيقة يشترك فيها الجميع، بل صار ظلا لا يندّاح على الأدب برمته. ويتساءل الكاتب أيضا كيف يمكن، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، أن نتصور أدبا غائبا عن الجدل، عاجزا عن الانخراط في حركة التاريخ وفي الزمن الراهن؟ والسؤال الأهم: كيف يمكن للأدب، بما هو متفصّ من السياسة وإكراهاتها، أن يحافظ على خصوصيته واستقلاليته؟

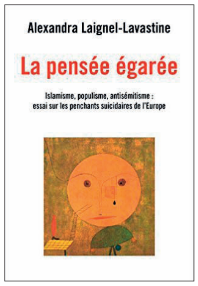
القرية منطلقا للعالمية

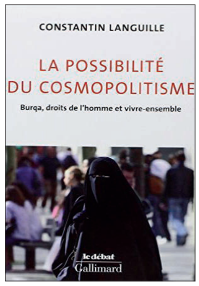
جديد الصيني مو يان، الفائز بجائزة نوبل عام ٢٠١٢، كتاب بعنوان "تجاوز الوطن الأصلي" يضم أربع مقالات، اثنتان كان ألقاهما عام ٢٠٠٠ في الولايات المتحدة، الأولى "الجوع والوحدة منطلقا للإبداع" يسرد فيها بداياته وطفولته البائسة. والثانية "كيف حالك مع فوكنر؟" عن انفتاحه على العالم في أواخر السبعينات عندما بدأت أعماله تترجم إلى اللغات الأجنبية. والثالثة عن لقائه بالياباني كنزابورو أوي المتوّج هو أيضا بنوبل عام ٢٠٠٢، وكان قد زاره في قريته وجرى بينهما حديث طويل عن البدايات وحرفة الأدب ومصادر الإبداع عند كليهما. وأما الأخيرة، التي حملت عنوان الكتاب، فهي عبارة عن بحث كان أنجزه عام ١٩٩٣، يُحِلُّ أدبه وجّدته وعالميته في قريته غاومي بمقاطعة شاندونغ. ولا يدعي مو يان هنا أنه ينظّر للأدب، بل هو في عمله بطريقة براغماتية، ويسرد ذكرياته وكيف استوحى أعماله من طفولته وقريته وتاريخها، ليصوغ من تلك التجربة الإنسانية أعمالا عالمية.

حضارة الأيقونات الزائفة

شهدت الثقافة المعاصرة تحولا سلبيا عميقا، ليس ثمة، فيما يبدو، ما يستطيع أن يقف أمام مسخها وحتى زوال قيمتها. فانتصار صحافة النجوم وشطحات السياسيين وامتهان الفنون والآداب هي أعراض مرض عضال يشخّصه ماريو برغاس يوسا في كتابه "حضارة الفرجة" الصادر مؤخرا

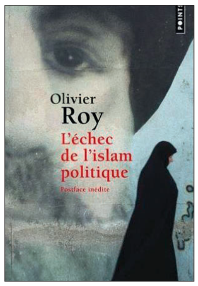




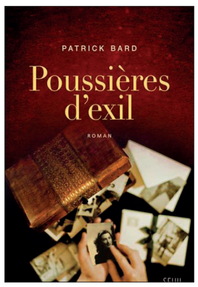


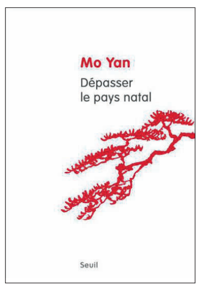


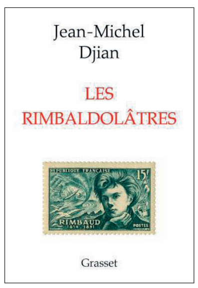




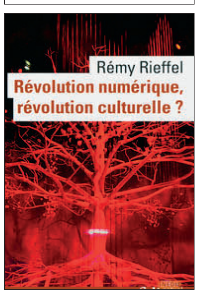














عن دار غاليمار، في تقديس الترفيه وجعله الهدف الأسمى في حياة مجتمعاتنا. لقد كانت الثقافة فيما مضى وسيلة تكوين، حمالة لشروط الوعي والرؤية، في حين أن أوّليّة الفرجة صارت اليوم قاعدة أساسا غرضها الترويج وتلهية الناس عن كل وعي أخلاقي أو ثقافي أو سياسي. وفي رأيه أننا نعيش اليوم عصر الأيقونات الزائفة، وأغذية الذهن الزائلة، والجريمة الأخلاقية، والإبهار الذي يؤدي إلى العمى. وبعد أن يقدم خريطة لبنى السلطة والنفوذ في المجتمعات الغربية، يدق يوسا ناقوس الإنذار، ليحذّر من مخاطر هذه المرحلة المتسمة بالتسيب والانحلال، وينبه مجتمعات تسير بنفسها إلى الهاوية.

المساواة الغائبة بين الجنسين

بعد كتابه "تجربة الميز العنصري"، صدر لإريك ماسي، أستاذ علم الاجتماع بجامعة بوردو كتاب جديد بعنوان "ما بعد البطريركية" لاحظ فيه أن المجتمعات الغربية، برغم تبنيها مبدأ المساواة بين الرجال والنساء، لا تزال تصنع بكيفية جماعية أنماطا أخرى من التفرقة: في الرتب الوظيفية، والأجور، ومشاغل البيت وشؤونه. ويتساءل هل يمكن أن نرى في ذلك شكلا من أشكال إخضاع ماكرة لتكريس هيمنة ذكورية بطريركية توصف عادة كحاضنة أنتروبولوجية لها من السلطة ما يجعل نقدها غير ذي جدوى حتى وإن كان راديكاليا؟ ويقترح إطار تحليل مغاير، بوضع علاقة النوع في أطرها التاريخية والاجتماعية، ليبين كيف أن التوتر بين مبدأ المساواة وصناعة التفاوت يعكس أوجها متعددة لتصالح نوعي وقتي ومتغير يتمثل في "ما بعد البطريركية" الناتجة عن التحولات المتلاحقة للبطريركية وتناقضاتها الداخلية. عندئذ يمكن حل مفارقة المساواة المتفاوتة في المجتمعات الغربية، وفهم أشكال التوافقات الملحوظة في جهات أخرى من العالم.

المفارقة المجنونة

"إنه لأمر مفارق!" عبارة تطلق للتعبير عن المفاجأة والاستغراب والغضب أحيانا، أمام وضعيات تبدو متناقضة أو غير معقولة أو مستعصية على الفهم. من خلال التعابير الغامضة حد التناقض في الخطاب اليومي، يرصد عالما الاجتماع فنسان دو غولجاك وفابيان هانيك في كتابهما "الرأسمالية المفارقة - نظام يدفع إلى الجنون" نشأة هذه "المنظومة المفارقة" وبنيتها. ويستكشفان علائق فرنسة الاقتصاد وتطور الوسائل التكنولوجية الحديثة بهيمنة فكر وضعي ذي غاية نفعية. ويبيّنان كيف أن طرق التسيير الحديثة ووسائل إدارة الأعمال التي تتبعها تضع العمال في مواجهة أوامر مفارقة مستمرة إلى الحد الذي يفقدون معه معنى ما يقومون به. كما يستعرض الكتاب مختلف أشكال المقاومة، وآليات التخلص أو ردود الفعل الدفاعية التي يضعها الأفراد ضدّ هذه المنظومة. فالمفارقة بالنسبة إلى البعض تقود إلى الجنون، فيما يرى فيها البعض الآخر دعوة إلى التجاوز، وابتكار أجوبة جديدة، فرديا وجماعيا.

الخصوصيات والتعايش السلمي

"إمكانية الكوسموبوليتانية، البرقع، حقوق الإنسان والتعايش" عنوان كتاب لقسطنطين لانغي الباحث في العلوم السياسية، يطرح فيه مسألة الكونية على ضوء منع المشرع الفرنسي نقاب فئة من المسلمات منذ عام ٢٠١٠، ويطرح من ورائه مسألة تعدد الثقافات والمثالية الكونية. يتوقف الكاتب عند الجدل الذي أثاره قانون المنع، في الأوساط السياسية والثقافية والإعلامية، ليحلل حيثياته وموقف النخبة السياسية والفكرية منه، ويسجل التناقض بين منطق رجال القانون وبين المنطق السياسي للمشرّع. وفي رأيه أن ذلك التناقض كان له أسوأ الأثر على الحياة المشتركة للمجتمع الفرنسي بكل مكوّناته. فهو مؤشر على عدم قبول الآخر، ورفض عاداته وتقاليده وعقيدته، ويتساءل كيف يمكن التوفيق بين مبادئ القانون وبين الشروط السياسية للتعايش السلمي؟ ويرى أن ذلك ممكن، لأن قانون ١٩٠٥ يحدد صلاحيات الدولة والكنيسة ويترك للفرد حق ممارسة شعائره كما يهوى، في ظل احترام القانون.

هل الحياد ممكن زمن الحرب؟

جديد الكاتب والدبلوماسي جان كريستوف روفان رواية بعنوان "نقطة تفتيش" تروي مغامرة فتاة تدعى "مود" انخرطت ضمن منظمة غير حكومية تقودها إلى البوسنة زمن الحرب، حيث يعهد إليها بقيادة شاحنة رفقة أربعة رجال يبوحون لها تباعا بجراح وجودهم التي تكتموا عليها سنين، في أنفة وكبرياء. مثلما باحوا لها بطبيعة حمولة الشاحنة التي كانت تقودها. من خلال شخصيات قوية مرسومة بدقة، أبدع الكاتب رواية ذات بنية بوليسية ونفس ملحمي وتحليل سيكولوجي عميق. وعبّر عن المعضلات العميقة التي تنخر هذه المرحلة. كيف يمكن الحديث عن حياد الأعمال الإنسانية حين تستعر الحرب في قلب أوروبا وتهدد باشتعالها؟ وأمام مشاهد القتل والدمار والتصفية العرقية، هل يمكن للمرء أن يبقى على حياده ولا يحمل السلاح دفاعا عن المضطهدين والمستضعفين والمشردين؟

نساء يتحدين الموت

"أغبرة المنفى" رواية جديدة لباتريك بار، بطلتها امرأة تعاني من العيش المدقع في أرياف أسبانيا مطلع القرن العشرين، وعند اندلاع الحرب تفرّ إلى فرنسا للعمل في مزارع الكروم دون أن يأتيها المنفى بما كانت تأمل. تقنع زوجها وأبناءها وبنتيها بالعودة إلى بلدها، فتجد نفسها في أتون حرب أهلية مدمرة انتهت بمقتل زوجها وأبنائها، وانتصار قوات فرانكو، ما جعلها تلوذ بالمنفى مرة أخرى صحبة بنتيها عبر جبال البيرينيه، ومنها إلى باريس حيث يتكدس اللاجئون من كل الجنسيات في بيوت وضيعة وأحياء قصديرية، فيعشن الفقر والخصاصة، وتتزوج البنتان وتنجبن. وفي يوم تسلّم الأم ليا لحفيدتها ريبكا علبة أحذية يغير محتواها عيشهن جميعا من حال إلى حال. رواية ملحمية تشيد بشجاعة نسوة تحدين الأوضاع العويصة، وغلبت إرادتهن وحب الحياة لديهن بشاعة البؤس، وفظائع الحرب والموت.

هل الثورة الرقمية ثورة ثقافية؟

هل نحن اليوم أمام الثورة الصناعية الثالثة، بعد ثورة أولى قامت على تطوير الآلة البخارية والسكك الحديدية، وثورة ثانية كان من أهم رموزها استغلال الكهرباء والبترول؟ فالذي يوحدها جميعا وجود شبكات كبرى (سكك حديد، كهرباء، إنترنت)، ومخترعون (جيمس وات وآلته البخارية، توماس إديسون



المختصر

وإمبراطوريته الصناعية، بيل غيتس ومؤسسته ميكروسوفت) ومخيال يعلن عن ولادة بشر جدد. انطلاقا من المجال الثقافي (سينما، تصوير شمسي، كتب، موسيقى، فنون، صحافة، راديو، تلفزة...) يحصر الباحث ريمي رييفال في كتابه "ثورة رقمية، ثورة ثقافية؟" أبعاد هذه الثورة الجديدة في علاقة الفرد مع ذاته ومع الآخرين، وفي الوصول إلى المعارف، وفي علاقتها بالمعلومة والبرهان. هل هي قطع أنتروبولوجي لمجتمعاتنا أو هي تحول جديد في استعمالنا لوسائل الاتصال كما عرفتها الإنسانية عبر تاريخها؟ هل هي تحوّل في السلم أو تحوّل في الطبيعة، في عالم تتصارع فيه قيم التحرر والانفتاح ضد استراتيجيات المراقبة والهيمنة؟

المعبود ومريدوه

يخيّل إلى المرء أن كلّ شيء قيل عن رامبو، سواء في حياته أم في مماته، وقد وضعت حوله مؤلفات من كل صنف. وازدادت الأسطورة توهجا بعد اعتزاله الشعر ورحيله إلى هراري، إذ صار أكبر من شخصية رامبو، وأعظم من شعره، خصوصا في عيون من يسمّيهم جان ميشيل دجيان "عشاق رامبو" -وهو عنوان كتاب صدر له مؤخرا- واستغلوه لخدمة قضاياهم، كذا الكاثوليكيون والسرياليون والثوريون وعازفو الروك وسواهم. في هذا الكتاب يستعرض المؤلف كل أصناف عشاق رامبو ودوافعهم التي تتراوح بين الصدق والرياء، البحث عن الحقيقة وركوب الموجة، السطحية والعمق، ما حاد بالبحوث والمقالات والبرامج عن رامبو الشاعر إلى رامبو متخيل يرسمه كل واحد على مقاسه، بشكل حوّله إلى نجم سينما أو روك ستار وحتى إلى كائن من كوكب آخر. ويكشف الكاتب عن الوجه المجهول لهذه القارة الأدبية العجيبة، متسائلا من الذي يستفيد من الآخر: المعبود أم مريدوه؟

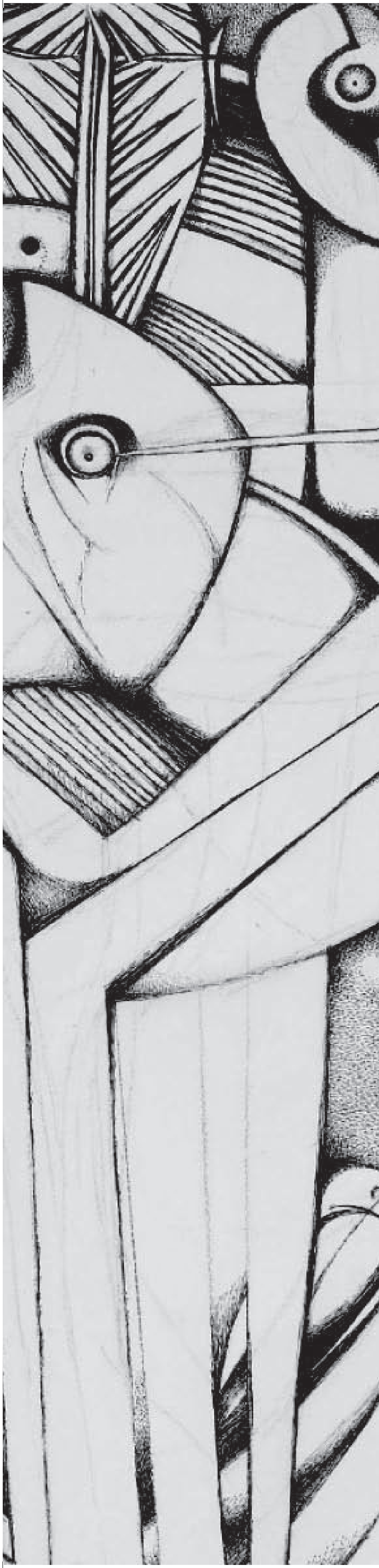
خطر التطرف على أوروبا

"الفكر الضالّ" كتاب للباحثة الفرنسية ألكسندرا لينيل لافاستين تستكشف فيه عشرية اتسمت بما تسميه "خيانة المثقفين"، تلك الفئة التي عجزت في رأيها عن تصور أن الشرّ يمكن أن يأتي أحيانا من معسكر المعذبين في الأرض سابقا، أولئك الذين يوضعون عادة في خانة الخير. وتبين أن جدلهم الذي لا ينتهي للتمييز بين ما هو مقبول سياسيا، وما هو مرفوض سياسيا، أدى إلى فظائع يناير الماضي، وسقوط ضحايا في صحيفة شارلي إيبدو والمتجر اليهودي هيبر كاشير، وساعد في تمهيد الطريق لقارة أوروبية يمينية متطرفة. وفي رأيها أن مواقفهم ساهمت في تعزيز خطرين يهددان أوروبا برمتها: اليمين المتطرف من جهة، والتيارات الإسلامية المتشددة من جهة أخرى، أي عالمين متأزمين يتصارعان في القارة العجوز. وفي رأيها أن أوروبا تسير نحو الكارثة إذا لم تسارع باستعادة ماضيها المستنير، لدرء التطرف أيّا ما يكن مأتاه.

محلل تنبأ بإخفاق الإسلام السياسي

"فشل الإسلام السياسي" كتاب كان أوليفيية روا المتخصص في الإسلام السياسي أصدره عام ١٩٩٢، وناقش فيه مسألة فشل الإسلام كأيديولوجيا سياسية، في وقت كانت الحركات الإسلامية على اختلاف مشاربها وتعدد اتجاهاتها في تزايد مستمر، تتمدد باستمرار من بلاد المغرب العربي إلى جزر إندونيسيا. وقد انطلق في تحليله من كون الأصوليين يتخذون القرآن برنامجا للحكم، ويعتقدون أن في الإمكان بناء مجتمع يقوم على تعاليمه ليفرضوها عن طريق الدولة. وفي رأيه أن التجارب التي مرت بها أفغانستان وإيران تثبت العكس، وتقيم الدليل على أن مفهوم الدولة الإسلامية متناقض وصعب التحقق. بعد أكثر من عشرين عاما تأكد تحليله من خلال إخفاقات الأحزاب الإسلامية التي وصلت إلى الحكم عقب ثورات الربيع العربي. صدر الكتاب في طبعة جديدة مع ملحق بقلم الكاتب لم يسبق نشره، دعا فيه إلى إنعام النظر في مسألة الإسلام السياسي بعيدا عن الحركات المتطرفة التي ظهرت أخيرا في مختلف بقاع العالم الإسلامي، وانتشار العمليات الجهادية في العالم، للوقوف على أبعادها ومنطلقاتها ■

كاتب من لبنان مقيم في باريس



إبراهيم الصلحي





ثقافة الرخيص، ثقافة «القط بسبعة أرواح»

هيثم الزبيدي

في منتصف التسعينات، لاحظ مدربو الطيران في الغرب أن تلاميذ القوة الجوية يتعلمون التحليق والمناورة بسرعة قياسية تفوق الأجيال السابقة بكثير. شيء ما تغير في أدمغة الشباب جعلهم أكثر تأهيلا. انها العاب الفيديو التي كبروا وهم يلعبونها. أصبحوا طيارين "بالفطرة". عقولهم أعادت ترتيب العصيبات الدماغية لتقوم بهذه المهمة. كانوا ايضا أكثر جرأة وإقداما.

في منتصف العقد الأول من الالفية الجديدة تطور الأمر كثيرا. كان تلاميذ التحليق والطيران اللذين لم يعودا حكرا على الطيارين، أفضل من جيل التسعينات. طيارو الطائرات من غير طيار الذين يقودون الطائرات المحلقة فوق افغانستان والعراق واليمن كانوا اكثر براعة. ولكنهم كانوا ايضا منعدمي الاحساس بالخوف. العصبيات الدماغية لم تتغير فقط لتكون أكثر سرعة واستجابة للمشهد البصري الذي توفره الالعاب الالكترونية، إلا أنها منحتهم احساسا بالمنعة من الخطر.

الحياة بالنسبة لهؤلاء من الجيل الأول والثاني لعصر ما بعد الالعاب الالكترونية شيء بسيط. ما ان "تقتل" على شاشة الكمبيوتر او التلفزيون المربوط على جهاز الالعاب، حتى يبادر الجهاز إلى منحك حياة اضافية أو اكثر للاستمرار. عدوك على الشاشة ايضا لا يموت بسهولة. وإذا مات، فانه ينط بعد دقائق واقفا ويطلق النار او يواجهك بسيفه. الحياة اكتسبت معنى جديدا. أنت على شاشة العاب الفيديو "قط بسبعة أرواح".

حياتك رخيصة لأن في جعبتك خزينا من الحيوات. وحياة الأعداء رخيصة لأنهم لا يموتون بل يتجددون. اطلق النار ولا تتردد.

هذا الرخص صار سمة ثقافية حياتية نعيشها. لا احد يحصي عدد "القتلى" على شاشات الالعاب. لا احد يحصي عدد القتلى على شاشات الهجمات الحقيقية التي ينفذها طيارون يجلسون في تامبا في فلوريدا الأميركية في حين أن طائراتهم المسيرة عن بعد تقتل في وزيرستان. بمرور الوقت صار عداد القتل لا يهتم بالتبرير أبدا سواء أكان القتيل عروسا في زفاف أم إرهابيا يفجر نفسه في الآخرين. وكالات الأنباء صارت تورد الأخبار في سياق مبسط وما عادت المؤسسات الاعلامية بأشكالها الورقية والتلفزيونية والالكترونية تهتم بنشر الخبر.

هذه ثقافة خطيرة. عندما نفقد الاحساس بحيوات الناس، ماذا يبقى ذا قيمة؟

هكذا نكون قد رصدنا المشكلة. انها ألعاب الفيديو الملعونة إذن.

هذا لا شك تبسيط مخل. المشكلة أعمق بكثير وتتعلق بثقافة الوفرة والإنتاج وثقافة ابتذال القيمة كذلك.

في الستينات والسبعينات مثلا، كان العريسان يشتريان أثاث المنزل بحرص لأنه سيعيش معهما العمر كله: الثلاجة الأميركية والتلفزيون الهولندي والراديو الياباني والغسالة الالمانية والأثاث المصنع محليا من خشب الصاج أو البلوط. التلفزيون قطعة أثاث مهمة جدا كان يتم تخصيص قطعة قماش مزركشة تغطيه خلال النهار حفاظا عليه من الغبار وترفع عنه عند استخدامه مساء (نعم كان البث التلفزيوني في المساء فقط). الهاتف يوضع على رف عال جدا لكي لا يصله الأطفال. السيارة ثروة عائلية عابرة للأجيال.

في الثمانينات وصل جهاز الفيديو. كان جهازا مثيرا ولكنه كان هشا جدا كثير الاعطال. كان يزور محل تصليح الادوات الالكترونية كثيرا لكنه يعود معززا مكرما. التصليح، للفيديو وغير الفيديو، كان شيئا عاديا جدا ومهنة محترمة. لم نكن نرمي الأشياء. كنا نصلحها ونعتز بها. كان ضروريا أن تبقى "حية".

ثم جاء الانتاج الرخيص القادم من شرق أسيا: هونغ كونغ وسنغافورة وماليزيا واندونيسيا أولا ثم الغولان الصناعيان الصين وكوريا الجنوبية. فقدت الأشياء قيمتها. صار كل شيء رخيصا، بل أرخص. لم يفكر أحد أن يصلح مشغل الاقراص الفيديوية العاطل. كان يرمى. حاول البعض تصليح اجهزة الكمبيوتر. انتهى الأمر بأنك تستبدل الكمبيوتر حتى من دون أن يعطل. هذا كمبيوتر "قديم" رغم ان عمره لا يتجاوز عمر طفل في الروضة. انظر كيف صرنا نتعامل مع الهاتف المحمول. صار عمر الهاتف المحمول "الذكي" سنة لا أكثر، في حين كانت الاجيال الأولى "الغبية" منه تعمر لسنتين. الذكاء مشكلة. صرنا نستبدل السيارات ونرمي الأثاث (نشارة خشب مكبوسة لا قيمة لها) ونغير من تلفزيون الشاشة الكريستال إلى شاشة ال إي دي لأن الأخيرة أكثر بريقا.

هذه الوفرة في كل شيء زحفت على المنتج الثقافي. استبدل التلفزيون الكتاب أولا، ثم غرق التلفزيون نفسه بعدد كبير من القنوات. حيرتنا كبيرة في اختيار مسلسل رمضان المفضل الذي سنتابعه. الفضائيات أمطرتنا برامج منوعة وترفيهية. ما نذكره من الاغاني هو ما تختزنه ذاكرتنا من أيام الراديو أو الكاسيت الذي لا ينفك عن التكرار.

ثقافة الرخص بددت قيمة الأشياء مثلما بددت ثقافة الالعاب الالكترونية قيمة الحياة. يبدو أن من المبالغة افتراض وجود الفرق ■

كاتب من العراق